

ذكر "ملك الملك الصالح

إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن [عماد الدين] (٢)

زنكى بى آق سنقر

ولما توفى نور الدين - رحمه الله - اتفق الأمراء على ملك (٣) ولده الملك الصالح إسماعيل - وهو صغير السن ولم يبلغ الحلم - فأخرجوه بعد وفاة أبيه مجزوز الذوائب (٤) مشقوق الجيب حاسرا (٥) حافيا، ودو يبدى الحزن والعويل، فأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدست (٦)، والتخت (٧) الباقى من عهد تاج الدولة تُش السلجوقى [بالقلمة التى بدمشق] (٢)

ووقف الناس يبكون ويتلهفون، فلما كُفّن نور الدين - رحمه الله - ودُفِن قوضوا الخزع وكفكفوا الدمع، وأحضروا المصحف (٨)، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهر زورى، والأمير شمس الدين محمد بن المقدم، والطواشى

(١) يتقابل النص هنا مع نسخة من فى منتصف (ص ١٥٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن من .

(٣) من : "تملك" .

(٤) الأصل : "الشوايب" والتصحيح عن (س)، والعماد الأصفهاني - وهو الأصل المنقول عنه - انظر : (الروضتين، ج ١، ص ٢٣٠) .

(٥) مكان هذا اللفظ فى من : "مكشوف الرأس" .

(٦) الدست معرب دشت الفارسية ومعناها الصحراء، ولللفظ معان كثيرة أخرى منها : صدر البيت، وهو المقصود هنا فى المتن، وللإلمام بالأماني الأخرى انظر : (الشهاب الخفاجى : شفاء القليل فيما فى كلام العرب من الدخيل، ص ٩٧ - ٩٨) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

(٧) التخت هو سرير الملك أو العرش .

(٨) من (٥٧ ب) : "الأصحاب"، وعند العماد : "الربعة" .

جمال الدين ريمان - وهو من (١) أكبر الخدم - ، والعدل شهاب الدين أبو صالح ابن العجمي أمين (٢) الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة وأنهم لا يختلفون ، وأن تقدمه العسكر للأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك [بن] (٣) المقدم ، وإليه المرجع في الأمور كلها .

وحلفوا للملك الصالح [إسماعيل] (٣) ، واستحلفوا له الناس ، وكتبوا ولائاً لأطراف بالحلف له (٤) ، وإقامة الخطبة باسمه ، واستتبت الأمور واستقرت له القواعد .

ثم تقدموا بإنشاء كتاب (٥) إلى الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - في التعزية بنور الدين ، وكان المنشيء له عماد الدين الكاتب ، والترجمة بخط الملك الصالح ما صورته : " إسماعيل بن محمود " ، وأوله :

" أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ، ندب (٦) الشام بل الإسلام حافظ ثغوره ، وملاحظ أمورهم ، [١٦٨] وعدم الجهاد مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحى سنته ، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريته ، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره ، وما ها هنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج - خذلهم الله - ، وما كان

(١) النص عند العماد - وهو الأصل المقبول عنه - : " وهو أكبر الخدم " ؛ (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٢) س " أمير " ، وما هنا يتفق ونص العماد .

٣ ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) س : " للإيمان " .

(٥) عم صلاح الدين بخبر موت نور الدين قبل أن يصله هذا الخطاب من ابنه ، فأرسل في الحال خطاباً بإنشاء القاضي الفاضل يسأل عن صحة الخبر ، ويصدر تعليماته إذا كان صحيحاً ، انظر نص هذا الخطاب في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٦) س : " بدن " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠) .

اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل (١) والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النوائب ، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللواذب ، وأمله ليومه ولغده (٢) ، ورجاه لنفسه ولولده (٣) ، ومكّنه قوة لمضده ؛ فما فقد - رحمه الله - إلا صورة ، والأصل (٤) باق ، والله تعالى حافظ لبيته (٥) وإق ، وهل غيره - دام سموه - من مؤازر؟ وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر؟ وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمع ، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنی في إحياء ذكر الوالد هناك ، بتجديد ذكرنا ، راضيا في اغتنام ثنائنا وشكرنا (٥) .

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري قد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم - (وهو القيم) بتربية الصالح وأتابكته - ، وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى صلاح الدين والرجوع إلى ما يشير به ، وقال لهم :

” قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر ، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن يُساور في الذي نفعه ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا [ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر] (٧) فلم يوافق هذا القول أغراضهم . وخافوا أن صلاح الدين يدخل البلاد ويخرجهم .

(١) س : ” قال ” ، والأصل : ” الحلال الحادث ” ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٢) الأصل : ” وغده ” و ” وولده ” ، والتصحيح عن العماد .

(٣) نص العماد : ” والمعنى ” .

(٤) الأصل : ” لبيته ” وس ” لنفسه ” وما هنا عن العماد (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٠) .

(٥) بعد هذا اللفظ في س : ” في إحياء ذكرنا ” .

(٦) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٧) ما بين الحاء مرتين زيادة عن س (ص ١٥٨) ويتفق مع نص ابن الأثير ، وهو المرجع الذي

ينقل عنه المؤلف هنا .

ذكر جواب الرسالة

الواردة إلى صلاح الدين من الملك الصالح

ولما وردت الرسالة المتضمنة التعزية إلى صلاح الدين جاس [لعزاء نورالدين ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث] (١) أمر فأقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وضربت السكة باسمه ، وورد منه كتاب إلى الملك الصالح بالمثال الفاضل أوله :

[١٦٩] ” لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (٢) “

وفي آخره :

” فصل : أصدر هذه المكاتبة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالماً بأن الجماعة رحمة .

والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل الإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشيدده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، وييسر مثال (٣) كل أمل صالح وتقريب بعيده ، إن شاء الله تعالى “ .

(١) في الأصل : ” جلس لعزائه وأمر فأقيمت ... إلخ “ وما هنا صيغة من .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١) سطوراً أخرى من هذه الرسالة رأيت من المفيد إثباتها هنا ، وهي : ” وأما العذر - خذله الله - فورااه من الخادم من يطلبه طلب ليل لناه ، وصبر لقراره ، إلى أن يزججه من مجامع ، ويستوقفه عن مواقف مغامره ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه ، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ... إلخ “ .

(٣) س : ” وينشر مثال “ ، والأصل : ” مال “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ،

ذكر استيلاء

سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي على البلاد الخزيرية^(١)

كما ذكرنا أن نورالدين - رحمه الله - قبل وفاته كان قد أرسل إلى الموصل والبلاد الشرقية والجزرية وغيرها يستدعي العساكر لأجل الغزاة ، وأن مراده كان قصد الديار المصرية ، وأن الأقدار عاقته عن بلوغ غرضه ، فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي في عساكر الموصل قاصدا خدمة عمه نور الدين ، وعلى مقدمته سعد الدين كُشْتِكِين ، وهو الذي كان نور الدين جعله نائبا بقلعة الموصل مع سيف الدين - كما تقدم ذكره - ؛ فلما كانوا ببعض الطريق وصلتهم الأخبار بوفاة نور الدين - رحمه الله - فهرب سعد الدين لأنه كان في المقدمة ، وأخذ سيف الدين كلما له من برك^(٢) وغيره ، وعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى الحلبور فملكه وأقطعته ، ثم سار إلى حران فحصرها عدة أيام ، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحراني ، فامتنع بها ، [وأطال الامتناع]^(٣) ، ثم أطاع [بعد ذلك]^(٣) على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه ، وأخذ حران منه .

ثم سار إلى الرها فحصرها وملكها ، وكان بها خادم خصي [أسود]^(٣) لنورالدين ، فسلمها^(٤) ، وأخذ عوضا عنها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر ،

(١) س : " على الجزيرة " .

(٢) البرك المتاع الخاص من ثياب وقاش . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٥٩) ويتفق مع نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) وهو الأصل الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٤) الأصل : " قتلها " ، والتصحيح عن ابن الأثير .

فأعطيا ، ثم أخذت منه ، ثم بعث [سيف الدين]^(١) إلى الرقة من تسلمها ، وكذلك سرّوج ، [١٧٠] وكذلك جميع البلاد الجزيرية ، سوى قلعة جعبر ، لأنها كانت منيعة ، وسوى رأس العين ، لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين - وهو ابن خال سيف الدين - ، فلم يتعرض لها .

وكان بحلب الأمير شمس الدين علي بن الداية - وهو^(٢) من أكبر الأسماء النورية - في عساکر حلب ، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به ، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح ليكون بحلب ، فامتنع شمس الدين بن المقدّم وجماعة الأسماء من إرساله ، خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية ، فإنه كان أكبر الأسماء النورية ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمراها إليهم ، وعساکرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، وإنما قصد [ابن الداية]^(١) من مجيء الملك الصالح إلى حلب ليمنع به البلاد الجزيرية من ابن عمه سيف الدين بن قطب الدين مودود .

ولما ملك سيف الدين البلاد الجزيرية قال له نحر الدين عبد المسيح - وكان قد وصل إليه من سنيواس بعد موت نور الدين ، وهو الذي أقر له الملك بعد أبيه قطب الدين كما تقدم ذكره ، فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك ، فلم يجز ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض الأسماء - ، فقال له :

”الرأى أن تعبر إلى الشام فليس به مانع“ .

فقال له محمود - المعروف بزلقندار -^(٣)

”قد ملكت أكثر ما كان لأبيك ، والمصلحة أن تعود“ .

فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل .

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

(٢) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٣) : ” وهو أكبر “ .

(٣) ص (٥٩ ب) : ” بركفندار “ . وهكذا رسم الامم في الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير)

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ما فعل سيف الدين كتب إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري والأمراء يقول :

”لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى ^(١) هى أعظم مملكه وولاياته ^(٢) ، ولو لم يجعل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى [إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل] ^(٣) كلاً منكم على سوء صديعه فى ترك الذب عن بلاده“ .

ذكر منازلة الفرنج بانياس وعودهم عنها

[١٧١] ولما علم الفرنج وفاة نور الدين - رحمه الله - اجتمعوا وساروا إلى قلعة بانياس وحصروها ، بجمع الأمير شمس الدين بن المقدم العساكر عنده بدمشق ، وخرج منها وراسلهم ولاطفهم ، ثم أغلظ لهم فى القول ، وقال :

”إن أتم صالحتمونا ، وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليه ، وإن أبيتم ذلك ، أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل ، وصلاح الدين صاحب مصر ، ونستنجدهم ، ونطلب بلادكم من جهاتها كلها ، فلا تقومون لنا ، وأتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع“ .

فعلموا صدقهم ، وصالحوهم على شئ من المال أخذوه ، وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين ، وتقررت الهدنة بينهم .

(١) س : ”الذى“ .

(٢) س : ”أعظم مملكته“ .

(٣) ما بين الحاصرين زيادات عن النص فى (الرضنين ، ج ١ ، ص ٢٣١) .

ذكر إنكار

صلاح الدين على الأمرء بدمشق وهدتهم للفرنج^(١)

ولما سمع صلاح الدين - رحمه الله - أمر الهدنة أنكرها واستعظمها ، فكتب إلى الأمرء بدمشق يقبِّح عليهم ما فعلوه ، ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم ، وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح . وكان مراده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ، ليتملك البلاد ، والأمرء [الشاميون]^(٢) إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل .

ذكر وصول

سعد الدين كُشْتِكِين ، واستبداده بتدبير الملك الصالح

كنا ذكرنا هرب الأمير سعد الدين كُشْتِكِين الخادم النائب بقلعة الموصل لما بلغته وفاة نور الدين ، فوصل إلى حلب ، واجتمع بالأمير شمس الدين [على] بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، فأخرج إليه شمس الدين بن المقدم عسكراً فنهبوه^(٣) ، فعاد منهزماً إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية [عوض] ما أخذ منه ، ثم جهزه وسيره [بعسكراً]^(٤) إلى دمشق [ومعه كتب إلى الأمرء]^(٤) ، فدخلها واجتمع [بالأمرء و]^(٤) بخدمة الملك الصالح .

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه : "قال صاحب الكتاب" .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) .

(٣) س (١٦٠) : "قبيه" والأصل "لنبيه" وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٦) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

وذكر عماد الدين الكاتب أن مفارقة سعد الدين لسيف الدين كانت برضى سيف الدين ، وأنه استأذنه في الوصول إلى الشام ، فأذن له فيه ، ولم يكن إذ ذاك علم سيف الدين بوفاة عمه ، وإنما علم سيف الدين مرضه وكتبه ، [١٧٢] فلما فارق سعد الدين سيف الدين ، وسار مرحلتين ، بلغت وفاة عمه نور الدين ، فاعتمد السير مجدا ، ونجا بماله ، وندم سيف الدين على الرضا برحيله وسفره ، وفرح بوفاة عمه نور الدين ، وأظهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات (١) .

ذكر مسير الملك الصالح إلى حلب (٢)

ولما (٣) أشار سعد الدين على الأمراء بوصول الملك الصالح إلى حلب أجابوه إلى ذلك ، وكان شمس الدين بن الداية - كما ذكرنا - بحلب ، وله شيزر إقطاعا من نور الدين ، وعنده أخوه سابق الدين عثمان ، وإقطاعه تل باشر وقاعة جعبر ، وبدر الدين حسن ، وإقطاعه عين تاب وعزاز وغيرهما ، وهؤلاء [أولاد الداية] (٤) كانوا أكبر أمراء نور الدين ، وكان أخوهم مجد الدين أبو بكر رضيع نور الدين ، ورث معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام ، وكان محكما في أيامه ، وتوفي أيام نور الدين - كما ذكرنا - .

وكان هؤلاء - لقربهم من نور الدين وعلو منزلتهم على غيرهم - لا يشكون أنهم هم الذين يقومون بتربية الملك الصالح ، ويكون أمره إليهم ، فكاتب

(١) س : " بالشرب والمنكرات " .

(٢) كذا في الأصل ، وقد أضيف إلى العنوان في س عنوان آخر هو : " والقبض على أولاد الداية " ، وسيرد هذا العنوان هنا منفصلا بعد قليل .

(٣) س : " ولما اجتمع سعد الدين بالأمراء الذين بدمشق أشار عليهم بمسير الملك الصالح إلى حلب - إلخ " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

شمس الدين جماعة الأمراء [بدمشق] (١) بأن يصل الملك الصالح إلى حلب ،
فامتنعوا أولاً ، ثم وصل سعد الدين إلى دمشق — كما ذكرنا — ، وأنفذ (٢)
شمس الدين أخاه سابق الدين عثمان في المعنى ، واتفق الحال على توجيه الملك
الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، ومعه سعد الدين ، والعدل شهاب الدين
أبو صالح بن العجمي ، وإسماعيل الخازن .

ذكر القبض على أولاد الداية

ولما وصلوا إلى حلب قبض على الأمير شمس الدين وأخوته واعتقلوهم ،
وثار أبو الفضل بن الخشاب — مقدم الشيعة (٣) [بحلب] — (٤) ، فقبضوا عليه
وضربوا عنقه ، واستبد سعد الدين بالأمر ، وقام بآتابيكة الملك الصالح ، وأقام
الأمير شمس الدين محمد بن المقدم بدمشق ، وإليه تقدمت العساكر بها ، وجمال الدين
ريحان بالقلعة ، والشَّحْن (٥) من قبله ، ومدبر الدولة القاضي كمال الدين
ابن الشهرزوري .

وكان مسير الملك الصالح من دمشق [إلى حلب] (٤) لسبع بقين من
ذى الحجة [١٧٣] من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) في الأصل : ” رقل ” ، وفي س : ” قد ” وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) الأصل : ” مقدم الأحداث ” ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٣) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٦٠ ب) .

(٥) الأصل : ” والسجن ” وفي س : ” والسجن ” بدون قطع — والتصحيح عن نص العماد

بالروضتين .

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين مسير الملك الصالح إلى حاب ، واستبداد سعد الدين بتدبير أموره ، وقبضه على أولاد الداية ، عظم ذلك عليه وأنكره ، وجعله من أكبر المجهج على قصد الشام ، وأظهر أنه يريد بذلك تربية الملك الصالح والقيام بأموره ، فكان ما سنده إن شاء الله تعالى .

وراسل سعد الدين سيف الدين وصالحه على ما أخذه من البلاد الجزيرية ، فحينئذ استشعر شمس الدين بن المقدم ومن معه من الأمراء ، وكتبوا الملك الناصر صلاح الدين واستدعوه ليملكوه البلاد .

ذكر منازة الفرنج للاسكندرية وعودهم عنها

وفي يوم الأحد لأربع بقين من ذى الحجة سنة تسع وستين ونعمسمائة وصل أسطول^(١) الفرنج بصقلية ، وذلك قبل الظهر من يوم الأحد المذكور ، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر ، وذكر^(٢) أن السبب في إرسال هذا الأسطول

(١) أسطول — وقد يرمم في المراجع العربية : اصطول أو صطول ، واجمع أساطيل ؛ كلمة يونانية الأصل ” στóλος ” وتطلق في اللغة العربية على السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة ، ويقال للجندى الذى يعمل فى الأسطول : ” أسطولى ” ، أنظر : (KINDERMANN : Schiff ; im Arabischen, p. 1) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.) و (ابن خلدون : المقدمة : ص ١٣٨) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٨٢) و (الخطابى : شفاء الغليل ، ص ٣٨ و ١١٩) و (الشيال : معجم السفن العربية) .

(٢) مقابل هذا فى س جملة مضطربة ونصها : ” وذكر وقت إرسال هذا الأسطول من صقلية ما نأخذ كنا . . الخ ” .

من صقلية ما كنا ذكرنا من مكاتبة المصريين لصاحب صقلية (١) وغيرهم من الفرنج ليقتصدوا الديار المصرية ، فسير صاحب صقلية هذا الأسطول ، ولم يعلم أن صلاح الدين قبض على الذين كاتبوه ، ولما وصل هذا الأسطول وكان وصوله بغتة فحى (٢) أهل الثغر البرعائيم ، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور ففعلوا ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستزلوا خيابهم من الطرايد (٣) وراجلهم

(١) هذه الحملة ذيل لتوأمة التي اشترك فيها المصريون والفرنج لإعادة الدولة الفاطمية وكان من رؤوس المتآمرين فيها عمارة اليمنى ، أنظر (الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٤٣ — ٢٥٩) . وكان صاحب صقلية في هذه السنة هو وليام الثاني (William II) ابن وليام الأول بن روجر الأول (Roger I) وهذا الأخير هو مؤسس مملكة النورماندين في صقلية سنة ١١٠٣ م ، والكتب العربية تسمى هذا الحاكم : "غليالم بن غليالم بن رجار مملك صقلية" ، ولم يكن غليالم هذا قد دلم بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين ، فأرسل حملته هذه التي منيت بالفشل . وللإمام بأخبار هذه الحملة وتفصيلها أنظر : (Lane-Poole ; *Saladin*, p. 127) و (Camb. Med. Hist. vol. V, pp. 184-207) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥ — ٥٧) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) و (Runciman : *History of the Crusades*, vol. I, p. 403) و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) .

(٢) الأصل : "حى" والجمع حيج عن نص العماد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٣) الطريدة — ويقال الطراد أو الطراة ، أو التطريدة — والجمع : طرايد وطرايد ، قال (ابن مائق : قوانين الدواوين ، طبعة الدكتور عطية ، ص ٣٣٩ ،) عند التعريف بها : "هي سفينة برسم حل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا" ، والنص في المتن هنا يؤكد هذا المعنى بل ويثبت أن الجولة العادية للطريدة من الخيل تنفق وما ذكره ابن مائق ، وقال (صاحب تاج العروس) "الطراد — ككان — سفينة صغيرة سريعة السير والجرى ، والعامية تقول تطريدة" ، وقال (Dozy) (Supp. Diet. Arab.) : هي نوع من المراكب الحربية أكثر شبيها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل في حمل الخيول والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا ؛ وفي تاريخنا هذا — مفرج الكروب — في حوادث سنة ٦٦٠ هـ ما يثبت أن الطريدة كانت تستعمل أحيانا لركوب الناس ، فقد ذكر أن بيبس أرسل في تلك السنة سفارة إلى ملك التار بركة خان عن طريق البحر المتوسط والإمبراطورية البيزنطية "وركبهم في الطرايد ، وأعطاهم زوادة شهور كثيرة" ، وقد استعمل الأوربيون في العصور الوسطى هذا النوع من السفن ، واشتقوا اسمه عن العربية نسوه في الأسبانية "Tarida" وفي الإيطالية "Tartana" وفي الفرنسية "Tartane" وفي الإنجليزية "Tartan" . أنظر أيضا (KINDERMANN : *op. cit.* pp. 56-59) ؛ ونخطوطنا (معجم السفن العربية) .

من المراكب « وكانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس ، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني^(١) في كل شيني مائة وخمسون راجلا ، وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكان عدة المراكب [الحمالة]^(٢) برسم حمل الأزواد والرجال أربعين مركبا ،

(١) الشيني أو الشاني أو الشينية أو الشونة — والجمع شواني — السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية ، وقال (الزبيدي : تاج العروس) إنها من أصل مصري ، وذكر (ابن عماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) إن الشيني كانت تسير « بمائة وأربعين مجدافا ، وفيها مقاتلة والجدافون » ويبدو أن هذا النوع من السفن كانت تمام فيه الأبراج والقلاع للدفاع عنه كما كانت ترمى منه النار والنفط على العدو . يبدو هذا واضحا في وصف الشاعر ابن حمديس الصقل للشواني ، قال يمدح أبا يحيى الحسن بن علي بن يحيى :

أنشأت شواني طيارة ، ربيت على ماء مدنا
بروج فقال تحسبها — في شم شواقتها — قنا
ترى بروج إن ظهرت لعدو مخرة بطنا
وبنفط أبيض تحسبه ماء ، وبه تذكى السكا
ضمن التوفيق لها ظفرا من دلك عداك ما ضمنا

وبالإضافة إلى المراجع المذكورة في التحشية على لفظ « أسطول » و « طريدة » أنظر أيضا : (البتانوى : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (المقرئى ، اتعاظ الخلفاء ، طبعة الشبال ، ص ١٠٢ هامش ١) . ولاحظ أن المتن هنا يحدد حمولة الشيني في العادة بمائة وخمسين جنديا .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن م (الروضتين) ، والحمالة — والجمع حمالات — هي كما عرفها (ابن عماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠) و (Dozy : Supp. Dict. Arab.) نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول (Vaisseau de Transport) ، وفي (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) ما يدل على أن « الحمالة » كانت تستعمل في حمل الخيل كذلك ، قال : « وفي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) عمر السلطان في مصر أربع حمالات كبار برسم شيل الخيول والأثقال ، وتسع الناس الكثيرة ... الخ » ، وجاء في (خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٩ — ١٤٠) : « ثم إن العمارة تكلمت ، وهي خمس قراير وتسعة عشر غرابا ، وست حمالات برسم الخيول ... الخ » .

وفيهما من الرجال المنفرقة وغلما من الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته^(١) ما يتم خمسين ألف راجل .

ولما تكامل الفرنج نازلين على البر مما يلي البحر والمنازة^(٢) حملوا على المسلمين حملة أوصالهم إلى السور^(٣) وفقد من أهل [١٧٤] الإسكندرية في وقت الحملة ما يناهز سبعمائة نفس^(٤) ، وجذفت^(٥) مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم المسلمون إليها فحسبوا وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما أحرق^(٥) منها ، واتصل القتال إلى المساء^(٦) ، وضرب الفرنج خيامهم بالبر وعدتها ثلاثمائة خيمة ، ولما أصبحوا زاحفوا وضايقوا وحاصروا ، ونصبوا ست^(٧) دبابات بكباشها^(٨) ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة أثرها وعظم حجرها ، وأما الدبابات فأنها تشبه الأبراج في جفاء^(٩) أخشابها وارتفاعها واتساعها وكثرة المقاتلة فيها ، وزحفوا [بها]^(١٠) إلى أن قاربوا السور وبلجوا في القتال عامة النهار .

(١) في الأصل : " ودبابته " وما هنا عن س (٦١ ب) وهو أصح ، ولشرح اللفظ أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) للامام بأخبار المنارة والسور في العصر الإسلامي أنظر : (الشبال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها) .

(٣) س : " رجل " ، وفي (الروضتين) و (السلوك) : " سبعة أنفس " .

(٤) س : " وأحدث " . (٥) س : " ما أحرقوا " .

(٦) س : " المينا " والمتن هو الصحيح .

(٧) س و (الروضتين) : " ثلاث دبابات " .

(٨) الكبش — ويجمع على أكبش وكبوش وكباش — آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان يدفعها الجنود نحو الأسوار لتحطيمها .

(٩) في الأصل : " حقا " وما هنا عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

(١٠) ما بين الحاصرتين عن س .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - نازلا بعسكره على فاقوس ، فلما وصل ^(١) إليه انجبر يوم الثلاثاء ثالث نزول العدو على جناح طائر ، استنهض ^(٢) العسكر إلى الثغرين ^(٣) : الإسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما واحتياطاً ، واستمر القتال ، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أمواج [البحر ، وأهاج الدور] ^(٤) وصبر أهل البلدة ، ولم يكن عندهم من العسكر إلا قليل .

ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم ، وتواصلت الأمداد إليهم .

وفي اليوم الثالث ^(٥) فتح المسلمون باب البلد ، وخرجوا على غفلة ، وركب من كان هناك من الأمراء ، وخرجوا من الأبواب وكثر الصياح من كل جانب ، وتكاثروا على الفرنج ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عنها القتال ، وأنزل الله سبحانه نصره على المسلمين ، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء - وهو رابع يوم نزولهم - وقد فشل الفرنج وقرقت آلاتهم ^(٦) ، واحتقرت آلات قتالهم ، واستمر القتل فيهم ، ودخل المسلمون إلى البلد لقضاء فريضة الصلاة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الهرب ، ثم كبسوهم المسلمون بغتة عند قرب اختلاط الظلام ، فهاجروهم [١٧٥] في خيامهم ، فتسلموها بما فيها وقتلوا من الرجال ما لا يحصى .

(١) س : « فوصل » .

(٢) س : « فاستنصر » .

(٣) س : « الثغرين » .

(٤) ما بين الحاصرين زيادة عن (الروضتين ، ١ ، ص ٢٢٥) وهي زيادة ضرورية لفهم النص .

(٥) س « وفي اليوم الرابع من نزولهم فتح باب البلد ، وخرجوا على غفلة من الفرنج » .

(٦) س « وبقين هناك قبالم » وهذا مسخ الغني يدل على أن كاتب نسخة س كان مجرد ناسخ ،

وأنه كان ينسخ دون فهم في معظم الأحيان .

ولم يسلم من الخيالة إلا من نزع عنه لباسه ورمى نفسه في البحر ، وأخذ الباقون
أخذا باليد ، واقتحم المسلمون البحر على بعض المراكب نحسفوها وأغرقوها ،
وولت بقية المراكب هاربة ، وصار العدو - لعنه الله - بين قتيل وأسير وغريق ؛
واحتفى ثلاثمائة فارس في رأس جبل^(١) ، وأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا
وأخذ المسلمون من الآلات والمتاع والأسلحة ما لا يملك مثله ، وأقلع الأسطول
عن الثغريوم الخميس مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة .

ذكر خروج الكنز^(٢) بالصعيد ومقتله^(٣)

هذا الكنز هو رجل من مقدمي المصريين ، كان قد انتزع إلى أسوان وأقام
بها ، فلم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، وأوهمهم أنه يملك البلاد ،

(١) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) : « تل » .

(٢) كنز الدولة هذا هو نفس كنز الدولة حاكم أسوان المذكور سابقا (مفرج الكروب ، ج ١ ،
ص ٢٢٩ ، هامش ١) والذي أرسل إلى صلاح الدين بنودته بنودته الجند السودانيين الفاطميين
الفارين من الشمال بالصعيد ، مما دفع صلاح الدين إلى إرسال جيوشه لإخضاع هؤلاء النافرين وفتح بلاد
النوبة وشمال السودان ، والكنوز أصلا بن من القبيلة العربية « ربيعة » ، استقروا حول أسوان وفي بلاد
النوبة ، ثم اختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم ، و« كنز الدولة » لقب منحه لأول مرة الخليفة
الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة في عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي
عندما ظفر بالنائر أبي ركة الفار إلى بلاده وأرسله إلى الحاكم ، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب
كنز الدولة هذا المعاصر لصلاح الدين ، قال (المقريزي : البيان والإعراب ، ص ٥٠) : « ولم تزل
الإمارة معهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة ، حتى كان آخرهم كنز الدولة ، قتله الملك العادل
أبو بكر بن أيوب في سبع صفر سنة ٥٧٠ عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ،
وجمع لحربه ، وقتل أخا أبي الهيجا السمين ، ودعا للأمير داود بن العاضد ، وكان قتله على مدينة طود
بعد حروب شديدة » ، وبنو كنز ، أو الكنوز ، هم سلالة هؤلاء العرب بعد اختلاطهم مع النوبيين ، وكانت لهم
السيطرة التامة على الصعيد الأعلى في العصر المملوكي ، ولا زالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم في المنطة الواقعة
بين أسوان وكروسكو » أنظر أيضا : (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة سراي ، ص ٦٠ ب)
و (TRIMINGHAM : Islam in the Sudan, P. 68) و (CASANOVA : Les Derniers Fatimides)

(٣) هذا العنوان غير موجود في س

ويعيد الدولة المصرية كما كانت ، فاجتمع إليه ممن يرى رأى الامماعيلية ويهون^(١) عود الأمر الى أهل القصر خلق عظيم وجمع كثير من السودان ، ولما كثر جمعه^(٢) قصد قوص وأعمالها ، بفرد إليه السلطان الملك الناصر - رحمه الله - جمعا كثيرا من العسكر ، وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، فسار بهم الملك العادل حتى أتى القوم ، وكان الكثر قد فتك بأخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين وبن^(٣) هناك من المنقطعين ، ولما قصده الملك العادل بمن معه من العسكر تداركوا بطود ، وبها أصحاب الكثر ، فاجتمعت عليهم ، فنزلوها ثم ملكوها ، وأبادوا أهلها بالسيف ، ثم صافقوا^(٤) الكثر ومن معه ، فكسر وقتل وأبيد أصحابه قتلا وأسرا ، وانظفت جمة المصريين ولم تقم لهم بعدها قائمة^(٥) .

ذكر مسير

الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام وتملك دمشق

قد ذكرنا إنكار السلطان الملك الناصر - رحمه الله - ما اعتمده الجلاء مع الملك الصالح من القبض على الأمير شمس الدين علي بن الداية وأخوته ،

(١) الأصل : «ويهول» وس (٦٢ ب) : «ويريدوا» ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) س : «جمهم» .

(٣) في الأصل : «ومن» وما هنا صيغة س .

(٤) س : «صافقوا» .

(٥) أشار ابن أبي طى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) إلى ثورة أخرى قامت في طود في نفس الوقت وأخضعها الملك العادل ، قال : «واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذى ، وثار في بلاد قوص ونهبها ونحربها ، وأخذ أموال الناس ، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به وبقتله وفض جموعه وقتله ، ثم قصد بعده كثر الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود ، فقتل أكثر عسكره ، وهرب ، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل ، فقتله» .

وتفريطهم في البلاد ، وبذلهم القطيعة للفرنج من غير أن يبديوا^(١) عذرا
في جهادهم ، وقال :

« أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية^(٢) لعهد والده ، [١٧٦] ولو استمرت
ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد » .

ثم كاتب الأمير شمس الدين بن المقدم برسالة منها :

« إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع^(٣) شياهم وألف^(٤) كتابهم ، والبيت^(٥)
الأتابكي - أعلاه الله - إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضرره وجلب نفعه ، فالوفاء
إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما يظهر أثرها عند تكاثر أطماع^(٥) العداة ، وبالجملة أنا
في ادو الظانين بنا ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولنا بعدنا عنه مراد^(٦) » .

ثم عزم السلطان على المسارعة إلى تلافى الأمر ، فاعترضه أمران : وضول
أسطول صقلية^(٧) إلى الإسكندرية ، والثاني نوبة الكنز^(٧) المقدم ذكره ، فلما
كفى الله شرهما توجه إلى دمشق ، فخرج إلى البركة^(٨) في متهل صفر من هذه

(١) في الأصل وفي س "يلو" ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) في الأصل رس : «دعاية» .

(٣) س : «يجمع وألف» وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٤) في الأصل ، وفي س : «والبيت» وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

(٥) كذا في الأصل وفي الروضتين ، وفي س : «عند تطامع العداة» .

(٦) الخطاب موجز هنا وفي س ، وله في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) نية نصها : «ولا

يقال إن طلب السلاح إنك قاذح ، ولنا ألقى السلاح إنك جارح» .

(٧) أنظر ما فات هنا ص ١١ - ١٧ .

(٨) هي بركة الجب أو بركة الحجاج ، وقد عرفها (المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ -

٢٦٧) بقوله : « هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو يريد منها ، عرفت أولا بجب
عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البرية عند
مسيرهم من القاهرة وعند عودهم ... إلخ » وقد حدد (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ١٦)
موقعها تحديدا أدق ، قال : « بركة الحجاج : قرية موضوعة في الشمال الشرقى للقاهرة بنحو خمس
ساعات ، وفي غربى التربة الاسماعيلية بنحو ستة آلاف متر ، وفي جنوب الخانقاه كذلك ، وفي شرقى
قرية المرج نحو ثلاثة آلاف متر ... إلخ » .

السنة - أعني سنة سبعين وخمسمائة - وقد وردت عليه رسل شمس الدين محمد بن المقدم ، وشمس الدين صديق بن جاولي صاحب بصرى ، يستحثونه على صرعة الحركة .

ثم سار ثالث عشر ربيع الأول على صدر^(١) وأيلة في سبعمائة فارس ، ولما قارب بصرى^(٢) خرج صاحبها صديق بن جاولي إلى لقائه ، فلما رأى قلة من معه قال للقاضي الفاضل :

”ما أرى معكم عسكريا ، وهذا بلد عظيم لا يقصد بهذا العسكر ، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد ، فإن كان معكم مال سهل الأمر“ .
فقال :

”معنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار“ .

فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال :

”هلكتم وأهلكتمونا“ .

وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار .

ثم رحل السلطان من بصرى لست بقين من ربيع الأول ، فلقية ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي ، والأمير سعد الدين بن معين الدين أنز يوم السبت لثلاث بقين من الشهر ، ونزل يوم الأحد بجسر الخشب وتوافت إليه الأجناد والعساكر الدمشقية ، والوجوه والأكابر .

ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الأول ركب [السلطان]^(٣) وساق إلى [٧٧١] دمشق ، فاعترضه دون الدخول جماعة من الرجال يريدون بزعمهم دفعه ، فهزمهم عساكره ، ووصل^(٤) إلى البلد ، ولم يفتق في وجهه

(١) س : « مرخذ » وما هنا هو الصحيح ، وللتعريف بالمدينين انظر : الجزء الأول من مفرج الكروب ، ص ١٣٨

(٢) هكذا ضبطها (باقت : معجم البلدان) وقال هي من أعمال دمشق ، أرهى قصبه كورة حوران .

(٣) ما بين الحاصرتين من ص (١٦٣) . (٤) س : « ودخل البلد » .

باب ، بن كان البلد لم يزل^(١) له ، فدخل دمشق وخرقها ، ووصل الى دار أبيه المعروفة بدار العقيق ، وامتنع جمال الدين ريجان بالقلعة ، وأمر [السلطان]^(٢) فنودي في دمشق بإطابة النفوس وإزالة المكوس ، وأظهر أنه ما جاء^(٣) إلا لتربية الملك الصالح ولد نور الدين ، وأن الملك له ، وهو نائبه ومدبر دولته ، وأبقى الخطبة والسكة باسمه ، وراسل جمال الدين متولى القلعة ، واستماله وبذل له كلما يطلبه ، فأجاب جمال الدين إلى تسليم القلعة ، فتسلمها السلطان على عوض أعطاه [إياه]^(٤) ، وأنزل بالقلعة أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، واستثبت^(٥) أمر السلطان بدمشق^(٥) ، وجاء^(٦) إلى خدمته القاضي كمال الدين بن الشهرزورى ، فوفاه حقه من الإكرام^(٧) ، ونفذت الكتب إلى الديار المصرية بما صناه^(٨) الله تعالى له من هذا الفتح .

(١) س : « كان له » .

(٢) ما بين الحاصرين عن س (١٦٣) .

(٣) الأصل : « إنما جاء » .

(٤) س : « واستتب » .

(٥) في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٦) قطعان من رسالتين بقلم القاضي الفاضل أرسلنا إلى مصر نجلان أبناء فتح دمشق ودخولها ، وبيها تفصيلات هامة فانظرهما هناك .

(٦) في الأصل : « وجال » ، وما هنا عن س ، وهو الأصح .

(٧) لم تكن العلاقات طيبة بين القاضي كمال الدين وصلاح الدين منذ كان يتولى الأخير شحنة دمشق في عهد نور الدين ، ومع هذا فقد قدم كمال الدين المساعدات الممكنة لصلاح الدين لتكميته من الاستيلاء على دمشق ، وقد عرف صلاح الدين للقاضي فضله ، فذهب إلى زيارته في بيته ، روى قصة هذه الزيارة (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٧) قال : « ومشى (أى صلاح الدين) إلى دار كمال الدين ، فارتعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين بجلس وبأسطه ، وقال : يا كمال الدين ، لما كنت في الشحنة قد كانت بيننا هنات ومشاحنات ، — وكان كمال الدين يكرهه ، فكان كل واحد منهما ينتفض على الآخر أحكامه — فقال له صلاح الدين : ما مشيت إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما في قلبك نكرة ، فطب نفسا ، وقرعينا ، فالأمر أمرك ، والبلد بلدك » أنظر أيضا : (نفس المرجع ، ص ٣٤٠)

(٨) كذا في الأصل ، وفي س : « هياه » .

ولما سمع المدبرون للملك الصالح^(١) إسماعيل بن نور الدين - رحمه الله - (١) بملك الملك الناصر دمشق سقط في أيديهم ، وأيقنوا بذهاب البلاد ، فراسلوا سيف الدين غازي بن [قطب الدين]^(٢) مودود بن زنكي صاحب الموصل وأرسلوا إلى السلطان الملك الناصر الأمير قطب الدين ينال^(٣) بن حسّان - صاحب منبج - برسالة فيها غلظ وتعنيف ، وقال للسلطان فيما قاله : « هذه السيوف التي^(٤) ملكتك مصر - وأشار إلى سيفه - تردك ، وعمّا تصديت له تصدك » ، فحلم عنه السلطان وتغافل ، وذكر أنه إنما وصل لترتيب الأمور وتربية الملك الصالح ، وإخراج الأمراء أولاد الداية من الاعتقال ، فقال له قطب الدين :

« أنت تريد الملك لنفسك ، وليس مقصودك غير ذلك ، والمصلحة أنك ترجع من حيث جئت ، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع » ، فأظهر له السلطان التيسم ، ولم يقابله إلا باللين والرفق^(٥) .

(١) ما بين الرقين ساقط من س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٧) ، وهو في س : « عثمان » ، وصيغة الأصل هي الصحيحة ، وقد ذكر صاحب الروضتين هذا الحادث وهذا الحديث قلا عن ابن أبي طي .

(٤) س (٦٣ ب) : « إلى ملكتك » والأصل : « الذي ملكتك » ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

(٥) تكاد تجمع المراجع على أن صلاح الدين كظم غيظه عند سماعه حديث ينال القاسي ، وأنه قابله بالرفق واللين ، إلا أن صاحب مرآة الزمان (ص ٣٢٨) يذكر أن صلاح الدين غضب عند سماع هذا الحديث وقال لينال : « والله لولا أنك رسول لضربت عنقك ، والله ما جئت إلى ها هنا شرها ولا طمعا في الدنيا ، وفي مصر كفاية ، وما جئت إلا لأستنقذ هذا الصبي من يد منك وأمثالك ، فأتم سبب زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد إلى حلب » .

ذكر استيلاء

الملك الناصر على حماة ومدينة حمص

ثم إن السلطان الملك الناصر [صلاح الدين] ^(١) استخلف بدمشق أخاه سيف الإسلام [طُغْتِكِين] ، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى من هذه السنة - أعنى سنة سبعين وخمسمائة - وكانت حمص ، وحماة ، وقلعة بارين ، وسامية ، وتل خالد ، والرَّهَاء ، إقطاعاً للأمرئ نجر الدين [مسعود] ^(٢) بن الزعفراني ، ولم تكن قلعتا حمص وحماة له ، وإنما كان فيهما دُزْدَارَان ^(٣) من قبل نور الدين وكان المرتب بقاعة حماة عز الدين جُرْدِيك ^(٤) - مملوك نور الدين - فلم يمكن نجر الدين بن الزعفراني المقام بمدينة حمص وحماة ، لسوء سيرته في الرعية ، ففارقهما ، فلما نزل السلطان [صلاح الدين] ^(١) على حمص ، وذلك حادى عشر جمادى الأولى ، تسلم المدينة ، وامتنعت القلعة ، فترك بمدينة حمص من يحفظها ، ومنع من بالقاعة من التصرف ، وأن لا يصعد ^(٤) إليهم ميرة .

ثم سار إلى حماة ، فملك المدينة مستهل جمادى الآخرة من السنة ، وراسل الأمير عز الدين جُرْدِيك في تسليم القلعة إليه ، فامتنع عليه ، فأرسل إليه يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح ، وإنما يريد حفظ البلاد عليه ، فاستحلفه جُرْدِيك

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٦٤) .

(٢) س : « دزدارا » ، وللتعريف باللفظ أنظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨ ،

هامش ١) .

(٣) جرديك ، ويرسم أحيانا « جورديك » كان من مماليك نور الدين ، ولهذا يلقب بالنورى ، وكان واحداً من القواد الذين راققوا أسد الدين شيركوه في حملته الأخيرة على مصر ، وكان مشاركاً لصلاح الدين عند القبض على شاور . وسترده بقية أخباره فيما يلي .

(٤) س : « وأن تصعد » ، وما هنا هو الصحيح .

على ذلك ، خلف ، وسيره السلطان رسولا إلى حلب ، يدعوهم إلى اجتماع الكلمة في طاعة الملك الصالح ، وفي إطلاق الأمير شمس الدين علي بن الداية وأخوته من السجن ، فسار إليهم جرديك إلى حلب ، واستخلف بقاعة حماة أخاه^(١) ، ولما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه سعد الدين كُشتكين ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى السلطان الملك الناصر — رحمه الله —

ذكر منازلة

السلطان الملك الناصر حلب ورحيله عنها

ثم مضى السلطان إلى حلب ، وحاصرها لثلاث مضي^(٢) من جمادى الآخرة ، فقاتله أهلها أشد قتال ، وركب الملك الصالح — وهو صبي عمره اثنتا^(٣) عشرة سنة — وجمع أهل البلد ، وقال لهم :

” قد عرقتم إحسان أبي إليكم ، ومحبتة لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا يقيمكم^(٤) ، وقد خان^(٥) هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه ، يأخذ بلادى ، ولا يراقب الله [والخلق^(٦)] “ .

وقال من هذا الكلام كثيرا ، وبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس ، واتفقوا على القتال دونه ، والمنع عن بلاده ، وجدوا في القتال ، فكانوا يخرجون يقاتلون عند جبل جوشن ، (١٧٩) فلم يقدر السلطان على القرب من البلد .

(١) الضمير هنا يعود على « جرديك » ، فالمقصود أخو جرديك .

(٢) س : « بقين » ، وما هنا هو الصحيح ، أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .

(٣) الأصل : « اثنتى » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س (٦٤ ب) : « بيكم » ، وفي الروضتين : « ربيكم » .

(٥) في الأصل « جاء » ، وما هنا عن س والروضتين .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س .

ذكر استنجد

الحلبيين بالملاحدة وقتلهم ناصح الدين نمار تكين

وأرسل سعد الدين كُشْتِكِين إلى سنان^(١) صاحب الإسماعيلية بمصبات^(٢) وقلاعها^(٣). وبذل له أموالا كثيرة ليقتل السلطان، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فعرفهم الأمير ناصح الدين نمار تكين - [صاحب بوقيس وهو جد مظفر الدين]^(٤) صاحب صهيون - وكان مثاغرا^(٥) لهم، فقال لهم: "لاى شىء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول؟"

فجرحوه جراحات مشخنة مات منها - رحمه الله - ، وجاء من يدفع عنه فأنخنوه [أيضا جراحات]^(٦)، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان [صلاح الدين]^(٦) وقد شهر سكينا، فشمله طفرل أمير جاندار بالسيف فقتله، وما قُتل الباقون حتى قتلوا عدة [من الأجناد]^(٦).

ثم كاتب الحلبيون صاحب طرابلس، وكان في أسر نور الدين - رحمه الله - وقد كان أسره^(٧) على حارم، وبقى في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكك ألف أسير، فتوجه بالفرنج إلى حمص، فلما سمع السلطان بذلك رحل عن حصار حلب، وذلك مستهل رجب من هذه السنة - أعنى سنة سبعين وخمسمائة -

(١) للتعريف به أنظر: (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩، هامش ٥). وعن هذا الموضوع راجع أيضا:

(B. Lewis: *Saladin and the Assassins*, B.S.O.A.S. 1953, XV/2).

(٢) للتعريف بها أنظر: (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٨، هامش ٥).

(٣) ص: «وخلانها».

(٤) ما بين الحاصرتين عن ص (٦٤ ب) وهي زيادة ضرورية لإيضاح النص، لأن ناصح الدين

كان صاحباً لبوقيس لا لصهيون، أنظر أيضا: (الروضتين، ج ١، ص ٢٤٠).

(٥) ص: "وكان منازع" وما هنا هو الصحيح، أنظر الروضتين.

(٦) ما بين الحاصرتين عن ص.

(٧) الأصل: "كسره" وما هنا عن ص.

ذكر مراسلة السلطان للديوان العزيز

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء^(١) رسولا إلى الخليفة الإمام المستضيء بنور الله بن المستنجد برسالة فاضلية^(٢) ، تشمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة ، والقيام بخدمة الدولة العباسية ، من جهاد^(٣) العدو في أيام نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد حجة من أطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها ، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج برا وبحرا ، و^(٤) مراكبا وظهرا ، وفتح معاقل لهم من جملتها قلعة كانت بشغرايلة قد بناها العدو في بحر الهند المسلوكة منه إلى الحرمين واليمن ، [وغزوا ساحل الحرم]^(٥) ، فسبي منه خلقا ، وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقا ، ففتحت هذه القلعة ، وصارت معقلا لجهاد المسلمين وموتلا للمسافرين^(٦) ، وفيه :

فصل في ذكر أهل مصر :

(١) في س ، وفي (السلوك ، تعليقات الدكتورز بادة قلا عن " بلوشيه " ، ج ١ ، ص ٦)
" أبي المضاء " وفي (ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٩٧) : " أبو المضاء " وصحة الإسم كاملا " شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البلبيكي أبو عبد الله " وذلك قلا عن : (ابن الديني : تاريخه باختصار الذهبي ، نشر الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ ، ص ٢٤١)
(الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٤١) وقد أشرنا فيما سبق (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، هامش ٣) إلى الرواية التي تقول بأن هذا الرجل هو أول من قطع الخطبة للعاقد الفاطمي وخطب للمستضيء العباسي في مصر بأمر صلاح الدين ، وتؤكد المراجع التي ترجمت له أنه حظى بعد ذلك عند صلاح الدين " حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء " . أنظر أيضا : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) .

(٢) أنظر النص الكامل لهذه الرسالة في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٣) .
(٣) النص في س مضطرب غير مفهوم وهو : " من جهاد الدين هو دأبم العدو في أيام نور الدين إلخ " ، ونص الروضتين (ص ٢٤١) : " من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين " .
(٤) هذان اللفظان ساقطان من س .
(٥) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٥) ، وهو متفق مع نص الروضتين .
(٦) جاء في نسخة س بعد هذا اللفظ ما يأتي : " وفي هذه الرسالة فصولا (كذا) يذكر فيها ما تم له في مصر وغيرها ، تركها خوف الإطالة " ثم حذف بعد ذلك هذه المقتبسات من الرسالة الفاضلية التي =

”ووصلنا البلاد وبها أجناد عندهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأمواهم واسعة ، وكتبتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحياة في السرفيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل^(١) ، كلهم أغنام أعجم ، إن هم إلا كالأنعام (١٨٠) لا يعرفون ربا إلا ساكن قصره ، ولا قبله إلا ما يتوجهون إليه من ركنه [وامتثال أمره]^(٢) ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية^(٣) ، موضوعة عنهم الجزية ، ولهم شوكة وشكة ، [وحمة]^(٤) وحمية ، لهم حواش لقصرهم من بين داج تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب العقول^(٥) مخاتله ، ومن كُتِّب تفعل أعلامهم فعل الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر عليها^(٦) الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات^(٦) الضمير ، فكيف

= اقردت بذكرها نسخة ك التي اعتمداها أصلا للنشر ، وقد أورد صاحب الرضتين النص الكامل للرسالة وهي رسالة هامة لأنها تلخص جهود صلاح الدين منذ ولي الوزارة بمصر بعد وفاة عمه إلى هذه السنة (٥٧٠) ، وهذا الفارق مثل واضح من أمثلة كثيرة على أفضلية نسخة ك على نسخة س ، ولتصحح هذه الاقتباسات سنعارضها على الرضتين . وستنشر هذه الرسالة كاملة في ملاحق هذا الجزء .

(١) هذا نص هام لأنه يحدد عدد الجند من السودانين في الجيش المصري في أواخر العصر

الفاطمى .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) دخل الأرمن في الجيش الفاطمي وفي وظائف الدولة منذ ولي بدر الجمالي الوزارة للسنصر . ثم كثر عددهم وزادت شوكتهم وأصبحوا غالبية كبيرة في مصر ، ولم يقتصر الأمر على استخدام المسلمين منهم بل استخدم الأرمن النصارى بعد ذلك ، وخاصة بعد أن ولي بهرام الأرمني الوزارة للخليفة الحافظ ، ولهذا النص هنا أهميته ، لأن المعروف أن الدول الإسلامية في كل العصور لم تكن تستخدم في جيوشها إلا جنودا مسلمين ، وهذا النص يدل على أن الجيش الفاطمي كان به جنود من الأرمن النصارى .

(٤) النص يختلف هنا قليلا عن الرضتين ، فكان هذا اللفظ هناك ”القلوب“ .

(٥) الرضتين : ”تلها“ .

(٦) الرضتين (٢٤٢) : ”تمنع ما يكنه الضمير“ .

بخطوات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم^(١) ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة [جارية] ^(٢) جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر يسمى بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، وتخيفهم تخيف الليالي^(٣) والنهار ، يعجائب^(٤) تدير لا تحملها المساطير ، وغرائب تقدير^(٥) لا تحملها الأساطير^(٦) ، فشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن ، فأخرجناهم من القاهرة^(٦) ، حتى بقي القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وأخفيت دعوته ، وخفت ضلالته ، فهناك تمت لنا إقامة الكلمة والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأعظم الأسود ، وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها^(٧) أيسر من إثم إبقائه ، إلا أنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته“ .

فصل^(٦) : ” وكان باليمن ما علم من [أمر]^(٨) ابن مهدي الضال الملبد ، المبتدع المتمرد^(٩) ، وله آثار في الإسلام وثار طالبه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سب الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل

(١) في الأصل : ” المحارم والفرائض “ ، والتصحيح عن الرضتين .

(٢) زيادة عن (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) الرضتين : ” الليل “ .

(٤) في الأصل : ” وللاعمال العجائب تدبير “ وما هنا عن الرضتين .

(٥) في الأصل : ” تقريب “ وما هنا عن الرضتين .

(٦) قبل هذا اللفظ في الرضتين فقرات طويلة من الرسالة أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٧) في الأصل : ” خبثها “ والتصحيح عن الرضتين .

(٨) ما بين الحاصرتين عن الرضتين .

(٩) في الأصل : ” المترد “ والتصحيح عن الرضتين (٢٤٢) .

ما لا تقر عليه نفس ، ودان ببدعة صعبة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا [المعصومة]^(١) وأجاحتها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها .

فصل : ولنا بالمغرب أثر أغرب ،^(٢) قد ملكنا مما تجاور منه بلادنا بلادا تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا [إليها] عسكرا بعد عسكرا ، رجع بنصر بعد نصر ، من مشاهيرها : برقة ، قفصة ، قسطلية ، توزر ، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله ، سلام الله عليه .

(١٨١) ثم ذكر تشنت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء ،^(٢) ” وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، وساءت السيرة ، وخبثت السريرة “ .

فصل : ”^(٢) وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم نجد العزم لقلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على المسلمين^(٣) نروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة ، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيول مستريحة ، والعساكر كثيرة [الجموع]^(١) .

(٢) وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ، ويد كل مسلم^(٤) تحت برده ، واستنقذنا أسير من المسجد الأقصى ، الذي أسرى الله إليه بعبده “

(١) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .

(٢) قبل هذا اللفظ في الروضتين فقرات أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٣) الروضتين (ص ٢٤٣) : ” على أهل الدين “ .

(٤) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٣) : ” مؤمن “ .

ثم ذكر فيه : "أنه قدم الشام لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالاته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون في ظلمه" (١)

ثم طلب من الخليفة المستضيء بنور الله تقليدا جامعا بمصر، والمغرب ، واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكلما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفه وسيوف عساكره ، ولئن يقيمه من أخ أو ولد من بعده ، تقليدا يتضمن للنعمة تقليدا ، وللدعوة تجديد (١)

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر على قلعتي حمص وبعليك

قد ذكرنا مكاتبة الحلبيين للقومص (٢) صاحب طرابلس ، وقصده حمص ، ولما وصل إليها نازلها ، (٣) وذلك سابع رجب ، وبلغ السلطان ذلك (٤) فرحل عن حلب ، ووصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم واحد ، ثم رحل إلى الرستن ، فلما بلغ الفرنج قربه رحلوا عن حمص ، ووصل إليها السلطان ، وحصرها وضائمتها ، فملكها تسع بقين من شعبان ، ثم سار منها إلى بعليك ، وبها خادم اسمه يمن ، فحصرها السلطان ، فأرسل يمن بطلب الأمان

(١) هذه الفقرة ليست نصا من الخطاب وإنما هي تلخيص له .

(٢) نرج هذا اللفظ في (تفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٣ ، هامش ١) والقومص المذكور هنا هو "الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية" ويلقب في بعض المراجع العربية "بالصنجيلي" وهو تحريف عربي لقبه الفرنسي : (Le Conte Raymond descendant ... de Saint-Agilles).

(٣) النص في ص (١٦٥) مضطرب وهو : "وذلك لما بلغ السلطان ذلك فرحل" .

له ولمن معه ، فأمنهم السلطان . وتسلم القلعة لأربع مصير من شهر رمضان
من هذه السنة - أعني سنة سبعين وخمسةائة - [١٨٢] وامتدحه عماد الدين
الكاتب ، وكان قد اتصل بخدمته وهو نازل على حصص من قصيدة أولها :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام ، وبنور نصرك تشرق الأيام
وبفتح قلعة بعلبك تهذب هدى الممالك ، واستقر الشام
وبكى الحسود دماً ، وثغر الثغر - من فرج بنصرك - للهدى بسام
فتح تسنى في الصيام كأننا - شكراً لما منح الإله - صيام
من ذا يرى في الصوم عيد سعادة حلت لنا ، والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يدا بنوالها سوق الرخاء (١) تقام
فتمل فتحك ، وافتح القدس (٢) الذي بحصوله لفتوحك الإتمام
دمٌ للدي حتى يدوم نظامها ، واسلم ، يمز بنصرك الإسلام

ذكر مناظرة

سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار (٣)

كان السلطان قد كتب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي - صاحب
سنجار - وأطعمه في الملك (٤) لأنه كبير البيت ، فمال إلى السلطان وصار
من جهته ، ولما ملك السلطان دمشق وحصص وحماة وبعليك كتب الحلبيون
إلى سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي - صاحب الموصل - يستنجدونه

(١) كذا في الأصل وفي س ، وفي الروضتين (ج ١ ، ص ٢٤٧) : "الرجاء" .

(٢) كذا في الأصل وفي س (٦٥ ب) ، وفي الروضتين : "واقصد الفتح" .

(٣) س : "صاحب سنجان" .

(٤) س : "البلاد" .

عليه ، وطلبوا منه أن يعبر الفرات ليقصدوا السلطان ، فجمع سيف الدين عساكره ،
وكاتب أخاه عماد الدين زنكي ، وأمره أن ينزل إليه من سنجار بعساكره ، ليجتمعها
على حرب السلطان الملك الناصر ، فامتنع من ذلك ، فجهز أخوه سيف الدين
أخاه عز الدين مستعود بن مودود في عسكر كبير هو معظم عسكره إلى الشام ،
وجعل المقدم على العسكر مع أخيه الأمير عز الدين محمود المعروف بزلفندار^(١) ،
وجعله المدبر للأمر ، وسار سيف الدين بنفسه إلى سنجار ، وحصرها في شهر
رمضان من هذه السنة - أعني سنة سبعين وخمسة - ، وجد في قتالها ،
فامتنع بها أخوه عماد الدين ، وأحسن حفظها والذب عنها ، فبينما هو [كذلك]^(٢)
إذ أتاه الخبر [١٨٣] بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين - كما سنذكره - ،
فصالح حينئذ أخاه ورحل عائدا إلى الموصل .

ذكر كسرة المواصلة بقرون حماة

لما تسلم الملك الناصر - رحمه الله - بعلبك عاد إلى حمص ، ووصل
عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي بعساكر الموصل إلى حلب ،
ومعه عز الدين [محمود الملقب]^(٣) بزلفندار^(٤) ، ثم جاءوا إلى حماة فحصروها ،
وراسلوا السلطان في الصلح ، فقدم السلطان في خوف^(٥) من أصحابه ، بجاءه

(١) س : " بركفندار " وما هنا يتفق والرسم في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٨)
وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٦) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) قال (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٩) : " وكان زلفندار جاهلا بالحروب
والقتال ، غير عالم بتدبيرها ، مع جبن منه ، إلا أنه قد رزق سعادة وقبولا عند سيف الدين " .

(٥) س : " في جماعة " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٨) وهو المرجع
الذي ينقل عنه هنا .

الأمير سعد الدين كُثَيْبِين والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمي وغيرهما .
وتفاوضوا في معنى الصلح ، فأجابهم السلطان إلى أن يرد عليهم الحصون التي
أخذها ، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح متمياً^(١) إليه ، والخطبة والسكة
له ، وأن يرد عليهم كلما أخذ من الخزانة ، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه
وقلة عسكره اشتطوا عليه وطمعوا ، وطلبوا الرحبة وأعمالها ، فقال :

” هي لابن عمي نصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولا صيبيل إلى
الإضرار به “ .

فنفروا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريبا من شيزر ، وجمعوا
العساكر وأظهروا عزمهم على المصاف ، فعدَّ السلطان إلى سفح قرون حماة خيامه ،
ووصل إليه جماعة من العسكر المصري ومعهم عشرة من المقدمين ، منهم أبناء
أخيه : الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وعز الدين فرخ شاه
بن شاهان شاه بن أيوب ، وغيرهم ، ثم كانت الوقعة بين الفريقين تاسع عشر
شهر رمضان من السنة ، فلم يثبت عسكر الموصل ، وانهمزوا لا يلوى أحد على
أحد ، وثبت عز الدين مسعود بعد انهزام أصحابه ، فلما رأى السلطان ثباته قال :
” إما أن هذا أشجع الناس ، وإما أنه لا يعرف الحرب ، “ وأمر أصحابه بالحملة
عليه ، فحماوا فأزالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة عليهم ، وتبعهم السلطان
وعسكره ، حتى جاوز معسكرهم^(٢) ، وغنم كل ما معهم ، وأسر جماعة منهم ،
ثم منَّ عليهم وأطلقهم ، وعادوا منهزمين إلى حلب ، وتبعهم السلطان بنيسة
المحاصرة لحلب والمنازلة لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ،
وأزال اسمه عن السكة في بلاده .

(١) س : ” مؤتمياً “ .

(٢) س : ” بمسكرهم “ .

وفي هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك المظفر

تقي الدين - رحمه الله - :

[١٨٤] لا تُفْنِ من فَرَقِ الْفِرَاقِ الْأُدْمَاءَ ، نهى الشهودُ على الغرامِ المدعى
قلبُ أصابته العيونُ ، ولم يزل - من مسها - بالهاجسات^(١) مُرَوِّعًا
ومن التَّجْبِرِ أنى أبصرته^٢ في ظعنهم ، وسألتُ عنه الأربعا^(٢)
أصبحتُ إذ شيعتهم لثلاثة : صبرى ، وغمضى ، والفؤادُ مشيما
أو ما اتقيتم^(٣) حين رعتم سربه^٤ فيه^(٤) تقي الدينِ ذاك الأروعا
عمر بنُ شاهنشاه من هو عامر^(٥) أركانَ ملكِ الشامِ حين تضعضعا
خضع العدوُ وذلَّ بعد تعزُّزِ لكم ، وحقِ عدوكم أن يخضعا
لبا عصى الأعداءُ بالعاصى جرى بدمائهم طوعا^(٦) سيولا دُفعا

ذكر وقوع الصلح

ثم جاءت الرسل من الحلبيين إلى السلطان يطلبون منه الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك ، واستراد منهم المعرة وكفر طاب ، وانتظم الصلح ، ووقعت الأيمان ، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من السنة .

(١) س (٦٦ ب) : " من مسها ما لها حساب مروعا " ، وهذا دليل على أن كاتب هذه النسخة كان ينقل دون وعى أو فهم لما ينقله ، فهو مجرد ناسخ .

(٢) كذا في الأصل ، وفي س ؛ وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٩) : " الأضلما " ، والقصيدة هناك أكثر أبياتا فاظرها . (٣) س : " لقيتم " .

(٤) س : " فيهم " ، وما هنا يتفق وما في الروضتين .

(٥) س : " من عامر " . وما هنا يتفق وما في الروضتين .

(٦) كذا في الأصل وفي الروضتين ، وفي س : " طولا " .

ووصل إلى حماة فوافته الرسل من جهة الامام المستضى بنور الله أمير المؤمنين .
بالتشريفات السلطانية ، والتقليد بما أراد من الولايات ، وأفاضوا الخلع على
السلطان وأقاربه ، وخصَّ ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بمزيد تفضيل
على أقارب السلطان ، رعاية لحق^(١) والده أسد الدين — رحمه الله تعالى — :

ذكر استيلاء الملك الناصر على بارين

وكان صاحبها الأمير نخر الدين^(٢) مسعود بن علي الزعفراني من عهد نور الدين^(٣) ،
وكان من أكابر الأمراء النورية ، فلما رأى قوة السلطان نزل منها واتصل
بخدمته ، وظن أنه يكرمه ويشاركة في ملكه ، ولا ينفرد عنه بأمر ، كما كان
عند نور الدين ، فلم ير منه شيئاً من ذلك ، ففارقه^(٤) ولم يكن بقي له من إقطاعه
النوري غير بارين ، ونائبه بها^(٥) ، فلما انتظم الصلح بين السلطان والحلبيين ،
وقدم حماة — كما ذكرنا — سار منها إلى بارين وحاصرها ، ونصب عليها
المجانيق ، فسلمت إليه بالأمان ، فلما ملكها عاد إلى حماة ، وأقطعها نخاله
[١٨٥] شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وكان تملك بارين في العشر
الأخير من شوال من هذه السنة .

(١) س : ” لمعنى والده “ .

(٢) الأصل : ” عز الدين “ والتصحيح عن الكامل لابن الأثير والروضتين .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : ” وكانت حماة أيضاً وغيرها ، فأخذت منه ، ولم يكن بقي له إلا

بارين “ وهو استطراد لا داعي لإثباته هنا فقد ذكر ما يدل على معناه هنا بالمتن بعد ثلاثة أسطر .

(٤) مكان هذه الجملة في س : ” ففارقه ومضى وبقى ببارين نائباً له “ .

ذكر استيلاء

ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه على حمص^(١)

وفي هذه السنة - أعني سنة سبعين وخمسمائة - سلم السلطان حمص إلى ابن عمه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى ، وهى كانت إقطاعا لوالده أسد الدين فى أيام نور الدين - كما ذكرنا - فملكها ناصر الدين محمد ، ثم ملكها بعده ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم ملكها بعده ولده الملك المنصور إبراهيم إلى سنة أربع وأربعين وستمائة ، ثم ملكها ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه ، فأخذت منه سنة ست وأربعين وستمائة .

ثم لما ملك التتر الملاعين البلاد الشامية سنة ثمان وخمسين وستمائة أعادوها إلى الملك الأشرف ، ودخل فى طاعتهم ، ثم لما كسر الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى صاحب مصر التتر بعين جالوت وملك الشام قرر الملك الأشرف بها ، فبقيت معه إلى أن توفى الملك الأشرف سنة اثنين وستين وستمائة [فملكها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب مصر]^(٢)

ثم عاد السلطان الملك الناصر - رحمه الله - إلى دمشق ، فدخلها فى آخر شوال ، ثم رحل منها إلى صرج الصفر ، فنزل به إلى آخر السنة .

ودخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة والسلطان بمرج الصفر ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان إليها ، بعد أن اشترط عليهم أمورا التزموها ،

(١) هذا العنوان غير موجود فى ص ، وإنما ربط بين ما قبله وما بعده بلفظ : " قال " .

(٢) ما بين الحادرتين زيادات عن ص (٦٧ب) وهذا استطراد التزمه ابن واصل فى كتابه هذا ، فهو كلما عرض لذكر مدينة من مدن الشام الكبرى - وخاصة تلك المدن التى كانت مقر الإقطاع فى تلك العصور - تتبع الأسرة الحاكمة لها إلى قبيل الوقت الذى يؤلف فيه كتابه . وهذا الاستطراد أخيرا يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وكان الشام مجدبا ، فأذن السلطان للمساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم ،
وإذا استغلوها^(١) رجعوا إليه .

ثم رجع السلطان إلى دمشق ، وواظب الجلوس في دار العدل ، والصيد ،
ومدحه كاتبه عماد الدين بقصيدة أولها :

سواك لسهم^(٢) العلى لن^(٣) يرشنا
من الناس بالبر صيدت الكرا
وكم سرت^(٤) من مصر نحو العري
سراياك تبعت قدامها
[١٨٦] ويوم حماة تركت العدا
ة ، كما طردت^(٥) بالفلا الريح ريشنا
فنسأل رب العلى أن تعيشنا
م ، وبالباس في البر صيدت الوحوشا
ش ، فهدمت للمشركين العروشا
- من الرعب ، نحو الأعدى - جيوشا

ذكر اجتماع

الحلبين والمواصلة لحرب السلطان الملك الناصر ثانيا

لما انتظم الصلح بين السلطان والحلبين ، وسمع بذلك سيف الدين غازي
ابن مودود - صاحب الموصل - عتب على الحلبيين ، ووبخهم ونسبهم
إلى العجلة في ذلك [وإلى الضعف]^(٦) ، وسلوك غير طريق الحزم ، وحملهم
على النقض والنكث ، وأنفذ إليهم من أخذ عليهم المواثيق ، ثم توجه ذلك
الرسول إلى دمشق ، ليأخذ لسيف الدين من السلطان عهدا ، ويكشف أيضا

(١) س : " وإذا استغفروهم " . وما هنا يتفق ونص العماد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢)

(٢) كذا في الأصل وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢) ؛ وفي س : " سهم " .

(٣) في الأصل ، وفي س : " أن " وما هنا عن الروضتين .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : " قرت " .

(٥) كذا في الأصل وفي س ، وفي الروضتين : " طيرت " .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (٦٧ ب) .

ما عنده ، فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة اليمين^(١) ، فغلط الرسول وأخرج من كه يمين الحلبيين لسيف الدين ، وناولها له ، فتأملها وأخفى^(٢) سره ، واطلم على ما اتفقوا عليه وردها إليه ، وقال : ” لعلها قد تبدلت “ ، فعرف الرسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافى الفارط منه ، وقال السلطان : ” كيف حلف الحلبيون لسيف الدين ، ومن شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمرا إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم ؟ “ ، وتحقق أنهم على نقض العهد .

وشاع الخبر عنهم بالخروج في الربيع ، فكتب السلطان إلى نائبه بمصر ، وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، يعلمه بذلك ، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد والخروج في شعبان .

وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين — كما ذكرنا — وعاد^(٣) عن سنجار إلى الموصل ، وجمع العساكر وأنفق فيهم الأموال ، واستنجد بصاحب الحصن وصاحب ماردين وغيرهما ، ثم سار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة ، وأقام بها حتى انسلخ الشتاء ، ثم سار متوجها إلى حلب ، فعبر الفرات من البيرة ، وخيم على الجانب الغربي ، وراسل الحلبيين ، واستقرت القاعدة أنه يصل إليهم ، وذلك بعد^(٤) رسول سعد الدين كمشتكين^(٣) إليه ، ومراجعات كثيرة وقعت بينهم عزم على العود منها مرارا ، ثم سار ووصل إلى حلب ، فخرج إليه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين — رحمهما الله — فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمه إليه وبكى^(٤) ، ثم أمره بالعودة إلى القلعة ، فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب يخرجون إلى خدمته كل يوم ، وصعد إلى القلعة جريدة ، وأكل فيها ، ونزل .

(١) س : ” فلما خلا به أراد أن يخرج له نسخة اليمين “ .

(٢) الأصل : ” وأخفا “ .

(٣) هذا اللفظ ساقط من س .

(٤) الأصل : ” وبكا “ .

ذكر الواقعة بتل السلطان

ووصلت من مصر العساكر [١٨٧] إلى السلطان الملك الناصر ، فسار بهم متوجها إلى حلب ، فوصل حماة ، ثم رحل منها إلى مرج أبو قيس ، وجاء الخبر أن الحلبيين والمواصلة في عشرين ألف فارس سوى سوادهم ، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة ، وأمدادهم متواصلة ، ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف فارس ، فرتب السلطان عسكره ، وأطلق الحلبيون من في الأسر من ملوك الفرنج ، منهم : أرناط^(١) برنس صاحب الكرك ، وجوسلين^(٢) خال الملك ، وقرروا معهم المساعدة لهم ، ورحل سيف الدين بالعساكر إلى تل السلطان .

وبلغ السلطان الملك الناصر الخبر وقد عيد عيد الفطر ، فعبر العاصي عند شيزر ، ورتب العسكر ، وأعاد الأتقال إلى حماة ، ثم سار حتى أتى قرون حماة ، فبلغ الحلبيين أنه قد قارب عسكرهم ، فأخرجوا اليزك^(٣) ، ووجهوا من يكشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب^(٤) التركان ، وتفرق عسكره لسقى خيله ، ولو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، لكن صبروا عليه

(١) هكذا ترسمه المراجع العربية وهو (Le Prince Arnould Seigneur de Carac) وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام : (Renaud de Chatillon)
(٢) س : " وابن جوسلين بن خال الملك " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

وهو (Goscelin III of Courtenay, titular Count of Edessa) جوسلين الثالث من كورتيني الأمير الأسمى للرها ، وكان مجيئا في حلب فأطلق سراحه كما بالمتن هنا . أنظر أخباره في (RUNCIMEN : A History of the Crusades, Vol. 2 pp. 405-407,-408 etc.)

(٣) اليزك لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

(٤) كذا في الأصل وفي الروضتين . وفي (اللسان) : الجباب الركابا تحفر ينصب فيها العنب أي

يفرس فيها كما يحفر للفيلة من النخل .

حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا للقتال ، وذلك يوم الأربعاء التاسع من شوال من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة —

ثم وصل السلطان إلى تل السلطان العصر ، وقد تعب هو وعسكره وعطشوا ، فالتقوا نفوسهم إلى الأرض ليس بهم حركة ، فأشار على سيف الدين جماعة من أصحابه بقتالهم على هذا الحال ، فقال بزلقندار :

” ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجى هذه الساعة ، غدا بكرة نأخذهم كلهم “

فتركوا القتال إلى الغد ، فلما أصبحوا يوم الخميس اصطفوا للقتال ، وكان في ميمنة^(١) سيف الدين مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوجك — صاحب إربل — ، فكسر مبصرة^(٢) السلطان ، ثم حمل السلطان بنفسه فانكسروا بين يديه ، فلم يقف منهم أحد على أحد ، فأسر جماعة من أمراءهم الأكابر ، منهم نحر الدين عبد المسيح ، فمز عليهم وأطلقهم ، واستولى السلطان على جميع مخيمهم وسرادق^(٣) سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاہ .

ثم ركض السلطان وراء سيف الدين فلم يدركه ، فعاد وخلع على [بقية]^(٤) الأمراء المأسورين ، ومن عليهم ، ونزل في السرادق [١٨٨] السيفى قسماً به بخزائنه واصطبلاته ، ومطابجه^(٥) ، ففرقها جميعاً ، ورأى في السرادق طيوراً من القمارى والبلابل والهزارات^(٦) والبيغاء فى الأقفاص ، فاستدعى السلطان

(١) الأصل : ” مبصرة “ والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٤١) .

(٢) س : ” ميمنة “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٣) س : ” وهرب سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاہ فاستولى السلطان على سرادقهم “ .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩) .

(٥) الأصل : ” ومطابجه “ ، وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

(٦) الأصل : ” والفرارات “ والتصحيح عن س والعماد .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩ — ب) .

مظفر [الدين] (١) الأقرع ، - وهو أحد ندماء سيف الدين - (٢) ، فقال له :
” خذ هذه الأقفاص ، واذهب بها إلى سيف الدين ، وسلم عليه عنا ،
وقل له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهي أسلم لك عاقبة من الحرب “ (٣)
ووصل سيف الدين ومن معه [ركضا] (٤) إلى حلب ، وترك بها أخاه
عز الدين مسعود في جمع من العسكر وعاد إلى الموصل وهو لا يصدق بالنجاة ؛
[وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال] ، (٤) ولم يقتل في هذا
المصاف مع كثيره إلا رجل واحد .

ولما وصل سيف الدين الموصل استشار وزيره جلال الدين ، ومجاهد الدين
قايماز ، في مفارقة الموصل والاعتصام بقاعة عقر الحميدية ، فقال له مجاهد الدين :
” أرأيت إن ملكت الموصل عليك أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل ؟ “
فقال : ” لا “ ، فقال : ” برج في الفصيل خير من العقر “ .

وما زال الملوك منهزمين ، ويعاودوا في الحرب ، واتفق هو والوزير على شد أزره ،
وتقوية قلبه [فأقام مكانه ، ووصل إليه أخوه عز الدين بمن اجتمع إليه من العسكر
المنهزم ، وتراجعت بقية العساكر إلى الموصل ، والحاليون إلى بلادهم] (٤) وغلظ
ابن الأثير في تاريخه ما ذكره عماد الدين في البرق [الشامى] : وهو أن عسكر
سيف الدين في هذه الواقعة كان عشرين ألف فارس .

وقال : ” عسكر الملك الناصر صلاح الدين لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف
فارس “ .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩) .

(٢) س : ” ومن أخذ بدمام سيف الدين “ .

(٣) أضاف ابن أبي طى (الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٥) قوله : ” ووجد السلطان عسكر الموصل
كالخانة من كثرة الخمر والبراط والعبدان والجنوك والمنغين والمنغيات . . . واشتهر أنه كان مع سيف
الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية “ .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٩ ث ب) .

قال [ابن الأثير] : " إني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر في المصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية (١) وغير ذلك ، وكان المتولى لذلك والكاآب له أخى مجد الدين أبى السعادات المبارك ، قال : " وإنما قصد عماد الدين فى تاريخه تنظيم صاحبه ، وأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا ، والحق أحق أن يتبع " .

ولما كسر السلطان الملك الناصر المواسلة والحلبين هنا عماد الدين بقصيدة منها :

فألهدُّ لله الذى إفضالهُ حلوُ الجنا ، عالى السنا ، وضاحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه فى إيلٍ ويلٍ قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه فى قبضة البازى ، فهيض (٢) جناحه
[١٨٩] حمل السلاح إلى القتال ، ومادرى أن الذى يحنى عليه سلاحه
أضحى يريد مواصله صدوده ، وغدا يُعيد رثاه مداحه
إن أفسد الدين العداة (٣) بختهم ، (٤) فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما فيهم ، فلاح كما رأيت فلاحه
فكأنى بالساحل الأقصى ، وقد ساحت يبحر (٥) دم الفرنجة ساحه

(١) س (٦٩ ب) : " رجناحين " وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٦٢) ، والجاليش أصلا معناها الراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت على مقدمة القلب فى الجيش أو على الطلبة منه . أنظر تعليقات الدكتور زيادة فى (السلوك ، ١ ، ص ٦٢٨ ج ٦٩٢) .

(٢) فى الأصل : " مبيض " ، وما هنا عن الروضين ، وفى س : " قصص " .

(٣) كذا فى الأصل وفى س ؛ وفى الروضين : " الغلاة " ؛ وفى (العباد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨) : " العصاة " .

(٤) الأصل : " بختهم " ، والصحيح عن الخريدة والروضين .

(٥) الأصل : " بخر " وما هنا رواية الخريدة ، والقصيدة فى الخريدة كثيرة الأبيات ، فراجعها هناك .

فأعبر إلى القومِ الفراتَ ليشربوا الـ
لِتَفْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَهْنَ الرُّهَا
وابغوا لِحُرَّانَ الخِلاصَ ، فكم بها
نَجَّوْا البِلَادَ مِنَ البَلَاءِ بِعَدْلِكُمْ ،
واستفجِحوا ما كان من مُسْتَفْجِئِي
أَنتُمْ رِجَالُ الدَّهْرِ ، بَلْ فِرْسَانُهُ ،
فُتَاكُهُ ، نُسَاكُهُ ، ضُرَارُهُ ،
وأبو المظفرِ يوسفُ مِطْعَامُهُ ،
وإذا انتدى في مَحْفَلِي فَخِيهِ ،
موتَ الأَجَاجَ ، فقد طمأَمَاحُهُ (١)
عَجَلًا ، وَيَدْرِكُ لَيْلَهَا إِصْبَاحُهُ
حَرَّاتُ قَابِ نَحْوِكُمْ مُتَّاحُهُ
فَالظُّلْمُ بَادٍ فِي الجَمِيعِ صِرَاحُهُ
مِنْهَا ، فَرُبُّكُمْ (٢) لَهُ فَتَاحُهُ
وَلذِي (٣) الحُلُومِ الطَّائِشَاتِ رِجَاحُهُ
نَفَّاعُهُ ، مَنَاعُهُ ، مَنَاحُهُ
مِطْعَانُهُ ، مِقْدَامُهُ ، جِجَاحُهُ
وإذا غدا في جَحْفَلِي فَوَاقِحُهُ

ذكر ما فتح السلطان من البلاد بعد الكسرة

ثم صار السلطان إلى بزاعة ، فتسلمها لثمان بقين من شوال من هذه السنة
- أعنى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة - ، ثم فتح منبج ، وكان السلطان حينئذ
على صاحبها قطب الدين بن ينال بن حسان لفظاظته التي قابله بها حين أرسله
الخليون إليه ، فتسلم منه قلعة منبج بما فيها ، فقوم ما كان فيها بستمائة (٤) ألف دينار

(١) كذا في الأصل وفي س ؛ وفي الرضتين : « طفاحه » ، وبهذا البيت تنهى (ص ٦٩ ب)
في نسخة س ، ثم يتبع ذلك سطر كبير في نحو الثلاثين صفحة ، وبذلك تقف المقابلة بين النسختين ،
وسنحاول المقابلة بين الأصل هنا وبين المراجع الأخرى لتقويم النص وتصحيحه .

(٢) الأصل : « فرأيكم » ، والتصحيح عن الرضتين .

(٣) في الأصل : « ولذا » ، وما هنا عن الرضتين والخريدة (ج ١ ، ص ٢٢) .

(٤) كذا في الأصل ، وعند العماد وابن أبي طي : (الرضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٧) : « بثلاثمائة

ألف دينار » .

من عين ونقد ومصوغ ومنسوج وغلات وغير ذلك ، وسامه السلطان أن يخدمه
ويرد عليه ماله، فأبى وأنف وكبرت نفسه ، ومضى إلى سيف الدين - صاحب
الموصل - فأقطعه الرقة ، فبقى فيها إلى أن أخذها السلطان منه في سنة [١٩٠]
ثمان وسبعين وخمسمائة .

ولما فتح السلطان منبج قال عماد الدين الأصفهاني :

زورك في منبج على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى وفتحك للرتج^(١)
دليل على نجج^(٢) ما تحاول أو ترتجى
أمورك فيما تزوم واضحة المنهج
وشانك دامي الشؤ ون منك ، شقي شجي
ومن كان في حصنه ومن قبل لم^(٣) يخرج
يقال له : ليس ذا بعشك ، قم فاندج
فرايك يستزل ال نجوم من الأبرج
فجّل عبور الفرا ت ، واسير ، ويسر ، وأدلج
وعج نحو تلك البلا د ، وعن غيرها عرج
فخران والرقتا ن تاليتا منبج
وحل عن المسلم ين ليلهم المدلج

(١) الأصل : « في المرتج » والتصحيح عن الروضتين .

(٢) الأصل : « كما » والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : « ما » وما هنا عن الروضتين .

ذكر استيلاء الملك الناصر على عزاز

وقفز الملاحدة عليه^(١)

ثم سار السلطان إلى أعزاز فحاصرها ثمانية وثلاثين يوما ، وضيق على من بها ونصب عليها المجانيق^(٢) ، وقتل عليها كثير من عسكره .

ولما كانت ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة قفزت الملاحدة على السلطان ، وكانت للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المجانيق ، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات ، ويحرض الرجال على الحرب ، فحضر تلك الليلة والباطنية في زي الأجناد وقوف بين يديه ، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة ، فلولا المغفر^(٣) الزرد كان تحت القلنسوة لقتله ، فأمسك السلطان يد الباطني بيديه ، ولم يقدر على منعه من الضرب بالكلية^(٤) ، فبقي يضربه في عنقه ضربا ضعيفا ، وعلى السلطان كراغند^(٥) ، فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند

(١) يقصد بهم إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين أو الحشيشية ، ولعلمهم يقصدون بهذه المحاولة الثار للدولة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين . وهذه ثاني مرة يحاولون فيها اغتيال صلاح الدين . انظر ما فات هنا ص ٢٤ ، وعن هذا الموضوع راجع أيضا :

(B. Lewis : *Saladin and the Assassins*. B.S.O.A.S. 1953, XV/2).

(٢) أنظر (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٣) المغفر لفظ عربي : وله في (اللسان) جملة تعريفات ، قال : المغفر والمغفرة والغفارة زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وقيل هو روفرر البيضة ، وقيل هو حلق يتنقع به التسلح ، وقيل حلق يجعلها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه ، قيل ورد بما كان المغفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقبها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع ثم يلبس البيضة فوقها ، فذلك المغفر يرفل على العاتقين ، وربما جعل المغفر من ديباج وخز أسفل البيضة .

(٤) الأصل : « من الكلية » وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٢) .

(٥) الكراغند — أو القراغند — (والجمع كراغنديات وقزغنديات) لفظ فارسي معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية ، وكان يصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد ، ويقابله في الفرنسية

Jacquette وفي الإنجليزية Suroost . انظر : (Dozy : *Supp Deit Arab*)

فتقطعه والزررد [١٩١] يمنعها من الوصول إلى رقبتة ، وأدرك السلطان مملوكه سيف الدين بازكوج^(١) فأمسك السكين بكفه ، فجرحه الباطني فلم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني وبضع وقطع ، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان [الكردي] فمنعه ، وجرحه الباطني في جنبه فمات ، وقتل الباطني ، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت إبطيه ، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب ، ونادى [علي] :
” اقتلوني معه فقد قتلتني وأذهب قوتي “ .

فقطعته ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه فقتله، ونخرج آخر من الخيمة منهزما، فثار عليه أهل سوق العسكر فقطعوه .

وركب السلطان إلى خيمته ، وقد ارتاع لهذه الحادثة ، ودمه سايل على خده ، وطوق كراغته مبلول ، واحتجب عن الناس ، واحتاط ، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخركاه^(٢) تازيرا ، وجلس في بيت خشب ، واحترس من الجند فمن أنكره أبعده ، ومن عرفه أقره .

ولازم حصار عزاز ثمانية وثلاثين يوما ، وكان كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب بها ، فاذعن من بها ، وتسلم القاعة حادي عشر ذي الحجة .

(١) الأصل : « ياركوج » وما هنا عن العماد والقاضي الفاضل (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٨)

(٢) الخركاه — والجمع خركارات — لفظ فارسي ، شرحه (Dozy : Supp Dict. Arab.)

بأنه نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من البد .

“ Cette espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois, réunis en forme de conpote, et sur lesquels on étend des pièces de feutre” .

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر لحلب

ووقوع الصلح بينه وبين الحلبيين

ثم رحل السلطان من عزاز ، ونزل على حلب في منتصف ذي الحجة ، وكان سعد الدين كمشيكن قد خرج إلى حصن حارم ، فحبل بينه وبين العمود إلى حلب ، ثم تضرع في الدخول إليهم واحتال ، فتم له ما أراد بالسؤال .

ودخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة والسلطان محاصر حلب ، فراسلوه وتذللوا له ولاذوا بعفوه وصلحه ، فأجابهم إلى الصلح ، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين - رحمه الله - فرق لها وأكرمها وأطلق لها شيئا كثيرا ، وقال لها : " ماتريدن " ؟ فقالت : " أريد قاعة عزاز " - وكانوا قد علموها - فسلمها إليهم ، ثم حلف لهم وحلفوا له ، ودخل في الصلح المواصل وأهل ديار بكر ، وكتب في نسخة اليمين :

" إنه إذا غدر واحد منهم وخرج عن مقتضى اليمين كان الباقيون يدا واحدة عليه " .

ذكر بعض المتجددات

لسيف الدين غازي بالموصل

[١٩٢] وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة استوزر سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي جلال الدين^(١) الوزير ، فظهرت منه كفاية ومعرفة بأمور الدواوين وفضيلة تامة ، وكان عمره لما ولي الوزارة

(١) عرف به (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٤) قال : هو جلال الدين أبو الحسن

ابن جمال الدين محمد بن علي ، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي .

خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين ، فشفع فيه كمال الدين بن بلسان^(١) - وزير صاحب آمد - ، وكان مزوجا لبنته ، فأطلق ، وسار إليه ، وبقى بأمد مدة يسيرة مريضا ، ثم توجه إلى دنيسر ، وتوفي بها ، سنة أربع وسبعين ، وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحاج إلى المدينة فدفن عند والده - رحمه الله -

وفي ذي الحجة سنة إحدى وسبعين استناب سيف الدين غازي بقلعة الموصل مجاهد الدين قايمآز ، ورد إليه جميع الأمور ، وكانت بيده إربل وأعمالها ، على سبيل الأتابكية لزين الدين يوسف بن الأمير زين الدين علي كوچك وهو صغير وكان زين الدين علي كوچك لما توفي ملك ولده مظفر^(٢) الدين [أبو سعيد] كوكبوري ، ثم جرى ما اقتضى نقل الأمر إلى أخيه زين الدين يوسف ، فلم يزل الأمر لزين الدين يوسف إلى أن توفي ، ورجع ملك إربل لمظفر الدين أخيه - على ما سنذكره إن شاء الله تعالى -

ذكر منازلة

الملك الناصر مصياف وبلد الباطنية^(٣)

لما صالح السلطان الحلبيين قصد بلد الباطنية ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه ، وكان رحيله من حلب يوم الجمعة عاشر المحرم سنة اثنين وسبعين وخمسمائة فنازل حصنهم مصياف ، ونصب عليه المجانيق الكبار ، وأوسعهم قتلا وأسرا ،

(١) الأصل : « نيسان » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٠) -

(٢) الأصل : « المظفر » ، وقد صحح الاسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (زامبارو : معجم الأنساب والأسماء الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٤) و (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة إربل) .

(٣) سموا الباطنية لأنهم يفتنون لكل ظاهر باطنا ، ويقولون : الظاهر بمنزلة القشور ، والباطن بمنزلة اللب المطلوب . (محمد بن الحسن الديلمي البغلي : قواعد عقائد آل محمد ، ص ٣٤) . وعن العلاقات بينهم وبين صلاح الدين راجع أيضا :

(B, Lewis: *Saladin and the Assassins. B.S.O.A.O. 1953, XI/3*), & (B, Lewis: *The Sources for the History of Syrian Assassins, Speculum. 1952. XXVII/4*).

ونساق أبقارهم ونحرب ديارهم ، فشفع في القوم خاله شهاب الدين محمود بن تكش
- صاحب حماة - وكانوا قد راسلوه في ذلك - لأنهم جيرانه - ، فرحل عنهم
وقد انتقم منهم .

وكان الفرنج قد غاروا على البقاع ، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك
المعروف بابن المقام ، وكان ببعلبك قد أقطعه السلطان إياها ، فقتل منهم وأسر
أكثر من مائتي أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو محاصر مصياف [١٩٣]
ثم وصل السلطان إلى حماة وقد استكمل الظفر .

اجتماع السلطان

بأخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب

كما قد ذكرنا مسير الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه بن أيوب
إلى بلاد اليمن ، وفي سنة إحدى وسبعين فارق اليمن بعد أن استتاب بها ، وقصد
خدمة أخيه السلطان الملك الناصر ، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة ، ثم رحل
عنها متوجها إلى السلطان فاجتمع به بمدينة حماة ، فتعانقا في الخيم في الميدان ،
وسر السلطان بلبياها سرورا شديدا ، وكان عند مفارقتها اليمن قد كتب
إلى السلطان كتابا ضمنه أبياتا من شعر ابن المنجم^(١) المصري أولها :

الشوق أولع بالقلوب وأوجع ، فعلام أدفع منه مالا يدفع

ومنها :

وحملت من وجد الأحيبة مفردا ما ليس بحمله الأحيبة أجمع
لا يستقر بي الهوى في موضع إلا تقاضاني الترحل موضع

(١) هو نشو الدولة على بن مفرج المنجم . انظر ترجمته في : (العماد : الخريدة ، قم شعراء
مصر ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩) و(السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٦) .

وإلى صلاح الدين أشكو أنني من بعده مضمي الجوانح موجه
جزعاً لبعد الدار عنه ، ولم أكن - لولا هواه - لبعد دار اجزع
فلا ركنٌ إليه متن عزائي ، وينجبُّ بي ركبُ الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طاعة من أفيها صبحُ السعادة يطلع

فكتب إليه السلطان كتاباً ضمنه قصيدة لعاد الدين الكاتب منها :

مولاي شمس الدولة الملك الذي شمسُ السيادة من سناه تطلع
مالي سواك من الحوادث ملجأ ، مالي سواك من النوائب مفزع
ولأنت نخر الدين نخرى في العلا وملاذُ آمالي وركني الأمتع
وبغير قُربك كلما أرجوه من دركِ المنى متعذراً متمنع
النصر إن أقبلت نحوي مقبل ، وإيمن إن أسرعت نحوي مسرع

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها سابع عشر صفر ، وملكها لأخيه
الملك المعظم [١٩٤] شمس الدولة ، وعزم على العود إلى الديار المصرية .

وفي المحرم من هذه السنة - أعني سنة اثنين وسبعين وخمسةائة - توفي
القاضي كمال الدين الشهرزوري ^(١) ، وعمره ثمانون سنة ، وكان في الأيام
النورية إليه قضاء القضاة والتحكيم في الدولة ، وكان السلطان الملك الناصر متولى
الشحنكية ^(٢) بدمشق أيام نور الدين ، فكان كمال الدين يعكس مقاصده ،

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري ، انظر ترجمته في :
(ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ،
صفحات كثيرة منه) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٥٤) و (صبط ابن الجوزي :
مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٧ و ٣٤٠ - ٣٤١) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ،
ص ٢٩٦) و (ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٩ - ٨٠) و (ابن العماد :
مذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣) .

(٢) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧ ، هامش ٥) .

ويكسر أغراضه ، ويعترض عليه في أموره ، لتونى كمال الدين الأحكام الشرعية ؛ فلما صار الملك الناصر إلى ما صار إليه من الملك وافتتح دمشق صار كمال الدين أحد قضاة بلاده ؛ ولم يؤاخذة على ما صدر منه في حقه ، بل أكرمه واحترمه واستشاره وعظمه ، وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزورى قد قصد خدمة السلطان بالديار المصرية في أول ملكه ، فأقطعه وأحسن إليه ، ثم وصل معه إلى الشام ، واستمر في صحبته ، فلما اشتد بعمه كمال الدين المرض أراد أن يبقى القضاء في بيته ، فوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين علما منه أن السلطان يمضى ذلك لأجل قدم هجرته عنده ، ثم توفي والسلطان ناصر حاب وجلس ابن أخيه ضياء الدين في القضاء .

وكان الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون^(١) قد هاجر من حلب إلى السلطان ، وأنزله عنده بدمشق ، وهو رئيس أصحاب الإمام الشافعى - رحمة الله عليه - في وقته ؛ والمقيم بالفتوى في زمانه فأثر السلطان أن يفوض القضاء إليه ، وكره عزل ضياء الدين بن الشهرزورى ، فأفضى بسره إلى القاضى الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري^(٢) يتعصب للشيخ شرف الدين لأنه شيخه ، فاستشعر ضياء الدين - لما بلغه ذلك - من العزل ، وأشير عليه بالاستعفاء ، ففعل ، فأعفى ، وأبقيت عليه الوكالة الشرعية عن السلطان في بيع الأملاك .

ولما استعفى ضياء الدين من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود ، كان ينوب عن كمال الدين ، فأمره السلطان بالاستمرار ، وكان السلطان مائلا إلى بيت زكى الدين [١٩٥] فأمر الشيخ شرف الدين باستنابة

(١) هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن الدر بن عبد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون ابن أبي الدر ، التميمي ، الحديثي ، ثم الموصل . انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩) و (الصغدي : نكت الهميان ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(٢) للتعريف به انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، هامش ٢) .

القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود ، وكتب لهما بالقضاء توقيعاً سلطاني ، فكانا في حكم المستقلين ، وإن كانا في الظاهر نائبين عن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون .

ولم يزل شرف الدين متولياً للقضاء من سنة اثنين وسبعين إلى أن عاد السلطان من مصر ، فتكلم الناس في ذهاب نور بصره ، وأن من يكون أعمى لا يصلح للقضاء ، وفي المسألة وجهان ، واختار شرف الدين وجه الجواز وكأنه الأظهر إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدلين بمن يحضر من الخصوم كما في المترجمين بالنسبة إلى القاضي الأصم ، فأشار القاضي الفاضل (١) على السلطان أن يفوض القضاء إلى ولده محي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين ، ويكون هو الحاكم في الحقيقة ، ويظهر أنه نائب عن أبيه ، بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء ، ففعل السلطان ذلك ، واستمر هذا الأمر إلى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فعرف عن القضاء ، واستقل به القاضي محي الدين بن زكي الدين إلى آخر أيام السلطان الملك الناصر - رحمه الله - .

وفي أواخر صفر من هذه السنة - أعني سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة - تزوج السلطان بمصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين أنر التي كانت زوجة نور الدين - رحمه الله تعالى - .

(١) ذكر ابن خلكان أن شرف الدين هذا صنف بزه الطيفاً في جواز قضاء الأعمى ، ثم علق على هذا الحادث بقوله : « ورأيت في كتاب (الزوائد) تأليف أبي الحسن العمري صاحب كتاب (البيان) وجهاً أنه لا يجوز ، ووقع لي كتاب جيمه بخط السلطان صلاح الدين - رحمه الله تعالى - قد كتبه من دمشق إلى القاضي الفاضل وهو بمصر ، وفيه فصول من جعلها حديث الشيخ شرف الدين المذكور ، وما حصل له من العمى ، وأنه يقول إن قضاء الأعمى جائز ، وإن الفقهاء قالوا : إنه غير جائز ، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف الإسكندراني ، وتدأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى ، هل يجوز أم لا ؟ وبالجملة فلا شك في فضله . وقد ناقش هذه المشكلة (الصفدي) : نكت المهيان ، ص ٦٠ - ٦١) .

ذكر مسير

الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - إلى الديار المصرية

ثم أزمع السلطان العود إلى الديار المصرية بعد أن قرر بدمشق أخاه الملك المعظم ، فتقدمه الأمراء من أصحابه ، والملوك من أهل بيته ، وخرج من دمشق في يوم الجمعة لأربع بقين من ربيع الأول ، والتقاء أخوه ونائبه الملك العادل .

ولما استقر السلطان بداره بالقاهرة أمر ببناء السور^(١) الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراغان بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمي ، وذلك بما فيه من ساحل القاهرة والقاعة بالجبل ، من ذلك : ما بين قاعة المقسم^(٢) التي على

(١) بنى حول القاهرة ثلاثة أسوار : الأول بناه جوهر عند إنشاء القاهرة وأداره على القصر والجامع والمناخ الذي نزل به هو وجنوده ، وكان هذا السور من اللبن ، وقد أدرك المقرئى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ ، والسور الثاني بناه أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٨٠ هـ وزاد فيه الزيادات التي أضيفت إلى القاهرة ، وبنى هذا السور من اللبن أما الأبواب فبنيت من الحجارة ، والسور الثالث - وهو المشار إليه هنا في المتن - ، وبدأ في عمارته السلطان صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ وهو لا يزال وزيرا للعاقد ، وبعد استقلاله بمصر انتدب في سنة ٥٦٩ هـ بهاء الدين قراقوش الأسدي للإشراف على بنائه بحيث يضم بين جنباته القاهرة والقلعة والقسطاط جميعا . انظر الفصل الذي عقده المقرئى للحديث عن سور القاهرة في (المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٩) .

(٢) عرف (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٤ : ص ٥٢) المقس - قلا عن القضاء - بقوله : « المقس كانت ضيعة تعرف بأمر دينين ، وإنما سميت المقس لأن العشار وهو المكس كان فيها يستخرج الأموال ، فقليل له المكس ، ثم قيل المقس » ، وقد حرف اللفظ فيما بعد إلى المقسم كذلك ، وقد علق المرحوم محمد رمزى على هذا بقوله ، « المقس ، والمكس ، والمقسم ، وأمر دينين كلها أسماء مترادفة لقرية كانت واقعة على شاطئ النيل وقت أن كان النيل يجرى في عهد الدولة الفاطمية في المكان الذي يمر فيه اليوم شارع عماد الدين وميدان محطة مصر وما بعده إلى الشمال بشارع الملكة نازلى ، وكان المقس في عهد الدولة الفاطمية مقصورا على قرية المقس التي كانت واقعة في المنطقة التي =

شاطيء النيل وبين البرج بالكوم الأحمر^(١) بساحل مصر [١٩٦] عشرة آلاف وخمسمائة ، وما بين القلعة بالمقسم وحائط قاعة الجبل^(٢) بمسجد سعد الدولة^(٣) ثمانية^(٤) آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط القاعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع وداير القلعة [بالجبل]^(٥) بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع ، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه ، ومن النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل ،^(٦) وذلك بتولى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، فشرع في بناء القاعة وقطع الخندق^(٧) وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه ، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القاعة عليها ، ودخلت في الجملة ، وحفر في رأس الجبل

= يقع فيها اليوم جامع أولاد عنان لغاية شارع قنطرة الدكة ، ويدخل فيها مدخل شارع إبراهيم باشا والمباني التي على جانبه لغاية درب الإبراهيمي . أما قلعة المقس فقد حدد موضعها المرحوم محمد رمزي (المرجع السابق ، ص ٣٩ ، هامش ٤) بقوله : « ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأرقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد » .

(١) الكوم الأحمر كان واقعا عند فم الخليج على جانبه الغربي في نهاية شارع قصر العيني من الجهة الجنوبية .

(٢) الأصل : القاعة بالجبل ، والتصحيح عن (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

(٣) كان مسجد سعد الدولة واقعا بقاعة الجبل بجوار برج المجلات المشرف اليوم على تربة يعقوب شاه المهندار التي في الجنوب الشرق لسور القلعة ، تعليقات المرحوم محمد رمزي في (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١ ، هامش ١) .

(٤) الأصل : « ثلاثة » والتصحيح عن خطط المقريزي والنجوم الزاهرة ، الأجزاء والصفحات المذكورة سابقا .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١) .

(٦) هذا النص مصدره الأصيل : العمد الأصفهاني . انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٨)

(٧) ذكر (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٠) أن جوهر اقصدا باخطاط القاهرة حيث هي « أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعسكره ... واحتفر الخندق من الجهة الشمالية لينبع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراها من المدينة » .

بئرا^(١) ينزل فيه بالدرجة المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين ، ولم يتأت هذا بتمامه إلا بعد موت السلطان ، فإنه توفي وقد بقي من السور مواضع .

وبعد ذلك تكلّم السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المعادل -
رحمهما الله - [وأنشأ] العمارات بالقلعة ، ربحى الأدر السلطانية ، وسكنها ، ولم
يسكنها أحد قبله من أهل بيته^(٢) وإنما كان سكنهم بدار الوزارة^(٣) ، ثم
استمرت السكنى للولوك بالقلعة إلى يومنا هذا .

وأمر السلطان الملك الناصر ببناء المدرسة^(٤) التي عند قبر الإمام الشافعي -

(١) هذه البئر لا تزال موجودة في القلعة وتعرف ببئر يوسف ، وقد وصفها ابن تغرى بردى -
قلا عن ابن عبد الظاهر - (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٠) بقوله : « وحفر البئر التي بقلعة الجبل
أسارى الفرنج ، وكانوا ألوفاً ، وهذه البئر من عجائب الأبنية ، تدور البقر من أعلاها وتنقل الماء
من قالة في وسطها ، وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء تنزل البقر
إلى معيها في مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرض هذه البئر مسامة لأرض
بركة الفيل وماؤها عذب ، سمعت من يحكى عن المشايخ أنها لما حضرت جاء ماؤها حلوا ،
فأراد قراقوش الزيادة في ماؤها فوسعها ، ونخرجت منها عين مالحه غيرت حلاوتها » .

(٢) بدأ صلاح الدين في إنشاء قلعة الجبل سنة ٥٧٢هـ وكان يقيم بها بعض الأيام ، وسكنها ابنه
الملك العزيز عثمان في أيام أبيه مدة ، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة . وقد تم بناء القلعة في سنة ٥٦٤هـ
في عهد الملك الكامل محمد الذي انتقل إليها واتخذها دار ملك ، وظلت كذلك إلى عهد الخديوي إسماعيل
حيث نقلت منها دواوين الحكم إلى دور أخرى في قلب القاهرة . انظر : (المقرئى : الخطط ، ج ٢
ص ٣٣٠ - ٣٣٦) وتعليقات محمد رمزى (النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٥٤ ، هامش ١) .

(٣) انظر : (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠١ - ٣٠٤) و (مفرج الكروب ، ج ١
ص ١٦٤ ، هامش ١) .

(٤) المعروف أن هذه المدرسة بدئ في بنائها سنة ٥٧٢هـ ولكن الرحالة ابن جبير زار مصر
سنة ٥٧٨هـ وشاهد هذه المدرسة وهي لا تزال في دور البناء والتأسيس ووصفها في رحلته (ص ٤٨)
بأنها " مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلاً ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها
بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام ، إلى غير ذلك من مراقبها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها
لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه
الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالاً وثاقاً وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله " =

رحمه الله - بتولى الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني^(١) وأمر باتخاذ دار في القصر
ببيارسنانا^(٢) للمرضى ، ووقف عليه ودلى المدرسة ووقفا كثيرة .

ثم رحل السلطان ، وذلك لثمان بقين من شعبان من هذه السنة ، واستصحب
ولديه الملك الأفضل نور الدين عليا والملك العزيز عماد الدين عثمان - رحمهما

= وقد سميت هذه المدرسة فيما بعد "بالناصرية" نسبة إلى منشئها الملك الناصر صلاح الدين ، وقد ذكرها
(المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٥١) باسم "المدرسة الناصرية بالقراة" ، وقال إن صلاح
الدين رتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعي وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة ، ورتب للجميع
الرواتب الشهرية ، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها . وموضع هذه المدرسة الآن جامع الإمام
الشافعي .

(١) هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني الشافعي
المعروف بنجم الدين ، هو أصلا من خبوشان وهي بلدة بناحية نيسابور ، قدم مصر سنة ٥٦٥ هـ وكان
يكبره الفاطميين ويهاجمهم ، وكان صلاح الدين حسن العقيدة فيه ، وقد مدحه بعض من ترجموا له
قال (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٧٤) إنه كان فقيها فاضلا كثير الورع . وقال (السبكي
طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٩٠) هو الفقيه الصوفي أحد الأئمة علما ودينا ورعا وزهدا . أما
(سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤١٤) فقد انتقصه وجرحه ، قال : "وكان
كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني وزين
الدين بن نجية ، ويكفرونه ويكفرونهم ، وكان طائشا متهورا ، نبش قبر ابن الكيزاني ، وأخرج عظامه من
عند الشافعي ، وكان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، فلما مات وجد له ألوف دنانير ، وبلغ صلاح الدين
قال : "يا خيبة المسعى" ، وكان يبعث إليه بالصدقات فيأخذها لنفسه ، ولما توجه سيف الإسلام
إلى اليمن جاء يعوده ويستنضي حوائجه ، فقال له الخبوشاني : "لي إليك حاجة" قال : وما هي ؟
قال : "تضرب رقبة كل من في المدينة ومكة ، وتأخذ أموالهم ، وتسي نساءهم ، وقد أبحث لك ذلك"
فقام سيف الإسلام من عنده وهو يسبه ، وقال : "أنظروا إلى هذا الرقيع يبيع دماء جيران الله ودماء
أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم" . وكانت وفاته في صفر ، وسكنت الفتن ، واضطرب الناس
وكان سيء الخلق قبيح العشرة ، وولى بعده تدريس مدرسة الشافعي شيخ الشيوخ صدر الدين
ابن حمويه .

(٢) البيارسنان المستشفى ، وهي كلمة فارسية مكونة من لفظين "بیمار" ومعناها مريض ،
و "ستان" ومعناها مكان . وقد أنشأ صلاح الدين هذا البيارسنان سنة ٥٧٧ هـ مكان قاعة بالقصر
الكبير بناها العزيز بالله الفاطمي في سنة ٥٣٨ هـ ، وكان القرآن مكتوبا على حيطانها . وذكر محمد زمري
في تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٠١ ، هامش ٣) أن موضع هذا البيارسنان اليوم
مجموعة المباني الواقعة خلف دورة مياه جامع سيدنا الحسين من الجهة البحرية إلى عطفة القزازين ، وكان
الدخول إليه من باب قصر الشوك بدرب القزازين بقمم الجمالية .

الله - فوصل إلى نجر دمياط^(١) ، وبها سبي كثير جابه الأسطول ، ثم رحل إلى نجر الإسكندرية^(٢) وتردد إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي^(٣) - رحمه الله - في كل جمعة ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت ، وإنما استصحب ولديه في هذه السفرة لئسمعهما الحديث النبوي وتعمهما البركة .

ثم عاد السلطان إلى القاهرة ، فصام بها بقية شهر رمضان ، ووفّر نهاره بها على نشر العدل وإفاضة [١٩٧] الجود ، وسماع حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وإشادة قواعد الشرع المطهر ، ومدحه كاتبه عماد الدين بقوله :
فديتك من ظالم منصف وناهيك من باخل مسرف^(٤)

(١) انظر : (الدكتور جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، ص ١٨) .

(٢) انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ ج ٢ ، ص ٢٤) و (الدكتور جمال الدين الشيال الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٢) .

(٣) هو أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحدث المشهور ، والسلفي لقب جدته نسبة إلى سلفته ، وهو لفظ أعجمي معناه ثلاث شفاء ، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوفة فصارت مثل شفتين ، وقد تلقى دراسته الأولى بأصبهان ، ثم حج وسمع بالحرمين وطوف بالبلاد في طلب الحديث ، فزار بغداد ودمشق وصور ، وانهى به المطاف إلى الإسكندرية في سنة ٥٥١١ هـ ، وظل مقبلاً بها إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن كما يقول ابن خلكان " في وعلة ، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر " ، وقد بنى له العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظافر مدرسة بالإسكندرية ، وهي إحدى مدرستين بنيتا في الإسكندرية قبل عصر صلاح الدين . وللحافظ السلفي كتاب قيم عنوانه " معجم السفر " ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالإسكندرية وتوجد منه صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ٣٩٣٢ . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ص ٨٧ - ٩٠) و (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٧ و ١٢٧) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطي : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٣٩) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥) و (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٤) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٧) و (المقرئ : اتعاظ الحنفا ، نسخة طوب قبوسراي ، ص ١٤٣ ب) .

(٤) كذا في الأصل وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) ؛ وفي (العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٥) : " مسعف " ؛ والمقتبس هناك من هذه القصيدة تسعة وعشرون بيتاً ، ليس من بينها ما هنا إلا اليتان الأولان .

أبْلَغُ دَهْرِي قَصْدِي وَقَدْ قَصَدْتُ بِمِصْرَ ذُرَى يُوسُفَ ؟
وَيُوسُفُ مِصْرَ - بغيرِ التقي وبذلِ الصنایع - لم يُوصِفِ
فسِرَ وافتَحَ القُدْسَ ، واسْفِكَ به دما متى تُجْرِها تنظِفِ
وأهْدِ إلى الاستتارِ البتَّارَ ، وهُدِّ السقوفَ على الأسْفِ
وخَاصَّ من الكفْرِ تلكَ البلا دِيخاصك رَبُّكَ (١) في الموقِفِ

ووصلت رسل سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل وصاحب ماردين
وصاحب الحصن إلى دمشق ، واستحلفوا الملك المعظم شمس الدولة [تور انشاه
ابن أيوب] ، ثم قصدوا مصر ، فوقع في الأسر رسول صاحب حصن كيفا
وماردين (٢) .

ثم خرج السلطان - رحمه الله - من القاهرة إلى مرج فاقوس - من
الأعمال الشرقية نخيم به لإرهاب الفرنج ، ولازم الركوب للصيد والقنص .

(١) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) : "الله" .

(٢) جاء في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) - قلا عن ابن أبي طي - أن الذي أمره
رسول صاحب حصن كيفا فقط ، قال : "قال ابن أبي طي : وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين
ابن كمال الدين الشهرزوري بهدية وقود ، فخرج المركب للقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه ، وقدم
رسول نور الدين قرا أرسلان ، ورسول صاحب ماردين بهدايا ، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى
السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأمر رسول صاحب الحصن ، ولم يزل في الأمر حتى فتح السلطان
بيت الأحران ، فأطلقه وأحسن إليه" .

ذكر عصيان

صاحب شهر زور على سيف الدين غازي ، وعوده إلى الطاعة

وكان بشهرزور شهاب الدين محمد بن بزاق في طاعة سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي وفي خدمته ، وكان مجاهد الدين قايمآز باربل متوليا أمورها ، وقائما بآثار بكية زين الدين يوسف بن زين الدين علي - كما ذكرنا - ، فلما فوض إلى مجاهد الدين النيابة عن سيف الدين غازي ، وكان بينه وبين شهاب الدين عداوة ، خاف ابن بزاق بأن يناله منه أذى ، فأظهر الامتناع عن النزول إلى الخدمة ، فأرسل إليه الوزير جلال الدين - وزير سيف الدين - كتابا يأمره فيه بمعاودة الطاعة ، ويحذره عاقبة المخالفة ، فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل .

ودخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة والسايطان الملك الناصر نازل بمرج فاقوس ؛ ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها إلى ثالث جمادى الأولى من السنة .

ذكر وقعة الرملة

ثم خرج السلطان الملك الناصر - رحمه الله - من القاهرة على نية الجهاد يوم الجمعة ثالث جمادى [١٩٨] الأولى بعد الصلاة ؛ وخيم ببليس خامسه ثم تقدم إلى السدير^(١) وخيم بالمبرز^(٢) ؛ ثم نودي أن خذوا زادكم عشرة أيام أخرى للاستظهار .

(١) وادي بين العباسية والخشي ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان) ، وقال (المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٤) عند كلامه عن " العباسية " : هذه القرية فيما بين بليس والصالحية من أرض السدير ، وقال : فلما كانت سلطة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مر على السدير - وهو في الوادي - ، فأعجب به وبني في موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية ، وأنشأ بها جامعا ، وذلك في سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) لم أجد في المراجع التي بين يدي تعريفا بهذا الموضع .

ثم رحل بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء ليلة بقيت من جمادى الأولى، فسبا وغنم، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم، وتفرق العسكر في الأعمال مغيرين^(١)، فلما رأوا أن الإفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا، وتوسط السلطان البلاد.

ولما كان يوم الجمعة ثانی جمادى الآخرة استقل السلطان بعساكره واحلا ليقصدوا بعض المعقل، واعترضه نهر [عليه] ^(٢) تل الصافية، فازدحمت على العبور أثقال العسكر، فما شعروا بالفرنج إلا وقد أتوهم في أطلابهم^(٣) وجموعهم، وجماعة من سرايا المسلمين متفرقون في الضياع للإغارة، وكان مقدم الفرنج البرنس أرناط صاحب الكرك، وكان أسيرا بحلب من أيام نور الدين، ثم أطلقه الحلييون على ما تقدم ذكره، فجرى على المسلمين خلال ذلك اليوم وانكسروا، فحكى القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - قال :

”حكى السلطان - رحمه الله - صورة الكسرة في ذلك اليوم، وأن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبياً الحرب، فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة أن تغير الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب، ليكون في حالة [اللقاء]^(٤) وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة، فبينما هم يشتغلون في التعبئة، إذ هجم الفرنج، وقدّر الله كسر المسلمين فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن لهم

(١) الأصل : ”مغيرين“ والتصحيح عن العماد : (الروضتين، ج ١، ص ٢٧٣).

(٢) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق.

(٣) جمع طُلب، وقد عرفها الدكتور زيادة في حواشيه على (السلوك، ج ١، ص ٢٤٨، هامش ٢) بقوله : ”وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال، ويطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Battailon) من الجيش“ . أنظر أيضا :

(Dozy; Supp. Dict. Arab).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط في الأصل، وقد أضيف بعد مراجعة : (ابن شداد : السيرة

اليوسفية، ص ٤٢) و(الروضتين، ج ١، ص ٢٧٤).

خَصَن قَرِيب يَأوون إِلَيْهِ ، فَطَلَبُوا جِهَةَ الدِيَارِ المِصرِيَّةِ ، وَضَلُّوا فِي الطَّرِيقِ ،
وَتَبَدَّدُوا ، وَأَسْرَ مِنْهُم جَمَاعَةٌ فِيهِم الفَقِيهَ ضِيَاءُ الدِّينِ عَيْسَى ، وَكَانَ وَهنا عَظِيمًا
جَبَرَهُ اللهُ بِوَقْعَةِ حِطَّينَ .

وَأَبَى تَقَى الدِّينِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ بِلَاءَ حَسَنًا ، وَثَبَتَ وَقَاتَلَ ، وَاسْتَشْهَدَ جَمَاعَةٌ مِنْ
أَصْحَابِهِ ، وَهَلَكَ مِنَ الفَرَنْجِ أَضْعَافَهُمْ .

وَكَانَ لِلْمَلِكِ المِظْفَرِ تَقَى الدِّينِ وَلَدٌ يُقَالُ لَهُ شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ أَوَّلُ مَا طَرَّ شَارِبُهُ ،
اسْتَشْهَدَ ذَلِكَ اليَوْمَ بَعْدَ مَا قَتَلَ فَارَسًا ، وَقَدْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ آخَرَ ، يُقَالُ لَهُ سَعْدُ الدِّينِ
شَاهِنشَاهُ ، وَهُوَ وَالِدُ سُلَيْمَانَ شَاهِ صَاحِبِ اليَمَنِ الَّذِي سَيَّأَتْ ذِكْرَهُ ، فَوَقَعَ شَاهِنشَاهُ
هَذَا فِي أَسْرِ الفَرَنْجِ ، ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ [مُسْتَأْمَنِي الفَرَنْجِ بِدِمَشقَ] (١) خَدَعَهُ ، وَقَالَ
لَهُ : " تَجِيءُ إِلَى المَلِكِ ، وَهُوَ يَعْطِيكَ المَلِكُ " وَزَوَّرَ لَهُ كِتَابًا ، فَسَكَنَ إِلَى صَدَقِهِ
وَخَرَجَ مَعَهُ ، فَلَمَّا انْفَرَدَ بِهِ [١٩٩] شَدَّ وَثَاقَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى الدَّائِيَّةِ ، وَأَخَذَ بِهِ مِنْهُم
مَالًا ، وَلَمْ يَزَلْ فِي الأَسْرِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ (٢) سِنِينَ حَتَّى اسْتَفَكَهُ السُّلْطَانُ بِمَالٍ
كَثِيرٍ ، وَأَطْلَقَ لِلدَّائِيَّةِ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الأَسْرِ .

قال عماد الدين الكاتب :

"فغَلَّظَ القَلْبَ التَّقْوَى عَلَى ذَلِكَ الوَلَدِ خَبْرُ هَلَاكِ أَخِيهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ" .

وَعَمَّتِ الهَزِيمَةُ عَلَى المَسْلَمِينَ ، وَحَمَلَ بَعْضُ الفَرَنْجِ عَلَى السُّلْطَانِ ، فَقَارَبَهُ حَتَّى
يَكَادُ يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَقُتِلَ الفَرَنْجِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَكَاثَرَ الفَرَنْجِ عَلَيْهِ ، فَمَضَى مِنْهُمَا يَسِيرًا
قَلِيلًا وَيَقِفُ لِإِلْحَاقِهِ العَسْكَرَ ، إِلَى أَنْ دَخَلَ اللَّيْلَ فَسَلِكَ البَرِيَّةَ ، وَمَضَى فِي نَفَرٍ
يَسِيرٍ إِلَى بَصْرَى ، وَلَقُوا فِي طَرِيقِهِمْ مَشَقَّةً شَدِيدَةً ، وَقَلَّ عَلَيْهِمُ القُوَّةُ وَالمَاءُ

(١) الأَصْلُ : " مِنْ بَاتَى مِنْهُمْ إِلَى دِمَشقَ " وَالتَّصْحِيحُ عَنِ العَمَادِ (الرَّضْوِينِ ، ج ١ ، ص

٢٧٣) .

(٢) عِنْدَ العَمَادِ (المَرْجِعُ السَّابِقُ) : " صَبَّحَ سِنِينَ " .

وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير ، وفُقد [كثير ممن لم يعرف له خبر]^(١) .

وفُقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان في صحبتهم ، فضلَّ الطريق عنهم^(٢) ، وكانوا سائرين إلى وراء ، فأصبحوا بقرب الأعداء ، فأكنوا في مغارة ، وانتظروا من يدهم على بلاد الإسلام ، فوقعوا بمن يزعم أنه يدهم ، فدُلَّ الفرنج عليهم ، وسمى في أسرهم وعطبتهم ، فأسروا ، وما خلاص الفقيه عيسى إلا بعد سنين^(٣) بستين ألف دينار وفكالك جماعة من أسارى الفرنج ، وبالجملة لم تعظم^(٤) هذه الواقعة إلا بسبب ما اتفق للمسلمين من دخول الرمل وعدم الماء والدليل .

وكان ما قدره الله سبحانه من أسباب السلامة أن القاضي الفاضل كان يستظهر باستصحاب جماعة من [الكنانية]^(٥) والأدلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلماناه وأصحابه وثقاته^(٦) ، وبث أصحابه في تلك الثرمال حتى أخذوا خبر السلطان وقصده ، وانتفع السلطان بتلك الأدلاء الذين معه ، وفرق الفاضل ما كان معه من الأزواد على المسلمين وعلى المنقطعين ، وجمعهم في خدمة السلطان .

وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج للغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير

(١) الأصل : " وفقد كثير لم يظهر لهم خبر " ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن العماد - وهو الأصل المنقول عنه - (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : " عليهم " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٣) الأصل : " سنين " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٤) الأصل : " يفظهم " ولا يستقيم بها المعنى ، وما هنا قراءة ترجيحية إذ لم يستطع الناشر تصحيحها على المراجع الأخرى ، فهي من تعليق المؤلف وليست من منقوله .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن العماد (المرجع السابق) .

(٦) عند العماد - وهو الأصل المنقول عنه هنا - (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ :

" وأنقاه " .

وكان وصول السلطان - رحمه الله - إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة
وكتب إلى أخيه الملك المعظم توران شاه يصف له الوقعة بخط يده وأوله :
ذِكْرُكَ وَالْحِطِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا . وَقَدْ نَهَلْتُ مِنَ الْمُشَقَّةِ السُّمْرُ

ويقول في كتابه :

” لقد أشرفنا على الهلاك غير مدهة ، وما نجانا الله تعالى منه إلا لأمر يريده ،
[٢٥٠] وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر “ .

وفي هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب يمدح الملك المظفر تقي الدين من

قصيدة :

سقى (١) الله العراق وساكنيه ، وحيأه حيا الغيث الهتون
وجيرانا أمنت الجور منهم ، فافهم سوى وإف أمين
صفاوا ، والدهر ذو كدر ، وقدماً وفوا بالعهد في الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم بحلية سودد وتقى (٢) ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا ، لخير رعية في خير دين (٣)
أسانيد السيادة عن علام منعمة ، مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجدداً ، وأنت لها كأنزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم يرى (٤) - قبل الولادة - في الجنين

(١) الأصل : ” سقا “ .

(٢) الأصل : ” وقفا “ .

(٣) الأصل : ” حين “ والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤) .

(٤) الأصل : ” بدا “ وما هنا عن المرجع السابق .

ويوم الرملة المهروب بأساً تركت الشرك منتزع القطين
وكنت لعسكر الإسلام كهفاً ، أوى منه إلى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما رأوا آثارها عين اليقين^(١)

ذكر مقتل

سعد الدين كُشْتِكِين وشهاب الدين أبي صالح بن العجمي

كان السبب في ذلك وقوع المنافسة بين مدبري الملك الصالح بن نور الدين - رحمه الله - ، وأن العدل شهاب الدين أبا صالح بن العجمي استولى على التدبير ، وكانت مقدمة الجيوش لسعد الدين ، وله حصن حارم إقطاعاً ، إلا أن رفقائه حسدوا مرتبته ، فمالوا إلى أبي صالح ، وصارت الأمور كلها بيده ، فزعم بينهما وحشة ، فقفز جماعة من الباطنية يوم الجمعة على أبي صالح بن العجمي فقتلوه ، واستقل سعد الدين بالأمر ، فتكلم فيه حساده ، وقالوا للملك الصالح :

” ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كشتكين ، فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية “ .

وقالوا له :

” أنت السلطان ، [٢٠١] وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر ؟ “

فما زالوا به حتى قبض عليه ، وطالبوه بتسليم قلعة حارم ، فكتب إلى نوابه يأمرهم بتسليمها إلى نواب الملك الصالح ، فامتنع الذين بها من التسليم ، وتحصنوا فيها ، فسير سعد الدين تحت الاستظهار ، ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح ، وأمرهم بذلك ، فامتنعوا ، فعُذِّب سعد الدين ، وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات في العذاب ، وأصر أصحابه على العصيان ، وذكر أن سعد الدين علق منكوساً ودُخِّن تحت أنفه حتى مات .

(١) في الروضتين بيت أخيراً يشبه المؤلف هنا هو :

رأت ثبت دون الدين تمى حياء أراَن رلى كل دين

ذكر منازلة الفرنج حماة ورحيلهم عنها

ووصل في هذه السنة - أعني سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة - كُتْدُ كبير من الفرنج إلى الساحل يقال له "أقلندس" ، من أكبر طواغيتهم ، فاجتمع إليه خلق من الفرنج ، وحشدوا ، ونازلوا حماة في العشرين من جمادى الأولى ، وصاحبها يومئذ شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان ، وهو مريض ، وكان الأمير سيف الدين علي بن [أحمد] ^(١) المشطوب بالقرب من حماة ، فدخلها ، وقاتل الفرنج ، ومنعهم من البلد بعد أن كادوا يهجمونه ، وأخرجوا من الدروب ، ونصر الله أهل الإسلام ، ثم رحلوا عن البلد ، وكان مدة حصارهم له أربعة أيام .

ذكر منازلة الفرنج حارم

ثم ساروا إلى حارم ، ونازلوا حصنها ، وأقاموا على حصرها مدة أربعة أشهر ، ولما سمع السلطان - رحمه الله - بتزول الفرنج على حارم ، عزم على التوجه إلى البلاد الشامية ، ليدفع عنها العدو ، واستتاب بالديار المصرية أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب .

ذكر مسير السلطان - رحمه الله - إلى الشام

ثم رحل السلطان من البركة ^(٢) بعساكره ، ووصل إلى دمشق لست بقين من شوال من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة - وتخاف

(١) ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٥) .

(٢) راجع ما فات هنا في هذا الجزء ، ص ١٨ ، هامش ٨ .

القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة ، ووصل منه كتاب إلى
السلطان يذكر فيه :

” أن العدو - خذله الله - نهض ووصل إلى صدر ، وقاتل القلعة [٢٠٢] ولم يتم له أمر ، وصرف الله شره ، وكفى أمره ، ووصل من الفرنج مشتامن وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس ، فاستقلوا أنفسهم وعرجوا “

وذكر :

” أنهم مضوا بنية تجديد الحشد ، ومعاودة القصد “

وفيه :

” فصل : وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمتنا ما نسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من عزمها ، لا دليل أدل على القوة من (١) المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتنا إلى الشام ، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحزيم المستور ، والمال العظيم الموقور “

وولد للسلطان ولد بعد سفره ، [هو] الملك الزاهر مجير الدين [أبو سليمان] (٢) داوود ، وهو أخو الملك الظاهر غياث الدين غازي لأبيه وأمه ، فورد كتاب القاضي [الفاضل] (٢) إلى السلطان بتهنئته ، و[به] يقول :

” إنه ولد لسبع بقين من ذى القعدة ، وهذا الولد المبارك هو الموقى لاثني عشر ولدا ، بل لاثني عشر نجما متوقدا ، فقد زاد الله في أنجمه عن أنجم يوسف - عليه السلام - نجما ورآهم المولى يقظة ، ورأى تلك الأنجم حلما ، ورآهم

(١) الأصل : ” من القوة على المسير “ والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) ما بين الحامرتين عن المرجع السابق .

ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجودا ، وهو قادر [سبحانه] (١) أن يزيد جدود
المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا “

وورد منه أيضا كتاب (٢) في السنة يقول فيه :

” فصل : للمولى أولاد وقد صاروا رجالا ، ويجب أن تستجد (٣) للرجال
قلاعا كما جعل للسابقين (٤) أعمارا وأعمالا ، وقيل : القلاع أنوف ، من حلها
شمخ بها ما في الرجال على النساء أمين “

ثم ذكر في الكتاب أبياتا تتضمن السلام على الملك العزيز عماد الدين عثمان
ولد السلطان - وكان توجه إلى الشام صحبة أبيه [وهي] :

مملوك مولانا ، ومملوك ابنه ، وأخيه ، وابن أخيه ، والجيران

طى الكتاب إليه منه إجابة لسلام مولانا ابنه عثمان

والله قد ذكر السلام ، وأنه يجزى بأحسن منه في القرآن

وغريبة قد جئت فيها أولا ، ومن اقتفاها كان بعدى (٥) الثاني

[٢٠٣] فرسولى السلطان فى إرسالها ، والناس رسلهم إلى السلطان

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) ذكر فى (الرضيخين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) أن تاريخ هذا الخطاب متصف ذى الحجة سنة

٥٧٢ هـ .

(٣) الأصل : ” نستجد “ والتصحيح عن نفس المرجع .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : ” كما فعل السابقون أعمارا وأعمالا “ .

(٥) الأصل : ” بعد “ ، والتصحيح عن نفس المرجع .

[ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها]^(١) :

” فصل : أما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى ، شرع فيه وظهر العمل ، وطلع البناء، وسُلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم^(٢) ، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين ، وسورا^(٣) بل سوارا يكون به الإسلام محلي^(٤) اليدين ، محلي^(٥) الضدين ، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله ، قليل التثقيب مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله .

” فصل : فى معنى نقل القضاء عن شرف الدين بن أبى عصرون [لما ذهب بصره]^(٦) إلى ولده محى الدين : لن يخلو الأمر عن قسمين ، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ، ولا ينسى له هذا التخرج الذى لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام : إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته^(٧) ، ويتولى ولده النيابة ، ويشترط عايه^(٨) المجازاة لأول زلة ، وترك الإقالة لأقل عثرة ، فطالما بعث حب المنافسة الراجعة على اكتساب الأخلاف

(١) أضيف ما بين الحامرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) وإضافته ضرورية إذ بدون هذه الجملة يفهم أن الفصول التالية هى من نفس الخطاب السابق ، والذى يفهم من الروضتين أن الخطاب الأول الخاص بأولاد السلطان أرسل فى ذى الحجة سنة ٨٥٧٣هـ ، وأن الحديث عن السور وغيره فصول من خطاب آخر أرسله الفاضل فى أوائل سنة ٨٥٧٤هـ .

(٢) انظر ما فات ص ٥٢ ، هامش ٢

(٣) انظر ما فات هنا ، ص ٥٢ - ٥٣

(٤) الأصل : ” محلا ” .

(٥) الأصل : ” مجلا ” ، والروضتين : ” محلا ” .

(٦) الزيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) وعن هذا الموضوع انظر ما فات هنا ص ٤٩ - ٥١

(٧) الأصل : ” ريزكه ” ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) فى الروضتين : ” عليهما ” .

الصالحة ، وإما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين ، فهو بقية المشايخ
وصدر الأصحاب ، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة
في العلم منه .

[ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد]^(١)

فصل : وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي نخرج
من بيته لأجلها ، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها ، فالمولى
نية رشده ، أو ليس الله بعالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ،
لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن مقدور
صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان المولى [أخذا]^(٢) في أسباب
الجهاد ، وتنظيف^(٣) الطرق إلى المراد ، وهو في طاعة قد من^(٤) الله عليه بطول
أمدها ، وهو منه على أمل في نجاح موعدها ، والثواب على قدر [٢٠٤] مشقته ،
وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته ، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام
في أول^(٥) الأيام ، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام ، وكانت
تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار
قد طويت .

[ومنها في ذكر أولاد السلطان]^(٦) :

-
- (١) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) زيدت للإيضاح .
 - (٢) هذه الكلمة ساقة من الأصل ، وقد أضيفت عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) .
 - (٣) الأصل : « وتنترق » والتصحيح عن نفس المرجع .
 - (٤) الأصل « ير » والتصحيح عن نفس المرجع .
 - (٥) في لروضتين : « أقل » .
 - (٦) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، زيدت للإيضاح .

” فصل : وقبل الإجابة عن الفصول ، فنبشر بما جرت العادة به - لا قطع الله تلك العادة - من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا أولاده السادة - أطاب (١) الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم ، وعجل لقاءهم ولقاهم له ، فإنه من يلقى منهم [بل] (٢) كلُّ منهم ملكٌ دسسته برجة ، وفارسٌ مهده سرجه ، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها ، وريحان الحياة وزهرتها ، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع ، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لهاجم ، وإن ملكا ملك تصبره (٣) عنهم لحازم ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم ، أما يشتاق جيدُ المولى أن يتطوق بدورهم ؟ أما نظما عينه إلى أن تروى بنظرهم ؟ أما يحنُّ قلبه إلى قلبه ؟ أما يلتقط هذا الطير الطائر بتقبيلهم ما خرج منهم من حبه ؟ وللمولى أبقاه الله أن يقول :

وما مثل هذا الشوق يحمل بعضه ولكن قلبي في الهوى بقلوب ”

[وفي أخرى] (٤) :

” وكل من الموالى السادة ، الأمراء الأولاد والقادة ، (٥) كلهم جوهر ، وكلهم المقدم ، وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عود الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية ، ولزوم المستقل منهم لمشهد الكتاب ، ولوقوف الآماج ، ونجايل الحفر منهم من تحت ليل الصبي أنور دلالة من ضوء السراج ، والله تعالى يمد في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدُّهم - رحمه الله - في أهل بيته

(١) الأصل : « أطال » والتصحيح عن الروضتين .

(٢) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .

(٣) الأصل : « صبره » ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣) ، ومنها يفهم أن النص التالي

قطعة عن رسالة أخرى غير السابقة .

(٥) الأصل : « والقلادة كلها » والتصحيح عن نفس المرجع .

من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعة ، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرة
وتبابعة ، وصغيرهم ما فيهم عند العلا صغير ، [٢٠٥] وصغار أبناء الكبار كبار ،
نجوم الأرض ، وذرية بعضها من بعض ، والخالف الصالح المحض ، وهم
في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى يوم الحرب ويوم العرض .“

” فصل : في ذكر وخم دمشق : عرف المملوك من الكتب الواصلة التيات
جسم المولى الأمير عثمان ، والحقير^(١) مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد^(١)
في قلوب الأولياء الأمر العظيم ، وقليل قذاة العين غير قليل ، وماذا تقول
في بلد لو صحت الحمية من مائه لكنت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه ،
فإنه ماء يؤكل وبقية المياه تشرب ، ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب .“

” فصل : وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها ، وغلق
أبوابها ، وتحصين كل مبتوتة^(٢) من عصمه ، وتطهير كل موسومة بوصية ،
فإنه يثيب مولانا ثواب من غضب [ليرضيه بغضبه]^(٣) ، وحمل الخلق
على منهاج شرعه وأدبه .“

ودخلت سنة أربع وسبعين وخمسة : ففي العشر الأول من ربيع الآخرة
منها أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة ، وكان الأمير شهاب الدين محمد بن
تكش الحارمي صاحبها قد توفي في حادي عشر جمادى الآخرة من السنة الماضية ،
وتوفي ولده تكش بن أخت السلطان قبله بثلاثة أيام ، فخرج إليهم مقدم عسكر
السلطان بحماة الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين نهار تكين — صاحب
أبوقبيس — فأسر مقدميهم ، وقتل بقيتهم ، وجاء إلى خدمة السلطان وهو

(١) الأصل : « وألحقه » و « فوقع » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) الأصل : « مبتوتة » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : « له صفة تعصمه » ، ولا يستقيم بها المعنى ، وما بين الحاصرتين عن الروضتين .

بظاهر حصص - والأسرى معه - فأمر السلطان بضرب أعناقهم وأن يتولى ذلك من بحضرته من أصحابه ، فتقدم إمامه ضياء الدين الطبرى وضرب عنق بعضهم ، وفعل كذلك الشيخ سليمان المغربى^(١) ، والأمير ايطغان بن ياروق ؛ ثم استدعى عماد الدين الكاتب وأمره أن يضرب عنق بعضهم ، فلم يفعل ، وطلب أن يملكه السلطان صغيرا منهم فعرض عنه .

ذكرى عصيان

شمس الدين بن المقدم بعلبك وما [آل] ^(٢) إليه أمره

كان السلطان لما فتح بعلبك سلمها إلى الأمير شمس الدين [٢٠٦] بن المقدم ؛ ففي هذه السنة طلبها من السلطان أخوه الملك شمس الدولة توران شاه ، لأنها مرباه ومنشؤه ، فإنها كانت بيد والده نجم الدين - على ما ذكرنا - ، فكان الملك المعظم يختار سكنها ويحبها ، فلم يمكن السلطان مخالفته ، فأمر شمس الدين بالتزول عنها ويعطيه عنها عوضا يرتضيه ، فلم يجب إلى ذلك ، وذكره العهود التي له ، وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه ، فلم يصنع إليه ، وبلغ في أخذها ، فامتنع ابن المقدم بها وعصى ، فرحل السلطان على طريق ^(٣) الزراعة إلى بعلبك ونازلها محاصرا من غير قتال ، فطال أمرها ، ولم يسمح بها صاحبها ، ودخل فصل الشتاء ، فرحل السلطان عنها إلى دمشق في العشر الآخر من رجب من هذه السنة ، أعنى : - سنة أربع وسبعين وخمسةائة -

وتمادى الأمر إلى أن رضى شمس الدين بن المقدم ببارين وكفرطاب ، وفي قرى من بلد المعرة ، وسلم السلطان بعلبك إلى أخيه الملك المعظم .

(١) الأصل : "سدان المعرى" ، والتصحيح عن : (الروضتين . ج ٢ ، ص ٥) .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .

(٣) الأصل : "الطريق" ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

ذكر بناء الفرنج بيت الأحران

ولما كان السلطان مشتغلا بأمر بعلبك انتهز الفرنج الفرصة ، وبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحران ، وهو بيت يعقوب - عليه السلام - ، وبينه وبين دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فقبل للسلطان : «إنه متى أحكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الإسلام» ، فقال : «إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس» .

ولما انقضى أمر بعلبك ، ووصل إلى دمشق ، جعل هذا الحصن من همه ، وعزم على قصد حصاره ، وكان قد وصل من الديوان العزيزرسول ، وهو الخادم فاضل ، وهو من أكبر الخدام ، ففرح به السلطان ، واستصحبه معه إلى الغزاة ، ووقف على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي ، وتخطف من حوله جماعة من الفرنج ، ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وقعة الهنفرى^(١)

وتواترت الأخبار بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم ، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غزوة ، فقدم ابن أخيه عز الدين فرخشاہ [٢٠٧] بن شاهنشاه ابن أيوب - رحمه الله - على العساكر ، وأمره أن يخرج إلى قتالهم ، وأمره أن لا يستعجل بالقتال ، بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد ، فلم تشعر طلائع عز الدين إلا وقد خالطوهم على غزوه ، فوقعت الوقعة ، فقتل صاحب الناصرة ، وجماعة من مقدميهم ، وطلب الملك فقتل حصانه ، وجاء الهنفرى - وهو من عظمائهم وشجعانهم - ليحميه ، فوقعت فيه جراحات إحداها نصابة وقعت

(١) هو هنفرى الثانى صاحب حصن بانياس جنوبى شرقى دمشق
Humphrey II, Lord of Toron, Constable

انظر : (Lane-Poole : *Saladin*, p. 157) ; (RUNCIMAN : *op. cit.* vol 2. p. 419)

في مارنه بخدعته ، وتعدت إلى فيه ومرت بضربه فقلعته ، وخرجت من تحت
فكه ، ووقعت أخرى^(١) في مشط رجله ، فنقذت إلى إحصه ، وأخرى^(٢) في ركبتيه ،
وضرب يَلْت^(٣) في جنبه ، فكسر منه ضلعان ، وقتلت جماعة من الرجال والحباله ،
ورجعت الفرنج خائبين ، ليس فيهم إلا مخزن بالجراح ، وكل يوم ترد البشرى
بموت مقدم من جراحة أصابته .

ووردت البطاقة في ذلك اليوم بالبشرى ، وخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة
إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جرى بهم ، ورجع منصورا مظفرا ، ومات المنفري
فذل العدو لموته ، ثم سار السلطان إلى حصن بيت الأحران ، فازعجهم وذعرهم ،
ثم عاد إلى دمشق .

ذكر مسير الملك المعظم

شمس الدولة نحر الدين توران شاه بن أيوب إلى مصر

ثم وجه السلطان أخاه الملك المعظم شمس الدولة إلى الديار المصرية بمن^(٣)
ضعف من الأجناد لأنها كانت سنة جذب شديد ، فرتب في بعلبك نائباً عنه ،
وودعه السلطان من مرج الصفر ، وذلك في أواخر ذي القعدة .

ولما ودعه السلطان أغار على بلاد الفرنج ، وقصد حصن بيت الأحران ،
ورجع بالأسرى والغنائم ، وخيم السلطان بمرج الشعراء ، ثم انتقل إلى بانياس
وخيم بتل القاضي ، وبلغت الخيم حدود بلاد العدو ، وكان يركب كل يوم

(١) الأصل : " الأخرى " ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ : ص ٦) .

(٢) انظر : (مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، هامش ١) .

(٣) الأصل : " عن " ، والتصحيح عن الروضين .

بمحجة الصيد ، و ينزل على النهر [٢٠٨] ويجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا
وبيروت ، حتى يحصدوا غلات العدو ، وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجاهلهم
وأحماهم ، حتى خفف زرع الفرنج .

ودخلت سنة خمس وسبعين^(١) ونحسمائة ، والسلطان نجيم بمنزلته .

ذكر استيلاء الملك المظفر تقي الدين

عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمه الله — على مدينة حماة

وكان برنس^(٢) أنطاكية قد غدر وأغار على شيزر ، وغدر القومص^(٣)
باطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان ، واقتضى رأى السلطان أن يرتب عمر
ابن شاهنشاه بن أيوب بجماعة ، وأقطعها إياها ، ورتب في خدمته شمس الدين
ابن المقدم وسيف الدين بن أحمد المشطوب ، فكان في مقابلة صاحب أنطاكية
ورتب ناصر الدين محمد بن شيركوه بمحص في مقابلة القومص .

وكان ترتب الملك المظفر بجماعة في سنة أربع وسبعين ونحسمائة ، فلم تزل بيده
إلى أن توفي وهو محاصر ملاز كرد في رمضان في سنة سبع وثمانين ونحسمائة ،
فرتب السلطان فيها ولده الملك المنصور ناصر الدين أبا المعالي محمد بن عمر بن
شاهنشاه بن أيوب ، فملكها إلى أن توفي بها في ذى القعدة سنة سبع عشرة وستائة ،
فملكها من بعده الملك الناصر صلاح الدين قايج أرسلان بن محمد ، فحاصره الملك
الكامل بن الملك العادل سنة ست وعشرين وستائة ، وأخذها منه ، وملكها

(١) الأصل : "ثمانين" وهو خطأ واضح .

(٢) هو (Boémund or Bohemond II).

(٣) عن اللقب انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٣ ، هامش ١) ، وعن اسمه انظر ما فات

هنا ص ٢٩ ، هامش ٢

للك المظفر تقي الدين أبي الفتح محمود بن محمد ، ولم يزل مال كها إلى أن توفي بها سنة اثنين وأربعين وستائة ، فملكها بعده ولده مولانا ومالك رقنا الساطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمهم الله تعالى — فقد مضى من مدة ملكه وملك آباؤه لها إلى يوم تأليف هذا الكتاب — وهو سنة إحدى وسبعين وستائة — ^(١) نحو من سبع وتسعين سنة ، ونحن نسأل الله سبحانه أن يديم ملكهم ، وملك ذريتهم بها إلى يوم الدين .

ذكر كسرة الفرنج بمرج العيون

أجمع رأى السلطان ومن معه من المسلمين على أن يقتحموا على الفرنج بلادهم ويستوعبوا ما بقى في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا ، فرحلوا صوب البقاع ليلة الأحد ثاني [٦٠٩] المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ولما أصبح السلطان جاءه الخبر أن الفرنج قد خرجت فالتقاهم ، فنصر الله المسلمين عليهم ، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهمزت رجالتهم في أول النقاء ، فكان في جملة الأسرى مقدم الداوية ^(٢) . ومقدم الاستارية ^(٣) . وصاحب

(١) هذا استطراد هام وطبعي من المؤلف لتبع أسماء من حكموا حماة — وطنه الأصلي — من بيت تقي الدين عمر إلى أن وصل إلى الملك المنصور الثاني الذي ألف هذا الكتاب باسمه ، وأهم من هذا تحديده للسنة التي بدأ يؤلف فيها الكتاب وهي سنة ٦٧١ هـ . انظر الجزء الأول من مفرج الكروب (المقدمة ، ص ١٩ ، والمثنى ، ص ٩٩ هامش ٤ ، ص ١١٣ هامش ٣ ، ص ١٥٤) .

(٢) أطلقت المراجع العربية والمسنون المعاصرون هذا الاسم على جماعة فرسان المعبد (Templars) ومؤسس هذه الجمعية هو (Hugh de Payns) ، أسسها سنة ١١١٩ م لحماية طريق الحج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ولقد لعب فرسان هذه الطائفة ورفقاؤهم « الاستارية » دورا خطيرا طوال عصر الحروب الصليبية ، أما اسم هذا المقدم الذي وقع أسيرا في هذه الواقعة فهو : Odo of Saint-Amand, Grand Master of the Temple انظر : (RUNCIMAN : op. cit. vol. 2 p. 420)

(٣) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، هامش ٢) . ولم أعث على اسم مقدم الاستارية الذي أسرى في هذه المعركة .

الطبرية ، وأخوه صاحب جُبيل ، وابن القومصية ، وابن بارزان^(١) صاحب الرملة ، وصاحب جينين^(٢) ، وقَسِطَلان^(٣) يافا ، وابن صاحب مَرَقِيَّة^(٤) ، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا ، ومن البارونية^(٥) ، وغيرهم من المقدمين ما يزيد على مائتين ونيّف وسبعين سوى غيرهم ، ونقلوا إلى دمشق ، فبذل ابن بارزان في نفسه بعد سنة ، مائة ونحسين ألف دينار صورية^(٦) ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى^(٧) من نوبة الرملة عندهم ، قالتهم فكأ كه ، واستفكت^(٨) القومصية ابنها بنجمة ونحسين ألف دينار صورية ، وأما مقدم الداوية - واسمه أود - فإنه هلك في السجن ، فطلبت جيفته ، فسلمت إليهم ،

(١) هو : (Baldwin of Ibelin).

(٢) الأصل : « جنين » وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلدة بين نابلس وبيسان .

(٣) الأصل : « قسطان » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) ، وقسطلان معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، ويقابله في الفرنسية : (Châtelain).

(٤) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حصص .

(٥) الأصل : « البارندية » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) .

(٦) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، هامش ٧) . ويضاف إلى ما هناك أن الأب لويس شيخو ذكر في (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٤٩ ، هامش ٢) أن الدينار الصوري ضرب في صور في أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوي نحو خمسة عشر فرنكا ذهبيا من النقود الحالية . وقد كان الدينار الصوري أقل قيمة من الدينار المصري ، وعن دار الضرب في صور وعن الدينار الصوري وعن أنواع الدنانير المتداولة في مصر والشام في العصر الأيوبي راجع : (منصور بن بكرة الذهبي الكالاء : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية) و (Ehrenkreutz : Extracts from the technical Manual on the Ayyubid Mint in Cairo. B.S.O.A.S., 1953, XV/3 P. 424-447 ; Ehrenkreutz : The Standard of Fineness of gold coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. Journal of the American Oriental Society. vol 74, No. 3 July - Sept. 1954, P. 162 - 166)

(٧) انظر ما فات هنا ، ص ٦١

(٨) الأصل : « واستفكت » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) .

وأخذ عوضا عنها أسير من المسلمين، وطال أسر الباقين، فمنهم من هلك في الأسر،
ومنهم من خرج بقطيعة .

وكانت عدة العدو عشرة آلاف مقاتل ، وانهمز ملكهم مجروحا ، وكان
لعز الدين فرخشاه في هذه الموقعة بلاء حسن ، فحكى حسام الدين تيمرك بن
يونس - وكان مع عز الدين - قال :

” كما في أقل من ثلاثين فارسا ، قد تقدمنا العسكر ، فشهدنا من خيل
الفرنج ستمائة فارس ، واقفين على جبل ، وبيننا وبينهم المساء ، فأشار عز الدين
أن نعبث النهر إليهم ، ففعلنا ، ولحقنا عسكر السلطان ، فهزمناهم “ .

ومن غريب الاتفاق أن في هذا اليوم بعينه ظفر الأسطول المصري ببطسة (١)
كبيرة ، فاستولى عليها المسلمون ، وعلى أخرى ، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف
رأس من السبي .

(١) البَطْسة أو البَطْنة ، ويقال أحيانا بَطْنة أو بَطْنة ، وقد تحرف إلى بَطْنة أو بَطْنة ؛ والجمع
بَطْسات و بَطْسن ، و بَطْسات و بَطْسن . ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة عن الإسبانية ومعناها
السفينة الكبيرة ، ويفهم من نصوص المراجع العربية في العصور الوسطى أنها كانت تستخدم أصلا
للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وقال (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ص ٨٢) :
” ومن أسماء المراكب أيضا البطنة ، وجمعها بطس ، يقال : جهز الفرنج بطسا متعددة ، وجمعوا
على سوارى البطس أبراجا ، ووجدوا بطسة فيها ثلاثمائة من الفرنج ، وبطسة كبيرة تشتمل على ميرة
وذخيرة “ ، ويفهم من هذه النصوص أيضا أن البطنة كانت تحمل في العادة ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ مقاتل ،
وسيشير ابن واصل فيما يلي هنا إلى بطسة كبيرة عند حديثه عن حصار عكا في سنة ٥٨٧ هـ بقوله : ” وكان
السلطان قد أمر بتعمير بطسة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والمقاتلة
للدخول إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها ستمائة وخمسين رجلا . . . الخ “ . ويصنف أيضا بطسة كبيرة
أخرى استعملت للقتال عند محاصرة برج الذبان في سنة ٥٨٦ هـ . انظر أيضا : (صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، ص ٣١ ، هامش ٣) و (KINDERMANN : Schiff im
Arabischen p.p. 7-9) و (الشيبان : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تطبع بعد) .

وفي هذه الواقعة يقول أبو علي الحسن بن علي الجويني^(١) يمدح السلطان :
لك رب السماء خير معين ، وكفيل لما تُحِبُّ^(٢) ضمين
فله الحمد ، أي نصر عزيز قد جابنا به ، وفتح مبین !
أدرك النار حين نازله المفـ وأرحيف^(٣) الكفار ليث العرين
الهمم الغضنفر الملك النا صر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكا أضحي الزمان ينجي ه بلفظ المذلل المسكين
فارت أهأها الحصون إلى بأـ يك حتى عوضتهم بالسجون^(٤)
وأراهم رب السماء بأسيـ فك ما لم يجئل لهم في ظنون
لك قلب عند اللقاء مكن ، وله من ثقاه ألف كين
يا مليكا ما زال يلقي الأعدى ، وهو مستعصماً بصدق اليقين^(٥)
إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور ، وقره لعيون
هو يوم أضحي كيوم حنين ، سهل الله نصره في الحزون

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم ، الملقب بخر الكباب ، الجويني الأصل ، والنسبة الى جوين ناحية من نواحي نيسابور ، كان من ندماء أتابك زنكي ، واتصل بابنه نور الدين محمود ، وسافر الى مصر في أيام ابن رزيك وتوطن بها . توفى سنة ٥٨٤ هـ وقيل ٥٨٦ هـ بالقاهرة . أظن : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩) .

(٢) النص في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) : " وكفاه بما يحب " .

(٣) الأصل : " خوف " ، وما هنا عن قس المرجع .

(٤) الأصل : " عرضهم للسجون " وما هنا صيغة الروضتين .

(٥) صيغة الروضتين :

يا مليكا يلقي الحروب بحول الله مستعصماً وصدق اليقين .

ذكر الحرب بين عسكر السلطان

الملك الناصر والسلطان عز الدين قَلِج أرسلان الساجوقى
صاحب قونية

وسبب هذه الحرب أن نور الدين - رحمه الله - كان قد أخذ حصن رَعَبَان^(١) من السلطان قَلِج أرسلان بن مسعود بن قَلِج أرسلان بن سليمان قُطْلَمِش ابن أرسلان بيغو^(٢) بن سلجوق - صاحب قونية - .

وفي هذه السنة - أعني سنة خمس وسبعين وخمسمائة - كان الحصن بيد الأمير شمس الدين بن المقدم ، وهو في خدمة السلطان الملك الناصر - كما ذكرنا - ، فطمع قَلِج أرسلان في تملك الحصن ، ليكون الملك الصالح صاحب حلب بينه وبين السلطان ، فأرسل عسكراً لحصره ، فيقال إن العسكر الذي أرسله عشرون^(٣) ألف فارس ، فتوجه إلى الحصن الملك المظفر تقي الدين - صاحب حماة - في ألف فارس ، فواقعهم فهزمهم ، وأصلح تلك الولاية وعاد إلى خدمة عمه السلطان ، ولم يزل الملك المظفر^(٣) - رحمه الله - يدل بهذه النصرة ، وأنه هزم بألف فارس عشرين^(٤) ألفاً .

(١) هي بلدة بين حلب وسمياط ، قرب الفرات . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) الأصل : « بيغوار أرسلان » ، والصحيح ما ذكرناه ، أنظر : (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٢١٥ - ٢١٧) . (٣) الأصل : « عشرين » .

(٤) وصف ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) هذه الواقعة وشجاعة تقي الدين همروفته الحربي وصفا ممتعا مفيدا ، ولهذا آثرا نقله هنا لتم به الصورة . قال : " واتصل بالسلطان أن قَلِج أرسلان قد طمع في أخذ رعبان وكبسون ، فلها دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه ، ويدعى أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه ، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بهما ، فاغتاظ السلطان ، وزجر الرسول ، وتوعد صاحبه ، فعاد الرسول وأخبر قَلِج أرسلان ، فغضب ، وصير عسكرا إلى رعبان فحاصرها وسمع السلطان ، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس ، فسار فلما قارب رعبان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس ، وتقدم عسكره ومارح حتى أنشرف على عسكر قَلِج أرسلان ليلاً =

ذكر تخريب حصن بيت الأحران

لما كسر السلطان الفرنج بمرج عيون عاد إلى بانياس ، وتجهز إلى المضي إلى الحصن وتخريبه ، فسار إليه في ربيع الأول من هذه السنة ، وأحاط به وبث العساكر في بلاد الفرنج [٢١١] للغارة ، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات ، فركب السلطان إلى ضياع صغد - وهي للداوية - ، فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كلما احتاج إليه ورجع ، وجمع من الزرجون^(١) والأخشاب شيئا كثيرا ليجمعل متارس^(٢) للجانيق ، فقال له جاولي الأسدي - وهو مقدم الأمراء الأسدية - :

== فرآهم قد سدوا الفضا. وهم قارون آمنون وادعون ، فقال تقى الدين لأصحابه : « هؤلاء على ما روى من الطمانينة والأمن والنفلة ، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن تفرق في جوانب عسكرهم ونصبح فيهم ، فيأنهم لا يثبتون لنا » ، فأجابوه إلى ذلك ، فأخذوا من أصحابه إلى باقي عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا ، وأن يجعل في كل طلب نطاعة من الكوسات والبوقات ، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم وجدوا في السير حتى يلحقوا به ، ففعلوا ما أمرهم ، ثم إنه حمل في عسكر قلع أرسلان ، وصرخ أصحابه في جوانبه ، وكان عدة عسكر قلع أرسلان ثلاثة آلاف فارس ، فلما سمعوا الضجة وحس الكوسات والبوقات ، وشدة وقع حوافر الخيل ، وجلبة الرجال ، وأصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك ، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم ، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كوابل خيلهم هربا ، وطلبوا النجاة ، وأخذتهم السيوف ، فتركوا خيامهم وأتقاهم بجاهلها ، وأكثر تقى الدين فيهم القتل والأسر ، وحصل على جميع ما تركوه ، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وصرحهم إلى بلادهم .

(١) الزرجون - بفتح الراء أو سكونها - كلمة فارسية ، ومعناها شجر العنب أو قضبان الكرم ، وقد يكون من معانيها أيضا الخمر ، و« زر » بالفارسية معناها الذهب ، « جون » اللون وذلك لأن الخمر شبه لونها بلون الذهب . والمعنى المقصود هنا هو المعنى الأول أي شجر العنب أو قضبان الكرم . أنظر : (الجواليقي : المغرب ، ص ١٦٥) .

(٢) الترس أصلان نوع من السلاح ، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل في اليد تطلق بها ضربة السيف ونحوه ، وفي (اللسان) : الترس الترس بالترس ، والترس خشبة توضع خلف الباب .

الرأى أنا نجربهم بالزحف أول مرة، فننظر الحال معهم ، فإن حصل الغرض وإلا فنصب المجانيق ما يفوت .“

فأمر فنودى فى المعسكر بالزحف إليه ، والجد فى قتاله ، فزحفوا إليه ، واشتد القتال ، وعظم الأمر ، فصعد إنسان من العامة بقميص خالق فى باشورة^(١) الحصن ، وقاتل على السور من أعلاه ، ويتبعه غيره من أضرابه ، ولحق بهم الجند ، فلكوا الباشورة ، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن يحمون نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتهم المدد، وكان الفرنج قد جمعوا بطرية ، وألح المسلمون فى قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه ، وأدركهم الليل^(٢) وباتوا طول الليل يحرسون ، وخافوا أن تفتح الفرنج الأبواب ، ويغيروا عليهم على غرة ، وإذا الفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين ، فاطمأنوا المسلمون ، وقالوا : ” ما بقى إلا نقب البرج “ .

فلما أصبحوا فرق السلطان جوانب البرج على الأسماء ، فأخذ عمر الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب الجانب القبلى ، وأخذ السلطان الجانب الشمالى ، وأخذ ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه [نقبا]^(٣) ، وكذلك الملك المظفر تقي الدين ، وكل كبير فى الدولة أخذ قسما ، وكان البرج محكم البناء ، فصعب نقبه ، فعمقوا^(٤) النقب بعد الجهد ، وأشعلوا النيران فيه ، وانتظرا سقوط السور ، فلم يسقط لعرضه ، فإنه كان عرضه تسعة أذرع بالنجارى .

(١) الباشورة — والجمع بواشير — الحائط الظاهرى من الحصن يخفى وراءه الجند عند القتال ، ويقابلها فى الفرنسية (Bastion) . (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٢) عند هذا اللفظ يتهمى نقل المؤلف عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٢) ، ثم يبدأ باللفظ التالى النقل عن العماد الكاتب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) ، وهذا هو منهجه دائما لا ينقل أخبار الحادثة الواحدة عن مرجع واحد ، بل يبدأ النقل عن مرجع ما ، يأخذ عنه سطورا ، ثم ينتقل إلى غيره فينقل سطورا أخرى ، وقد يعود إلى المرجع الأول يأخذ عنه ، أو قد يتم النقل عن مرجع ثالث وهكذا .

(٣) ما بين الحاصرتين عن العماد (المرجع السابق) وهو الأصل الذى ينقل عنه هنا .

(٤) وقف المؤلف فى نقله عن العماد عند هذا اللفظ ، وعاد ثانية للنقل عن نص ابن الأثير .

وذكر العباد الكاتب^(١) : أن النقب كان طوله ثلاثين ذراعا^(٢) في عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرضه تسعة أذرع - كما ذكرناه - فأمر السلطان بإطفاء النار بعد يومين ليتم نقبه ، وقال :

” من جاء بقربة ماء فله دينار “ .

فجاء الناس بالقرب ، وصبوا الماء على النار حتى أطفأوها ، ثم عاد النقبون فنقبوا وخرقوا السور ، [٢١٢] وألقوا فيه النار ، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ، ملك المسلمون الحصن ، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين .

وكان الفرنج قد جمعوا وراء السور الواقع حطبا ، فلما وقع دخلت الرياح فردت النار عليهم ، فأحرقت بوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، فلما نحدثت النار دخل المسلمون واستولوا عليهم قتلا وأسرا ، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا من الأقوات وغيرها ، وجيء بالأسارى إلى السلطان ، فمن كان مرتدا أوراميا ضربت^(٣) عنقه ، وأكثر الأسارى قتله في الطريق المطوعة^(٤) وكان عدة الأسرى نحو سبعمائة ، وخلص من أسرى المسلمين أكثر من مائة مسلم ، وسير باقى الأسرى إلى دمشق .

وأقام السلطان في منزله حتى دُدم الحصن إلى الأساس ، وطُمَّ جب ماء معين كان حفرة الفرنج في وسطه ، ورمى فيه القتلى ، وكان عند السلطان - رحمه الله - رسول القومص ، فشهد البلية في أهل ملته ، وكان السلطان قد بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا ، فزادهم حتى باع مائة ألف فأبوا ، وكانت مدة المقام على الحصن أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما .

(١) وبهذا اللفظ عاد للنقل عن العباد . (٢) الأصل : « ذراع » .

(٣) الأصل : « ضرب » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

(٤) النص عند العباد - وهو الأصل المتقول عنه هنا :

” وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعة “ ، راجع : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

ثم سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت فأغار عليها، وأرجف قلوبهم، ثم رجع إلى دمشق، ومرض [جماعة من ذلك الوباء] ^(١) بسبب شدة الحر وتنت جيف القتلى، وطول [السلطان] ^(٢) المقام عليه لأجل هدمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء .

وهنا السلطان الملك الناصر — رحمه الله — جماعة من الشعراء بهذا الفتح الجليل، منهم بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن رستم بن الساعاتي ^(٣) الخراساني بقصيدة أولها :

بجِدِّكَ أَعْطَافُ الْقَنَا تَتَعَطَّفُ وَطَرَفُ الْأَعَادَى دُونَ مَجْدِكَ يُطْرِفُ

(١) الأصل : « ومرض لأنه حصل له وباء » ولا يستقيم به المعنى إذ قد يفهم أن الذي مرض هو السلطان، والتصحيح عن العماد (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وهو الأصل الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن نفس المرجع .

(٣) كان أبوه محمد بن علي بن رستم بن هرذوز خراساني الأصل والمنشأ، ثم انتقل إلى دمشق، وكان ماهراً في صناعة الساعات، وهو الذي عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق . فأنعم عليه نور الدين محمود بن زكي الإنعامات الكثيرة، وكان له ولدان : شاعرنا هذا، وأخ له اسمه نحر الدين رضوان اشتغل بالطب ومهرفيه، ثم وزر لئلك للفائز ولأخيه الملك المعظم ابن العادل الأيوبي ؛ وقد قضى الشاعر شبابه في دمشق، ثم رحل بعد الثلاثين من عمره إلى مصر وقضى فيها بقية حياته إلى أن توفي بها سنة ٦٠٤ ودفن بسفح المقطم ؛ وله ديوان شعر كبير، نشره أخيراً في جزئين الأستاذ أنيس المقدسي (مطبوعات الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٨ — ١٩٣٩) . وهذه الأبيات لم ترد في الديوان المطبوع، وإنما وردت في (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وقد قلها عنه الأستاذ المقدسي وألحقها بالجزء الثاني من الديوان (ص ٤٠٩) . ولاستيفاء ترجمة الشاعر أنظر : (ابن خلكان : الوفيات، ج ٣، ص ٧٣ — ٧٤) و (ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٨٣ — ١٨٤) و (مقدمة الأستاذ المقدسي لديوان ابن الساعاتي) و (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٣) .

شهابٌ هُدَى في ظُلْمَةِ الشِّرْكِ (١) ثاقِبٌ وسيفٌ هُدَى في طاعة (٢) الله مُرْهَفٌ
وقفتَ على حصنِ المخاضِ وإنَّهُ لموقفٌ حقٌّ ما (٣) يوازيه موقفٌ

ومنها :

ومارفت (٤) أعلامك الصُّفْرُ (٥) ساعةً إلى أن غدتُ أبادها السودُ ترجفُ
[٢١٣] كما من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ وسادَ به (٦) دينٌ حنيفٌ ومصحفٌ
أتسكن أوطانَ النبيينِ عصبَةً تمينُ لدى أيمانها حين (٧) تحلفُ
نصحتكم ، والنصحُ في الدين واجبٌ : ذروا بيتَ يعقوبَ ، فقد جاء يوسفُ

ثم أوردت البشار إلى سائر الأمصار بما سناه الله سبحانه من هذا الفتح ، وورد
إلى الديوان العزيز النبوي كتاب بالإنشاء الفاضلي منه :

”فصل في ذكر الحصن : وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع ،
وقُطعت له عظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها ،

(١) كذا في الأصل ، وفي الرضتين : « الشك »

(٢) الأصل : « وسيف إذا ما هزك الله مرهف » ، وما هنا صيغة الرضتين . انظر

أيضا : (ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٩) .

(٣) في الرضتين : « لا » .

(٤) في الرضتين : « ومارجعت » .

(٥) هذه إشارة لها فبمها تدل على أن أعلام الدولة وابلجيش في عصر صلاح الدين كانت

صفراء اللون .

(٦) الأصل : « وشاد » والتصحيح عن الرضتين والديوان .

(٧) في الرضتين : « وهي تحلف » .

وعدها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر (١) الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما (٢) بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت مقبته بالكس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد ألا يتعرض لهدمه “ .

فصل: ”وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنيران به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنها على تاجه مهتدة ومسئلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقعة ، ومنعهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جاناراً ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص أصالا (٣) ولا أسحارا ، ونفحاتها حميمة وقودها الناس والحجارة ، والبلاء ينادى بلسان مصابها : إياك أعنى واسمى يا جارة ؛ فوجلت النار مواج يضيق بها (٤) الفكر ، ويعجز عنها الإبر ، ونقلت البناء من العين إلى الأثر ، وقال الكفر : إنها لإحدى الكبر ، وخولف المثل ”إن السعادة لتلحظ الحجر“ ، وأغنى ضوؤها لسان كل إمعة أن يسأل هذا وهذا : ما الخبر؟ وقذفت بالشرر كالجملات الصفرة ، وزفرت يغيظ تعمر له خدود الجبال الصمر ، وتلحقها بالكشب العفر ، وبات الليل والنهار يثله ، وكما [٢١٤] أغمده الخمود جعل الوقود يسله ، إلى أن بدا الصباح كأنه منها يمتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الأزار ، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع الأحجار بيده من أسها ، ومحا حروف البنيان من طرسها ، وتبعه الجيش ورفاقه ، وكافة من اشتمل عليه نطقه “ .

(١) الأصل : « يستقل » والنصحیح عن نسخة الرسالة الواردة في (الرضنين ، ج ٢ ، ص ١٣) .

(٢) الأصل : « ما » وما هنا عن قس المرجع .

(٣) الأصل : « أصلا » وما هنا عن قس المرجع .

(٤) في الرضنين : « منها »

ذكر استيلاء عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

— رحمه الله — علي بعلبك

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر بعلبك وأعمالها على ابن أخيه الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن أيوب ، فلم يزل مالِكها إلى أن مات في حياة السلطان ، فأنعم بها بعده على ولده الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه ، فلم يزل مالِكها إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل — رحمه الله — سنة سبع وعشرين وستمائة ، — على ما سند كره إن شاء الله تعالى — ، واستمر الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بالديار المصرية ، وأنعم عاينه السلطان باسكندرية ، ثم توفي بمصر — على ما سند كره — .
وفي هذه السنة أغار عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — على صفد ثامن عشر ذى القعدة ، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها ، ورجع سالماً غانماً .

ذكر وفاة المستضيء بنور الله بن المستنجد

وبعض سيرته

كما قد ذكرنا تقلد الإمام المستضيء بنور الله أبي^(١) مجد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتدى لأمر الله أبي عبد الله مجد بن المستظهر بالله . وأنه لما ولى الخليفة استوزر عضد الدين مجد بن عبد^(٢) الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ،

(١) : « بن » ، والتصحيح عن (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

(٢) الأصل : « عيد » والتصحيح عن (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٢) حيث أورد ترجمة مفصلة لهذا الوزير ، وانظر أيضا : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠)

وأنه تقدم عنده قايماز غلام أبيه ، وأقطعته الحلة ، وأقطع أردن وتامش نسيبي قايماز واسطا ، وطوق الخليفة قايماز بطوق ذهب ، وسماه ملك العرب ، وسوره بسوارين من ذهب . وحمل إلى دؤولاء الثلاثة من الأموال ما زاد على أمانيتهم وأمالهم .

وفي سنة سبع وستين ونعمسمائة حصل خلف بين الوزير عضد الدولة وقايماز ، وسعى كل منهما بصاحبه [٢١٥] وطلب قايماز من الخليفة عزل الوزير ، فلم يسمعه مخالفته ، لقوة تمكنه من الدولة ، فعزل الخليفة وزيره ، فلم يكتف قايماز بذلك واشتد طمعه ، وأطمع المماليك والعوام في نهب دار الوزير ، فنهبت ، ومزقت أمواله كل ممزق ، وهتك حرمة ، فغضب الخليفة المستضيء لذلك ، وأنكر هذا الفعل على قايماز ، وشدد عليه في إعادة ما نهب من دار الوزير ، وبعث الخليفة إلى الوزير نجاحا الخادم رسولا ، ليسكن منه ، ووعدته بإعادة ما كان له من الإنعام والقرب والمعروف ، ولم تزل الرسالة إليه متواترة بما يقوى قلبه ويبسط أمله .

وأطلع على ذلك قايماز ، فغضب وأظهر الخلاف والعصيان ، هو ونسيباه ومن أطاعه ، فلم ير الخليفة في تلك الحال مشاققته ، وأرنى له في زمامه ، وأرسل إليه يرضيه بأنه يخرج الوزير من داره إلى الحرير ، وأرسل إلى الأمراء الذين مع قايماز (١) في الباطن بما يغير قلوبهم عن طاعة قايماز ، وأحس قايماز بذلك ، فركب مع جماعة من لفيقه مظهرا للندم والمكر ، وقصدوا دار الخلافة على قصد المحاربة ، فأمر الخليفة عند ذلك بأن ينادى : " من أراد النهب فعليه بدار قايماز " .

فمضت العامة إلى دار قايماز فانتبهوها ، وتقلل عنه أكثر من كان معه ، ودعى إلى وجهه حائرا في أمره ، ينكت الأرض ببنان التحير ، ويغيم السماء بأنفاس التحسر .

وكانت هذه الواقعة لثلاث عشرة مضت من ذي القعدة سنة سبعين ونعمسمائة ، فاستدعى الوزير عضد الدين عند ذلك إلى دار الخلافة بأستاذ الدار

(١) انظر (ابن الجوزي : المتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ - ٢٥٦) و (ابن الأثير

الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٠ - ١٦١) .

صنديل المقتفوى ، وعلى يده من الملابس ما يليق به ، وحمل على فرس من خيل الخلافة ، وحضر الدار ، فأكرم غاية الإكرام ، ثم مضى إلى منزله ، واستقر في ولايته .

ثم بعد أربعين يوماً ورد الخبر بوفاة قايماز ، ثم اضطربت بعد ذلك أحوال الوزير عضد الدين ، بسبب ظلم ولده للرعية ، وانحلت منزلته عند الخليفة ، فالتمس من الخليفة أن يفسح له في الحج ، فأذن له ، فتوجه إلى بيت الله الحرام ، فوثبت عليه نفر من الباطنية فقتلوه بظاهر قَطْفَتًا (١) ، ونسب قتله إلى وضع من ظهير الدين أبي بكر منصور بن العطار صاحب المخزن ، وكان متمكناً من الخليفة .

ولما [٢١٦] قتل الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء تمكن ظهير الدين ابن العطار (٢) من الدولة تمكناً عظيماً ، وفوض إليه الخليفة المستضى نيابة الوزارة ، واستولى على الأمور جميعاً .

ولما كانت هذه السنة - أعني سنة خمس وسبعين وخمسمائة - عرض للخليفة المستضى مرض شديد ، فأغلق ظهير الدين بن العطار أبواب الدار التي للخليفة وحمل السلاح ، وأرهب البلد ، وأخذ جماعة بغير جناية فصلبهم تجاه داره بباب النوبى (٣) ، وجرت منه أسباب تنفر منها الطباع ، وتمجها الأسماع ،

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها محلة كبيرة ذات أسواق بالجناب الغربي من بغداد مجاورة لمقبرة الدير التي فيها قبر الشيخ معروف الكرنى ، بينها وبين دجلة أقل من ميل ، وهي مشرفة على نهر عيسى .

(٢) انظر : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٤) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص

(١٧٣)

(٣) الأصل : « البوقى » وقد صححت بعد مراجعة (ابن السامى : الجامع المختصر ، ج ٩ ، نشر

الدكتور مصطفى جواد) .

فبعد ذلك أمر الخليفة بالبيعة لولده وولى عهده الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ، وذلك يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال من هذه السنة .

وتوفي الخليفة في هذا اليوم ؛ وكان — رحمه الله — ديناً حسن السيرة جميل الطوية ، محباً للعامل ، كارهاً للظلم ، لين الجانب ؛ وذكر بعض جلسائه : أنه كان يوماً بحضرته ، فعرضت عليه مطالعة لظهير الدين بن العطار ، وكانت قد لاحت أمارات التغير عليه والالتفات عنه ، فأنشد الخليفة :

وإذا كرهت بأن تجاهل في الذي يأتي فلا تعمل برأى الجاهل

وكانت مدة خلافته تسع سنين ويسيراً .

ذكر البيعة بالخلافة

للإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد

وفي التاريخ المذكور ببيع بالخلافة للإمام الناصر أبي العباس أحمد بن المستضيء ابن المستنجد بن المقتضى ؛ وكان مولده سنة اثنين وخمسين وخمسمائة ، في أيام جد أبيه المقتضى ، وكان عمره يوم البيعة له ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً ، وخطب له ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر ، ومدحه أمين الدولة أبو الفتح بن عبيد الله

سبط [ابن] التعاويذي ^(١) ، وهو من فحول شعراء العراق بقصيدة أولها :

طاف يسعى بها على الجلّاس كفضيب الأراكمة الميَّاس

(١) هو سبط أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الجواهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي ، وقد نسب الشاعر إلى جده لأنه كفه صغيراً ونشأ في حجره ، ولد أبو الفتح سنة ٥١٩ ، وتوفي سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤ ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد ، وعمل في آخر عمره سنة ٥٧٩ . ولاستيفاء ترجمته انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ص ٩٠ — ٩٧) و (الصفدي : نكت الحميان ، ص ٢٥٩ — ٢٦٣) و (ديوان سبط ابن التعاويذي ، نشر الأستاذ مرجليوث ، المقدمة) ؛ وعلى هذا الديوان عارضنا القصيدة الواردة بالمتن هنا وصححناها .

بَدْرٌ تَمَّ غَاظَتْ مِنْ لِحْظِهِ لَيْلَةَ نَادَمْتُهُ غَزَالَ كَنَاسِ
ذَلَّلْتُهُ لِيَ الْمُدَامُ ، فَاضْحَى لَيْنَ الْعِطْفِ بَعْدِ طَوْلِ شَمَاسِ
[٢١٧] لَا يَبْتَ ذَلِكَ الْحَيْبُ بِمَا بَتُّ أَعَانِي فِي حُبِّهِ وَأُقَاسِي
قَلَقِي مِنْ وَشَاحِهِ ، وَبِقَلْبِي مَا يَخْأَخَاهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ
وَرَأَى الْغَانِيَاتُ شَيْبِي فَأَعْرَضَ نَ وَقَانَ : الشَّبَابُ خَيْرُ لِبَاسِ
كَيْفَ لَا يَفْضُلُ السَّوَادُ وَقَدْ أَضَى حَى شَعَارًا عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ
أَمْنَاءُ اللَّهِ وَالْكَرَامُ ، وَأَهْلُ الْحَبِّ حُودِ وَالْعَلِيمُ ^(١) وَالتُّقَى وَالْبَاسِ
وَلَقَدْ زِينَتِ الْخِلَافَةَ مِنْهُمْ بِإِمَامِ الْهُدَى أَبِي الْعَبَّاسِ
مَآكٌ ، جَلَّ قُدْسُهُ عَنِ مِثَالِ ، وَتَعَالَتْ آلَاؤُهُ عَنِ قِيَاسِ
يَا لَهَا بَيْعَةٌ أَجَدَّتْ مِنَ الْإِسْمِ سَلَامَ بَالِي رَسُولِهِ الْأَدْرَاسِ ^(٢)
وَالِي اللَّهِ أَمْرُهَا ، فَلَهُ الْمُنَّ سَةُ فِيهَا عَلَيْهِ ، لَا لِلنَّاسِ

وتولى أخذ البيعة له ذو الرياستين محمد بن أبي الفضل بن الصباح أستاذ الدار، ونائب الوزارة ظهير الدين بن العطار ، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً برز أمر الخليفة بالقبض على ابن العطار ، لما كان صدر عنه في أيام أبيه من الظلم للرعية والحيف عليهم ، فقبض عليه ، وضرب بالعصى إلى أن مات ، وأخرج تابوته من باب النوبي ، فثار عليه العوام ^(٣) ، وألقوه عن رأس الجمالين ، وكسروا تابوته ، ومزقوا أكفانه ، وربطوا في إحدى رجله حبلاً ، وسحبوه في الأسواق ، وقطعوا خنصره وأذنه ، ودفنته أخته ليلاً خلصة من الناس .

(١) في (الديوان ، ص ٢٣٧) : « والحلم » .

(٢) الأصل : « الأمراس » وما هنا عن (الديوان ، ص ٢٣٨) .

(٣) راجع : (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٥) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص

١٧٣) و(ابن طاطبا : الفخرى ، ص ٢٨٦) .

واستدعى الخليفة الناصر لدين الله نحر الدين بن المطلب ، وطلب منه أن يلي الوزارة ، فامتنع واحتذر ، فطلب منه أن يشير بمن يصلح ، فأشار بأن يستناب في الوزارة سليمان بن حارس ، فولى نيابة الوزارة ، وخاع عاييه ، ولقب بحسام الدين ، فأقام مدينة يسيرة ، ثم عزل .

وولى نيابة الوزارة جلال الدين أبو المظفر محمد بن النجارى ، وكان فقيها فاضلا في المذهب والخلاف .

وبسط الإمام الناصر لدين (١) الله العدل ، وأمر بالنداء في الناس به ، وأمر بكسر الملاهي ، وإراقة الخمر ، وإقامة الحدود ، ومنع من التظاهر [٢١٨] بشرب الخمر والمنكرات ، وإزالة المكوس المضروبة على التجار الورددين الى بغداد ، فعمرت البلاد ، وكثرت الأرزاق .

وكان الناصر عظيم الهيبة ، عالى الهمة ، وافر العقل ، حسن السياسة ، متيقظا ، لا يفوته أمر مما يجرى في بلاده وغيرها من بلاد الإسلام .

وكان له أصحاب أخبار يطالعونه بما يحدث وما يروونه (٢) من الأمور في كل صقع ، يخافه الناس خوفا شديدا ، وهابوه ، وكان الإنسان في العراق لا يجسر أن يجرى في بيته وخلوته ما يخاف الإنكار عليه منه ، حتى كان يتوهم من أهل بيته وأخص الناس به أن ينقل خبره الى الخليفة .

وفتح في أيامه فتوحات كثيرة ، واتسع ملكه جدا ، واستولى على خوزستان والجليل ، وفتح كثيرا من بلاد العجم ، وقامت للدولة العباسية في أيامه حشمة لم يكن مثلها موجودا إلا في الزمن القديم قبل استيلاء الملوك على العراق .

(١) انظر ترجمته في : (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٧ - ٣٠٣) و (ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٥) و (ابن السامى : الجامع المختصر ، مقدمة الناشر الدكتور مصطفى جواد) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦) .

(٢) الأصل : « يروه » .

ولما اشتدت دولة الناصر بالله واستأبقت أمره بعث رسله الى الآفاق مبشرين
بمخلافته مهنتين بآرائته .

وكان السلطان لملك الناصر صلاح الدين قد أرسل ضياء الدين بن الشهر زورى
رسولا إلى الإمام المستضى بنور الله ، فاتفقت وفاة المستضى ، ومصير الخلافة
إلى الناصر لدين الله - وهو ببغداد - فحضر الديوان ، وبايع ، وكتب
السلطان بالخبر ، فبادر إلى الخطبة في جميع بلاده .

ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا
إلى بهلوان بن ايلدكز (١) صاحب العجم ، وألزمه الخطبة بهمدان وأصفهان ،
ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلى السلطان الملك الناصر ، فأخذه السلطان معه
إلى مصر ، وركب البحر منها ، ورجع - كما سنذكره إن شاء الله تعالى -

ذكر وفاة

سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل

وفى ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة توفى سيف الدين غازى بن مودود
ابن زنكى صاحب الموصل ، وكان مرضه السلى ، وطال به ، ثم أدركه فى آخره
سرسام (٢) ، وكان عمره لما مات نحو ثلاثين سنة ، وكانت مدة ملكه عشر سنين
ونحو ثلاثة أشهر .

(١) الأصل "الدكى" وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بهلوان جهان بن ايلدكز . حكم حوالى
سنة ٥٦٨ هـ ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ . انظر : (زا مبارك : معجم الأنساب العربية ،
الترجمة العربية ، ص ٣٤٩) .

(٢) السرسام حى دائمة مع صداع وتقل فى الرأس والعين ، وحررة فيها شديدة ، وكرهية الضوء .
(الموارضى : مفاتيح العلوم ، ص ٩٦) .

ذكر صفته وسيرته

كان حسن الصورة ، تام القامة ، أبيض اللون ، وكان عاقلا عفيفا ، شديد الغيرة ، [٢١٩] لا يدخل دوره غير الخدم الصغار ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان يكره سفك الدماء وأخذ الأموال ، وكان بنجيلا جباناً ، وكان عنده سكون ووقار ، وقلة التفات إذا ركب وإذا جالس .

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى

على الموصل

كان لما اشتد المرض بسيف الدين غازى أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه بن غازى ، وكان عمره يومئذ اثنتى عشرة سنة ، تخاف على الدولة من الملك الناصر ، وامتنع [أخوه] ^(١) عز الدين مسعود من الإذعان لذلك والإجابة إليه ، فأشار مجاهد الدين قايماز وأكابر الدولة بأن يجعل الملك فى عز الدين ، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل ، وأن يعطى ابن سيف الدين بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، ومتولى الأمر مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك ، وعهد بالملك لأخيه عز الدين مسعود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وبلادها لولده معز الدين سنجر شاه ، وقلعة [عقر] ^(٢) الحميدية لولده ناصر الدين كسك ^(٣) .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) وهو المرجع الذى يتقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) .

(٣) الأصل : « كك » والتصحيح عن المرجع السابق .

فلما توفي سيف الدين استقرت القاعدة على ذلك ، وانتظمت الأمور ، وقام بتدبير الأمور كلها مجاهد الدين قايماز ، وورد رسوله إلى السلطان الملك الناصر - وهو الشيخ الفقيه نجر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي - يطلب من السلطان أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرّها والرقة وحرّان والخابور ونصيبين في يده ، فلم يجب السلطان إلى ذلك ، إذ هي له بتوقيع الخليفة ، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة ، بشرط أن يقوى السلطان بالعساكر .

ولما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله يعلمه بذلك ، وأن هذه البلاد لم يزل ارتفاعها بصدد تقوية ثغور [٢٢٠] الإسلام بالشام ، وسأل أن يفوضها الخليفة إليه ، وكان الكتاب في ذلك من السلطان إلى الشيخ صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ بإنشاء عمادى فيه :

”فصل : قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد ، وامتدت اليد منا في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بمالم تمتد إليه يد ، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدياء ، وخافناهم ^(١) للردى ، حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء ، ولا خفاء أن مصر ، إقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مضية ، وعانت كل هزيمة ، وعانيت كل عزيمة ، حتى أنقذها الله بنا من عبيد بن عبيد ، وأطلقها بمطلقات ^(٢) أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شعبة القوم ، وهم غير مأمونى الشر إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج [من البر والبحر] ^(٣) بها مطيفة ، فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها نتق لأعضل رتقه ، واتسع على الراقع نخرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله مدة خمس

(١) الأصل : « وخلصناهم » وما هنا - عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧) .

(٢) الأصل : « مطلقات » والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق .

سنين في بيكارها^(١) [منتقما من كفارها]^(٢) متحملا لمشاقتها على غلاء أسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، " فوصل في رجب رسل الديوان: صدر الدين شيخ الشيوخ [أبو القاسم عبد الرحمن]^(٣)، وشهاب الدين بشير الخاير بالتفويض والتقليد والتشريف^(٤)، فتلقاهم السلطان، وترجل لهم، فنزل الرسل وسلموا عليه عن أمير المؤمنين، فقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة، وكان السلطان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلك طريق أيلة والبرية فحسن لاشيخ صدر الدين مصاحبته، وورغبه في زيارة قبر الشافعي - رحمة الله عليه - ، فقال :

" قد عزمت في هذه السنة على الحج، فأصل معكم إلى القاهرة، بشرط إقامة يومين [٢٢١] ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشافعية، وأسير منها إلى بحر عيذاب، لعل أدرك صوم رمضان بمكة"^(٤) .

فالتزم له ذلك، وأعاد أصحابه إلى بغداد ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته، ومعه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري، وكتب السلطان إلى الديوان كتابا، وفيه :

" قد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه"^(٤) .

(١) البيكار، وقد تجمع على بيا كبير، لفظ فارسي معناه الحرب بوجه عام، راجع أيضا : (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق

(٣) أورد ابن أبي طي (الروضتين، ج ٢، ص ١٩) وصفا تفصيلا للخام التي أرسلها الخليفة الناصر إلى صلاح الدين، وهو وصف له أعنيته ولهذا أثرتنا نقله هنا (قارنه بوصف الخام التي أرسلها الخليفة المستنصر لصلاح الدين فيما سبق هنا) ، قال : " وكانت هذه أول خلة قدمت من الإمام الناصر على الملك الناصر، وكانت : ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيطار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب، ومثددة سوداء مذهب، وطوق، وتخت، ومرفسار، وجواد كيت من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب، وعم أسود، وعدة خيول وبقج، وركب السلطان بالخلة، وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما" .

(٤) بهذا اللفظ يتقابل الأصل مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١١٤) منها .

ذكر وفاة الملك المعظم شمس الدين^(١) توران شاه بن أيوب

وفي هذه السنة في المحرم^(٢) توفي الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أخو السلطان الأكبر - بشعر الإسكندرية^(٣)، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان أخيه، فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر من إنشاد أبيات المراثي، وكان أكثر أبيات الحماسة من حفظه.

ذكر مسير السلطان لحرب قليج أرسلان

صاحب قونية

كان السبب في ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق - صاحب حصن كيفا - كان قد تزوج بابنة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي، وبقيت عنده مدة ثم أحب مغنية، فتروجها ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قليج أرسلان، فبلغ أباه ذلك، فعزم على قصد نور الدين صاحب الحصن - وأخذ بلاده، واستجار نور الدين بالسلطان، وسأله كيف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل السلطان إلى قليج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب:

(١) ص (١١٤): «شمس الدولة»، وقد ذكر بهذه الكنية فيما يلي بالمتن، وفي: (الروضتين، ج ١، ص ٢٥٩، ج ٢، ص ١٨) و(الحنبل شفاء القلوب، ص ١١٢). ووافق مع المتن (Zambour. op. cit. p. 98).

(٢) كذا في الأصل وواقعه صاحب الروضتين قلا عن العماد؛ وفي ص، و(الحنبل، شفاء القلوب ص ١٣ ب) أنه توفي في صفر، والتاريخ الأول أرحم فقد قال به مؤرخ معاصر.

(٣) قال ابن أبي طي (الروضتين، ج ٢، ص ١٨) إنه دفن عند موته «بقصر الإسكندرية»، وقال صاحب الروضتين (ج ٢، ص ١٩) «وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحساية بالعويبة ظاهر دمشق، نقله إليه أخته ست الشام بنت أيوب، وبنت القبر عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد ابن شيركوه - وهو ابن عمها - وعلى قبرها وقبر ابنتها حسام الدين عمر بن لاجين وإليه تنسب التربة».

«أبنتي كدت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون [من بلادى]»^(١) تجاوز بلادها
تزوج ابنتي ، فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه^(٢) ، فأنار يداً يعيد على ما أخذ مني .

وترددت الرسل بينهما ، فلم يستقر حال .

فهادن السلطان [صلاح الدين]^(١) الفرنج ، وسارت عساكره ، وكان [٢٢٢] الملك
الصلاح بن نور الدين بحلب ، فتركها ذات اليسار ، وسار على^(٣) تل باشر إلى
رعبان ، فاتاه بها نور الدين - صاحب الحصن - فأقام عنده ، فلما سمع قلعج
يقربه منه ، أرسل إليه أكبر أمير عنده ، يقول له :

«إن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ، ولا بد من قصد بلاده ، وتعريفه عمل
نفسه» .

فلما وصل الرسول ، واجتمع بالسلطان ، وأدى إليه الرسالة ، غضب
السلطان واستشاط ، وقال للرسول :

«تل لصاحبك : والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرت إلى ملطية ، وبنى
وبينها يومان ، ولا أنزل عن فرسي إلا في الأمان ، ثم أقصد جميع بلاده وأخذها منه» .

فرأى الرسول أمراً^(٤) شديداً ، فقام من عنده ، وقد رأى العساكر وما هو فيه من
القوة والتجمل ، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ، وليس عندهم ما يقاربه ، فعلم أنه إن
قصدهم أخذ بلادهم ، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به ، فأحضره ، فقال له :

«أريد أن أقول شيئاً من عندي ، ليست رسالة من صاحبي ، وأحب أن تنصفتي»

فقال : «قل» .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١١٤) .

(٢) الأصل : «تغله» و «س» : «تغله» ، وما هنا صيغة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ،

ص ١٧٥) وهو الأصل الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٣) الأصل : «إلى» والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) ص (١١٤ ب) : «الأمر» .

قال: "يامولانا ما هو قبيح بمثلك - وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأنًا - أن يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عنى كل ما فيه صلاح لك ولرعيتهك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وسرت وخسرت أنت وعسكرك الأموال العظيمة، لأجل [قحبة] (١) مغنية، ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم؟ وأحسب أحدا ما يواجهك بهذا، أما تعلمون أن الأمر هكذا؟ وأحسب أن قلاج أرسلان مات، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك وتسألك (٢) أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت فهو الظن بك، وإن لم تفعل فلا تقوى أمر هذه المغنية، أفيحسن بك أن تردّها؟".

فقال: "والله إن الحق بيدك، والأمر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل على وتمسك بي، ويقبح على تركه، ولكن أنت اجتمع به، وأصلحوا الحال بينكم على ما [٢٢٣] تحبون، وأنا أعينك عليه، وأقبح فعله عنده".

ووعده من نفسه بكل جميل.

فاجتمع الرسول بصاحب الحصن، وتردد القول بينهم، واستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية منه بعد سنة، وإن كان لا يفعل فينزل السلطان عن نصرته، فاصطلحوا على ذلك، وعاد السلطان، فلما انقضت السنة أخرج نور الدين المغنية عنه، فتوجهت إلى بغداد [وأقامت بها إلى أن ماتت] (٣).

ذكر غزو السلطان الملك الناصر بلاد الأرمن

وفي هذه السنة - أعني سنة ست وسبعين وخمسةائة - دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يزعوا

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل (ابن الأثير).

(٢) مد هذا اللفظ في س سقط يسير وبه تنقطع الصلة بين النسختين مرة أخرى.

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل المقول عنه وهو (ابن الأثير، ج ١١، ص ١٧٦).

في بلاده ، وأمنهم ، ثم غدر بهم وأسروهم ، فدخل السلطان بلادهم ، وأوغل بها ، فخاف ابن لاون ، وأحرق السلطان قلعة شاذحة حصينة تعرف بالمناقير^(١) ، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الغلات والآلات ، وتقووا بها ، وتمموا هدمها إلى الأساس ، فخضع ابن لاون وذل ، ودخل تحت طاعة السلطان ، وأطلق ما بيده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيدا مظفرا منصورا ، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة .

ومدحه جمال الدين أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب^(٢) المقرئ

بقصيدة منها :

لقد جمَّل اللهُ منك الورى	بأوفى مليكٍ وفى هجان
تهشُّ إلى نغماتِ السيو	فِ فى الهامِ ، لانغماتِ القيان
أزرت ^(٣) ابن لاون لأواءه ،	فأضحى به خبا عن عيان
ودان من الذلِّ لا يعوى ،	حذارا من الراءفات اللدان
فلا قدمٌ عنده للشبا	تِ ، وليس له بسطاكم يدان
وأخلى ^(٤) إليكم مناقيره ، ^(٥)	وغادر للهدمِ تلك المباني
وأرسل بالأسراءِ العنا	ة يسأل إطلاقه ، فهو ^(٦) عانى

(١) الأصل : « بالما يغير » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٢) لم أعتزله على ترجمة فيما بين يدي من مراجع .

(٣) الأصل : « أومت » ، وما هنا صيغة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٤) الأصل : « أخلا » .

(٥) الأصل : « لهينك الما يغير » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٦) الأصل : « رهو » وما هنا عن الروضتين .

[٢٣٤] رَفَّتْ بِعَزِيمِكِ وَالْمَكْرَمِ تِ فَتَوْقًا مِنَ الْأَرْتَقِي^(١) الْمُهْجَانِ
وَرُعَّتَ ابْنُ سَلْجُوقِ^(٢) فِي مُلْكِهِ ، فَتَقَعَقَ مِنْ رَعْبِهِ بِالسِّنَانِ^(٣)
وَذَكَرَ الْقَاضِي بَهَاءَ الدِّينِ بْنِ شَدَادٍ — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنَّ دُخُولَ السُّلْطَانِ بِلَادِ
الْأَرْمَنِ كَانَ لِأَنَّ رَسَلَ قَالِيحَ أَرْسَلَانَ بْنَ مَسْعُودٍ — صَاحِبَ قُوْنِيَّةٍ وَمَلْطِيَّةٍ —
أَتَوْهُ يَلْتَمِسُونَ مِنْهُ الْمَوَافَقَةَ ، وَيَسْتَعِيثُونَ مِنْ ابْنِ لَآوَنِ^(٤) الْأَرْمَنِ ، فَدَخَلَ
إِلَى بِلَادِ الْأَرْمَنِ لِنَصْرَةِ قَالِيحَ أَرْسَلَانَ عَلَيْهِ ، [وَنَزَلَ بِقَرْهٍ حِصَارًا وَأَخَذَ
عَسْكَرًا]^(٥) حَلَبَ فِي خِدْمَتِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ اشْتَرَطَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلْحِ ، فَاجْتَمَعُوا
عَلَى النَّهْرِ الْأَزْرَقِ — بَيْنَ بَهْسَنًا وَحِصْنِ مَنْصُورٍ — وَعَبَّرَ مِنْهُ إِلَى النَّهْرِ^(٦) الْأَسْوَدِ ،
[وَ] طَرَقَ^(٧) بِلَادَ ابْنِ لَآوَنِ ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ حِصْنًا وَأَنْحَرَبَهُ ، فَبَدَلُوا لَهُ أُسَارِيَّ ،
وَالْتَمَسُوا مِنْهُ الصَّلْحَ ، وَعَادَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ رَاسَلَهُ قَالِيحَ أَرْسَلَانَ فِي صَلْحِ الشَّرْقِيِّينَ
بِأَسْرِهِمْ ، وَاسْتَقَرَّ الصَّلْحُ عَاشَرَ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،
وَدَخَلَ فِي الصَّلْحِ قَالِيحَ أَرْسَلَانَ وَالْمَوَاصِلَةَ وَأَهْلَ دِيَارِ بَكْرِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى نَهْرِ
شَيْخَةَ^(٨) ، وَهُوَ نَهْرٌ يَرِي إِلَى الْفَرَاتِ .
ثُمَّ سَارَ السُّلْطَانُ إِلَى دِمَشْقَ .

(١) الأصل : «الارتقا» ، والنصحیح عن الروضتين .

(٢) الأصل : «سلجوق» .

(٣) في الروضتين : « ققعق من رعبه بالسنان » ، وفي الأصل هنا « بالسنان » ، وفي اللسان :
« في المثل : فلان لا يققعق له بالسنان أي لا يخدع ولا يروع » .

(٤) هوليدون الثاني صاحب أرمينية (Leo II Roupenian Prince of Armenia)

أنظر (RUNCIMAN : op. cit. vol. 2, p. 430)

(٥) الأصل مضطرب غير مفهوم ونصه : « وترك معرى من عمل حلب » ، وقد صححت العبارة
عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٤٣) وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٦) الأصل : « الحصن الأسود » وقد صحح عن المرجع السابق . وقد عرف (ياقوت : معجم

البلدان) نهر الأزرق بأنه نهر بالفرجين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب ؛
ثم قال : ونهر الأسود نهر قريب من الذي قبله في طرف بلاد مصيصة وطرسوس .

(٧) الأصل : « طرف » وقد عدلت وزيدت الواو ليستقيم بها المعنى .

(٨) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧) قلا عن ابن شداد ؛ وهو في الطبعة

التي بين يدي من ابن شداد — وهي كثيرة الأخطاء — : « نهر صبغة صبغة » ، ولم أجد لهذا
النهر ذكرًا عند ياقوت لضبط اسمه .

ذكر مسير^(١) السلطان إلى الديار المصرية

ثم عزم السلطان على السفر إلى الديار المصرية ، واستتاب بالشام ابن أخيه
عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب - صاحب بعلبك - ، ورحل
إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وفي صحبته صدر الدين شيخ الشيوخ -
رسول الديوان العزيز - بنية الحج - كما ذكرناه - ، فوصل إلى القاهرة
ثالث عشر شعبان من السنة ، فخرج إلى استقباله أخوه ونائبه بمصر الملك العادل
سيف الدين أبو بكر بن أيوب - رحمه الله - ، وفارقه [بعد وصوله
إلى مصر]^(٢) الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ ، وتوجه إلى مكة ، وركب البحر
من عيذاب ، فوصلها وجاور بها إلى أن جاء الموسم ، فوقف بعرفات وأتم حجه ،
ثم توجه مع الحج العراقي إلى بغداد .

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمسة والسultan - رحمه الله - بالقاهرة
مشتغلا [٢٢٥] بالنظر في مصالح الديار المصرية والمواظبة على سماع الأحاديث
النبوية .

ذكر غزو عماد الدين فرخشاه الكرك^(٣)

في هذه السنة - أعني سنة سبع وسبعين وخمسة^(٤) - مار عز الدين
فرخ شاه إلى أعمال الكرك فنهبا ، وسبب ذلك : أن البرنس أرناط صاحب

(١) بهذا اللفظ تتقابل مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١٧١) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٧١) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

(٤) هذه الفقرة غير موجودة في س .

الكرك - لعنه الله - كان أشد الفرنج عداوة للإسلام، فجمع عسكره وعزم على
المسير إلى تيماء، وحدثته نفسه بالمشير إلى مدينة النبي - صلى الله عليه
وسلم - ليستولى عليها وعلى تلك النواحي الشريفة، فلما بلغ ذلك عز الدين -
وهو بدمشق - سار بالعساكر الدمشقية إلى بلده فنهبه وخربه، وعاد إلى طرف
بلاد الإسلام، وأقام هناك ليمنع^(١) البرنس - لعنه الله - من المسير، فامتنع
بسببه من قصده^(٢)، فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس
أن المسلمين لا يعودون حتى يتفرق جمعه، ففرقه، وانقطع طمعه في الحركة،
وعاد عز الدين إلى دمشق، وحمى الله الحرمين الشريفين من غائلة الكفار.

ذكر المتجددات باليمن بعد مفارقة الملك المعظم لها

لما فارق الملك المعظم شمس الدولة توران شاه - رحمه الله - اليمن استتاب
بزبيد الأمير سيف الدولة^(٢) مبارك بن كامل بن منقذ الكناني، وبعده عز الدين

(١) مقابل هذه الفقرة في س: (ليسمع البرنس - لعنه الله - خبره فيمتنع عن المسير، فلما
سمع ذلك امتنع بسببه من قصد مدينة النبي - صلى الله عليه وسلم -) .

(٢) س (٧١ ب): « سيف الدين »، وما هنا هو الصحيح، وهو أبو الميمون مبارك بن كامل
ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني . وذكر (بالمخرمة: تاريخ نجر عدن، ج ٢، ص ٣٨) أن
تورانشاه لما عزم على السفر إلى الشام "استتاب في اليمن نوابا، فجعل أبا الميمون مبارك بن كامل...
ابن مقلد على زبيد وأعمالها من التهام، وجعل عثمان بن الزنجيل على عدن وما تاجها، وجعل ياقوت
التعزي على تعز وأعمالها، وجعل مظفر الدين قايمآز على بجيلة ونواحيها، وتقدم حائرا إلى الشام
في رجب سنة ٥٧١ هـ"؛ وذكر هؤلاء النواب مرة أخرى (قسم المرجع والجزء، ص ٦٩) ثم قال:
"وتوجه (أي تورانشاه) ببقية الأمراء والعساكر إلى مصر وفيهم الأمير أبو الميمون المبارك بن كامل
- أخو حطان -، فإن إمرة زبيد كانت لأبي الميمون، فلما عزم شمس الدولة على التقدم إلى مصر
استأذنه أبو الميمون في العزم صحبته، وأن يستنيب على عمله أخاه حطان، فأذن له في ذلك؛ ولما
توفي شمس الدولة بمصر قبض أخوه الملك الناصر صلاح الدين على أبي الميمون المبارك بن كامل،
وسأده...، ولما اتصل العلم إلى اليمن بموت شمس الدولة، ولم يأت اليمن متفقد من قبل صلاح الدين، =

عثمان بن الزنجبيل^(١) وكان هوى سيف الدولة الشام ، لأنها وطنه ، فأرسل إلى الملك المعظم ، [يطلب الإذن بالمجيء إليه ، فأذن له ، واستتاب أخاه حطان ، وعاد إلى عند الملك المعظم]^(٢) وهو إذ ذاك بمصر ، ولما توفى الملك المعظم — كما ذكرنا — بقي سيف الدولة في خدمة السلطان بمصر ، فقيل إن سيف الدولة أخذ أموال اليمن وادخرها ، وسمى^(٣) به أعداؤه ، فلم يعارضه السلطان . فلما كانت هذه السنة والسلطان بمصر عمل سيف الدولة دعوة كبيرة دعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية على شاطئ النيل تسمى العدوية^(٤) ،

= أظهر النواب غير الطاعة ، وضرب كل منهم نفسه سكة ، وحرّم على أهل بلده المعاملة بغيرها ، ثم إن الملك الناصر صلاح الدين بعث مملوكه خُطْبًا إلى اليمن وكتب إلى كافة الأمراء باليمن أن يجتمعوا على حطان ويخرجوه من زبيد ويتولى ولايته خُطْبًا — إنح " أنظر أيضا : (ابن حاتم : السمط الغالي الثمن ، ص ٧ وما بعدها ؛ و (والحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٥٣ ب) .

(١) الأصل : " الزنجبيل " ، قال (با محرمة : تاريخ نجرعدن ، ج ٢ ، ص ١٣١ — ١٣٢) في ترجمته له : " أبو عمرو عثمان بن علي الزنجبيل ، نسبة إلى زنجبيلة قرية من قرى دمشق ، ويقال له الزنجارى ، الملقب عز الدين ، كان أميراً كبيراً قدم من مصر مع المعظم توران شاه بن أيوب ، ولما رجع المعظم من اليمن إلى الديار المصرية في شهر رجب من سنة ٥٧١ استتاب في اليمن نواباً منهم الأمير عثمان المذكور ، استتابه على عدن وما ناهجها ... فلما قدم سيف الإسلام طغتكين بن أيوب من الديار المصرية إلى اليمن في سنة ٥٧٩ ، وأمر حطان بن متقذ وقبض أمواله ... فلما علم بذلك عثمان المذكور هرب من عدن وركب البحر ، وحمل جميع ما معه وذخائره من ساحل زبيد ، فقبض عليها كلها ، ولم يفلت غير المركب الذي هو فيه ، فلما خرج من عدن سكن دمشق ، وأبنتى فيها مدرسته ، وتوفى سنة ٥٨٣ بدمشق ودفن بمدرسته " . ومدرسته بدمشق كانت تعرف باسم " المدرسة الزنجارية " أو " الزنجبيلية " خارج باب توما وباب السلامة ، أنشئت سنة ٦٢٦ هـ وبها تربة وجامع بخطبة . انظر : (النجمي : الدارس في المدارس ، ج ١ ، ص ٥٢٦ — ٥٢٧) و (رحلة ابن جبير ، ص ١٧٠) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٣) الأصل : " وسعا "

(٤) الذي يذكره العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٥) أن سيف الدولة مبارك بن متقذ « ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها... فصنع دعوة عظيمة بها » ، وذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء والأعيان ، فبينما هم عنده في أسرحال إذ أحرق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش قبض على سيف الدولة ، واعتقل بالقصر إنح » .

وأرسل أصحابه يجهزون من البلد ، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها ، فقبل للسلطان : " إن ابن منقذ يريد الهرب [إلى اليمن] ^(١) ، وأصحابه يترودون له ، ومتى دخل [٢٢٦] اليمن أخرجه من طاعتك " ، فاعتقله السلطان وحبسه ، فبذل للسلطان ثمانين ألف دينار ، ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة من تجار ، وغرم لأخوى السلطان : الملك العادل ، وتاج الملوك بوري جملة ، فأطلق وعاد إلى منزلته .

ثم وقع باليمن خلف بن حطّان بن منقذ - والى زبيد - وعز الدين عثمان ابن الزنجبيلي - والى عدن - لما بلغهما وفاة الملك المعظم ، ورام كل واحد منهما أن يغلب ^(٢) على ما بيده ^(٣) ، وجرت بينهما فتن ، واشتد الأمر ، وبلغ ذلك السلطان ، فخاف أن يطمع أهل اليمن فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه ، فأرسل إلى اليمن عسكرياً وقدم عليهم قتلغ أبه ^(٤) - والى مصر - ومعه عدة من الأمراء ، فاستولى قتلغ أبه على زبيد ، وأزال حطّان عنها ، ثم توفي قتلغ أبه ، فعاد حطّان إلى إمارته بزبيد وإقطاعه ^(٥) ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) في الأصل : « يغلبك » ، والتصحيح عن س (٧١ ب) .

(٣) كذا بالأصل ، وفي س : « ما بيد الآخر » .

(٤) الأصل : « قتلغ أبه » ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧٨) وهو عند باخرمة

(أنظر ما فات هنا ، ص ١٠٢ ، حاشية ٢) : « خطلبا » ، وهو في (الرضنين ، ج ٢ ،

ص ٢٦) : « صارم الدين خطلبا » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

ذكر استيلاء

سيف الإسلام طغتكين^(١) بن أيوب على بلاد اليمن

ثم قرر السلطان مع سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أخيه أن يمضي إلى بلاد اليمن لتقطع الفتن بها ، فسار إليها^(٢) في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بعد مسير السلطان [فوصل إلى زبيد فلما كملها ، وأمن حطان وطيب قلبه ، فاستأذنه حطان في المسير]^(٣) إلى الشام ، فأذن له ، فجمع حطان كلما له من سبيل ولسد ، وكان قد حصل على أموال عظيمة ، ورحل بها ، فردّه سيف الإسلام إليه ليودعه ، ويركب معه ليشيعه ، فلما دخل إليه اعتقله واحتاط على جميع موجوده ، ثم نقله إلى بعض الحصون فحبسه به ثم قتله .

وحكى عماد الدين الكاتب عن السلطان فيما قبض من حطان من الأموال ، قال : " كان سبعين غلافا من غاف الزرد مملوءة بالذهب ، وقوم المأخوذ منه بألف ألف دينار " .

ولما سمع عز الدين بن الزنجبيلي بسيف الإسلام تجهز من عدن إلى الشام ، وسار إليه خائفا يترقب ، وسير معظم أمواله في البحر ، فصادفها مراكب فيها

(١) في الأصل : « سيف الدين الإسلام سيف الدين طغتكين » وقد صحح بعد مراجعة من .
(٢) كان الرحالة ابن جبير موجودا في مكة عند مرور طغتكين بها في طريقه إلى اليمن ، وقد وصف الأيام التي قضاها طغتكين مع جيشه في مكة وصفا شائقا . انظر : (الرحلة ، ص ١٤٥ - ١٤٩) ؛ وقال ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦) في أسباب خروج طغتكين لليمن : " كانت قس سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان تشرّب إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ، ويشتهي أن يصير إليها ، فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإقناذ سيف الإسلام إلى اليمن ، فعمل القصيدة التي بقول فيها (وروى أبياتا منها) ، قال : فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام في المسير إلى اليمن " .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ص (١٧٢) .

أصحاب سيف الإسلام، فأخذوا كلها لعز الدين، ولم يبق إلا ما صحبه في الطريق [ووصل إلى الشام، وأقام به إلى أن مات] (١) وصفت زبيد وعدن وما معهما من الحصون والبلاد لسيف الإسلام، وقدم عز الدين دمشق، وكان له معروف وبر [٢٢٧] وصدقات بمكة واليمن ودمشق، وإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة المعروفة به التي هي خارج باب توما (٢)، [وأقام في دمشق إلى أن مات - كما ذكرنا -] (١).

ذكر وفاة الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي - رحمهما الله -

وفي هذه السنة - أعني سنة سبع وسبعين وخمس مائة - توفي الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين - رحمه الله - وكان مرضه بالقولنج (٣)، وابتدأ (٤) به المرض تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلقت أبواب قلعة (٥) حاب لشدة مرضه، واستدعى الأمراء واحدا واحدا، واستحلفوا لابن عمه عز الدين مسعود ابن مردود بن زنكي - صاحب الموصل -، وفي الخامس والعشرين منه توفي - رحمه الله - واشتد حزن أهل حلب عليه.

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٧٢).

(٢) انظر ما فات ص ١٠٣، هامش ١.

(٣) مرض وصفه (الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٩٨) بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المي

المسمى قولون.

(٤) ص: "واشتد"، وما هنا هو الصحيح فهو يتفق ونص ابن شداد، وهو المرجح الذي ينقل

عنه المؤلف هنا.

(٥) هذا اللفظ غير موجود في ص.

ذكر سيرته^(١) - رحمه الله -

كان دينا صالحا، مجبولا على الخير، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر، فقال: «لا أفعل حتى استفتى الفقهاء»، وكان عنده الإمام علاء الدين الكاساني الحنفي - رئيس أصحاب أبي حنيفة بحلب - وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شربها للتداوي، فقال له: «يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه قد قرب أجل أيؤخره شرب الخمر؟»، فقال: «لا والله» فقال: «والله، لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرّمه عليّ»، وكان عمره قريبا من عشرين سنة.

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي

على حلب

لما اشتد المرض بالملك الصالح - رحمه الله - وأيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم والأجناد، واستحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم:

«إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من همدان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لعاد الدين ابن عمك كان أحسن»،^(٢) ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا عديم المثل في العقل والتدبير والحلال والشجاعة التي تفرد بها».

(١) هذا العنوان غير موجود في س

(٢) س (٧٢ ب): «أخبر»

فقال : " إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تنلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي ، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها منه ، فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين [٢٢٨] أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله " .
فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه وصباه .

فلما توفي أرسل شاذبخت - دُزدار حلب - إلى عز الدين يدعوهُ إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ونائبه مجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض له فلقى القاصدين عندها ، فأخبروه الخبر ، وسار إلى الفرات ، فأرسل إلى عز الدين يعرفه الحال ، ويشير بتعجيل الحركة ، وأقام على الفرات ينتظر ، فسار عز الدين مجداً ، فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين [قايماز] (١) أقام معه ، وأرسل [إلى حلب] (١) يستحضر الأمراء ، فحضروا كلهم عنده ، وجددوا اليمين له ، فسار حينئذ إلى حلب ، ودخلها وملكها .

ولما دخل الفرات كان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - ابن أخي السلطان - بمنبج - وكانت إقطاعاً له مع حماة (٢) وسامية وغيرها - ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، ونار أهل حماة ، ونادوا بشعار عز الدين مسعود أيل (٣) الناس كان إلى عود الدولة الأتابكية ، وكان السلطان إذ ذاك بمصر - كما ذكرنا - فأشار الحلبيون على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل ، وقال : " بيننا يمين ولا تغدر به " ، وأقام بحلب مدة يسيرة .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) في الأصل : " يميل " ، وقد صححت إلى ما بالمتن ليستقيم المعنى ؛ وفي س : " ونظر للناس

مودة الدولة ... الخ " .

ذكر استيلاء

عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي على حلب

وكان وصول عز الدين إلى حلب وتملكه لها في العشرين من شعبان من هذه السنة ، واستولى على الخزائن والذخائر ، وتزوج أم الملك الصالح ، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من هذه السنة ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لأجل السلطان [صلاح الدين] ،^(١) وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات [في إقطاعهم ، وفي طلب الأموال] ،^(٢) وأكثروا إدلالهم عليه بسبب اختيارهم إياه^(٣) .

[وكان عنده بخل]^(١) فضاق عطنه [منهم] ،^(١) فرحل من حلب إلى الرقة وخلفه ولده ، ومظفر الدين بن زين الدين بها ، ولقيه عماد الدين زنكي بالرقة على قرار بينهما ، واستقر [الأمر بينهما]^(١) أن يسلم حلب إلى عماد الدين ، ويأخذ عز الدين عنها عوضا سنجار .

وذكر ابن الأثير أن عماد الدين أرسل أخاه يلتمس ذلك ، وأن عز الدين امتنع عنه ، وأن عماد الدين لجَّ في هذا الأمر ، وقال :

« إن سلمتم إلى حلب^(٢) [٢٢٩] وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين » .

فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز ، فاستقر الأمر على ذلك ، وحلف كل منهما لصاحبه في الحادي والعشرين من شوال ،

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٣ ب) .

(٢) ص : « وأكثروا عليه لإدلالهم عليه بسبب الخ » .

(٣) ص : « إن لم تسلموا إلى حلب وإلا ... الخ » .

وسار من جانب عماد الدين من تسلّم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلّم سنجار ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وتوجه عماد الدين إلى حلب ، وكان صعوده قلعتها في ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، واستقر بها .

ذكر المتجددات

للسلطان صلاح الدين [١] بمصر إلى حين سفره إلى الشام

ولما بلغ السلطان وفاة الملك الصالح بن نور الدين تحرك عزمه على التوجه إلى الشام ، وندم على التزوج عنه ، فكتب إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر - صاحب حماة - يأمره بالتأهب والنهوض ، وكاتب سائر نوابه بالشام بذلك ، وكتب إلى الديوان العزيز بانشاء عمادى فيه :

” فصل : وشاع الخبر بغارة أفرنج أنطاكية على حارم ، وأتوا من النهب والسبي بالعظام ، وشاع أيضا أن عسكر حلب أغاروا على الراوندان وهي [في] عملنا ، ورسلمهم عند الفرنج يستنجدونهم ؛ (٢) وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خاف . والعلم بالمعتاد عنه كاف ، وابن أخينا (٣) غائب في أقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز ، فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله ، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء ، وهي دهليز المدينة - على ساكنها السلام - واغتم كون البرية معشبة مخضرة مخصبة في هذا العام ، والعجب أنا نحامى عن قبر النبي - صلوات الله عليه وسلامه - مشتغلين بهم ، والمذكور - يعنى صاحب الموصل -

(١) ما بين الحاصرتين ص ٧٣ ب .

(٢) الأصل : ” يستنجدونهم “ ، والتصحيح عن ص (١٧٤) ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ،

ص ٢٣) : ” ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم “ .

(٣) هو ابن أخيه عز الدين فرخشاه .

ينازع في ولاية هي لنا ، ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال^(١) وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ، ويحمل إليهم كرائم الأموال ، هذا مع ما نعد في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعدُّ مثلها أولاً لأبي مسلم ، لأنه أقدم ثم خامر^(٢) ، ووالى ثم ولى ، ولا آخراً لطفرليك ، فإنه نصر ونصب ، ثم حمر وحب ، وقد عُرف ما فضلنا الله به عليهما في نصر الدولة ، وقطع^(٣) من كان ينازع الخلافة رداءها ، ويطهر المنابر^(٤) من رجس الأدعياء ، ولم نفعل ما فعلناه [٢٣٠] لأجل الدنيا ؛ غير أن التحدث بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب ؛ ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه ، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل ، ويحتاج فيه إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل ، فإن الأعمار تمر مر السحاب ، والفرص تيمض ومض السراب ، وبقاؤنا^(٥) في هذه الدار القليلة البت القصيرة المكث يؤثر أن نفتنمه في مجاهدة العدو الكافر ، الذي صار به البيت المقدس محلاً للأرجاس ، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على اليأس ، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار^(٦) ، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ما وفّت بفتح مصر التي رحل^(٧) بها أسامي الأدعياء الزاكية^(٨) أعوادها ، وأعاد إلى عينها بعد بياض عمائها من نور الشعار العباسي

(١) في الأصل : " الآمال " وما هنا عن س ، والروضتين .

(٢) في الأصل : " خام " ، وما هنا عن س والروضتين .

(٣) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ وفي س (١٧٤) : " رقلع " .

(٤) في الأصل وفي س : " المنابر " والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٤ ، ص ٢٣) .

(٥) س : " وقعادنا " .

(٦) الأصل : " بعواري " .

(٧) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ ومن " دخل " .

(٨) كذا في الأصل وفي س (٧٤ ب) ؛ وفي الروضتين : " الزاكية " .

سوادها ، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للذكور بحلب بتقليد ،
فالأولى أن يقلد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ، ولمالك الأمر
الحكم في ممالك الممالك ” .

وفيه فصل معناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتبل عليها تقليد أمير
المؤمنين المستضيء بنور الله ، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه ، والآن
فليرجم كل ذي حق إلى حقه ليقتنع برزقه .

ذكر سفر " السلطان إلى الإسكندرية وعوده

وسافر السلطان بعد شهر رمضان من هذه السنة - أعني سنة سبع وسبعين
وخمسمائة - إلى الإسكندرية على طريق البحيرة ، وخيم عند السواري ، وشاهد
الأسوار التي جددتها ، وأمر بالانعام والاهتمام ، وقال :
« نغتم^(١) حياة الشيخ أبي طاهر ابن عوف^(٢) » .

فحضر عنده ، وسمع عليه موطأ مالك بن أنس - رحمة الله عليه - ، بروايته
عن الطرطوشي^(٤) في العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده [٢٣١] السماع .

(١) س : " مسير " .

(٢) في الأصل : " فغتم " ، وما هنا عن س ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤) .

(٣) في الأصل ، وفي س : " أبي طاهر السلفي " ، وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤)
أنظر أيضا : (التيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٨ و ٢٢٢) ، وقد
بنيت لابن عوف أول مدرسة بنيت في مصر في أواخر العصر الفاطمي ، بناها له رضوان بن ولخشي وزير
الخليفة الحافظ في سنة ٥٣٣ هـ ، وأسند إليه التدريس بها ، أنظر : (المقرئزي : اتعاظ الحنفا ،
مخطوطة سراي ، ص ١٣٨ ب) .

(٤) الأصل : " الطرطوشي " ، وس : " الطرسومي " ، والتصحيح عن الروضتين حيث نقل
خبر هذه الزيارة - كما ورد هنا تماما - عن العماد الكاتب الذي نص على أنه كان في صحبة صلاح الدين
ورلديه أثناء الزيارة ، وأنه شاركه هذا السماع ، وأنظر ترجمة الطرطوشي في : (ابن خلكان : الوفيات ، =

ثم عاد إلى القاهرة في ذي القعدة، وشرع في التجهز والاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر، واستكثر من السلاح، فأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام السور الدائر على مصر والقاهرة.

ذكر مسير السلطان إلى الشام

ثم برز السلطان من القاهرة، وخرج الناس لوداعه، فن غجيب ما ذكر في الاتفاق أن السلطان بينما هو في سرادقه، والعلماء والفضلاء عنده، وكل منهم ينشد بيتاً [أو أبياتاً] (١) في الوداع، إذ أخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه، وأنشد مظهراً بذلك فضيلته:

تَمَّتْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعِشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ

نحمد نشاط السلطان، وانقبض انبساطه، وجعل الجماعة ينظرون بعضهم لبعض متعجبين من سوء أدب المؤدب، وكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه النوبة، واشتغل بما سئد كره من الفتوحات والغزوات، وتمادى الحال إلى أن قضيت منيته بدمشق، ولم يعد بعد ذلك إلى الديار المصرية، فكان كما قيل: «القال موكل بالمنطق».

ثم سار السلطان متوجهاً إلى الشام لخمس مضي من المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسة مائة، وجعل طريقه على أيلة، وكان قبل سفره قد غدر الفرنج، ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحر وغيرهم، فقدر الله سبحانه بطسة (٢) للمسلمين

= ج ٣، ص ٣٩٣ - ٣٩٥) و(مقدمة كتابه مراجع الملوك)، وقد أورد صاحب (الروضتين، ج ٢، ص ٢٤). نص خطاب هام لطيف كتبه القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنيه فيه بهذا السماع، فأنظره هناك.

(١) ما بين الحامرتين عن ص (١٧٥).

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٧٧، ما مش ١

عظيمة من المراكب مقلعة للفرنج من بلد لهم يقال له بوليه ، يحتوى على ألفين^(١) ونحوهم من رجال القوم وأبطالهم وأتباعهم على قصد زيارة القدس ، فألقتهم الريح على نهر دمياط ، ففرق شطرهم وأسر الباقون ، وكان عدة من أسر ألفا وستائة وتسعين نفسا^(٢) .

ولما وصل السلطان إلى عقبة أيلة فإنه سمع باجتماع الفرنج في الكرك لقصد قطع الطريق ، فاحترز بحفظ الأطراف ،^(٣) وانحاز^(٤) بهمى ، ثم عقبة شنار^(٥) ثم القريتين^(٦) ، وأغار على طرف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في شجعان أصحابه ، وسار على سمت الكرك [٢٣٢] إلى الحسى^(٧) ، وأمر أخاه تاج الملوك بورى على الناس ، وأمره أن يسير بهم يمنا ، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع .

وكان الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان ، وأن معه خلقا من التجار ، اجتمعوا بالكرك ، للقرب من طريقهم ، لعلهم يتهزون فرصة من القافلة ، فخرج الملك المنصور عزالدين فرخشاہ ابن أخى السلطان من دمشق ، واغتمم خلود يارهم ، وأغار على طبرية وعكا ، وفتح دبورية^(٧) ، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد ، وهو

(١) في الأصل ، وفي س (١٧٥) : " ألف " ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) . وهو تصحيح يقتضيه السياق ، أنظر تفصيل الخبر في السطور التالية .
(٢) كذا في الأصل ؛ وس : " ألفا وستائة نفس " ؛ والروضتين : " زهاء ألف وستائة وست وسبعين نفسا " .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة في س .

(٤) الأصل : " رجاز " وما هنا عن الروضتين .

(٥) الأصل : " منان " وما هنا عن الروضتين .

(٦) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) . وفي س (٧٥ ب) : " الحيا " .

(٧) في الأصل : " دنورية " وفي س : " دنوره " بدون ققط ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) و (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقد عرفها الأخير بأنها بلد قرب طبرية من أعمال الأردن .

شقيف يشرف على بلاد المسلمين ، ففتحها وأسكنه المسلمين ، فبقى عيناً على الفرنج بعد ما كان لهم ، ورجع بالأسرى والغنائم ، ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من النعم ، ووصل إلى السلطان البشري بذلك وهو في الطريق ، [ففرح بهذا الفتح] (١) - .

ثم وصل السلطان دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر من هذه السنة - أعني سنة ثمان وسبعين - .

ثم خرج السلطان وأغار على طبرية وبيسان ، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب ، واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الإسلام ، ثم رجع السلطان مظفراً (٢) .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم عزم السلطان على المسير [إلى البلاد الشرقية و] (١) إلى حلب ، فبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم في قصد الثغور الإسلامية ليثقلوا السلطان عن قصدهم ، فتوجه السلطان [صلاح الدين - رحمه الله -] (١) إلى بعلبك وخيم بالبقاع ، وكان قد واعد (٢) أسطول مصر [أن] (١) يتجهز إلى بلاد الساحل ، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت ، فبادره السلطان بعسكره جريئة ، فلما وصل رأى أن أمر بيروت بطول ، وكان قد سبى الأسطول منها (٤) وسلب ، فأغار

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٥ ب) .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ - ٢٩) نص رسالة بقلم الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يصف له فيها هذه المعارك والنصر الذي أحرزه .

(٣) الأصل : "وعد" ، وما هنا عن ص والروضتين (ج ٢ ، ص ٢٩) .

(٤) صيغة ص : "وكان قد سبى الأسطول منها خلق (كذا) كثير ، فرده السلطان إلى مصر ، وأغار... الخ" .

السلطان على تلك البلاد ورجع ، وأعاد ابن أخيه عز الدين فرخشاه إلى دمشق ورحل [السلطان] إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثم إلى حماة ، واستصحب معه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين صاحبها ، فلما قرب من حلب وصل إلى خدمته مظفر الدين [٢٣٣] كوكبوري بن زين الدين على كوجك ، وكان بيده حران ، فأشار على السلطان بعبور الفرات ، ^(١) وكان سبب قصد مظفر الدين خدمة السلطان استيحاظه من مجاهد الدين قايمازا^(٢) وعز الدين مسعود - صاحب الموصل - ، فالتجأ إلى السلطان وأطمعه في البلاد .

وكان نزول السلطان على حلب ثامن [عشر] ^(٣) جمادى الأولى من السنة ، وأقام منازلها ثلاثة أيام ، ثم رحل يطلب الفرات ، فوصلها وخيم عليها من غربي البيرة ، ومد الجسر ، وكانت البيرة لشهاب الدين الأرتقي ، فمات وملكها بعده ولده ، وصار في طاعة عز الدين - صاحب الموصل - فقصدتها في السنة الماضية قطب الدين ايلغازي ^(٤) بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ^(٥) بن أرتق - صاحب ماردين - بعد أن استأذن صاحب الموصل ، وهو ابن عمته ، وقصدتها وأخذها منه ، فأذن له في ذلك ، فسار في عسكره إلى سميساط ، وهي له ، فنزل بها ، وسير العسكر إلى البيرة ، فحصرها ، فلم يظفر منها بطائل ، فأرسل صاحبها إلى السلطان - وقد خرج من مصر - يستنجده على ابن عمته ^(٦) ، وطلب منه أن يكون في خدمته كما كان أبوه في خدمة نور الدين ، فأجابته إلى ذلك ، فأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب منه أن يرحل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته .

(١) صيغة من مضطربة التركيب والمعنى ، ونصها : " وكان قصد مظفر الدين بخدمته السلطان صلاح الدين مستخدما من مجاهد الدين قايماز . . الخ " .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٦) و (الرضتين ، ج ٢ ، س ٢٠) .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة في س .

(٤) في الأصل عمه ؛ أنظر النص قبل هذا بسطرين .

واشتغل السلطان بما ذكرناه من الفرنج ، فلما رأى قطب الدين طول مقام
عسكره على حصار البيرة ولم يبلغوا منها غرضاً ، أمرهم بالرحيل عنها وعاد
إلى ماردين ، فسار صاحبها إلى خدمة السلطان ، فكان معه حتى عبر الفرات .
ولما نزل السلطان على البيرة كاتب ملوك الأطراف :

« من جاء مستسلماً سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه
ومساعديه على جهاد الكفرة » .

بجاء رسول نور الدين بن قرا [٢٣٤] أرسلان بن سقمان بن أرتق - صاحب
حصن كيفا - بالإذعان .

ذكر استيلاء السلطان على البلاد الجزيرية^(١)

ثم رحل السلطان من البيرة فنزل الرها ، وفيها الأمير نخر الدين مسعود بن
الزعفراني [صاحب حماة أولاً]^(٢) ، فسلمها إلى السلطان ، فأقطعها لمظفر
الدين بن زين الدين مضافة إلى حران [ومضى ابن الزعفراني إلى الموصل فأقام
بها]^(٣) ، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها ، وانفصل منها إلى الرقة ،
وصاحبها الأمير قطب الدين ينال بن حسان^(٣) - صاحب منبج - ، فأذعن
للسلطان ، فسلم البلد إليه ، وأصلحها السلطان ، ثم رحل إلى مشهد الرمان ،
ثم إلى عربان ، وتسلمها أيضاً ، ثم استولى على الحابور ، ففتح رأس عين

(١) أورد صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٢) خطاباً طويلاً بقلم القاضي الفاضل
أرسله صلاح الدين إلى الديوان العزيز عند عبوره الفرات يمدد فيه انتصاراته المتتالية هناك ، وهو خطاب
هام يتضمن تفصيلات كثيرة ، فاظروه هناك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ص (٧٦ ب) .

(٣) ص : "حاف" بدون قط .

ودورين وماكسين والشمسانية^(١) والقُدَيْن^(٢) والمجدل والحصين ، ثم قطع
نهر الخابور على قنطرة تَنْبِير^(٣) ، ونازل نصيبين ، فامتنت القلعة عليه أياما ،
ثم استسلم من فيها ، فملكها ، وولاه حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، وولى
الخابور جمال الدين خوشترين^(٤) .

وأقام السلطان بنصيبين ليصلح أمورها ، فاتاه الخبر أن الفرنج قد قصدوا
بلد دمشق ، ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا ، وأرادوا تخريب جامعها ،
فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى ، يقول لهم : « إذا خربتم جامع
داريا جددنا عمارته ، ونخرب كل بيعة لكم في بلادنا ، ولا نمكن أحداً
من عمارتها » ، فتركوه ، ولما وصل الخبر بذلك إلى السلطان ، أشار عليه بعض
أصحابه بالعود ، فقال السلطان : « ينخبون قرى ونملك عوضها بلادا ، ثم نعود
فنعمرها ، ونقوى على قصد بلادهم » ، ولم يرجع وعزم على منازلة الموصل .

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر الموصل

لما ملك^(٥) السلطان نصيبين جمع الأسماء الأكاربواستشارهم : أى البلاد
يبدأ بها ، بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة ؟ فاختلفت آراؤهم ، فقال مظفر الدين
كوكبورى بن زين الدين على كوچك :

(١) كذا فى الأصل وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢) ، وس : " الشباسة " وهو خطأ ؛
وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، حيث ذكر أنها بلدة بالخابور .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى س : " القدير " ، والروضتين : " القدين " ؛ وصيغة الأصل هى
الصحيحة ، وقد ضبط اللفظ عن (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفه بأنه قرية على شاطئ الخابور
ما بين ماكسين وقرقيسيا .

(٣) الأصل : " القبتين " ، س : " العسس " دون ققط ؛ والروضتين : " التنبير " ؛ وقد
صححت وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : " تنبير تصغير تنور ،
اسم لبلدين من نواحي الخابور : تنبير العليا ، وتنبير السفلى ، وهما على نهر الخابور " .

(٤) الأصل : " جوشيرين " ، والتصحيح عن س والروضتين .

(٥) س (١٧٧) : " أصلح " .

« لا ينبغي أن تبدأ بغير الموصل ، لأنها في أيدينا لا مانع لها ، [٢٣٥] فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية » .

ووافقه على ذلك ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان قد بذل للسلطان مالا كثيرا ليقطعه الموصل إذا ملكها ، فأجابته إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأي لهواه ، فسار السلطان إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ونائبه مجاهد الدين [قايماز]^(١) قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل ، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار ، وكانت طريق السلطان على أعمال ما بين النهرين ، ثم أعمال البقعة^(٢) ، ثم سار^(٣) إلى دجلة ، فوردت خيله - في أشهر متقاربة - نيل مصر والفرات والدجلة ؛ ثم صمم على قصد الموصل ، فلما قرب منها انفرد هو ومظفر الدين بن زين الدين ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ونفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فلما رآه وحققه رأى ما هاله وملاً صدره وصدور أصحابه ، فإنه رأى بلدا عظيما ، ورأى الأسوار قد ملئت بالرجال ، وليس فيها^(٤) شرافة^(٥) إلا وعليها رجل مقاتل ، سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين ، فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه ، فقال لناصر الدين :

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا في الأصل ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢) ؛ وس (١٧٧) : " معه " بدون قط .

(٣) قبل هذا اللفظ في س : " ثم للذ " ، ولعلها : " بلد " ، فقد جاء في الروضتين قسلا عن العباد : " ثم سرفنا إلى بلد وأشرفنا على دجلة " .

(٤) الأصل : " فيه " وقد صححت ليستقيم بها المعنى .

(٥) في (اللسان) : " الشرف " كل نثر من الأرض قد أشرف على ما حوله ، و " الشرفة " ما يوضع على أعالي القصور والمدن ، والجمع شرف . فقل المقصود هنا بالشرافة الأجزاء العليا من السور التي تشرف على خارجه .

”إذا رجعنا إلى المسكر فاحمل ما بذلت من المال، فنحن معك على^(١) القول“.

فقال . ناصر الدين :

”قد رجعتُ عما بذلتُ من المال“ .

فقال له ولمظفر الدين :

”غررتماني وأطمعتاني في غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذًا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا [في قلوب الناس]^(٢) ، ومتى نازلناه^(٣) وعدنا عنه ولم نأخذه ينكسر ناموسنا ، ويفل حدنا وشوكتنا“ .

ثم رجع إلى معسكره [وبات تلك الليلة]^(٢) وضحَّ البلد ، ودار العسكر حول السور ، وعين لكل مقدم مقاما ، ونزل هو وراء البلد ، ونزل الملك المظفر تقي الدين - صاحب حماة - من شرقيه ، ونزل تاج الملوك بوري بن أيوب عند الباب العمادي^(٤) ، ونزل نور الدين - صاحب حصن كيفا - بباب الجسر .

وكان نزول السلطان على الموصل [٢٣٦] يوم الخميس حادي عشر رجب من هذه السنة - أعني سنة ثمان وسبعين وخمسةائة - ثم نشب القتال بين الفريقين ، ولم يمكن عز الدين [صاحب الموصل]^(٢) ومجاهد الدين أحدا^(٥) من الخروج ، بل لزموا القتال على الأسوار ، وخرج يوما بعض العامة إلى العسكر ، فنالوا منه .

ثم إن الملك المظفر أشار على عمه السلطان بنصب منجنيق ، فقال :

”مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق^(٦) ، ومتى نصبناه أخذوه ، ولو خرَّبنا

برجا^(٧) أو بدنة من يقدر على الدخول إلى هذا البلد وفيه هذا الخلق الكثير؟“

(١) الأصل : ”فنحن على هذا القول“ ، وما هنا صيغة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٢) وهو

المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا . (٢) ما بين الحاصرتين عن س

(٣) في الأصل : ”باريناه“ ، وفي س (١٧٧) : ”فارقناه“ ، وما هنا عن ابن الأثير .

(٤) س : ”العادية“ . (٥) هذا اللفظ غير موجود في س

(٦) الأصل : ”منجنيقا“ .

(٧) في الأصل المتقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٢) : ”وبدنة“ .

فألح عليه ، وقال :

”نجربهم به“ .

فنصب منجنيقا^(١) ، فنصبوا عليه من^(٢) البلد تسعة^(٣) منجنيقات ، وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، وأخذ بعض العامة مداسا^(٤) فيه مسامير كثيرة ، ورمى به أميرا يقال له : جاولى الأسدى ، مقدم الأسدية وكبيرهم ، فأصاب صدره ، فوجد لذلك الما شديدا ، فأخذ المداس وعاد إلى السلطان ، وقال :

”قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها“ .

وألقى المداس ، وحلف أنه لا يعود يقاتل أنفةً ، حيث ضرب بالمداس .

ذكر رحيل السلطان من الموصل

ثم إن السلطان رحل من قرب البلد ، ونزل متأخراً خوفاً من البيات^(٥) فإنه كان لا يأمن ذلك^(٦) ، فإن^(٧) مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل ، فكان أحدهم يخرج من الباب ، ويتزل

(١) الأصل : ”منجنيقات“ ، وما هنا عن ابن الأثير ، وهو الصحيح .

(٢) الأصل : ”بين“ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) ص (٧٧ ب) : ”سج“ والأصل : ”تسع“ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) فى الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٣) : ”لالكة“ ،

وقد ذكر ابن واصل هنا اللفظ العربى المقابل له ، فقد ذكر (Dozy : Supp. Dict. Arab)

أن ”لاك“ لفظ فارسى معناه الخذاء أو المداس ، والجمع ”لواك“ ، واللالكانى الخذاء أرماع

الأحذية . (٥) س : ”الكبسات“ .

(٦) بهذا اللفظ تنهى ص (٧٧ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النسختين .

(٧) يلتقى النص بهذا اللفظ مع نسخة س فى (ص ١١١٢) .

إلى دجلة مما يلي عين الكبريت^(١) ، ويطفي المشعل ويعود ، فرأى العسكر^(٢) ذلك ، فلم يشكوا في الكبسة ، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخير ، ليتعذر البيات على أهل الموصل .

وكان عز الدين - صاحب الموصل - قد سير القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - رسولا إلى الديوان العزيز قبل نزول السلطان [على الموصل]^(٣) بأيام قلائل ، قال :

”فسرت مسرعا إلى دجلة ، وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ ، - وكان في صحبة [٢٣٧] السلطان [صلاح الدين]^(٤) - يأمرونه بالحديث معه [في الصلح]^(٥) .

وسير عز الدين إلى بهلوان بن ايلدكز - صاحب همذان - رسولا يستنجده ، فلم يحصل من جانبه سوى تشريط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان . ودخل صدر الدين [شيخ الشيوخ]^(٦) رسول الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، وبشير الخادم بين السلطان وصاحب الموصل ، وتحدثوا في الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك بشرط أن يسلموا إليه حلب ، فامتنع عز الدين من ذلك ، ثم نزل السلطان عن ذلك إلى تسليم البلاد إليهم ، بشرط أن يتركوا إنجاز صاحب حلب^(٧) عليه ، فامتنع عز الدين ، وقال : ” هو أخي ، وله [معي]^(٨) العهود والمواثيق ، ولا يسغى نكثها “ .

(١) كذا في الأصل وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) ؛ وفي س : ” عين الأرنب “ .
(٢) كذا في الأصل ؛ وفي س : ” فرأى العسكر الناس يخرجون “ ، وهذا يتفق مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذي ينقل عنه هنا ابن واصل قلا حرقيا .
(٣) ما بين الحاصرتين عن س ، أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ص ٢٢) حيث ينقل هذا الخبر عن ابن شداد نفسه .
(٤) في الأصل : ” منجار “ ، وما هنا عن س ، وهو يتفق وسياق الحديث ، كما أنه يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) حيث ينقل عنه ابن واصل قلا حرقيا .
(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

ووصل رسل قرا أرسلان - صاحب أذربيجان - ، ورسول شاه أرمن^(١) صاحب أخلاط - في المعنى^(٢) ، ولم ينتظم أمر ولا تم صلح .

ثم رأى السلطان أنه لا ينال من الموصل غرضاً ، فرحل قاصداً سنجار ، وقدم أمامه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر - صاحب حماة - .

ذكر منازلة السلطان سنجار وتملكه لها

ولما توجه السلطان إلى سنجار وجد في طريقه عسكرياً من الموصل سائراً إليها ، فأحاط بهم ، وأخذ خيلهم وعددهم ورددهم إلى الموصل رجالة ، ووصل إلى سنجار ومعه رسل دار الخلافة ، وكان بسنجار شرف الدين أمير أميران هندوا ابن مودود ابن زنكي^(٣) نائباً بها عن أخيه عز الدين ، فواصل السلطان سنجار ، وضايقها ، وألح في قتالها ، ونصب عليها المنجنيق ، فهدم ثلثة من سور القلعة ، [فأخذها]^(٤) ووكل بها من يحفظها .

ودخل شهر رمضان فكفَّ السلطان عن القتال ، ثم بلغه أن الموكلين يحفظ تلك الثلثة نيام ، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه ، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان ، فلما أصبح شرف الدين [هندوا]^(٤) أذعن وسلم [القلعة وسنجار إلى السلطان]^(٤) ورحل بأهله وماله إلى الموصل ، ودخل السلطان

(١) رسمت في الأصل : "شاهرمن" .

(٢) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ؛ وفي س : "الصلح" .

(٣) صيغة س : "وكان بسنجار أمير أميران بن مودود بن زنكي إلخ" ، واسم هذا الرجل في الأصل ، "هندو" وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) ، ويلاحظ أن ابن واصل ينقل هنا عن الكامل لابن الأثير ، وعن الروضتين ، مجتمعين ، دون أن يصرح بذلك ، كما يلاحظ أن صاحب الروضتين ينقل كثيراً في هذا الموضوع عن العماد الكاتب .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٢ ب) .

إلى سنجار وإلى القلعة، ورتبها وأمر بعمارتها، وولّاها الأمير سعد الدين مسعود ابن معين [الدين] ^(١) أنر .

وذكر ابن الأثير أن جماعة من الأكراد الذين [كانوا] ^(١) بها كاتبوا السلطان وأشاروا عليه بقصد بعض النواحي، فقصدتها، فسلموا تلك الناحية إليه، فملك الباشورة ^(٢)، فضعف إذ ذاك قلب صاحبها، فسلمها بالأمان .

ثم رحل السلطان [٢٣٨] إلى نصيبين، فأقام بها لقوة البرد، وودع رسل الخليفة [ومضوا] ^(١)، وشكا أهل نصيبين من حسام الدين أبي الهيجا السمين، فعزله واستصحبه معه إلى دارا، وبها الأمير صمصام الدين بهرام الأرتقي، فتلقى السلطان أحسن ملتقى ^(٢) فأكرمه، ثم سار السلطان إلى حران، وأقام بها للاستراحة، وعاد كل إلى بلده، وعاد الملك المظفر تقي الدين إلى حماة .

ذكر وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه

ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، واستيلاء

ولده الملك الأجد بهرام شاه عليها

وفي جمادى الأولى من هذه السنة - أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة - توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ووصل خبره بذلك إلى السلطان، فأمر ولده الملك الأجد بهرام شاه على بعلبك وأعمالها، وأستتاب بدمشق مكان عز الدين شمس الدين محمد بن المقدم .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١١٢ ب) .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

(٣) بهذا اللفظ تنهى ص (١١٢ ب) من نسخة س، ثم تنقطع الصلة بينها وبين الأصل .

ذكر سيرته - رحمه الله -

كان عز الدين فرخشاه - رحمه الله - فاضلا أديبا ، كريما ، كثير العطايا
والبذل ، محبا للفضلاء ، متكثرا بهم ، حسن السيرة ، وكان قد احتضن الشيخ
الإمام تاج الدين أبا اليمن الكندي^(١) - رحمه الله - إمام عصره وفريد وقته
في الأدب ، فاستفاد منه ، واقتبس من علومه ؛ وللشيخ تاج الدين هذا
في عز الدين - رحمه الله - قصيدة أولها :

هل أنت راحمٌ عبْرَةٍ وتولِّهُ ومجيرٌ صبِّ عند مأمْنِهِ دُهْي ؟
هيهات يرحمُ قاتلٌ مقتولَه ! ويسنانه في القابِ غير منهنه
من بلٍّ من داءِ الغرامِ ؟ فإني مذ حلَّ بي مرضُ الهوى لم أنقَه
إني بليتُ بحبِّ أغيدَ ساحرٍ بلعاطِه ، رخصَ البنانِ بزهره
أبغى شفاءَ تدلُّهُ من دَلِّهِ ، ومتى يرقُّ مُدَلِّ لِدَلِّهِ ؟!
يا مفردا بالحسنِ إنك مُتَّهِ فيه ، كما أنا بالصبايةِ منتهى
قد لامَ فيك معاشرٌ ، أفاتهي باللومِ عن حبِّ الحياةِ ، وأنتَ هي ؟
أبكي لدَيْهِ ، فإن أحسَّ بلوعه وتشيقِ أومي بطرفِ مقهقه^(٢)

(١) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندي . انظر ترجمته في : (باقوت : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١ - ١٧٥) و (أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٦٥ و ٩٥ - ٩٨) و (السيوطي : بنية الوعاة ، ص ٢٤٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٧١) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٤) . و (ديوان ابن الساعاتي ، صفحات كثيرة منه) .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥) : "ويشقه أوما بطرف مقهقه"

[٢٣٩] أنا من محاسنِهِ وحالِ عنده حيرانُ بين تَفَكُّهِ وتَفَكُّهِ (١)
ضِدَّانٍ قَدْ جُمِعَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ لِي فِي هَوَاهُ بِمَعْنَيْنِ مُوجَّهِ

ومنها :

أنا عبدٌ من شَهِدَ الزمانُ بعجزِهِ عن أن يبيءَ له بندٌ مُشَبِّهِ
عبدٌ لعزِّ الدينِ ذِي الشرفِ الذي ذلَّ الملوكُ لعزِّهِ (٢) ، فرخنشه
طابت مواردهُ فغصَّ فَنَآؤُهُ وشدا الحُدَاةُ بذكرِهِ في المَهْمَةِ
يَفِيدُكَ كُلُّ مُمْلِكٍ مُتَّابِهِ أبدا بالسنةِ الرعاعِ مُمَدِّهِ
لا يفقهُ النجوى إذا حَدَّثَتْهُ وإذا بدأ (٣) بحديثِهِ لم يُفْقَهُ

قلت : مولد الشيخ تاج الدين الكندي - رحمه الله - سنة عشرين وخمسة مائة ،
وروى عن أبي منصور الجواليقي وغيره ، وتوفي بدمشق سنة ثلاث عشرة وستمائة ،
ومات وعمره ثلاث وتسعون سنة .

ولم تزل بعلبك بيد الملك الأجدد بهرام شاه بن فروخشا بن شاهنشاه بن أيوب
إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب - على ما سنذكره إن شاء الله - .

وملك بعلبك بعد الملك الأشرف أخوه الملك الصالح إسماعيل ، ثم ملكها
ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، ثم ابنه الملك المعظم

(١) الأصل : " بين تفكّه وتفكّه " والتصحيح عن الروضتين ، وقد عقب على البيت بالشرح
الآتي ، قال : " يقال : تفكّمت بالشيء أي تمتعت به ، وتفكّمت تعجيب ، ويقال أيضا تفكّمت
تندمت ، فهو في تفكّه أي تمتع بالمحاسن ، وفي تعجيب من حاله وتندم عليها " .

(٢) في الروضتين : " لعز عبد فرخشه " .

(٣) في الروضتين : " أتى " .

توران شاه، ثم ملكها الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز^(١) - صاحب حلب - ، ثم ملكها التتر ، ثم صارت بعده للملك المظفر قطز ، ثم ملكها بعده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، ثم صارت بعده لمولانا الأعظم الملك المنصور سيف الدين قلاوون^(٢) رحمة الله على سائر ملوك الإسلام أجمعين وعلى سائر المسلمين .

ذكر نصرة المسلمين على الفرنج بجزر القلزم^(٣)

لما صعب على البرنس أرناط - صاحب الكرك - ما توالى عليه من نكاية المسلمين المقيمين بحصن أيلة - وهي في وسط البحر لا سبيل للفرنج إليها - أفكر في وجه يتأتى له به فتحها ، فبنى سفنا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، وأوقف منها مركبين على جزيرة القلعة^(٤) ، تمنع أهلها استقاء الماء ، ومضى الباقيون في مراكب إلى عيذاب [٢٤٠] ، فقطعوا طريق التجارة ، وشرعوا في القتل والأسر والنهب ، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم .

(١) أنظر أسماء ملوك بعلبك من الأيوبيين وسنى حكمهم في : (زامبارو : معجم الأنساب والأمراء الحاكمة ، الترجمة العربية ، ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣) .

(٢) هذا استطراد من نوع الاستطرادات السابقة واللاحقة التي امتاز بها المؤلف في هذا الكتاب ، والتي دأب على إيرادها كلها عرض لذكر مدينة من مدن الشام ، فهو يتبع حاكمها إلى عصره ، وتفيد من هذا الاستطراد كذلك أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من تاريخه في حياة السلطان قلاوون ، وبعد سنة ٥٦٧٨ هـ ، وهي السنة التي تولى فيها هذا السلطان الحكم . أنظر أيضا ما فات هنا ص ٧٥ ، هامش ١

(٣) هو البحر الأحمر الحالي ، وسمى هكذا نسبة إلى مدينة القلزم التي كانت تقع في أقصى شمال خليج القلزم ، وقد خربت هذه المدينة في القرن الخامس الهجري ، وعلى أنقاضها نشأت مدينة السويس الحالية في القرن السادس الهجري ، وسمى الخليج بخليج السويس كذلك .

(٤) يقصد الجزيرة التي عليها قلعة أيلة فقد قال في صدر هذه الفقرة إن حصن أيلة كان في وسط البحر (أي في جزيرة) لا سبيل للفرنج إليها .

ووصل الخبر إلى مصر ، وبها نائب السلطان - وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب - فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ يعمر في بحر القلزم سراكب بالرجال البحرية ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجى عندها ، فأحرقه وأسر من فيه ، ثم سار إلى عيذاب (١) ، ودل على سراكب الفرنج ، فتبعها ، فوقع بها بعد أيام ، وأوقع بها ، وأطلق المأسورين من التجار ، ورد عليهم ما أخذ منهم ، ثم صعد البر ، فوجد هناك عربا نازلين ، فركب خيلهم ، وسار وراء المنهزمين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم جميعهم ، وكان ذلك في الأشهر الحرم ، فساق منهم أسيرين إلى منى لينحروا بها كما ينحر الهدى ، عقوبة لهم على قصد حرم الله وحرم رسوله ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسرى (٢) .

(١) كانت عيذاب ميناء هامة على بحر القلزم (الأحمر) يتهى إليها طريق الحج والتجارة الذى يبدأ من قوص على النيل ، وإليها تهى تجارات اليمن والحبشة والهند ، وكان الحاج من الغاربة يؤثرون هذا الطريق على غيره ليضادوا صعوبات الإبحار في بحر القلزم ، أو أخطار الطريق البرى عبر صحراء سيناء وبلاد العرب ، لأن عيذاب تقابل تفرجدة على الشاطئ العربى ، وتعتبر السفينة المسافة بينهما في ليلة واحدة . وقال (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٦) أن عيذاب تقع مكان « بيريس القديمة » ، غير أن محمد رمزى قال في تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٩ ، هامش ٢) أن هذا خطأ ، وأن موقعها كان جنوبى رأس أبو فاطمة على خط عرض ٢٢ درجة و ٢٠ دقيقة ، يقابلها من الغرب على النيل قرية أبو سنبل التى بمركز الدر الواقعة شمال بلدة وادى حلفا على بعد ٦٦ كيلو مترا منها . أنظر أيضا : (رحلة ابن بطوطة) و (خطط المقرئى) .

(٢) وزع الأسرى على المدن الكبرى ليشتروا بها ثم يقتلوا ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير عند نزوله بالاسكندرية الموكب الذى شهر فيه بعض هؤلاء الأسرى ، ووصف الحادثة وصفا فيه تكملة للعلومات الواردة هنا ، قال فى (الرحلة ، ص ٥٨ - ٦٠) : « ... لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ (ذو الحجة سنة ٥٧٨هـ) أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذناها ، وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تنظر له الأجداد إشفافا وجزئا ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا سراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أقدانها على جمال العرب المجاورين لهم بكرة اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بإحل البحر سمروا سراكبهم ، وأكلوا إناشها وتألينها ، ودفعوها فى البحر وركبها قاطعين بالحجاج ، واتهوا إلى بحر النعم (اليمن) فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا ، واتهوا إلى عيذاب =

وكتب الملك العادل إلى أخيه السلطان يعرفه ذلك ، فورد عليه كتاب السلطان
بأمره بضرب رقابهم ، بحيث لا يبقى منهم أحد ينجر عن ذلك البحر وطريقه ،
ففعل ذلك وكفى الله الحرمين الشريفين شر عدو الدين ؛ وكتب القاضي الفاضل
عن السلطان بالبشارة منه :

” فصل : كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا ، وافتضوا من البحر بركا ،
وعمروا صراكب بحرية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها
سواحل اليمن والحجاز وأنحنوا وأوغلوا في البلاد ، [واشتدت مخافة أدل تلك
الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب]^(١) وما ظن
المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوى^(٢) أشرطها ، والدنيا وقد طوى
منشور بساطها ، وانفطر^(٣) غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ،
وتراث أنبيائه^(٤) الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم - صلى الله عليه وسلم -

= فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا من البر قافلة كبيرة تأتي من قوص
إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يجبوا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بنجار من اليمن ، وأحرقوا
أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة - أعزهما الله - ، وأحدثوا حوادث
شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى روى إلى ذلك الموضع قط ، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع
شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا غازمين على دخول مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإخراجه
من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعايطهم
ما يحول عناية القدر بينهم وبينه ، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديهم
بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤمع أنجاد من المغاربة البحرين ،
فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العناية
الجبارية ، وأدركهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا
وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم إلى مكة والمدينة ، وكفى الله بجميل صنعه
الإسلام والمسلمين أمرا عظيما .

(١) ما بين الحاصرين زيادة عن نص الرسالة الوارد في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) .

(٢) الأصل : «مطوا» ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) في الروضتين : «وانتظر» .

(٤) الأصل : «بنيانه» ، وما هنا عن الروضتين .

ورجوا أن تسخذ البصائر آية [كآية]^(١) هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ،
ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل ، وكان للفرنج مقصدان :
أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز [و]^(١) مداخلة ، والأخرى
الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم [من]^(١) سواحله ، وانقسموا^(٢)
فرقتين ، وسلكوا الطريقين ؛ [٢٤١] فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه
قدر أن يمنع أهلها [من]^(١) ، مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقابلهم
بنار العطش المشبوب الشباه ، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقد
أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين ثبته ، [ويأخذ تجار اليمن ،
وأكارم عدن]^(١) ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح - والعباد بالله - المحارم ،
ويهبج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظام .

”وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب ، وفرقتها إلى الفرقتين^(٣)
وأمرها بأن تطوى وراءهم الشفتين فأما السائرة إلى قلعة أيلة فرنها انقضت على
مرابطي منع الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء ، فقذقتها قذف شهب
السماء مسترق سمع الظلماء ، [فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر
مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد ، فإن العربان
اقتصوا آثارهم ، والترموا إحضارهم ، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ،
ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة]^(١) “ .

”وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتادت في الساحل الحجازي إلى غابر^(٤) إلى سواحل
الخوراء ، [فأخذت تجارا وأخافت رفاقا ، ودلها على غوارب البلاد من
الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا]^(١) ، فهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن النص الوارد في (١١ الرضين ، ج ٢ ، ص ٢٧) .

(٢) الأصل : «واقسموا» : والتصحيح عن الرضين .

(٣) الأصل : «وفرقتها فرقتين» وما هنا عن الرضين .

(٤) في الرضين : «رابغ سواحل الخوراء» .

المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها^(١) بعد إسلام المراكب ، فسلكوا في طريق الجبال مهاوى المهالك ، ومعاطن المعاطب ؛ وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب فشلوهم شلا ، واقتنصوهم أسرا وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا ، نهارا وليلا ، حتى لم يتركوا منهم نجبا ، ولم يبقوا لهم أثرا ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون^(٢) أسيرا [وسير هذا الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد^(٣)] .

ومن كتاب آخر :

« فصل : ومن جملة^(٤) الإشارات الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا ، غانما غالبا ، بعد نكايته في أهل الجزائر ، وإخراجه ما وجدته^(٥) فيها من الأعمال^(٦) والعمائر ، وفي جملة ما ظفربه في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة إلى عكا ، ومعها نجارون ليبنوا^(٧) بها شوانى ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون ، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكفى شرها المؤمنون ؛ ولئادم في المغرب عسكرا^(٨) قد بلغت أقصى إفريقية فتوحه^(٩) ، وعاود به شخص الدين في تلك البلاد روحه^(٩) »

- (١) بهذا اللفظ يلتق النص مرة أخرى بنسخة من (١٧٨) .
- (٢) كذا في الأصل و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧) ؛ وفي من (١٧٨) : « ما بنى وسبعون »
- وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ - ٣٧) مقتطفات من جملة رسائل كتبها الفاضل عن هذه الحادثة تريد إيضاحا ، فانظرها هناك .
- (٣) ما بين الحاصرتين عن من .
- (٤) كذا في الأصل ، والروضتين ؛ وفي من : « جماعة » .
- (٥) في الأصل : « وجدرا » ؛ والتصحيح عن الروضتين .
- (٦) الأصل وس : « الأعمار » ، والتصحيح عن الروضتين .
- (٧) الأصل : « ليبنوا » ، وس « ليبنوا » ، وما هنا عن الروضتين .
- (٨) يقابل هذه الفقرة في من جملة مضطربة ونصها : « عسكرا بلغت أقصى إفريقية وهي مفتوحة »
- (٩) نص هذه الفقرة في الأصل وفي من : « وعاود به شخص تلك البلاد روحه » ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

وفي هذه السنة - أعني سنة ثمان وسبعين^(١) وخمسمائة - أنعم السلطان بأعمال قلعة الهيثم على نور الدين محمد^(٢) بن قرا أرسلان صاحب الحصن^(٣) ، وكانت جارية في عمل [٢٤٢] الموصل ، فلما تسلمها سلمها إليه ؛ وكان نور الدين [محمود بن زنكي] - رحمه الله - حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه قطب الدين [مودود] وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم ، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة يمينه ووفاء بوعده ؛ ولما جاء نور الدين بن قرا أرسلان لمساعدة السلطان [صلاح الدين] في هذه السنة خصه عاجلها ، ثم وهبه قلعته الجديدة ، [وهي قريبة من نصيبين]^(٤) ووعدته بفتح آمد له .

ذكر اتفاق^(٥)

صاحب أخلاط وصاحب ماردين وصاحب الموصل
على حرب السلطان - رحمه الله -

وترددت رسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي - صاحب الموصل - إلى شاه أرمن^(٦) - كان ظهير الدين - صاحب أخلاط - يستنجده ويستنصره على السلطان ، فأرسل شاه أرمن^(٦) ظهير الدين إلى السلطان عدة رسل في الشفاعة

(١) الأصل : «سبعون» .

(٢) الأصل « محمود » والصحيح عن (الروضتين) و(وزامبارد) : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٤ .

(٣) المقصود « حصن كيفا » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) زيد للايضاح .

(٥) الأصل : « قاق » وما هنا عن س (١٧٨) وهو الصحيح .

(٦) رسمت في الأصل : « شاهرمن » .

إليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه ، فأرسل إليه مملوكه سيف [الدين] ^(١) بكتمر ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب منه أن يتركها ، وقال له إن رحل عنها وإلا تهدده بقصده ومخاربه ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فسوف في الجواب رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد وفارقه ^(٢) غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة ، وأخبر صاحبه الخبر ، وخوفه عاقبة الإهمال والتواني عنه ، فسار ظهير الدين من أخلاط وكان مخيا بظاهرها ، وسار إلى ماردين وصاحبها ابن أخيه وهو قطب الدين إيلغازي ^(٣) بن ألي بن تمرناش بن إيلغازي بن ارتق ، وقطب الدين ابن خال عز الدين صاحب الموصل وحموه ^(٤) ، وحضر مع ظهير الدين دولة شاه - صاحب بدليس وأرزن - ، وسار عز الدين - صاحب الموصل - في عسكره جريدة من الأتقال ، واجتمعت عساكرهم على حرزم ^(٥) ، وهي ضيعة من أعمال ماردين .

وكان السلطان قد ملك سنجار ، وعاد منها إلى حران ، وتفرقت عساكره كما ذكرناه ، فلما سمع اجتماعهم ^(٦) أرسل إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين - صاحب حماة - يستدعيه ، فوصل إليه مسرعا ، وأشار عليه بالرحيل إليهم ، وحذره آخرون ، فكان هوى ^(٧) السلطان في الموصل ، فرحل إلى رأس عين

(١) ما بين الحاصرتين عن س والروضتين .

(٢) س : « وفارق السلطان » .

(٣) س : « ابن ايلغازي » .

(٤) س (٧٨ ب) : « رجاء » وما بالأصل هو الصحيح ، فهو يقصد أن قطب الدين كان والد زوجة عز الدين صاحب الموصل .

(٥) س : « حزم » وقد ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت ، معجم البلدان) حيث عرفها أنها بلدة في واد ذات نهر جار ويسانين بين ماردين ودينيسر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصاري

(٦) س : « فلما سمع باجتماع العساكر مع صاحب المرسل » .

(٧) الأصل ، « هوا » والتصحيح عن س .

فلما سمعوا برحيله تفرقوا [٢٤٣] فعاد شاه أرمن إلى أخلاط ، واعتذر :
"بأنى أجمع العساكر وأعود" ، ورجع عز الدين إلى الموصل ، وأقام قطب الدين
بماردين ، وصار السلطان - رحمه الله - فتل حَرَمَ ، وهى منزلتهم التى كانوا
عليها عدة أيام .

ذكر منازلة السلطان آمد وفتحها

ثم سار السلطان إلى آمد ، فتل عليها يوم الأربعاء لثلاث^(١) بقين من ذى الحجة
من هذه السنة - أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة - بعد أن استأذن الخليفة
الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى ذلك ، فأذن له ، وكان صاحبها إذ ذاك
محمود بن ايكلى^(٢) ، وهو شيخ كبير كان الملك له بها من جهة السلاطين السلجوقية
ولم يكن له من الملك إلا مجرد الاسم ، وكان المتغلب على الأمر ومدبر الدولة
مؤيد الدين أبا على بن نيسان ، فتوفى وتولى ولده مسعود الأخر ، ومحمود
[ابن ايكلى]^(٣) محكوم عليه فى قبضته ، يذممه ويسقيه ويظهر أنه غلامه ،
وليس له معه حكم أصلا ، فإذا جاء رسول يحضره عنده ، ويسند ما يدبره إلى
تديره ، ويظهر أن الملك لمحمود وإنما هو نائبه ويتصرف تحت أمره ونهيه ،
ونصب السلطان المجانيق على آمد وضايقها .

(١) كذا فى الأصل ، وفى س : « للبتين بقين من ذى الحجة » ، وفى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص
٣٨) و (الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٨) : « يوم الأربعاء سابع عشر ذى الحجة » ،
وبالرجوع إلى (التوقيعات الالهامية) يتبين أن اليوم السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ كان
يوم الأربعاء ، ولم يكن يوم ٢٧ أو ٢٨ من هذا الشهر كذلك .

(٢) هو جمال الدين شمس الملوك محمود بن ايكلى (Ilaldi or Aikaldi) الأينالى ، حكم آمد من سنة
٥٣٦ إلى سنة ٥٧٩ حيث انتقلت إلى ملك صلاح الدين . أنظر : (ZAMBAUR : Op. Cit. p.139)

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٩)

ودخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو على حصار آمد ، وأساء مسعود ابن أبي علي بن نيسان المتغلب عليها السيرة ، ولم يعط الناس من الذخائر شيئاً ، ولا فرق فيهم ديناراً ولا قوتاً ، وقال : " قاتلوا عن نفوسكم " ، فقالوا (١) : " ليس العدو بكافر حتى نقاتل عن نفوسنا " ، فلم يفعل شيئاً ، وقاتلهم السلطان وزحف إليها وهي في غاية الحصانة والمنعة ، وسورها يضرب به المثل ، وابن نيسان على حاله في الشح ، وتصرفه تصرف من أدبرت عنه السعادة ، فلما رأوا الناس ذلك تهاونوا في القتال وأجنحوا إلى السلامة .

وكانت أيام بني نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وتضييقهم [عليهم] (٢) في مكاسبهم ، والناس كارهون لهم محبوبون لانقراض دولتهم ، وأمر السلطان أن يكتب على السهام إلى أهل البلد ويعددهم الخير والإحسان إذا أطاعوه ، ويهددهم إن قاتلوه ، فزادهم ذلك تقاعداً وتحاذلاً ، وأحبوا ملكه (٣) ، وتركوا [٢٤٤] القتال ، ووصل النقبون إلى السور فنقبوه وعلقوه ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان ، واستطالوا في الطلب ، فحين صارت الحال إلى ذلك أخرج مسعود بن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل يسأله أن يأخذ له الأمان لأهله وماله ، وأن يؤخر ثلاثة أيام ، حتى ينقل ما له بالبلد من الأموال والذخائر ، فسعى له الفاضل في ذلك ، فأجابته السلطان إليه ، وتسلم السلطان البلد في العشر الأول من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وأخرج ابن نيسان خيامه إلى ظاهر البلد ، وكان التقرير أن ابن نيسان يحمل في ثلاثة أيام ما قدر عليه من المال والأثاث ، وأعانه السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال ، ورام ابن نيسان نقل جميع ماله في تلك الأيام ، فتعذر عليه

(١) م : « فقال له بعض الناس » .

(٢) عن م .

(٣) في الأصل « ملكته » ، م : « وأحبوا ملكة السلطان » ؛ والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف أخبار حصار آمد وفتحها مع تغيير طفيف .

لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه ، فحمل البعض على الدواب التي أعانها السلطان بها ، وأسرق البعض ، وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ من الباقي ، ومنع عما بقي ، وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر فتركتها بحالها ، ولو كان ساعده التوفيق لأخرج بعضها في الحصار ، وحفظ سائر نعمه وأمواله ، وإذا أراد الله تعالى أمرا هيا أسبابه .

[ولما تسلم السلطان آمد أحضر بين يديه محمود بن ايكليدى الذى كان فى الظاهر صاحب البلد ، فرآه شيخا كبيرا فآكرمه وأحسن إليه وأمر نور الدين بالإحسان إليه^(١) وأن يقيم عليه ما يكفيه ، له ولأصحابه ، ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرما حتى مات - رحمه الله -]^(٢)

ذكر تسليم

السلطان آمد لنور الدين صاحب حصن كيفا

ولما تسلم السلطان آمد أنعم [بها]^(٣) على نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق - صاحب حصن كيفا - لأنه كان وعده بها ، فأنجز وعده ، وقد كان أبوه عانى^(٤) أخذها مرارا ، فأعجزه ذلك ، وقيل للسلطان قبل تسليمه آمد إلى نور الدين :

”إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار ، فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وأصحابك ، وسلمت إليه البلد فارغا لكان راضيا ، لأنه لا يطمع فى غيره“ .

فامتنع من ذلك ، وقال :

”ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع“ .

(١) بهذا اللفظ تنهى (ص ٧٩ ب) من نسخة ص ، ثم يضطرب ترتيب الصفحات بعد ذلك فى هذه

النسخة ونجد النص يتصل بعد ذلك فى (ص ١١٤٢) .

(٢) هذه الفقرة كلها زيادة عن ص (٧٩ ب و ١١٤٢) . ولا وجود لها فى الأصل ولا فى

الروضتين أو ابن الأثير .

(٤) الأصل وص : « ما نا » .

(٣) عن ص .

ثم عمل نور الدين بآمد دعوة عظيمة ، ودعا إليها السلطان وأمرائه ، وقدم له
ولأصحابه من ^(١) التحف والهدايا شيئا كثيرا ، واستحلفه السلطان أنه يظهر
العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان ^(٢) من معاداة أعدائه، ومصافاة
أوليائه ^(٣) ، وأنه متى استمده لقتال [٢٤٥] الفرتج سارع إليه وكانت هذه فعلة
جميلة من السلطان ، وإن كانت أفعاله وخلاله كلها جميلة ، فله دره ، ما كان
أسمحه وأكرمه !!

ففي ذلك يقول القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله ابن جعفر بن سناء الملك ^(٣) يمدحه
من قصيدة :

أَرْضُ الْجَزِيرَةِ لَمْ تَنْظُرْ مَمَالِكُهَا ^(٤) بِمَالِكِ فِطْنٍ أَوْ سَائِسِ دَرَبِ
مَمَالِكُ لَمْ يَدْبِرْهَا مُدَبِّرُهَا إِلَّا بِرَأْيِ خِصْيٍ أَوْ بِعَقْلِ صَبِي

(١) هذه الألفاظ غير موجودة في س .

(٢) نص س : « عدو من عاداه ، ومصافيا لمن صافاه » والأصل يتفق مع نص (الروضتين ج ٢ ،

ص ٤١) حيث ينقل عن العماد الكاتب .

(٣) هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ، أكبر شعراء مصر وأشعرهم
في العصر الأيوبي ، ولد في حدود سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ . كان أبوه يشرف
على شئون القاضي الفاضل أثناء تغيبه في الشام ، وهذا يفسر لنا سر إقبال الفاضل على ابنه هبة الله
وتقريبه له . والشاعر قصائد كثيرة في مدح الفاضل تضمنها ديوانه ونقل بعضها من ترجمه جواله ، وديوان
الشاعر لم ينشر بعد ، وتوجد منه نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداها مصورة عن نسخة في مكتبة
جامعة فواد الأول بالقاهرة ، والثانية في المكتبة التيمورية ، وله ديوان موشحات نشره أخيرا الدكتور
جودة الركابي الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة السورية ، وله كذلك مجموعة من الرسائل المتبادلة بينه وبين
القاضي الفاضل تحت عنوان « فصوص الفصول وعمود العقول » وتوجد منه نسخة خطية في المكتبة
الأهلية بباريس رقم ٣٣٣٣ ، ولا ستيفاء ترجمته وأخباره انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص
١١٢ - ١١٦) و (باقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢٦٥ - ٢٧١) و (العماد
الاصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، الجزء الأول : ص ٦٤ - ١٠٠ و ١٠٣) و (ابن
العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥) و (السيوطي : حسان المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٣٥)
و (ابن سناء الملك : دار الطراز ، مقدمة الناشر الدكتور جودة الركابي) و (GAWDAT RIKABI : La

Poésie Profane Sous les Ayyubides p.p.69-86) . هذا ولا ين سناء الملك كتاب مفقود هو

« روح الحيوان » اختصر فيه كتاب الحيوان للملاحظ .

(٤) الأصل وس : « بمالكها » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث أورد من

القصيدة آياتا أكثر مما أوردتها هنا ابن واصل .

حتى أتاهما صلاحُ الدين فانصلحتُ بعد الفساد، كما صَحَّتْ من الوصِبِ
واستعمل الجُدَّ فيها غير مكترثٍ بالجد، حتى كان الجُدُّ كاللعبِ (١)
وقد حواها فأعطى بعضها هبةً ، فهو الذي يهبُ الدنيا، ولم يهبِ
يُعطي الذي أخذتْ منه ممالكهُ ، وقد يَمُنُّ على المسلوبِ بالسلبِ (١)

ثم كتب السلطان إلى الديوان العزيز بالإنشاء الفاضلي في معنى فتح آمد
يقول فيه :

” فصل : (٢) وهو يتوقع في جواب هذا الفتح أن يمد بجيش هو الكلام ،
ورماح هي الأقاليم ، ونصر هو وافر العز (٣) ، ورشد (٤) هو فك المجز (٥) ،
وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها ، ولا دعوة قام فيها بعدما
تصاغرت دونه همم جيوشها ، ولكن لأن (٦) هذه الجزيرة الصغيرة [منها تنبعث
الجزيرة الكبيرة و] (٧) هي دار الفرقة ومدار الثقة ، فلوانتظمت في السلك
لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك ، وكان الكفر يلقي يديه (٨) وينقلب
على عقبه ، ويفشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويفزى من مصر برا وبحرا ،
ومن بلاد الشام سرا وجهرا ، ومن الجزيرة مدا وجزرا (٩) “ .

-
- (١) هذا البيت لم يرد في الروضتين .
(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤١) ، وفي س (١٤٢ ب) : « وقد »
(٣) كذا في الأصل ، وفي س ، والروضتين : (الأمر) .
(٤) س : « ورسد » ، والروضتين : « وترشيد » .
(٥) س والروضتين : « الحجر » .
(٦) الأصل ومن : « الآن » ، والتصحيح من الروضتين .
(٧) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .
(٨) الأصل : « تكف أيديه » ، وس : « وكان كف يديه » ، والتصحيح عن الروضتين .
(٩) س : « وحسرا » .

ثم جاءت رسل ملوك الأطراف إلى السلطان كل منهم يطلب الأمان لصاحبه ،
وأن يتخذ من جملة أنصاره ، منهم صاحب ماردين وغيره ، فرد السلطان
كل رسول منهم بإجابة مطلوبة .

ذكر فتح تل خالد وعين تاب

ثم رحل السلطان من آمد^(١) وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها ، فنزل
في طريقه تل خالد وهي من أعمال حلب ، فحصرها [٢٤٦] ورمها^(٢) بالمنجنيق
وطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلمها في المحرم من السنة .

ثم سار منها إلى عين تاب ، وبها ناصر الدين محمد [بن نهار تكين]^(٣) أخو الشيخ
إسماعيل خازن نور الدين - رحمه الله - وحاجبه ، وكان قد سلمها إليه نور الدين ،
فبقيت في يده إلى هذه السنة ، فلما نازله [صلاح الدين]^(٤) راسله وطلب منه
أن يقر الحصن بيده ، ويتزل إلى خدمة السلطان ويكون في طاعته ، فأجاب
السلطان إلى ذلك ، فتزل إلى خدمته ، فأقر السلطان عين تاب له إقطاعا .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على أسطول الفرنج

وفي العاشر من المحرم من هذه السنة - أعني سنة تسع وسبعين وخمسة -
سار أسطول [المسلمين]^(٥) من مصر فلقوا بطسعة^(٦) فيها ثلاثمائة مقاتل

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها أعظم مدن ديار بكر ، وقال هي بلد قديم حصين ركن
مبنى بالحجارة السود وعلى تشز ، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالحلال .

(٢) من "ورمى" .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ : ص ٤٢) .

(٤) زيادة عن ص .

(٥) عن ص و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٦) .

(٦) أظن ما فات هنا ص ٧٧ ، هامش ١

من الفرنج بالسلح التام ، ومعهم أموال وسلح يسرون به إلى فرنج الساحل ، فقاتلهم المسلمون ، وصبر الفريقان ، وكان الظفر للمسلمين فأخذوا الفرنج أسرى ، وقتلوا البعض وأبقوا البعض ، وعادوا بهم وبالغنائم إلى مصر .

ذكر وقعة بين المسلمين والفرنج بأطراف الشام

وفي المحرم من هذه السنة سار جماعة كبيرة من الفرنج إلى نواحي الدارون^(١) ينهبون ويغيرون ، فخرج إليهم المسلمون على طريق صدر وأبلة ، فاترح الفرنج من بين أيديهم ، ونزلوا بماء يقال له العسيلة ، فسبقو الفرنج إليه ، وأتاهم المسلمون وهم عطاش ، فأنشأ الله عز وجل سحابة عظيمة ، فمطروا منها حتى رروا ، وكان الزمان قيظا والحر شديدا في برمهك^٢ ، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ، ووثقوا بنصر الله سبحانه وتعالى عليهم ، وقاتلو الفرنج فنصرهم الله عليهم ، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد ، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ، وعادوا منصورين .

ذكر تخريب قلعة عزاز وكفرلاتا

وكان عماد الدين زنكي بن مودود صاحب حلب قد خرب في السنة الماضية قلعة عزاز في تاسع جمادى الآخرة خوفا من السلطان ، وخرب حصن كفرلاتا وأخذها من بكش^(٢) ، فإنه كان قد صار مع السلطان ، وقاتل أهل تلن باشر فلم يقدر عليها .

(١) كذا في الأصل ، وفي ص (١١٤٣) : "الداروم" ، واللفظان صحيحان كما ورد في (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٥٨٤ .

(٢) الأصل : "تلش" ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢) .

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر صلاح الدين على حلب

[٢٤٧] ثم سار السلطان إلى حلب فنازلها ، وذلك لأربع بقين من المحرم من هذه السنة - أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة - وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية ، وفي نزوله جرح أخو السلطان تاج الملوك بوري بن أيوب [فصعب على السلطان ذلك] (١)

واستدعى السلطان العساكر من الأطراف ، فاجتمع إليه خلق كثير ، ولم يجذ السلطان في القتال رجاء أن يأخذها بدون ذلك ، لكن الشباب والجهال (٢) والأصحاب تقدموا وقاتلوا ، والسلطان ينهزم فلا ينتهون ، ثم رحل السلطان من الميدان الأخضر إلى جبل جوشن ونهى (٣) عن القتال ، وقال :

”نحن هنا نستغل البلاد وما علينا من الحصن (٤)“ .

وأظهر أنه يريد أن ينفي المساكن بجبل جوشن ، ويتدير (٥) ويقيم ، ونفذ رسله [إلى عماد الدين صاحب حلب] (٦) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٤٣) .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : ”من أحداث حلب“ ، وليس بها لفظ : ”والأصحاب“ .

(٣) الأصل : ”ونها“ .

(٤) الأصل : ”الحسن“ ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث ينقل عن العماد : أما صيغة من فضطربة المعنى ونهها : ”نحن ها هنا نستغل بالبلاد وما علينا من الضرر شيء“ .

(٥) س (١٤٣) : ”ويريد أن يقيم“ .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س .

وكان مع عماد الدين بحلب عسكر كثير من النورية، وهم مجتهدون في القتال مجتهدون فيه، ورأى عماد الدين كثرة الخرج فشجَّ بماله، وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده، فقبل له^(١) :

”من يريد يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع نساءه“ .

فقال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها، فأرسل الأمير حسام الدين طمان الباروقى في سر إلى السلطان على أن يتسلم حلب ويرد على عماد الدين سنجاراً بلده، فأجابهُ السلطان إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقه وسروج، واشترط عليه إرسال العساكر في خدمته إلى الغزاة .

ولما تم الأمر بين عماد الدين والسلطان في السر أعلم عماد الدين الأمراء بذلك، وأذن لهم في تدير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جورديك وزين الدين بك، فبقوا عنده إلى الليل، واستحلفوه للعسكر وأهل البلد، فحلف لهم ولعماد الدين، وذلك في سابع عشر صفر من السنة .

ونخرجت العساكر إلى خدمة السلطان واجتمعوا به في الميدان الأخضر، وخرج إليه مقدمو حلب، فخلع عليهم، وطيب قلوبهم، وقبَّح أهل حلب على عماد الدين بيع حلب بسنجار وهو أجنس الأتمان^(٢)

[٢٤٨] مع قدرته على حفظ حلب والامتناع بها، حتى أن بعض عامة حلب أخضر إجانة^(٣) وفيها ماء، وناداه: ”أنت لاتصلح للملك [بل]“^(٤) تصلح أن تغسل الثياب“، وسمعه المكره .

(١) الأصل : ”قال“ ، والتصحيح عن س .

(٢) س : ”وهو أجنس الأعمال“ .

(٣) الإجانة المكنى الذي يغسل فيه الثياب . (اللسان) و(ابن سيدة : المنخص ، ج ٩ ، ص ١٦٠) .

(٤) عن س .

[قال صاحب التاريخ^(١)] : وبلغني أن العامة كانوا إذ رأوه صاحوا وقالوا :
”يا حمار ، يامن باع حلب بسنجان“ .

وأقام عماد الدين بقلعة حلب يقضى أشغاله وينقل أقمشته وخرائمه إلى يوم
الخميس ثالث عشر^(٢) صفر^(٣) .

ذكر وفاة تاج الملوك بوري^(٤)

ابن أيوب أنحى السلطان — رحمه الله تعالى —

وفي يوم الخميس^(٥) هذا توفي تاج الملوك من الجرح الذي أصابه [على حلب]^(٦)
وحزن عليه السلطان [صلاح الدين حزنا عظيما]^(٦) ، وجلس في الغزاء [ثلاثة أيام]^(٦)
وكان مولده سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فكان عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا .

(١) عن س .

(٢) الأصل وس : ”عشرين“ .

(٣) مقابل هذا اللفظ في هامش س (١١٤٤) : ”بلغ مقابلة“ ، ولعلها إشارة من النسخ
للدلالة على أنه وقف في مقابلة النسخة على الأصل عند هذا اللفظ .

(٤) كان تاج الملوك بوري أصغر أخوة صلاح الدين جميعا ، وكان يبشر بمستقبل طيب ، فقد كان شجاعا
وشاعرا ، وتذكر المراجع أن له ديوان شعر (ولكنه غير موجود) . أنظر أخباره وترجمته في : (ابن
خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢) و (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ١٤ ب)
و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ و ٤٤) و (الدكتور الشيال : شاعر من البيت الأيوبي ، مقال بجملة
الثقافة ، العدد ١٣٠ ، ٢٤ ، يونيو ١٩٤١) . و بوري كلمة تركية معناها الذئب .

(٥) مكان هذا اللفظ في س : ”ثالث وعشرين صفر“ .

(٦) عن س .

ذكر سيرته^(١)

كان فاضلاً أديباً شاعراً ، وله ديوان شعر مشهور ، ومن جملته بيتان في ذكر صوم رمضان قالهما علي سبيل المداعبة^(٢) :

رمضانُ ، بل رمضان ، إلا أنهم أخطوا إذا في قولهم وأساؤا
مرّضان^(٣) فيه تحالفا ، فنهاره سل ، ولكن ليله استسقاء^(٤)

وفي ذلك اليوم الذي توفي فيه تاج الملوك نزل عماد الدين زنكي [من قلعة حلب]^(٥) إلى خدمة السلطان وعزاه وسير معه في الميدان الأخضر ، وتقررت بينهما القواعد ، وأنزله عنده في الخيمة ، وقدم تقدمه سنية وخيلا ، وخلع عليه ودلى جماعة من أصحابه [خلعة من ملابسه]^(٦) ، وسار عماد الدين من يومه إلى سنجار .

وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين ، غير مكترث بأمر حلب ، ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين لثلاث بقين من صفر ، ثم صعد القلعة في ذلك اليوم ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة ، وكان تخلف لأخذ ما لعاد الدين من قماش وغيره .

(١) هذا العنوان غير موجود في م ، وإنما مكانه : " قال صاحب الكتاب "

(٢) الأصل : " الملاعبة " وما هنا عن م .

(٣) الأصل : " رمضان " والتصحيح عن (شفاء القلوب ، ص ٤١ ب) .

(٤) نص البيت في (شفاء القلوب) :

رمضان فيه تحالفا ، قناره عطش ، وسائر ليله استسقاء

(٥) عن م .

(٦) عن م (١١٤٤) ، وانظر بيان هذه الخلعة والتقدمة التي قدمها صلاح الدين لعاد الدين

في : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٥) .

وهنا الشعراء السلطان الملك الناصر صلاح الدين بملك حلب ، ومن امتدحه
وهنا بذلك القاضي محي الدين بن زكي الدين بأبيات منها :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشرا بفتوح القدس في رجب

فكان ذلك فالا عجا ، فان القدس فتحت في رجب ؛ ولكن في غير
هذه السنة [٢٤٩] على ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ومدحه القاضي السعيد بن سناء الملك بقصيدة أولها :

بدولة الترك عزت ملة^(١) العرب ، وبابن أيوب ذلت شيعه الصليب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة
مظفر النصر ، مبعوث بهتية
والدهر بالقدر المحتوم يخدمه ،
وتجتلى الخلق من راياته هماً
وبابن أيوب ذلت شيعه الصليب
من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب
بالصفيح ، والصليح ؛ أوب الحرب والحرب
إلى العزائم ، مدلول على الغلب
والأرض بالخلي ، والأفلاك بالشهب
مبيضة النصر من مصفرة العذب

ومنها :

أتى إليها يقود الجيش ملتطماً ، فالبيض كالموج ، والبيضات كالحب
تبدو القوارس منها في سوابغها بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستسلمين ، ولولا أنهم حفظوا عوايد الحرب لاستغنوا عن الناب
^(٢) جمالم من مغازيمهم إذا فعلوا

(١) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) : " دولة العرب " ، وهذا هو البيت الوحيد الذي
أورده صاحب الروضتين من القصيدة ، ثم أورد أبياتا أخرى غير التي اقتبسها هنا صاحب مفرج الكروب .

(٢) ص (١٤٤ ب) : " جمالم من سمارهم اذا حملوا " .

ومنها :

فطاف منها بركن لا يقبله
بك العواصم طابت بعد ما خبثت
فليت كل صباح در شارقه
ألهى مديحك شعري عن تغزله ،
فلم أقل فيه : لا (٣) إن الصباية بي
إلا أسنة أطراف القنا السلب
بمالكها ، ولولا أنت لم تطب
فذا ليل (١) فتي الفتيان في حلب
بجاء مقتضياً في إثر (٢) مقتضب
يوم الرحيل ، ولا إن المليحة بي

ذكر فتح حارم

كان بقلة حارم مملوك من الممالك النورية يقال له سرخك (٤) ولأه بها الملك الصالح إسماعيل ، فامتنع من تسليمها إلى السلطان ، فقال له : « اطلب من الإقطاع ما أردت » ، ووعده الإحسان ، فاشتط (٥) في الطلب ، وترددت الرسائل بينهما ، وراسل الفرنج ليحتمى بهم ، فسمع من بها من الأجناد أنه يرسل الأفرنج ، فخافوا أن يسلمها إليهم ، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه ، وأرسلوا [إلى] السلطان يطالبون منه الأمان والإنعام ، فأجابهم [٢٥٠] إلى ما طلبوا ، وحلف لهم ،

(١) س : " فذا اليك "

(٢) س (١١٤٥) : " وفي ليل "

(٣) س : " إلا "

(٤) الأصل : " مرخاب " ، وفي س : " مرحاب " ، وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٧) و (أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٧) و (شفاء القلوب ، ص ٢٨ ب) .

(٥) س : " واشترطت عليه في الطلب "

ورحل من حلب إليهم لليلتين بقيتا من صفر ، فوصلها لليلة بقيت منه ، وبات بها ليلتين [بعد تسليمها] ^(١) ، وقرر قواعدها ، وولى فيها إبراهيم بن شروه ، وعاد إلى حلب ، فدخلها ثالث ربيع الأول [وأخذ المملوك النورى المتولى فأطلقه من محبسه ، ولم يستخذه ، ووفى للأجناد الذين كانوا بها بما وعدهم ، وزادهم] ^(١) ، ثم أعطى العساكر دستورا ، فسار كل منهم إلى بلده ، وأقام بحلب يقرر قواعدها .

وخاف أهل أنطاكية من السلطان ، فأرسل صاحبها جماعة من أسرى المسلمين ، وانقاد ، وسارع إلى اللياذ بعفو السلطان وأمانه [قبله السلطان] ^(١) .

وولى السلطان القضاء بحلب لمحى الدين بن زكى الدين ^(٢) ، واستتاب فيها زين الدين [أبا البيان] ^(٣) نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى ، وكشف السلطان عن حلب المظالم ، وأزال المكوس ، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج ، وجعل الملك بحلب لولده الظاهر غياث الدين إيلغازى بن يوسف - رحمهما الله - وكان قد استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشام ، وأقر عين تاب على صاحبها ، وأعطى تل خالد وتل باشر للأمير بدر الدين دلدريم بن بهاء الدين ياروق ، وأعطى قلعة عزاز للأمير علم الدين سليمان بن جندر ^(٤) .

(١) عن من .

(٢) الأصل : "زكى الدين" ، وما هنا عن من (١١٤٥) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٣) عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٤) الأصل : "جندر" ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) . (١٢)

ذكر مسير السلطان من حلب إلى دمشق

ثم رحل السلطان من حلب يوم السبت لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة - أعني سنة تسع وسبعين وخمسمائة - فخرج إلى الوضيحي^(١) مبرزا ، واستنفض العساكر فخرجوا يتبعونه ، ثم وصل لست بقين من الشهر إلى حماة ، ثم إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، ووصل دمشق ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز إلى جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ، ثم رحل ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار ، وتعبا للقاء الكفار .

ذكر غارة السلطان على الفرنج

ثم سار السلطان حتى أتى القصير ، فبات به وأصبح على المخاض ، وعبروسار حتى أتى بيسان ، وقد أخلاها أهلها ، فأطلق المسلمون فيها النيران ، ونهبوا ما [كان قد تبقى]^(٢) فيها ، وكذلك فعل بأبراج^(٣) وقلاع وغيرها ، وصادفت مقدمة العسكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ، ومقدمهم ابن هنفري ، فقتل منهم وأسر ، وهرب الباقون [٢٥١] في الجبال .

وفي الحادي عشر من جمادى الآخرة بلغ السلطان اجتماع الفرنج بصفورية ، ورحيلهم إلى القولة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع ذلك تهبوا لقتالهم ، وسرى للقائهم ، فجرى بينه وبينهم قتال ، وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة ، وهم

(١) س : " إلى خان الأرضي " وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) حيث ينقل

عن بهاء الدين بن شداد .

(٢) من س .

(٣) الأصل : " بانزاح " والتصحيح عن الروضتين .

ينضم بعضهم إلى بعض يحمي راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا
سائرين حتى أتوا عين جالوت ، فنزلوا عليها ، وهم ألف وخمسمائة رمح ، ومثلهم تركبلى (١)

(١) الأصل «بركتلى» ، وس : «ركبلى» بدون قط ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ،
ص ١٨٣ ؛ ج ٢ ، ص ١٨٩) ؛ والتركبلى «Του κροπυλλοι» لفظة يونانية معناها أبناء
أو سلالة الترك ، ودوم مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم تلى في الأهمية فرقة
الفرسان ، وينحدر أفرادها من أب تركى (أو عربى) وأم يونانية ، ويبدو أن البيزنطيين بعد اتصالهم
بالأتراك السلاجقة وانهمامهم في وقعة «ملازكرد» كونوا هذه الفرقة من الفرسان التي تعتمد — تشبا
بالأتراك — على الكر والفر والحرب السريعة ؛ هذا ولم يحاول أحد من مؤرخى العرب القدامى
أو المحدثين تتبع تاريخ هذه الفرقة أو بيان أهميتها ، وقد بدا لي وأنا أتبع النصوص التي تذكر هذا المصطلح
أن الصليبيين عند ما مروا بأراضى الدولة البيزنطية أثناء حملتهم الأولى اقتبسوا نظام هذه الفرقة وكونوا
لأقسامهم فرقا كثيرة تحمل اسم «تركبلى» لعبت دورا كبيرا أثناء نضالهم مع المسلمين ، وأغرب من هذا
أنى عثرت على نصوص تفيد أن الجيوش الإسلامية بدورها اقتبست هذا النظام وكونت فرقا في جيوشها
تحمل اسم «تركبلى» راجع : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى ، ص ٥١)
(والمعاد الأصفهاني : الفتح القسى ، طبعة ليدن سنة ١٨٨٨ ، ص ٢٥٥) و(ابن الأثير : الكامل
في مواضع كثيرة منه) و (Hitti : *An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the*
Period of the Crusades New York, 1929, P. 42)

هذا وأقدم تعريف للفظ «تركبلى» ذكره (Raymond d'Agiles : *Historia Francorum* :
qui ceperunt Hierusalem. R.H.C. Hist. Occid III)

وقد ذكر هذا التعريف عند كلامه عن التركوبولى الموجودين في الدولة البيزنطية أثناء مرور الحملة
الصليبية الأولى ببلاد البلقان ، قال : «Turcopoli vel de matre Christiana, patre turco
• procreantur»

ومعناها : «التركوبولى هم نتاج أم مسيحية وأب تركى» .

وعرفهم مؤرخ صليبي آخر هو (Albert d'Aix : *Historia Hierosolymitana, R.H.C. Hist.*
• *Occid. IV. P. 434*)

تعريفا مشابها فقال : (Turcopoli, ex Turco patre et graeca matre procreati) ومعناها
• أن التركوبولى نتاج أب تركى وأم يونانية .

وهذه التعريفات تشرح المصطلح من حيث اشتقاقه اللفظى وتوضح الأصول الجنسية لجنود هذه
الفرقة ؛ وهناك تعريفات أخرى ذكرها مؤرخون صليبيون معاصرون تلقى ضوءا على طبيعة هذه الفرقة
من الناحية الحربية ، منها نص ذكره وليم الصورى (Guillaume de Tyr : *Historia Rerum in*
• *Paltibus Transmarinis Gestaruna, R.H.C. Hist. Occid. I P. 925*).

ونحمة عشر ألف راجل ، فقتلوا وخذقوا عليهم (١) ، ونزل (٢)
السلطان حولهم ، والجرخ (٣) تعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف ، وهم لا يخرجون

= وذكر ولیم الصوری هذا النص عند حديثه عن معركة قرب بليس بين عموري ملك بيت المقدس
وأسد الدين شيركوه ، قال (Erant praeterea nobis equites levis armaturae quos
(turcopolos vocant.)

وترجمة النص : « وكان يصحبنا جماعة من الفرسان المدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولي » .
وقال نفس المؤلف في موضع آخر (ص ١٠٩٧) عند حديثه عن حوادث سنة ١١٨٢ في الشام :
(Triginta sex levis Armaturae milites quos turcopolos appellant, interfecisse.)

وترجمتها : « وقتل في هذه المعركة ٣٦ فارسا مدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولي » .
راجع كذلك : (Barker : Assises de Jerusalem (R. H. C. Lois). P. 612 — 613) ;
(The Crusades. P. 40)

ومن العجيب أن هذه الفرقة ظلت موجودة في جيوش الصليبيين والمسلمين إلى وقت متأخر ، فقد
أشير إلى التركيب في نص الهدية بين السلطان الملك المنصور قلاوون وفرنج عكا في خامس ربيع الأول
سنة ٦٨٢ هـ فقد نص في هذه الهدية على أن يقدم بديل عن كل قتيل : « فارس بفارس ، وتركي
بتركي ، وناجر بناجر ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح... الخ » راجع نص الهدية في : (ابن القرات :
تاريخ الدول والملوك ، ج ١٤ ، ص ١٨٨ — ١٩٥ ، صور شمسية بدار الكتب المصرية
رقم ٣٢٩٧ تاريخ ، عن نسخة فينا) و(المقرزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٩١ ، نشر الدكتور زيادة)
ولاحظ أن الدكتور زيادة عند نشر هذه الوثيقة قرأ هذا المصطلح قراءة خاطئة ، فجعله « بركيلى » ،
وفسره تفسيراً اجتهادياً ، فقال إنه يعني رجل البحر المشرف على السفن .

(١) بهذا اللفظ تنتهى (ص ١٤٥ ب) من نسخة من وبذلك تنقطع الصلة مرة أخرى بينها وبين
النص الأصلي .

(٢) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٨٠) من نسخة من ، وبذلك يتصل النص في النسختين مرة أخرى .
(٣) في الأصل وفي من : « الجراح » وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) : « الجرخ » ،
والصحيح ما ذكرناه ، والجرح (Jarkh) مأخوذة عن الفارسية « تشرخ (Tcharkh) » — والجمع
جروح — وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النقط ، هكذا تصفه النصوص وهكذا
وصفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.) بأنه (Une arbalette avec laquelle on lançait, soit
des flèches, soit le naphte) ، وقد ذكر (مرضى بن على : تبصرة أو باب الألباب ، ص ٦ — ٨)
أربعة أنواع للقوس الرامى الذى يشبه المنجنيق ، وهى : قوس الزبار ، والقوس العتار ، والجرح ،
وقوس الرجل . ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النقط : « الجرنحى » ويقابله بالفرنسية
(Arbalétrier) والجمع « الجرخبية » . أنظر أيضاً (C. Cahen : Un Traité D'Armurerie Composé
pour Saladin. Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales. Damas, Tome XII. 1947 —
1948 p. 152.)

خوفا من المسلمين، فاتترح السلطان عنهم ليرحلوا، فيضرب معهم المصاف، فرحلوا نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة، فنزل تحت الخيل متقبا رحيلهم، فرحل الفرنج راجعين على أعقابهم، فرحل نحوهم وجرى من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة، فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان - رحمه الله - خوهم حتى نزلوا القولة راجعين إلى بلادهم، فعاد السلطان وقد نال منهم قتلا وأسرا وخرَّب كفرنبل^(١)، وبيسان، وزرعين وقرى عدة، ونزل الفوار، وأعطى الناس دستورا، فسار من آثار المسير، وسار هو إلى دمشق، فوصلها يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة.

ذكر منازلة السلطان الكرك

ثم سار السلطان إلى الكرك في رجب من هذه السنة - أعني سنة تسع وسبعين وخمسةائة - وحاز^(٢) في طريقه قبل الوصول إليها غنائم، وخيم على الربة^(٣) ثم وصل الكرك فحاصره ورماه بالمجانيق صباحا ومساء، وتناوب عليه الأمراء حتى خرج شهر رجب وما حصل على مطلوب، لكنه أكثر النكاية في العدو بأخذ أموالهم وتخريب ديارهم، ووصله الخبر أن الفرنج قد اجتمعوا بالواله على قصد المسلمين وتخليص الكرك، ورأى السلطان أن أمر الكرك يطول، فعول على الرحيل إلى دمشق.

(١) الأصل: "عفرنبل" وما هنا عن الرضتين.

(٢) الأصل: "جاز" والتصحيح عن "س" و(الرضتين، ج ٢، ص ٥١).

(٣) الأصل: "والدبة" وما هنا عن الرضتين.

ذكر استنابة السلطان الملك الناصر

لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين بمصر وتملك أخيه الملك العادل حلب

لما ملك السلطان [صلاح الدين] (١) حلب كاتبه أخوه الملك العادل (٢) - وهو ينوب عنه بمصر - يطلبها منه مع أعمالها ، [٢٥٢] ويدع الديار المصرية ، فكتب إليه السلطان يأمره أن يوافيه بالكرك ، فإنه سائر إلى فتحه . وأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستناب بالديار المصرية - موضع الملك العادل - الملك المظفر تقي الدين ، فاستصحبه السلطان معه إلى (٣) الكرك ، ووصل الملك العادل إلى السلطان وهو بالكرك ، فجهز [السلطان] (٤) الملك المظفر إلى مصر نائباً ، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل ، وأنعم على الملك المظفر بالأعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها (٥) ، وزاده القايات (٦) وبوش وأبقى عليه بالشام حماة وجميع أعمالها .

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (١٨٠) .

(٢) روى (ابن أبي طي) - وهو مؤرخ حلبى - (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) تفصيلاً هامة عن رغبة العادل في ولاية حلب وكيف حقق له صلاح الدين هذه الرغبة ، فانظرها هناك .

(٣) الأصل : "على" والتصحيح عن ص .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ص (١٨٠) .

(٥) في الأصل وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : "وجواليها" ولا معنى لها ، والتصحيح ما ذكرناه هنا ، والمقصود بالجوالى ضريبة الجزية المفروضة على أهل الذمة .

(٦) في الأصل : "القايات وقوس" وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : "القيبات وبوش" ، والأرجح أن تكون "القايات وبوش" فقد كانتا تعبران حتى العصر المملوكى من "الأعمال الفيومية" انظر : (ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ١٦٢ و ١٦٥) ، وقد ذكر ابن أبي طي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) أن السلطان أقطع تقي الدين "الاسكندرية ودمياط ، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش ، ثم عوضه عن بوش بمنود وحواف دسيس" .

وسار السلطان إلى دمشق وصحبته أخوه الملك العادل، فوصل إلى دمشق لست بقين من شعبان من هذه السنة، وأعطى أخاه الملك العادل حلب ثاني شهر رمضان، فسار إليها، وصعد قلعتها يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان وبها الملك الظاهر غازي، وسيف الدين باركوج^(١) وكان الملك الظاهر - - رحمه الله - من أحب الأولاد للسلطان، لما خُصَّ به من الشهامة والفتنة والعقل وحسن السميت والشفق بالملك، وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له، فلما دخل عمه الملك العادل إلى حلب خرج هو وسيف الدين باركوج^(١) سائرين إلى خدمة السلطان، فدخلوا دمشق يوم الاثنين ثامن عشر شوال، فأقام [في] ^(٢) خدمة والده لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده.

ذكر قبض

عز الدين - صاحب الموصل - على نائبه مجاهد الدين قايماز

^(٣) كان التدبير بالموصل مفوضا إلى مجاهد الدين قايماز^(٣)، وكان إليه أمر إربل وبلادها، وفيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي كويحك بن بكتكين، وهو صغير السن لاحكم له، وتحت حكمه أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، وهو أيضا صبي، والحكم والنواب لمجاهد الدين قايماز، ويده أيضا شهرزور وأعمالها، ونوابه فيها، ودقوقا ونائبه فيها، وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها، فأشار عز الدين محمود زلقندار،

(١) كذا في الأصل، وفي الروضتين: "باركوج".

(٢) عن "س" ص ٨٠ ب.

(٣) هذه الجملة غير موجودة في س.

وشرف الدين أحمد بن أبي الخير المعروف والده بصاحب الغزاف^(١) - وهما من أكابر الأمراء - على عز الدين بالقبض عليه^(٢) [٢٥٣] وفعلا في ذلك خلاف المصلحة ، فإن الأمور كانت به منتظمة ، والبلاد التي ذكرناها كلها في الطاعة ، فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين ، فأظهر أنه مريض ، وانقطع عن الركوب عدة أيام ، فدخل عليه مجاهد الدين [قيماز]^(٣) وحده ، وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء ، فلما دخل قبض عليه ، وركب لوقته إلى القلعة ، واحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين [قيماز]^(٣) ونزائنه ، وولى زلقندار قلعة الموصل ، وجعل ابن صاحب الغزاف^(٤) أمير حاجب ، وحكهما في دولته ، ولم يحصل لعز الدين من البلاد التي بيد مجاهد [الدين قيامز]^(٣) سوى شهرزور والعقر ، فأما زين الدين يوسف فامتنع بإربيل ، وامتنع أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي - صاحب الجزيرة - وراسلا السلطان بالطاعة له والركوب^(٥) في خدمته [فأجابهما إلى ذلك]^(٣) وأرسل الإمام الناصر لدين الله إلى دقوقا فحصرها وأخذها .

(١) الأصل : "صاحب العراق" وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الزاء .

(٢) في ص (١٨١) : "على قيامز" .

(٣) ما بين الحاصرتين عن ص .

(٤) الأصل : "صاحب العراق" ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذي ينقل المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الزاء .

(٥) الأصل : "الكون" والتصحيح عن ص

ذكر ورود رسل الديوان العزيز^(١)

إلى السلطان في الصلح بينه وبين صاحب الموصل

وأرسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي إلى الإمام الناصر لدين الله يسأل منه إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولاً وشفيعاً إلى السلطان ليستريح إليه ، ويستريح شهاب الدين بشير^(٢) الخادم ، [ففعل ذلك]^(٣) ، فلما وصلا إلى الموصل أرسل عز الدين معهما القاضي محي الدين أبا حامد بن القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري ، وسافر^(٤) في صحبتهما القاضي بهاء الدين بن شداد ، فخرج السلطان إلى لقاء رسل الخليفة ، فأنزله شيخ الشيوخ^(٥) بالرباط على المنيع ، والقاضي محي الدين في جوسق بستان الخلل^(٦) [ومعه القاضي بهاء الدين]^(٧) ، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان ، فأقاموا أياماً يراجعون في فصل أمر الصلح فلم يتفق ، وحصل من القاضي محي الدين ترفع في أداء الرسالة ، وغلظ^(٨) في الكلام ، فألان له السلطان ، وقال :

(١) س : " الرسل إلى السلطان " .

(٢) س (١٨١) : " ريسير الخادم " دون ذكر الاسم .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) س : " رسير أيضاً في صحبتهما " .

(٥) الأصل : " الشيخ " وما هنا عن س والروضتين .

(٦) هذه الكلمة غير موجودة في س .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٨١)

(٨) س : " وغلظ " .

”إنما (١) أفضى حاجته على ما أراد ، ولكن قد سبق مني يمين لأولئك
السلطين ، وأنا استثنيتهم (٢) وأردتهم إلى اختيارهم لى أوله “ - يعنى صاحب
إربل وصاحب الجزيرة -

فامتنع محي الدين ، وقال :

” لا بد من ذكرهما فى النسخة “ .

وأراد أن تكون الصداقة لمخدومه [٢٥٤] عن الدين دون سائر [ذوى] (٣)
المالك ، وأشار فى كلامه إلى أن لهم (٤) من ينصرهم من جهة البهلوان بن ايلدكز
ملك العجم ، فعظ ذلك على السلطان ، وكان ذلك محر كاله إلى أن يعود
إلى الموصل .

ورجعت الرسل من غير ظفر بطائل ، وكان رجوعهم يوم الخميس سابع ذى الحجة
من هذه السنة .

وأقام السلطان بدمشق ، والرسل ترد إليه من الجوانب ، فوصله رسول
معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، واستخلفه (٥) لنفسه وانتمى إليه ،
ورسل إربل [أيضا] وحلف لهم ؛ ووصل إلى السلطان أخوه الملك العادل
سيف الدين صاحب حلب يوم الاثنين رابع (٦) ذى الحجة ، (٧) فأقام عنده (٧) ،
وعيد وعاد إلى حلب .

(١) س : ”أنا“ .

(٢) الأصل : ” استثنيتهم “ وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٤) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وهو الأصل المقول عنه .

(٤) س : ” لصاحب الموصل من ينصره “ .

(٥) الأصل : ” واستخلفه “ والتصحيح عن س .

(٦) س : ” تاسع “ .

(٧) هذان اللفظان ساطعان من س .

ودخلت سنة ثمانين وخمسمائة والسلطان - رحمه الله - بدمشق، وقد انصرم
البرد [وطار البرد]^(١) وطاب الزمان ، وأرسل إلى [ملوك] الأطراف يطلب
العساكر، فجاءه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر من الديار المصرية^(٢) بالعساكر
المصرية^(٢) وصحبته القاضي الفاضل، وجاءه أخوه الملك العادل من حلب بعسكره،
وجاءته العساكر المشرقية ، وجاء نور الدين [بن قرا أرسلان] صاحب الحصن
وآمد ، واجتمعت العساكر برأس الماء ، فأشفق السلطان على نور الدين -
صاحب الحصن - من اقتحام المشاق ، فأقامه برأس الماء إلى حين العود ،
وأمر الملك العادل بالإقامة معه .

ذكر منازة السلطان الكرك

ثم سار السلطان^(٣) إلى الكرك ونازلها ونزل بواديها، وذلك لأربع عشرة ليلة
مضت من جمادى الأولى من هذه السنة - أعنى سنة ثمانين وخمسمائة - ،
ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب ، فهدمت السور المقابل لها ،
ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق ، وهو من الأودية الهائلة ، ولم يكن
من الحيلة إلا هدمه وردمه بكل ممكن ، فعد ذلك من الأمور الصعاب ، فأمر
السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الرض
إلى الخندق وتسقيفها وتلقيق ستارها^(٤) فتمت^(٥) دروبا واسعة لا يزحم فيها

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٨١ ب) .

(٢) هذان اللفظان ساقتان من ص .

(٣) تنقطع الصلة عند هذا اللفظ ثانية بين الأصل ونسخة ص .

(٤) الأصل : " شيا من برها " ولا معنى لها ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص

٥٦) وهو الأصل المتقول عنه هنا .

(٥) الأصل : " فبقيت " ، والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) :

الجاني الذاهب ، واجتمع رجال العسكر على نقل ما يرمى في الخندق ، فهانت
[٢٥٥] طم الخندق بالدبابات^(١) التي قدمت ، ونقب الأسراب وإحكامها ،
فوجد الناس إلى الخندق طريقا واسعا مهيبا ، فهم يزدحمون^(٢) آمنين من الجراح
والناس تحت^(٣) القاعة على شفير الخندق لا يستثمرون حذرا ولا يخافون وقع
المجارة والسهام ، وامتلا الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه من السور
ونجا بعد ما توالى من الفرنج رمى المجارة عليه .

ولما رأى الفرنج الذين بالكرك ما قد دهمهم من السلطان ، وخافوا أن يملكه ،
كاتبوا ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ
الحصن ، فسارت الفرنج في حدهم وحديدهم ، ونزلوا بالواله ، وهي مواضع
صعبة ضيقة المسالك ، فسار السلطان حتى نزل اللقاء على قرية يقال لها حسيان ،
ثم رحل منها إلى ماء عين ، والفرنج مقيمون بالواله ، فأقام أياما^(٤) ينتظر
تخرجهم من المكان الذين هم به ليتمكن منهم ، فلم يرحوا منه خوفا على أنفسهم
فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراعخ ، وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم ،
فساروا ليلا إلى الكرك ، فلما علم السلطان ذلك علم أنه لا يتمكن منهم حينئذ
ولا يبلغ غرضه .

ذكر إحراق نابلس وتخريبها

كان رحيل الفرنج إلى الكرك لأربع بقين من جمادى الآخرة ، فلما قصدوا
الكرك عزم السلطان على قصد الساحل لخلوه من العساكر ، فسار إلى نابلس

(١) الأصل : " الطم بالدبابات " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : " لا يزدحمون " والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الروضتين : " بجنب القلعة " .

(٤) الأصل : " أيام " .

ونهب كل ما على طريقه من البلاد ، ولما وصل إلى نابلس أحرقها ونهبها وقتل من فيها وأسر وسبها فأكثرت ، ثم سار عنها إلى سبسطية^(١) - وبها مسجد زكريا عليه السلام وبها كنيسة - وفيها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ، ورحل إلى جينين^(٢) فنهبا وخربها ، وعاد إلى دمشق ، ونهب ما على طريقه وخربه ، وبث السرايا يمينا وشمالا ينهبون ويخربون .

ومن كتاب لعاد الدين الكاتب يصف فيه صورة حصار الكرك :

” فصل : ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة^(٣) ، بل هو واد من الأودية ، واسع الأفنية ، لسهل المشرع ، وهجم الموضع ، فلم يبق إلا تدير طم الخندق ، والأخذ بعد ذلك من العدو بالخنق ، فعملنا دبابات قدمناها ، وبنينا^(٤) إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب [٢٥٦] باللبن سقناها وأحكناها ، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنة ، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة ، وقلوبهم ساكنة ، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، وقد تسنى طمها ، وتها^(٥) ردمه ، وتسارع الناس إليه ، وازدحموا عليه ، ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل ، متظر لبشرى نُجح الأمل ، قد تحاشدوا^(٦) حتى ازدحموا على تلك القلعة نهارا

(١) الأصل : ” سنسطية “ ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩١) وقد ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال لأنها بلدة من نواحي فلسطين ، بينها وبين البيت المقدس يومان ، وبها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام وجماعة من الأنبياء والصديقين ، وهي من أعمال نابلس .

(٢) الأصل : ” جيلين “ والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) الأصل : ” العادة “ والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

(٤) الأصل : ” وتبنا “ والتصحيح عن المرجع السابق ذكره .

(٥) الأصل : ” وتمس “ ، والتصحيح عن الروضتين .

(٦) كذا في الأصل ، وفي الروضتين : ” تجاسروا “ .

كازدحامهم^(١) في المصلى يوم العيد ، وليلا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف
السعيد ، وهم بحمد الله من الجراح سالمون ، وبنصر الله موقنون عالمون ، وإن أبطأ
العدو عن النجدة فالنصر سريع ، والحصن ومن فيه صديق ، وقد خرقت الحجارة حجابيه
وقطعت بهم أسبابه ، وتاولته من الأجل كتابه ، وحسرت لثام سوره ، وحلّت
نقابيه ، فأناف الأبراج مجذوعة ، وثنايا الشرفات مقلوعة ، ورؤوس الأبدان
مجزوزة ، وحروف العوامل مهموزة ، وبطون السقوف مبقورة^(٢) ، وأعضاء
الأساقف معقورة ، ووجوه الجُدُر^(٣) مسلوخة ، وجلود البواشير^(٤) مبشورة^(٥)
والنصر أشهر من نار على علم ، والحرب أقوم من ساق على قدم .

ومدح القاضي السعيد بن سناء الملك^(٦) السلطان بقصيدة يهنبه بها بعد انصرافه

عن الكرك وفتح نابلس ، وأولها :

وَصَدُّمُكَ وَاللَّاجِي يَعَانِدُ بِالْعَدْلِ ، فَكُنْتَ أَبَا ذَرٍّ ، وَكَانَ أَبَا جَهْلٍ
لَهُ شَاهِدَا زُورٍ مِنَ النَّهْيِ وَالنَّهْيِ عَلَيْكَ ، وَمِنْ عَيْنِكَ شَاهِدَا عَدْلِ

ومنها :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مِثْلِي لِأَنَّهُ يَعِيشُ بِلَا حَبِّ^(٧) ، وَمِجْمَا بِلِ خَلِّ
وَمَنْ كَانَ فِي هَذَا الْوَرَى مِثْلَ يُوسُفَ وَمَنْ أَيْنَ هَذَا الْمِثْلُ ؟ كَانَ بِلَا مِثْلٍ

(١) الأصل : "لازدحامهم" والتصحيح عن الروضتين .

(٢) الأصل : «مقورة» والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : «الجنود» والتصحيح عن الروضتين .

(٤) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

(٥) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) ، «منسوره»

(٦) أنظر ما فات هنا ص ١٣٧ ، هامش ٣

(٧) ديوان ابن سناء الملك (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ٤٩٣١ أدب) : «بلا صبر» .

تَنخَرُ^(١) له الأملأكُ ذُلًا وإِنَّمَا
أَعَادِيهِ مِنْ غَلْمَانِهِ فِي بِلَادِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَارِيَةٌ مِنْهُ عِنْدَهُمْ
إِذَا رَاسَلَ الْأَعْدَاءَ يَوْمًا فَإِنَّمَا^(٢)
[٢٥٧] له صَارِمٌ يُشْفِي بِهِ الدِّينَ صَدْرَهُ
تَغَيَّبَ^(٣) عِنَا سَيْفَهُ^(٤) بِجَيْعَةٍ ،
يَعْرُ إِذَا نَحَرَتْ لَدَيْهِ مِنَ الذَّلِ
يَصْرِفُهُمْ بَيْنَ الْوِلَايَةِ وَالْعَزْلِ
مَتَى مَا أَرَادَ اسْتَرْجَعْتُهَا يَدُ الْقَتْلِ
كَتَابُهُ كَالْكَتَبِ ، وَإِنْ حِيلَ كَالرَّسْلِ
وَيَنْجِزُ وَعَدَّ النَّصْرَ مِنْهُ بِلَا مَطْلٍ
فَمَا تَمَلَّا سَيْفَهُ حَلِيَّةً^(٥) الصَّقْلِ

ومنها :

وَمَا خَالَفَتْكَ الْجُرُودُ قَطُّ ، وَإِنَّمَا
وَأَرْجُلُهَا لَوْ قَطَعْتَ كَسَرْتَ بَيْنَ
جَنَّا أَهْلُ تِلْكَ الْقَلْعَةِ الشَّرَّ إِذْ رَأَوْا
غَدَا بَعَلُّهَا الْإِبْرَنْسُ يَلْعَنُ عَرْسَهُ
وَقَدْ رَجَمَتْهَا الْمَنْجَنِيْقَاتُ إِذْ زَنَتْ
وَصَبَحَتْ أُخْرَى صَبَّحَتْكَ بِأَهْلِهَا
فَنَابِلُسُ لَمَّا أَقَمَتْ بِرَبْعِهَا
أَحْسَوْا يَطْلُ لِلتَّحْرِيفِ ، بِخَاءِ هَمْ
لَتَلْحَقُ مِنْ عَادِيَتِهِ وَهِيَ فِي الشَّكْلِ
عَلَيْهَا لَهْمٌ ، وَالصَّلُّ يَسْعَى بِبِلَا رَجْلِ
هُوَ دِيهَا كَالْبَاسِقَاتِ مِنَ النَّخْلِ
بِهَا ، وَهِيَ لَا تَنْفَكُ مِنْ لَعْنَةِ الْبَعْلِ
هِنَاكَ بِشَيْخٍ كَافِرٍ جَاهِلٍ رَذَلٍ^(٦)
وَمَسَّتْكَ إِذْ مَشَيْتَ وَهِيَ بِبِلَا أَهْلِ
أَقَامَتْ لَهْمٌ حَقُّ الضِّيَافَةِ وَالنَّزْلِ
رَبِيعٌ مِنَ النَّيْلِ الْمَسْدَدِ بِالْوَبْلِ

-
- (١) الأصل : « نخر » والتصحيح عن الديوان .
(٢) الأصل : « كأنما » والتصحيح عن الديوان .
(٣) الأصل : « يغيب » ، والتصحيح عن الديوان .
(٤) الأصل : « لونه » ، والتصحيح عن الديوان .
(٥) الأصل : « بجليه » ، والتصحيح عن الديوان .
(٦) نص الشطره الثانية في الأصل : « بشيخ لعين كافر جهل نذل » ؛ والتصحيح عن الديوان .

ولم أر أرضاً جادها الغيثُ قبلها،
وما شرفوا بالماءِ والرنقِ إذ رأوا
ولم يبقَ إلا من سبأ الجيشُ منهم،
عذارى أسارى كجئت بشعورها،
وقد سُفِلتُ عن أدلها بأسارها،
يُكَبِّرُ فيها الله بالجامعِ الذي
وصَلَّيتَ فيها جُمعةً وجماعةً،
وعدتَ بفضلِ الله للخلقِ سالماً،
وتصبحُ تشكو بعده غلَّةَ الخَلِ
جيوشَكَ، لكن بالفوارسِ والرجلِ
وإن كان يسبي الجيشُ بالحدقِ النَجِلِ^(١)
بفرحها في الساقِ والمعصمِ العَبِلِ^(٢)
وأنت بحمد الله في أشغلِ الشغلِ
جمعتَ به بين الفريضةِ والنقلِ
يناديك الإسلامُ: يا جامعَ الشملِ
وأى زمانٍ لم تعد فيه بالفضلِ

ولما وصل السلطان إلى دمشق وجد بها رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله
— أمير المؤمنين — وهما: الشيخ صدر الدين عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبي سعيد
أحمد، وبشير الخادم، وكانا قد وصلا إلى دمشق والسلطان محاصر الكرك،
فمرضا بدمشق، ومات جماعة من أصحابهما، وكان الشيخ نازلاً بالمنبيع [٢٥٨]
وكان السلطان يعود في كل يوم؛ وكان قدومه في معنى تقرير الصلح
بين السلطان وبين عز الدين مسعود — صاحب الموصل — فلم يتقرر أمر،
فاستأذنوا في العود إلى بغداد قبل الشتاء، فأذن لهم فعادوا، فمات بشير الخادم
بالسخنة، ومات صدر الدين^(٣) بالرحبة، وكان صالحاً زاهداً، فدفن بمشهد

(٢) الأصل: « مسي »؛ والتصحيح عن الديوان .

(١) النص بالديوان: « بالساق » .

(٣) هو عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، ولد سنة ٥٥٠ هـ، وقال صاحب
(الروضتين، ج ٢، ص ٥٧) في ترجمته — نقلاً عن ابن القادسي —: كان شيخاً طائلاً في العلم
والدين والساد، ثابت الجنان في الحوادث المزججة والوقائع الباغنة المجلجة، شديد البديهة، صافي
الفكرة، جمع بين نظم الشعر وثر الترحل، وكان يرسل إلى الأطراف، ورتب في مشيخة الشيوخ منذ
توفي والده في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسة مائة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده
مشيخة الرباط صفي الدين إسماعيل، أنظر أيضاً (النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩٧) .

البوق^(١) ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلأ على الله تعالى ، وكان مولده سنة ثمان وخمسةائة .

ثم خرج السلطان من دمشق في شعبان من هذه السنة ، وخيم على سمع ، وأمر ابن أخيه الملك المظفر أن يرجع بالعسكر إلى مصر ، فسار في منتصف الشهر ثم رجع السلطان إلى دمشق فصام بها شهر رمضان ، وزجع كل عسكر إلى بلده .

وكانت رسل الخليفة لما قدموا على السلطان أفاضوا عليه الخلع ، فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعا جاءت لهم ، ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين قرا أرسلان - صاحب الحصن - ، وأعطاه دستورا ، فسار إلى بلاده .

وفي هذه السنة - أعني سنة ثمانين وخمسةائة - كتب السلطان لزين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك منشورا بإربل ومايجرى معها من البلاد والقلاع ، وذلك لما انفرد زين الدين عن صاحب الموصل واعتدى إلى السلطان ، ومن جملة المنشور :

” أن الله لما مكن لنا في الأرض ، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله ، ونقبل على إعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزوا أعدائه ، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا [في أرضه]^(٢) على استئزال نصره^(٣) من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء [هذه]^(٢) الفضيلة ،

(١) كذا بالأصل ، والذي ذكره ابن القادسي (المرجع السابق) أن صدر الدين توفي في رجب برجة مالك بن طوق ، ودفن في قبة إلى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحي .

(٢) ما بين الحاصرتين عن نص المنشور الوارد في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

(٣) في الروضتين : « نصر » .

يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد إلى الأرض
واتبع هواه ، وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه ، فإن تاب (١)
ورجع قبلناه ، وإن أصرَّ على غوايته أزلنا يده وعزلناه ” .

وعين له في المنشور إربل وقلعتها وأعمالها جميع ما قطعه الزاب الكبير :
شهرزور (٢) وأعمالها ، معاش (٣) بني قفجاق ، ومعاش بيت القرايلي ، الدست
والرزارية .

[٢٥٩] ووصلت رسل زين الدين إلى السلطان تخبره أن عسكر الموصل
وعسكر قزل — صاحب العجم — نزلوا إربل مع مجاهد الدين قايماز ،
وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم ، فكان ذلك مما حرك السلطان
على التوجه إلى الموصل لحصارها .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم سار السلطان من دمشق وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار على طريق
المغار وبيوس (٤) البقاع وبعلبك ، ثم ساروا إلى حمص ثم إلى حماة ، وأقام القاضي
الفاضل بدمشق ، وأقام السلطان بحماة إلى أن خرجت السنة .

(١) النص في الروضتين : « فإن أناب قبلناه » .

(٢) في الروضتين : « شهرزور » .

(٣) الأصل : « بنفايس » ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) الأصل : « المغاروسوس البقاع » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

وفي هذه السنة توفي قطب الدين إيلغازي بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين
نمر تاش بن إيلغازي بن أرتق ، وملك بعده ولده حسام الدين [يولق أرسلان] (١)
فقام بتدبير أمره نظام الدين ألبقش مملوك والده .

ودخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة والسلطان بحجة ، ثم سار منها إلى حلب ،
فالتقاه أخوه الملك العادل صاحبها ، واجتمعت العساكر بها ، ثم سار السلطان منها
في صفر ، وقطع الفرات ، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور ، ثم وصل حرّان
— وصاحبها مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك — وكان قد التقاه
بالبيرة ، وكان يرأس السلطان في كل وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ،
ويقوى طمعه في ذلك ، حتى أنه بذل له خمسين ألف دينار ، وأن يقوم بكل
ما يحتاج إليه من النفقات والغرامات ، فلما وصل السلطان إلى حرّان لم يرف له
بما بذل من المال ، فأنكر ذلك وارتاب به ، وظن أن ميله إلى أصحاب الموصل ،
ووشى الأعداء به ، وذكروا أن نيته قد تغيرت ، فحلف للسلطان أنه لم يتغير
وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره ، فقبض السلطان عليه ليتبين أمره ، وشاور
فيه أصحابه ، فأشار بعضهم باتلافه ، وبعضهم باستبقائه ، فعفا (٢) السلطان عنه
على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحرّان ، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ،
ثم رضى عنه بعد ذلك ، وأعيدت له القلعتان في آخر السنة لما حقق براءته .

ثم رحل السلطان من حرّان في ثاني ربيع الأول من السنة إلى رأس عين ،
ووصل في ذلك اليوم رسول الملك قايج أرسلان بن مسعود — صاحب بلاد
الروم — يخبره أن ملوك الشرق [٢٦٠] بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده

(١) الأصل : « حسام الدين يرتق » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (زامبارو : معجم الأنساب ،
الترجمة العربية ، ص ٣٤٥) ؛ وقد كان لتطاب الدين إيلغازي المتوفى ولدان صغيران هما : حسام الدين
يولق أرسلان ، وناصر الدين أرتق أرسلان ، وقد وليا الحكم الواحد بعد الآخر ، ولكنهما كانا تحت
سيطرة نظام الدين ألبقش ، الذي اغتاله ناصر الدين أرتق أرسلان في سنة ٦٠١ هـ .

(٢) الأصل : « فغنى » .

إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصرَّ على ذلك ، فرحل السلطان إلى دُنَيْسِر ، فوصلها ثامن ربيع الأول عماد الدين قرا أرسلان ، ومعه عسكر أخيه نور الدين - صاحب آمد والحصن - فالتقاهم السلطان واحترمهما وأكرمهما ، ثم رحل طالبا^(١) الموصل فوصل إلى نصيبين ، وجاءه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي - صاحب الجزيرة - فأكرمه السلطان ، ثم سار من أقرب الطرق من دجلة ، وتنكب طريق الدولعية ، فنزل على بلد آخر ربيع الأول ، ثم توجه إلى الموصل ، وخيم على الإسماعيليات .

وقدم عليه زين الدين يوسف - صاحب إربل - فأرسل السلطان - وهو على بلد قبل نزوله الإسماعيليات - القاضي ضياء الدين أبا الفضائل القسم ابن يحيى بن عبد الله بن الشهرزوري إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل ، وذكر أن أهلها يخطبون لسلطان العجم ، وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يرسلون الفرنج ، ويفرونهم على قصد بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت لأجل الازدياد في الملك ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله ، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، وردم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم ، وقطعهم عن مواصلة العجم ، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم ؛ فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أنحى صاحب الموصل عز الدين ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه ، وأبعده عما يستحقه بالإرث ، وقطع رحمه وأخافه ، ولو تمكن منه لأهلكه ، ولولا خوفه منه لما أفضى [إلى] ^(٢) هذا المقام ،

(١) الأصل : « طالب » .

(٢) ينقل المؤلف هنا عن العماد مع تغيير طفيف ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢٢ ص ٦٢) ، « . . لما التجأ إلى هذا الجانب ، ولما اختار الأجانب على الأقارب ، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين على . . . الخ » .

وما اختار البعيد على القريب ، وصاحب إربل جارهم ، وأبوه زين الدين هو
بيتهم ، وشيّد أمرهم ، وهو يشكو جوارهم في حقه وظلمهم له ؛ وذكر أيضا
الذي حفظ خوف صاحب الحديثة وصاحب تكريت منهم .

ذكر منازة السلطان الموصل

وهي المنازة الثانية

ولما خيم السلطان بالإسماعيليات شرع في إقطاع البلاد للجنود ، وسير الأمير
سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري ومعه الأمراء من عشيرته إلى بلد
الهكارية ، وأرسل جماعة من الأمراء الحميدية إلى العفر وأعمالها لافتتاح قلاعها ،
وأمر بصب الجسر ، [٢٦١] وعبر مظفر الدين بن زين الدين وغيره من الأمراء ،
وخيموا بالجانب الغربي .

وكان الحر إذاك شديدا ، فأمر السلطان بالكف عن القتال إلى أن يطيب
الزمان ، وتقدم بتحويل دجلة ، وكان ماؤها قد قل ، وذكر من له خبرة ونظر
في علم الهندسة أنه يمكن سدها وسكرها ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوى ،
ويعطش أهل الموصل^(١) إذا انقطع الماء عنها ، فلا يبقى إلا تسليمها ، وكان
أهل الموصل يعبرون إلى الجانب الشرقي فيقاتلون العسكر ثم يعودون .

(١) ذكر العماد (الروضتين، ج ٢ ، ص ٦٢) أن هذا الرأي عرض على أحد المهندسين المعاصرين
فأقره ووافق عليه ، أما هذا المهندس فهو «الفقيه العالم نجر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي ،
وكان مهندس زمانه» ؛ ونقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٦٣) فقرة من رسالة بقلم العماد أرسلت
إلى الديوان العزيز تشير إلى هذا الموضوع ، ونصها : «وذكر المهندسون من أهل الخبرة أنه يسهل
تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستق الماء منها ، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ،
ولا حصول ضرر في تضيق ولا تزال» .

وبلغ عز الدين صاحب الموصل أن نائبه بالقلعة زلقندار يكتب السلطان ،
فمنعه من الصعود إلى القلعة ، وعاد إلى الاقتداء برأى مجاهد الدين والصدور
عن رأيه ، وأقام السلطان بالموصل إلى آخر ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى
سنة إحدى وثمانين وخمسمائة —

ذكر رحيل السلطان عن الموصل

وورد على السلطان الخبر بوفاة شاه أرمن^(١) بن سجان صاحب أخلاط
في العشرين من ربيع الآخر ، وكان موته في التاسع منه ، ولم يخلف ولدا ذكرا
ولا ذاقراة .

وورد كتب أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخبطونه لها ، وهم خائفون
من العجم أن يملكوها .

وكان المقيم بالملك بعد شاه أرمن^(١) مملوكه سيف الدين بكتيمر ، وكان قد ورد
على السلطان رسولا من سيده وهو بسنجان ، فلما مات سيده شاه أرمن^(١) ،
وملك البلاد وأحبه الناس لحسن سيرته ، فسار نحوه البهلوان أتاك شمس الدين
محمد بن ايلدكز صاحب العجم ، فلما قرب منه خافه ، فسير إلى خدمة السلطان
من يقرر معه تسليم أخلاط إليه واندرجه في سلكه ، وكتب السلطان في ذلك
أيضا الوزير بأخلاط ، وهو مجد الدين ابن الموفق بن رشيق ، وأظهر للسلطان
المودة والمناصحة وهو على خلاف ذلك ، فطمع السلطان في ملك أخلاط والاستيلاء
عليها ، ورحل من الموصل في آخر شهر ربيع الآخر ، وقدم في مقدمته ابن عمه

(١) رسمت في الأصل : « شاهر من » ، وهو ناصر الدين سجان الثاني بن إبراهيم . انظر :

(زامباور : معجم الأنساب ، ص ٣٤٨) .

ناصر الدين مجد بن شيركوه ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وأمرهما أن يسيرا الى أخلاط من أقرب الطرق ، وسير السلطان إلى سيف الدين الفقيه ضياء الدين عيسى ، والأمير غرس الدين قايج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل إليها والبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فراسله [٢٦٢] سيف الدين وخوفه من السلطان ، وأشعر بأنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان .

وراسل الأمير مجد الدين ناصر الدين مجد أن يقيم على قرن ، فهو أشد للارهاب ، وإنما فعل ذلك خديعة ، وإنما كان مقصود سيف الدين والوزير دفع كل واحد من السلطان والبهلوان بالآخر ليتم بغرضهما ، ولا يمكن كل واحد منهما من البلاد ، ثم أحال الوزير الأمر على البهلوان ، وقال لرسول السلطان :

” إن البهلوان جاء ليتملك ، ولو استعجلتم لسهل الأمر “ .

واصطلح سيف الدين والبهلوان ، وأقره البهلوان على البلاد ، وجرت مراسلة بين البهلوان والسلطان ، وانفصل الأمر .

وفي رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة توفي نور الدين مجد بن قرا أرسلان - صاحب آمد والحصن - وولى بعده ولده قطب الدين سُكَّان بن مجد ، واستمر على طاعة السلطان .

ذكر استيلاء السلطان على ميا فارقين

وكانت لصاحب ماردين ، فوصلها السلطان في جمادى الأولى من هذه السنة ، وبها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين برتقش ، فحاصره السلطان وقتله ، ثم رأى أن أمر القتال يطول فراسل أسد الدين ورغبه في المهادنة والتسليم .

وكان بالبلد الخاتون ابنة نحر الدين قرا أرسلان أخت نور الدين الدارج، وهي زوجة ابن عمها قطب الدين إيلغازي بن ألي صاحب ماردین الذي توفي، فأحال أسد الدين الأمر إليها، فراسلها السلطان ورغبها، وضمن لها ما تطلبه، وأن يصاهر إليها، ولم يزل بها وبأسد الدين إلى أن أجابا، فقرّر لها السلطان كل ما كان باسمها وباسم خدامها، وطلبت حصن الهتّاخ^(١) لتكون هي وأولادها به، فأجيبت؛ وزوّج السلطان ابنه معز الدين إسحق^(٢) إحدى بناتها، وتسلم السلطان ميّاً فارقين.

وجاء قطب الدين سُكّان بن نور الدين - صاحب آمد - إلى خدمة السلطان، فأكرمه وأعادته إلى بلده ومعه وزيره قوام الدين أبو عبد الله مجد بن سماقة، وقتل غيلة في رمضان من السنة.

ذكر منازلة السلطان الموصل

وهي المنازلة الثالثة

ثم رحل السلطان وولى بتلك الديار مملوكه حسام الدين سُنقر الخلاطى، فنزل على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبان من السنة، وعزم أن يشق في ذلك المكان، فخرج [٢٦٣] إليه من الموصل أتايبيكات وفيهن ابنة الملك العادل نور الدين - رحمه الله - يشفعن إليه في الكف عن الموصل والرحيل عنها،

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميّا فارقين.

(٢) هو المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ، فكان أباه زوجه وهو في الحادية عشرة من عمره؛ ذكر صاحب (شفاء القلوب، ص ١٧٣) أنه توفي في ذي الحجة سنة ٦٢٥ هـ. انظر أيضا: (الروضتين، ج ١، ص ٢٧٦).

فأنزلهن وأكرمهن ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشار أكثرهم بإجابتهم إلى ما طلبن ، فقال له الفقيه ضياء الدين عيسى وعلى بن أحمد المشطوب :
” مثل الموصل لا تترك لامرأة ، فإن عز الدين ما أنفذهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد “ .

فوافق ذلك هواه ، وقال لهن : .

” قد قبلت شفاعتكن ، لكن لا بد أن نعمل ما تقتضيه المصلحة “ .

واعتذر إليهن ، فرجعن خائبات متلومات .

ذكر مرض السلطان ورحيله عن الموصل

ثم دخل شهر رمضان وبدأ بالسلطان مرضاً أزعجه وأقلقه ، فندم على ردّ النساء الأتابكيات وعدم قبول شفاعتكن ، فسير إلى عماد الدين زنكي بن مودود - صاحب سنجار - وأذن له في الدخول بينه وبين عز الدين - صاحب الموصل - في الصلح ، فدخل رسوله ، وهو وزيره شمس الدين بن عبد الكافي ، وشمس الدين قاضي العسكر من جانب السلطان إلى الموصل .

وكان من قبل قد سبق القول أن السلطان يتسلم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها ، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيح والرساق ، وبلد القرابلية وبني قفجان ، فدخل الرسولان إلى الموصل لأجل العهد على هذا الملتزم ، ورحل السلطان في سلخ شهر رمضان وهو في شدة من المرض ، ووصل إلى حران .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - :

” كان عز الدين - صاحب الموصل - قد سير إلى الخليفة يستنجد به ، فلم يصل منه زبدة ، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلت من

بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من النجدة ، فلما بانغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلووا بركة قابله وسرعة انقياده في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر ، وبهاء الدين الريب (١) وفوض إلى أمر النسخة “ .

ذكر انتظام الصلح بين المواصله والسلطان

قال بهاء الدين :

” فسرنا حتى أتينا العسكر — يعني بجران — [٢٦٤] ، والناس كلهم آيسون من السلطان ، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة ، فاحترمنا احتراماً عظيماً ، وجلس لنا ، وكان ذلك أول جلوسه من مرضه ، وحلف يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، أخذها من سنجر شاه وأعطاها المواصله ، وحلفتهُ يميناً تامة ، وحلفتُ أخاه الملك العادل ، وسرت عنه وهو بجران وقد تماثل ، واستمر الصلح ، وصالح الأمر “ .

وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان ، وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له في ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضربت السكة باسمه . وكان المرض لما أشد بالسلطان وصل إليه أخوه الملك العادل ومعه الأطباء ، وقام يضبط الأمور ، والجلوس في كل يوم في النوبتية (٢) الذي للسلطان ، وإقامة وظيفة السباط .

(١) الأصل : « بن الريب » والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة البوسفية ، ص ٥٦) .
(الروضتين ؛ ج ٢٢ ص ٦٤) .

(٢) النص عند العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٥) : ” والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية ؛ لتولى مصالح الرعية ؛ وإقامة وظيفة السباط ؛ والعمل في كل يوم بالاحتياط “ .

وكان الملك العزيز عماد الدين عثمان حاضراً مع أبيه ، خلف السلطان الناس لأولاده ، وجعل لكل منهم نصيباً معلوماً ، وجعل أخاه الملك العادل وصياً على الجميع ، وأكثر السلطان في مرضه من الصدقات ، وكتب بذلك إلى الشام والديار المصرية ، فلم يبق في سائر ممالكه من الفقراء والمساكين إلا من وصل إليه نصيب من رفته وبره وصدقته .

وذكر عماد الدين الكاتب قال :

” أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق صفي الدين بن القابض بأن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية^(١) ، فقال : ما عندي غير دنانير مصرية ، فقال : يتصدق بها مصرية “ .

ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام ، فبنت في أربعة أو خمسة أيام ، واستحضر من دمشق ولديه الصغيرين : الملك المعظم توران شاه ، وملكشاه^(٢) ، وأمهما ، فأسكنهما في تلك الدار مدة مقامه وسماها : ” دار العافية “ .

ولما تم الصلح بينه وبين المواصلة أهدى لعز الدين هدايا عظيمة ، ولوالدته ، ولزوجته ، ولابنة نور الدين ، وقوم ماسيره إليهم بما يوفى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والملبوس والطيب والأشياء المستطرفة .

(١) أنظر ما فات دنا ، ص ٧٦ ، هامش ٦

(٢) هما أخوان شقيقان لأم واحدة ، الأول الملك المعظم أبو منصور تورانشاه نحر الدين ، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ ، والثاني الملك الغالب أبو الفتح ملك شاه نصير الدين ، ولد بالشام في رجب سنة ٥٧٨ هـ ؛ انظر : (الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧) ؛ وقد ترجم (الحنبل : شفاء القلوب ، ٧٣ ب) للعظم تورانشاه ، فقال إنه كان كبير البيت الأيوبي ، وقد اشتغل بالعلم وحضر غير مصاف وكان ذا شجاعة وعقل ، ولما استولى التار على حلب اعتصم بقلعتها ثم سلها بالأمان ، وأدركه الأجل على قرب ذلك فتوفي في ربيع الثامن من ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ بحلب عن ثمانين سنة ، ردف هناك مدطير داره .

ذكر وفاة الملك القاهر

ناصر الدين محمد ^(١) بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص

[٢٦٥] وكان ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه في صحبة السلطان وهو مريض بجران ، فلما أشد مرضه توجه إلى إقطاعه ، وكانت له حمص والرحبة وتدمر وسامية ، فلما اجتاز بحلب أحضر جماعة من أجدائها ، ووعدهم وأعطاهم مالا ، ولما وصل إلى حمص أرسل جماعة من الدمشقيين ووعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات السلطان ، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها ، فعوفى السلطان ، وبلغ ناصر الدين الخبر ، فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى من هذه السنة - أعنى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة - وذلك أنه شرب حمرا وأكثر منه ، فأصبح ميتا .

استيلاء الملك المجاهد

شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى على حمص

فاقطع السلطان ما كان لناصر الدين لولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فلم يزل مالكا لحمص وبلادها إلى أن توفى بها في سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت مدة ملكه نحو من ست وخمسين سنة ، وملك بعده ولده الملك المنصور إبراهيم ، وتوفى بدمشق سنة أربع وأربعين وستمائة ، فملك بعده ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم ، فأخذت منه في سنة ست وأربعين وستمائة ، وملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك

(١) ترجم له (الحنبل . شفاء القلوب ، ص ١١) ترجمة مختصرة نقل معظمها عن ابن واصل ، وزاد عليها قوله : «وقيل إن السلطان اغتاله بسم ، وقيل مات بغاة» .

العزیز محمد بن الملك الظاهر غازی - صاحب حلب - ، فلم یزل مالکاً لها
إلى أن وطئت التتر البلاد وملكوها سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأعادوا حمص
إلى الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور ، ثم لما رجعت البلاد إلى المسلمين
أقره عليها الملك الظاهر ركن الدين ، ثم توفي الملك الأشرف في سنة اثنتين وستين
وستمائة (١) ، وهو آخر من ملك حمص منهم .

وكتب السلطان إلى الملك المجاهد يعزیه بأبيه :

” قد علمنا المصاب بوالده رحمه الله ، وعظم أجرنا وأجره فيه ، وإن كان
مضى لسبيله فولدنا أسد الدين - أحياء الله - نعم الخلف الصالح ، وإن انتقل
والده إلى دار البقاء ، فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء ، والبلاد والمعقل
باقية عليه ، مسلمة إليه ، مقررة في يديه ، وما مضى من والده - رحمه الله -
[٢٦٦] إلا عينه ، وولدنا قرة العيون ، وبه استقر السكون ، والحمد لله الذي
جبره كسر المصاب ، وألبسنا وأياه ثوب الثواب ، فليشرح ولدنا صدره ،
ولا يشغل سره ، ويعرف خواصه وأصحابه وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرها
أنهم باقون على عاداتهم “ .

وكان المندوب إليه في هذه الرسالة القاضي نجم الدين أبا البركات عبد الرحمن
بن الشيخ شرف الدين بن أبي عمرو ، وهو الذي تولى الحكم بحماة ، وتوفي بها .

وخائف ناصر الدين أموالاً جزيلة وذخائر كثيرة ، [و] قسم السلطان الميراث
لما قدم حمص ، وكان تحت ناصر الدين ست الشام المعروفة بالحسامية زوجة
ناصر الدين ، فصرف إليها ثمنها ، وقسم الباقي بين أسد الدين وأخوته ، على مقتضى
الشريعة المطهرة .

(١) هذا التاريخ يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وذكر عهاد الدين :

أن الخلف كانت تنيف قيمته على ألف دينار ، وأن السلطان ما أعاره طرفه ، بل تركه على أهل التركة .

وذكر غير العهاد :

أن السلطان أخذ ما جلت قيمته ، وأبقى الباقي ، وأن السلطان سأل الملك المجاهد أسد الدين :

” إلى أين بلغت من القرآن ؟ ”

فقال :

” إلى قوله تعالى :

” إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ،
وَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ” (١)

فعجب السلطان والحاضرون من فرط ذكائه مع صغر سنه .

ودخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، ففي أولها دخل السلطان إلى الشام ،
ووصل إلى حلب في العشر الأوسط من المحرم .

ذكر وصول

السلطان الملك الناصر - رحمه الله - إلى دمشق

م رحل السلطان - رحمه الله - إلى دمشق من حلب ، وصحبته أخوه الملك
العادل ، فوصل إلى حماة وبها ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين نحرار تكين
- صاحب بوقبيس - نائباً عن الملك المظفر تقي الدين عمر .

(١) السورة ٤ (النساء) : الآية (١٠) (م) .

ثم رحل إلى حمص فقرر أمورها، ورتب بها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، وكتب له منشورا بحمص وتدمر والرحبة ووادي بني حصين [والرحبة وزلبيا] (١)؛ وأمر بإسقاط المكوس (٢)، ورتب في ولاية القلعة (٣) الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شروة الهكاري، ثم نقله إلى حلب، ورتب بحمص مع أسد الدين أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، ولم يزل معه إلى أن ترعرع الملك المجاهد واستقل بالأمر.

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها في ثاني ربيع الأول من هذه السنة —
أعني سنة اثنين وثمانين وخمسمائة — .

[٢٦٧] ذكر قدوم الملك الأفضل

نور الدين علي بن السلطان علي أبيه بدمشق

كان الملك الأفضل بالديار المصرية ومعه ابن عمه الملك المظفر تقي الدين نائبا عن السلطان بالبلاد، ف وقعت بينهما منافرة بسبب أن الملك المظفر ربما كان ينقم على واحد ما، فيثقل عليه الملك الأفضل ويمنه من إيقاع مكروه به، فكتب إلى السلطان يشكو منه، وكان في نفس السلطان نقل الملك العزيز إلى مصر وتفويض ملكها إليه، فكتب إلى ولده الملك الأفضل يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمهم وأصحابه، فخرج بهم متوجها إلى الشام، فوصل

(١) الأصل : «ورائيا»، وما بين الحاصرتين عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العباد (الروضتين) : ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) المؤلف يختصر هنا عن العباد، والنص عنده (المرجع السابق) : «وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه : (وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرسوم التي يبيعها الترع، وهي : الحراج والأجور والزرع)» .

(٣) المقصود قلعة حمص .

دمشق يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، وخرج السلطان لاستقباله، وأنزله في القلعة في دار رضوان، وكتب إلى الملك المظفر أنه قد استقل أمره وزال عذره^(١)، ففرح بذلك، وخفى عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته.

ذكر استيلاء الملك الظاهر

غياث الدين ابن السلطان الملك الناصر على حلب

وهو الاستيلاء الثاني

لما قدم السلطان دمشق كان بها من أولاده الملك الظاهر، وكان قد تزوج ابنة عمه الملك العادل — رحمه الله — وليست هي بأم الملك العزيز محمد، وإنما هي أخرى توفيت عنده، ثم تزوج أختها أم الملك العزيز، فزار عمه الملك العادل، فقال له:

«قد نزلتُ عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي بإقطاع أين كان، وألزم الخدمة، ولا أفارق السلطان، فاطلبها من أبيك».

ثم جاء الملك العادل إلى السلطان وقال:

«هذه حلب مع رغبتى فيها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أنى أوتره بها».

فوقع الاتفاق بينه وبين السلطان على ذلك.

(١) الأصل: «عذره» ولا يستقيم بها المعنى، والتصحيح عن العماد (الرضتين، ج ٢، ص ٦٩).

والتمس الملك العادل من السلطان بلادا أونواحي بمصر ، فأجيب اليها ، وأقطعه البلاد الشرقية بمصر ، وتقرر أنه يسير إلى مصر نائباً عنه بها ، ويكون الملك العزيز عماد الدين عثمان السلطان بها ، ويكون الملك العادل أتابكه ومربيه والكافل له والمقيم [٢٦٨] بتدبير أموره كلها ، وكان الملك العادل شديد الحب له ، وكان الملك العزيز هو الذي سأل أباه أن يكون الملك العادل معه .

حكى القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - قال :

« قال الملك العادل : لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت لخدمة الملك العزيز والملك الناصر وجلست بينهما ، وقلت للملك العزيز : اعلم يا مولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا فما يخلو من يقول عنى ما لا يجوز ، ويخوفك منى ، فإن كان لك عزم تسمع فقل لى حتى لا آجى معك ، فقال لا أسمع ، وكيف يكون ذلك ؟ ثم التفت ، وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فى أقوال المفسدين ، وأنا فالى إلا أنت ، وقد قنعت منك بمنج متى ضاق صدرى من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير » .

ثم إن السلطان سير ولده الملك الظاهر إلى حلب ، وفى خدمته : حسام الدين بشارة شحنة ، و [شجاع الدين]^(١) عيسى بن بلاشق^(٢) واليا ، فوصل الملك الظاهر إلى العين المباركة يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة من هذه السنة - أعنى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة - وخرج الناس إلى لقائه يوم السبت تاسع جمادى الآخرة ، وصعد إلى القلعة ضحوة ، وفرح الناس به فرحاً شديداً ، وعدل فى الناس ، وأفاض عليهم وأبل فضله ، واستمر مالكا لها إلى أن توفى بها سنة ثلاث عشرة وستمائة ؛ وكان ملكها لها نحواً من إحدى وثلاثين سنة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧١) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : « بلاشور » .

وملك بعده ولده الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر [الى أن توفى] (١) في سنة أربع وثلاثين وستمائة .

فملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف ابن أيوب ولم يزل مالكا إلى أن ملك التتر الملاعين حلب في سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ثم صار الملك بها بعدهم للملك المظفر قطز ، ثم للملك الظاهر ركن الدين . فكانت مدة [٢٦٩] ملك الملك الظاهر بن صلاح الدين وأولاده لها نحسا وسبعين سنة وشهورا .

ذكر قدوم الملك المظفر

تقى الدين عمر إلى خدمة عمه السلطان بدمشق

ولما بلغ الملك المظفر ما استقرت القاعدة عليه من توجه الملك العزيز والملك العادل إلى الديار المصرية شق ذلك عليه وغضب ، وعبر بأصحابه إلى الجزيرة مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغرب ويستولى عليها ، فإن مملوكه قراقوش (٢) كان قد مضى إلى المغرب واستولى على نواحي منها — كما تقدم ذكره — وكاتب مولاه الملك المظفر يرغبه في تلك البلاد ، ويقول إن البلاد سايبة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيا السياق .

(٢) نظر (مصرج الكروب ، ج ١ ، ٢٣٦ ، هامش ٤)

فلما تجدد للملك المظفر ما تجدد عزم على قصد تلك البلاد وأخذها بسيفه ،
ومالت إليه عساكر مصر لبذله وشجاعته ، فعبر بعسكره إلى الجزيرة ، وقدم مملوكه
بوزابة^(١) في المقدمة .

ولما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فلم يسعه مخالفة عمه ،
وقبَّح عليه جماعة من الأكابر المشاققة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده

(١) الأصل : "موربا" وعند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠) "بوزبا" : وما هنا عن
(ابن الأثيرج ١١ ، ص ١٩٧) ؛ هذا ورواية العماد أكثر تفصيلاً في هذا الموضوع الهام ، فأثرنا نقلها
هنا لتتم الفائدة ، قال : " فعبر (أى تقى الدين) إلى الجزيرة مظهراً أنه يمضى إلى بلاد المغرب لينملكها ،
وكتب يسأل السلطان ألا يمنعه من سلوك مسلكتها ، وسمت همته إلى مملكة جديدة ، وأقاليم مديدة ،
وبلاذ واسعة ، ومدن شاسعة ، وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش ،
وسار إلى بلاد برقة فلحقها ، وحرزته الأمنية للنفاس من بلاد نفوسة فأدركها ، وتجاوز إلى إفريقية وهو
يكتب أبداً إلى مالكة الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة ، ويقول : إن البلاد سائبة ؛ فلما تجدد لتقى الدين
ما تجدد ، وتمهد لعمه العادل ما تمهد ، عادله ذكر المغرب ، فعبر بعسكره ، ومالت إليه عساكر مصر
لبذله ، وقدم مملوكه بوزبا في المقدمة ، فلما انتهى إلى السلطان خبر عزمه ، قال : لعمرى إن فتح المغرب
مهم ، لكن فتح البيت المقدس أهم ، والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم ، وإذا توجه
تقى الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في افتناء الرجال ، وإذا فتحنا القدس والساحل
طوينا إلى تلك الممالك المراحل ، وعلم نجاح تقى الدين في ركوب تلك الهبة ، فكتب إليه يأمره بالقدوم
عليه وكتب القاضى الفاضل إلى تقى الدين : " سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد
رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب والدستور إليه ، (يكفى الزمان فسا لنا نستعجل) ؛ يا مولانا :
ما هذا الواقع الذى وقع ؛ وما هذا الغريم من الهم الذى ما اندفع ؟ بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا
البلغة ، واليوم قد وهب الله هذه النعمة ، وقد كان الشمل مجموعاً ، والهم مقطوعاً ممنوعاً ، أفصبح الآن
الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت ، والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت ؟ يا مولانا : إلى أين ؟
وما الغاية ؟ وهل نحن في ضائقة من عيش أروى قلة من عدد أروى عدم من بلاد أروى شكوى من عدم ؟
كيف نختار على الله وقد اختار لنا ؟ وكيف ندبر لأقسنا وهو قد دبر لنا ؟ وكيف نتجمع الجذب ونحن
في دار الخصب ؟ وكيف نعدل إلى حرب الإسلام المنهى عنها ونحن في المدعو إليها من حرب أهل
الحرب ؟ معاشر الخدام والجيوش وأرباب العقول والآراء : أليس فيكم رجل وشيد ؟

تعقب رأى وانظر في أوانه فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يعضى الآراء صائبة ، ويلحظها بادية وعاقبة ، ولا خلت منه دار إن خلت فهيبات
أن تعمر ، ولا عدته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر .

في الحال ، والله يعلم ما يكون بعد ذلك ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وتوجه إلى دمشق ، وتلقاه السلطان ، وخيم على المصرى فوق قصر أم حكم ، فلما قرب ركب إلى موكبه ورحب به ، وفرح بوصوله فرحا شديدا ، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان من السنة .

ودخل دمشق واستمر على ما كان بيده من البلاد وهي : حماة والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، ثم أضاف إليه ميافا رقين وما حولها من البلاد والمعقل .

وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله ، وأخبرهم بتأخير عزم المغرب ، فامتثلوا الأمر ، وقدموا سوى زين الدين بوزابة^(١) ، فإنه مضى إلى المغرب واستولى على مواضع ، ثم قعده صاحب المغرب فأسره ثم أطلقه .

وفي هذه السنة دخل الملك الظاهر على ابنة عمه الملك العادل التي كان عقد عليها ، وذلك في السادس والعشرين من شهر رمضان ، ودخل الملك الأفضل نور الدين على زوجته ابنة ناصر الدين محمد [٢٧٠] بن شيركوه أخت الملك المجاهد صاحب حمص ، وذلك في شوال من هذه السنة .

ذكر مسير

الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى الديار المصرية

ولما تقررت القاعدة على ما ذكرنا سار الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى مصر ، فدخلوا القاهرة في خامس شهر رمضان .

(١) الأصل : "موربا" ، وعند العماد : "بوزبا" ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ،

وذكر بن الأثير :

أن السبب في الذي فعله السلطان في هذه السنة من نقل الملك العادل عن حلب وتوليها ولده الملك الظاهر ، ونقل الملك المظفر عن ملك [مصر] (١) وتسيير ولده الملك العزيز إليها ، أن السلطان لما مرض وعوفي وسار إلى الشام ، ساره يوما علم الدين سليمان بن جندر ، فخرى حديث مرضه فقال له سليمان :

”باى رأى كنت تظن أن وصيتك تمضى ، وأن أمرك يقبل ؟ كأنك تظن أنك كنت تمضى إلى الصيد وترجع فلا يخالفونك ! بالله أمانتى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟“

فقال :

”وكيف ذلك ؟“ - وهو يضحك -

قال :

”إذا أراد الطائر يعمل عشا لفراخه قصد أعلى الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب بيد أخيك ، وهذه حماة بيد تقي الدين ، وهذه حمص بيد ابن شيركوه ، وأحد ابنيك بمصر مع تقي الدين يخرج أى وقت شاء ، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد“ .

فقال له :

”صدق ، اكنم هذا الأمر“ .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى .

ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاهها للملك الظاهر ، وأخرج تقي الدين من ملك مصر ، وأعطاهها للملك العزيز ، وجعل معه الملك العادل ؛ ثم أعطى الملك العادل البلاد الشرقية ، ونقله عن مصر على ما سنذكره ، وأراد الاحتراز بجهدته عن أن تخرج البلاد من يد أولاده ، فلم ينفعه ذلك بعد وفاته لما أراد الله خلافه .

وتوفي في هذه السنة البهلوان بن ايلدكز ، وملك بعده أخوه قرا أرسلان .

وفي هذه السنة عصى معين [الدين] بن معين الدين بقلعة الراوندان ، وكان السلطان قد أعطاه [٢٧١] إياها ، فنازله علم الدين سليمان بن جندر في عسكر حلب ، فقتلها منه ، ونزل إلى خدمة السلطان .

ذكر انتماء القومص صاحب طرابلس

إلى خدمة السلطان^(١)

وكان السبب في ذلك أن الفرنج كان لهم ملك مجذوم ، وكان له أخت [ولم يكن له ولد]^(٢) ، فأوصى بالملك [لها ، وكان لها ولد صغير ، وأوصى أن يكون لولدها أيضا إذا كبر]^(٣) ، فلما هلك تزوج القومص بأخت الملك ، وربى ولدها المعهود له بالملك ، وهو طفل صغير ، فمات الصغير ، فانتقل^(٤) الملك إلى

(١) بهذا العنوان تبدأ ص ٨٢ من نسخة س ، وبذلك تعود للقارنة بين هذه النسخة والأصل .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س ، أما الملك المجذوم فهو بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (Baldwin IV, King of Jerusalem) وأخته هي : سيلا ملكة بيت المقدس (Sibylla, Queen of Jerusalem) وأما الطفل ابنها فهو بلدوين الخامس (Baldwin V, King of Jerusalem) ، وأما زوج الملكة سيلا فهو جى لوسنيان ملك بيت المقدس (Guy Lusignan, King of Jerusalem) أنظر : (RUNCIMAN: Op. Cit. vol. 2: pp. 442—451).

(٣) الأصل : ” فأوصى بالملك لابنها ” ، وما هنا صيغة س .

(٤) س : ” فثبت ” .

أمه ، ثم إنها [بعد موت ابنها]^(١) مدّت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب وتزوجته ، وهجرت القومص ، وفوضت الملك إلى ذلك المقدم ، فطلب من القومص حساب البلاد ، فوقع الخلاف بينهم بسبب ذلك ، فالتجأ القومص إلى ظل السلطان ، فقبله وقواه وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه ، فقويت منا صحته للمسلمين ، وبأين^(٢) أهل ملته ، وبث السرايا في بلادهم ، بخافوه^(٣) وحذروا مكروه.

ذكر ما اعتمده الابرنس صاحب الكرك

من الغدر بالمسلمين

كان الابرنس أرناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان وسأله ، فأمنت الطريق بين مصر والشام ، وتواصلت القبول ، حتى كان يمكن الذهاب والرجاء ، ثم إنه لاحت له فرصة في الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة ، فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الأجناد فأسروهم وحملهم إلى الكرك ، وأخذ خيلهم وعدتهم ، فأرسل إليه السلطان وقبّح فعله ، فأسامه^(٤) إطلاقهم فامتنع ، وأصرّ على عصيانه ، فنذر السلطان دمه ، وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح مهجته .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) س : " وأمنت " وما هنا هو الصحيح .

(٣) س : " بخافوه وصدروا عنه ولم يعودا يلاطخوه بشر " .

(٤) س : " وسأله " .

ذكر مسير السلطان

الملك الناصر من دمشق إلى الجهاد^(١)

وأقام السلطان بدمشق بقية سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر ، بجاءته من كل فج ، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهي السنة الغراء التي طهر الله فيها الأرض المقدسة من نجاسة الشرك بعد أن مكثت [٢٧٢] مرتبة في أيدي الكفار نيفا وتسعين^(٢) سنة .

ولما وصل السلطان إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل نور الدين بالإقامة هناك في بعض العساكر ، لتجتمع عنده الأمداد والنجد ، ثم سار السلطان إلى بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وأقام مرتقبا الحاج خوفا عليهم من غدر عدو الله الأبرس ، ولما وصل الحاج في صفر ، وخلا سر السلطان من شغلهم سار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك .

ثم وصلت العساكر المصرية ، فتلقاها بالقريتين ، وأمرهم بالانبات في أراضي الكرك والشوبك ، وأقام على ذلك شهرين ، والملك الأفضل مقيم برأس الماء ، وقد اجتمعت عنده الجحافل والجموع .

وكانت العساكر الحلبية تأخرت بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون ، وكان قد مات وأوصى لابن أخيه لاون .

(١) هذا العنوان غير موجود في س .

(٢) س : " اثنتين وسبعين " وما في المتن هو الصحيح .

فكتب السلطان إلى الملك المظفر تقي الدين - وهو بجماة - يأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثورته ، فوصل الملك المظفر إلى حلب ، ونزل في دار العفيف بن زريق ، وانتقل إلى دار طمان ، وخرج في تاسع صفر من حلب بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب غير مهمل

وقدم مظفر الدين [كوكبرى] بن زين الدين - صاحب حران - في العساكر الشرقية .

ثم قدم عسكر حلب مع بدر الدين دلدرم بن ياروق ، [صاحب تل باشر]^(١) فأنهض الملك الأفضل سرية إلى بلاد العدو ، والمقدم على عسكر دمشق صارم الدين قايماز النجمي ، فصبّحوا صفورية ، فأتاهم الفرنج والتقوهم ، فقتلوا من الافرنج^(٢) وأسروا^(٣) ، وهلك^(٤) مقدم الاسبتار ، وحصل في الأسر جماعة من فرسانهم ، وأفلت مقدم الداوية ، وعاد المسلمون سالمين غانمين ، وكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح .

وجاءت هذه البشرية إلى السلطان وهو بعد بنواحي الكرك والشوبك ، فسار إلى عشترا وخيم بها ، واجتمعت عنده العساكر الإسلامية ، وقد غصّ بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان في اثني عشر ألف مقاتل ، ثم رتب العسكر أطلابا^(٥) ، وسار يوم الجمعة لثلاث عشرة بقية من ربيع الآخر من السنة ،

(١) ما بين الحاصرتين عن ص (٨٢ ب) .

(٢) نص ص : " فهزم المسلمون الفرنج ، فقتل من الفرنج خلق كثير ، وأسروا الملك " .

(٣) عند هذا اللفظ تنهى ص ٨٢ ب من نسخة ص ، ثم يوجد خرم جديد مقداره صفحة .

(٤) الأصل : " لتلك " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦) .

(٥) انظر ما فات هنا ص ٥٩ ، هامش ٣

فأناخ ليلة السبت على خسفين ، وكان قد تقدم إلى ابن أخيه تقي الدين بمصالحة العدو [٢٧٣] الذي في ناحية بلد حلب ، فصالحهم وتوجه إلى حماة قاصدا خدمة السلطان ، ومعه عسكر الموصل ، ومقدمهم نحر الدين مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماردين ، فلحقوا السلطان بعشرا ، ثم رحل السلطان من خسفين إلى الأردن ، فنزل بغير الأخوان ، فأقام هناك خمسة أيام ، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم ، وأحاطت عساكره ببهيرة طبرية عند قرية تعرف بالضبيرة^(١) .

ذكر فتح طبرية

ثم رحل من هناك ، ونزل غرب طبرية على سفح^(٢) الجبل لتعبية الحرب ، منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلتهم ، فنزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، وزحف إلى طبرية ففتحها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، وامتنعت عليه القلعة وحدها .

ذكر وقعة حطين

وهذه الوقعة كانت مفتاح الفتوح الإسلامية ، وبها تيسر فتح بيت المقدس ، وكان من حديثها أن الفرنج — لعنهم الله — لما تحققوا باجتماع كلمة المسلمين ،

(١) الأصل : " بالصيرة " وقد صححت بعد مراجعة (الرضين ، ج ٢ ص ٨١) ، وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها موضع بالأردن مقابل لعقبة أفق ، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : « سطح » ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية .

وجاءهم مالا يعهد لهم مثله اجتمعوا وانتحوا ، وكان القومص قد باينهم
— كما ذكرنا — ، فدخل عليه الملك ، ورمى نفسه عليه ، فدخل معهم ووافقهم ،
فصففوا راياتهم بصفورية ، وحشدوا وجمعوا جموعهم ، وجاءتهم الأمداد
من سائر بلادهم الساحلية ، وجمعت عبرتهم خمسين ألفا ، ورفعوا صايب
الصلبوت^(١) ، وهو قطعة من الخشبة التي يدعون أن المسيح عليه السلام صُلب
عليها .

وانتظر السلطان بروزهم للمصاف فلم يبرحوا من صفورية ، فقصد طبرية^٤
— كما ذكرنا — ، وفتحها ، وامتنعت القلعة ، وبها زوجة القومص ؛ ولما
بلغه افتتاح بلده قامت قيامته ، وقال للفرنج :

” لا تعود لنا بعد اليوم ، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها “.

فوافقوه ورحلوا بجموعهم نحو السلطان لينعوه من أخذ قلعة طبرية ، ولما بلغ
السلطان حركتهم نحوه سر بذلك ، لأنه كان مقصوده لقاهم ، وإطفاء جمرتهم ،
إذ علم — رحمه الله — أنه لا يتيسر له أخذ [٢٧٤] البلاد إلا بعد ذلك ، فترك
على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، والتقى^(٢) العسكران
على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وحال الليل بين الفئتين ، وباتا على مصاف ،
شاكين في السلاح إلى صبيحة^(٣) الجمعة ، وهو الرابع والعشرين من ربيع الآخر ،
فركب العسكران وتصادما ، وذلك بأرض تسمى اللوبيا ، ولم يزل الحرب
بينهم إلى أن حجز الظلام ، فبات كل فريق في سلاحه .

(١) تذكر المراجع أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء الصليبيين عن الشام ، ثم استولى
عليه المسلمون عند فتحهم لهذه الجزيرة سنة ١٤٢٦ م ، على أنه بقي بتلك الجزيرة ، وراه هناك أحد الرحالة
الأوروبيين سنة ١٤٨٨ م . أنظر : (ZIADA : Mamlouk Conquest of Cyprus, p.102)

(٢) الأصل : ” والتنا “ .

(٣) الأصل : ” صبة “ وقد صحت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١) .

وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر على هياتهم ،
وقد حاز المسلمون عنهم ماء البحيرة ورائهم ، فلم يبق للفرنج إليه وصول ،
فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين ،
وكثرت فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار ، وصاروا كلما حملوا
ليتيسر لهم ورود الماء^(١) صدوا وردوا ، واستولى عليهم الأسر والقتل ،
فأووا إلى جبل حطّين ليعصمهم^(٢) من البلاء بعد أن انهزم منهم طائفة ،
وتبعهم طائفة من المسلمين ، فلم ينجُ منهم أحد .

وهرب القومص — لعنه الله — فلم ينجه إلا الهزيمة بحشاشة نفسه متوجها
نحو صور^(٣) ، وتبعه جماعة من المسلمين ، ولم يدركوه ، وكفى الله المسلمين
كيد .

وأحاط المسلمون بالباقيين الذين اجتمعوا^(٤) بجبل حطّين ، وهي قرية
عندها قبر شعيب النبي عليه السلام ، وضايقوهم ، وأشعلوا حولهم النيران
في حافاء كانت هناك ، فارتفع لهاها ، واجتمع عليهم حر الهاجرة وحر النار وحر
العطش وألم الجراح ، وخطوا خيامهم على ظهر التل ، فعاجلهم المسلمون عن
ضربها ، واشتد الطعن والضرب ، ودارت عليهم دائرة السوء ، وعلموا أنه
لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا على المسلمين حملات متداركة
كادوا يزيأون المسلمين — على كثرتهم — عن مواضعهم ، فثبت الله أقدام
المؤمنين ونصرهم ، ولم يحمل العدو حملة إلا وقتل منهم وأسر جماعة ، فوهنوا

(١) بهذا اللفظ تعود ثانية للقابلة مع نسخة من وإنما في (ص ١١٠) .

(٢) من : "ليمنهم" .

(٣) من : "صفورية" .

(٤) من : "أخروا" .

وهنا عظيمًا ، ولم يمكنهم نصب خيمة إلا خيمة ملكهم لا غير (١) ؛ وملك المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت (٢) ، فأيتنوا بعده بالبوار ، واشتجرو فيهم القتل والأسر ، وبقى الملك [٢٧٥] على التل في مائة وخمسين فارسًا .

لحكي ابن الأثير عن من حكى له عن الملك الأفضل نور الدين على
رحمه الله - قال :

” كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهده ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازأهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي ، قال : فنظرت إليه وقد علته كآبة ، واربدة لونه ، وأمسك بلحيته ، فتقدم وهو يصيح : ” كذب الشيطان “ ، فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا (٣) فصعدوا على التل ، فلما رأيتُ الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحتُ من فرجى : ” هزمناهم ، هزمناهم “ ؛ فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل هو مثل ما فعل أولا (٤) ، وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا : ” هزمناهم ، [هزمناهم] “ (٥) ، فالتفت إلى والدي فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة - يعني خيمة الملك - ؛ فهو يقول لي [ذلك] (٦) ، وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان ، فسجد شكرا لله تعالى ، وبكى من [شدة] (٦) فرحه “ .

(١) س (١١٠) : ” إلا خيمتين : خيمة ملكهم ، وخيمة أخرى “ .

(٢) انظر ص ١٨٩ ، هامش ١

(٣) س (١٠ ب) : ” فرجعوا الفرنج “ .

(٤) س : ” في النوبة الأولى “ .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س ، وكلية ” هزمناهم “ في الأصل وهو (ابن الأثير) مفردة غير مكررة .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ ب) .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملة [الثانية] (١) ازدادوا عطشا ، وكانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقا نزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد (٢) المسلمون إليهم ، وألقوا خيمة الملك ، وأسروهم كلهم .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

”ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بجوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة ، وفيه نيف وثلاثون (٣) أسيرا يجرمهم وحده لخذلان (٤) وقع عليهم ، وكان من جملة من وقع في الأسر : الملك كي (٥) ، وابرنس الكرك أرناط (٦) ، و [أخو] (٧) الملك جفري ، وأوك (٨) صاحب جبيل ، وهنفرى بن هنفرى (٩) ، وابن صاحب اسكندرونة (١٠) ، وصاحب مرقية (١١) [وأسروا من نجا من القتل من الداوية

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ اب) .

(٢) الأصل رس : ” فصعدوا ” والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٢) .

(٣) الأصل رس : ” وثلاثين ” والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة البوسفية ، ص ٦٣) .

(٤) الأصل : ” بخذلان ” والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : ” سلي ” رس : ” لي ” ، وقد صححناه بالمتن إلى الرسم الذي اعتادت الكتب

العربية المعاصرة أن تكتبه به ، وهو : (Guy of Lusignan, King of Jerusalem)

(٦) هو (Reynald of Châtillon) صاحب الكرك .

(٧) زيد ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) وهي زيادة ضرورية يستقيم

بها المعنى ، واسم هذا الأخ عند (RUNCIMAN : Op. Cit. Vol. 2. p.459) : (Constble Amalrio)

(٨) في الأصل : ” أولى ” ، وفي س : ” اودك ” ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢

ص ٧٨) واسم صاحب جبيل : (Hugh II Embriaco, Lord of Jebail)

انظر : (RUNCIMAN : Op. Cit. Vol. 2; p. 462-463)

(٩) هو : (Humphrey IV Lord of Toron) انظر (المرجع السابق ، ص ٤٥٩ و ٤٦٨) .

(١٠) س (١٠ اب) : ” اسكندرية ” وهو خطأ .

(١١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حصص .

ومقدمها ، ومن الاستبارية معظمها ، ومن البارونية من أخطاه البوار ، فأصابه وساءه الإسار [١]

قال عماد الدين الكاتب :

”فن شاهد القتل ذلك اليوم قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل“ .

ومذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين ، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدس روحه ، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة - رضى الله عنهم - برجل مثله ومثل [٢٧٦] نور الدين محمود بن زنكي - رحمة الله عليهما - ، فهما جددا الإسلام إبعده دروسه ، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه ، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين ، (٢) وكان أمره أعجب إذ جاء إبعده أن استولى الترعلى معظم البلاد الإسلامية ، وأيس (٣) الناس أن لا انتعاش للملة ، فبدد شمل التتار ، وحفظ البلاد الإسلامية (٣) ، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية

ولم ينج في الكسرة (٤) من ألوف الفرنج إلا أحاد ، وامتلات الأرض بالأسرى والقتلى ، ثم أمر السلطان فضرب له دهايز (٥) سرادقه ، فنزل وصلى الله تعالى فيه صلاة الشكر على هذه النعمة ، التي درج الملوك قبله على تمنى مثلها وماتوا بحسرتها ،

(١) في س : ”وصاحب اسكندرية ، والبارونية ، هولاي نجوا من القتل في الوقعة“
وفي الأصل : ”وأمرت الداوية والاستبارية والبارونية من نجا من القتل“ وهي عبارة مضطربة ،
والصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) وهو المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا ملخصا .

(٢) يقصد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

(٣) هذه الجملة ساقطة من س .

(٤) ص (١١١) : « الكرة » .

(٥) الدهليز هنا معناها الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب ، وهي خيمة كبيرة ينزل بها السلطان في الأوقات التي تنحل المعركة .

وأحضر ملوك الفرنجية ومقدميهم ، وأجلس الملك كى (١) إلى جانبه ، وأجلس البرنس إلى جانب الملك وفي نفسه وفاء نذره بقتله ، جزاء له على غدره ومكره ، فقرعه السلطان وأذكره ذنبه ، وقال له : "كم تحلف وتنكث؟" فقال الترجمان عنه : "إنه [يقول] (٢) قد جرت بذلك عادة الملوك " .

وأنس السلطان الملك (٣) وحادثه ، وأمر له بجلاب (٤) مثلوج فشربه ، وكان قد بلغ منه العطش مبلغاً عظيماً ، ولما روى ناول الابرنس ارناط القدح ، فشربه ، فقال السلطان للملك : "لم آذن لك في سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أماناً له " ، ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عين لتزولهم ، وركب السلطان ، ولم ينزل (٥) إلى أن ضرب السرادق الذي له وركزت أعلامه ، ثم عاد إلى سرادقه .

ذكر مقتل ابرنس أرناط صاحب الكرك

واستحضر السلطان الملوك ، ولم يبق عنده أحد سوى الخدم ، فأقعد الملك وجماعته في الدهليز ، واستحضر البرنس خاصة ، وواقفه على قوله ، وكان - لعنه الله - لما غدر بالقافلة الموجهة [من] (٦) الديار لمصرية [إلى الشام] (٦) قال : "قولوا لمحمدكم يخلصكم" .

(١) الأصل : « جفرى » وس (هجرى) والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في س : « الملك جفرى » هو خطأ .

(٤) ذكر في (اللسان) و (الجواليقي : المعرب ، ص ١٠٦) و (الملك المظفر يوسف بن رسول : المعتمد في الأدوية ، ص ٧١) أن الجلاب هو ماء الورد ، فارسي معرب ، وفي (Dozy : Supp. Dict. Arab) أنه الماء ينقع فيه الزبيب (l'eau dans laquelle on a laissé tremper les raisins secs) .

(٥) الأصل : "لم يزل" والتصحيح عن س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١١ ب) .

فقال له السلطان - رحمه الله - :

”ها أنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم“ .

ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، فسئل التَّمْجَاهُ^(١) [من وسطه]^(٢) وضربه بها فغل كتفه، وأتم عليه من حضر من الخدم، وعجّل الله بروحه إلى النار، فسحب وأخرج من الخيمة، [٢٧٧] فلما رآه الملك، وقد أخرج على تلك الصورة لم يشك أنه يثنى به، فخاف وارتاع، واستحضره السلطان وطيب قلبه، وقال :
”لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فتجاوز حدّه، بجرى عليه ما جرى“ .

ثم جمع السلطان الأسارى المعروفين إلى الناصح الفيدى^(٣) ليحملهم إلى قلعة دمشق، فتسلمهم أصحاب الناصح، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم، [ف فعل ذلك]^(٤)

ذكر فتح قلعة طبرية

”وبات الناس“^(٤) ليلة الأحد لأربع بقين من ربيع الآخر على أتم سرور، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله تعالى والتكبير حتى طلع الصبح من يوم الأحد، فتوجه السلطان إلى طبرية، وخيم بها، وراسل التومصية صاحبها، فأجابته إلى التسليم، وطلبت الأمان لها ولبن معها، فأمنوا وسلمت الحصن، [بما فيه]^(٢) وخرجت

(١) التَّمْجَاهُ - بالهاء - خنجر مقوس يشبه السيف القصير، وهو معرب اللفظ، الفارسي ”تمجه“ ويقال أيضا : ”تمجا“ و”تمجه“ و”تمشا“ ”تمشه“، انظر: (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٢) ما بين الحاصرتين عن ص (١١ ب) .

(٣) ص : ”الكندى“ . والتصحيح عن الماد (الروضتين، ج ٢، ص ٧٩) .

(٤) مكان هذين اللفظين في ص (١١ ب) : ”وبات السلطان رحمه الله ليلة الأحد هو والعسكر“ .

بما لها إلى طرابلس - بلد زوجها القومص - ، وذكر أن (١) القومص بعد وصوله عرضت له ذات الجنب ، فكانت بها منيته .

وولى السلطان طبرية لصارم الدين قايمار النجمي ، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل بلاد الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان إلى بلد حوران ، فصفت هذه كلها بأخذ طبرية للمسلمين .

ذكر مقتل الداوية والاسبتارية

ثم رأى السلطان أن عين المصلحة تطهير الأرض من هذين الجنسين النجسين ، فأمر بإحضار كل داوي واسبتاري ليمضى فيهم حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه (٢) بأسير منهما خمسين ديناراً ، فأتى في الحال بمائتين (٣) منهم ، فأمر بضرب رقابهم ، وكان بحضرته جماعة من أهل الدين والفقهاء والتصوف ، فسأل كل واحد منهم أن يقتل واحداً (٤) ، فأذن في ذلك ، فكل واحد منهم سل سيفه وقصد أن يقتل منهم قتيلاً ، والسلطان جالس والناس بين يديه صفوف ، فمن الجماعة من خارت (٥) قوته ، فامتنع وعُذر ، ومنهم من لم يؤثر ضربه ، فضحك منه ، وناب غيره منابه ، ومنهم من ظهرت نجابته ، وفرت ضربته .

(١) النص في س : " وذكر القومص بعد وصوله إلى طرابلس عرضت عليه " .

(٢) النص في س (١١٢) مضطرب وهو : " فجعل كل من يأتي منهما خمسين ديناراً ، فأبى ذلك " .

(٣) س : " ثلاثمائة " ، وفي (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) " مائتين " ،

والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) أكثر إيضاحاً فهو يقول : " فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضى فيه حكم السيف ، ورأى البقية عليه عين الحيف ، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به وأن يرضن بعطبه ، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدانير الخمسين ، فأتوه في الحال بمئين ، فأمر باعطائهم وضرب رقابهم . . الخ " .

(٤) النص في س مضطرب وهو : " فسأل كل واحد منهم واحداً من الأفرنج " .

(٥) الأصل : " تجارت " وس : " جارت " .

ثم سیر السلطانُ الملكَ - إلى دمشق ، وأخاه ، وهنقرى ، وصاحب جبيل ،
ومقدم [٢٧٨] الداوية ، وجميع الأكابر ، وفرّق بقية السبي بين الناس ، فتصرفوا
فيه ، وبيع في جميع البلاد الإسلامية .

وكتب السلطان إلى نائبه بدمشق الصفيّ بن القابض أن يضرب عنق كل من
يجد من الداوية والاسبتارية ، فامثل أمره ، وما ضرب عنق أحد منهم حتى
عرض عليه الإسلام أولاً وامتنعوا ، إلا أحاد منهم أسلموا وحسن إسلامهم^(١) .

وحكى العماد الكاتب قال :

” ما زلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم البرنس حتى حدثني الأمير
عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز^(٢) بن باديس الصنهاجي أن القاضي الفاضل
حدثه : أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران^(٣) بعد المرضة التي مرضها
بالشرق ، وخيف عليه منها ، وهو في عناء من سقمه ، قال : فقيل له : إن الله
تعالى أيقظك وإن يعيدك من السوء سواه ، فانذر الله أنك إذا أبليت من هذا
المرض أنك تقوم بكل ما افترضه الله عليك ، ولا تقاتل أحدا من المسلمين ،
وتكون في جهاد [أعداء]^(٤) الله مجتهدا ، وأنت إذا انتصرت على الكفار

(١) ص (١١٢) : ” الإجماعة من الأكابروهم المقدمين فأسلوا ” ، والنص في المتن يتفق مع
الأصل المتقول عنه وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٠) .

(٢) الأصل : ” ابن عبد العزيز ” والتصحيح عن ص ، والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٠)
وقد أضاف العماد هناك فقرة للتعريف بابن شداد هذا ، قال : ” وهو ذو البيت الكبير والحسب الجليل ،
وكان جده صاحب إفريقية والقيديوان ، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان ” .

(٣) ص : ” من دمشق إلى حران ” وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق مع الأصل المتقول عنه . أنظر
المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العماد ص (١٢ ب) .

تتقرب إلى الله تعالى بإراقة دم البرنس والقومص بعد الظفر بهما ، فأعطى (١)
يده على هذا النذر ؛ فلما أظفره الله بالابرنس وفي (١) بما عاهد عليه ، وأراق دمه ،
وأما القومص فإنه هرب فلاقاه حمامه ، وكفى الله تعالى المسلمين شرهما (٢) .

ولما فتحت طبرية قال بهاء الدين أبو الحسن علي بن الساعاتي بمدح
السلطان - رحمه الله - :

جَلَّتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِينَا فَقَدَ قَرَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ (٣)
رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الْإِسْلَامِ لِمَا غَدَا صَرَفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا
فَهَانَ بِهَا (٤) الصَّيْبُ ، وَكَانَ قُدَمَاءُ يَعْزُّ عَلَى الْعَوَالِي (٥) أَنْ يَهُونَا
يُقَاتِلُ (٦) كُلُّ ذِي مَلِكٍ رِيَاءً ، وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينَا
غَدَتْ فِي وَجَنَةِ الْأَيَّامِ خَالًا ، وَفِي جِيدِ الْعُلَى عِقْدًا ثَمِينَا
فِي اللَّهِ كَمْ سَرَّتْ قُلُوبًا ؟ وَيَا لِلَّهِ كَمْ أَبَكَّتْ عِيُونَا ؟
وَمَا طَبْرِيَّةٌ إِلَّا هَدْيٌ (٧) تَرَفُّعٌ مِنْ أَكْفِ الْأَمْسِينَا
[٢٧٩] حَصَانُ الذَّيْلِ (٨) لَمْ تُقَدِّفْ بَسْوَةً ، فَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَا
فَضَضْتَ خِتَامَهَا قَسْرًا ، وَمَنْ ذَا يَصُدُّ اللَّيْثَ أَنْ يَلْجَعَ الْعَرِينَا ؟

(١) الأصل : " فأعطا " و " وفا " .

(٢) من (١٢ ب) : " شرهما " .

(٣) في (ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦) : " المسلينا " .

(٤) الديوان : « وهان بك » .

(٥) من : « العواتي » ، وما هنا يتفق ونص الديوان .

(٦) من : « ققاتل » .

(٧) الأصل : « غدا » ، وما هنا عن الديوان وس ، والهدى العروس .

(٨) الأصل : « الديك » والتصحيح عن الديوان .

لقد أنكحتها الصم^(١) العوالي ،
هناك ندى^(٢) أهل الأرض طراً
قست حتى رأيت كفوفاً فلانت ،
قضيت فريضة الإسلام منها ،
تهز^(٤) معاطف القدس ابتهاجا ،
فلو أن الجهاد يطبق نطقاً
جعلت صباح آهائها^(٥) ظلماً ،
تمخال حماة حوزتها نساء
ليضك في جماجم غناء
تميل إلى المثقفة العوالي
يكاد النقع يذهلها ، فلولا
فكم حازت قدود قنك منها

فكان نتاجها الحرب الزبونا
سواك ، ومعقل أعيان القرونا^(٣)
وغاية كل قيس أن يلينا
وصدقت الأمانى والظنونا
وترضى عنك مكة والمجونا
لنادتك : ادخلوها آميننا
وأبدلت الزئير بها أنينا
ينحوضون الحديد مقنعينا
لذيذ^(٦) علم الطير الحنينا
فهل أضحت رماحاً أم غصونا^(٧)
بروق القاضيات^(٨) (١٠) لما هدينا
قدوداً كالقنا لونا ولينا

- (١) في الديوان : « صم » .
(٢) الأصل : « منال بذ » والتصحيح عن الديوان و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٤) .
(٣) هذا البيت غير موجود في س .
(٤) س : « فهز » ، وما هنا يتفق وما في الديوان .
(٥) الأصل رس : « أهليها » وما هنا عن (الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٠٧) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٥) .
(٦) الأصل رس : « لذذا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٧) في الديوان والروضتين : « أمست » .
(٨) س (١١٣) « رحاما » .
(٩) الأصل : « أو غصونا » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(١٠) الأصل رس : « الماضيات » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

وغيد^(١) كالجاذر أنسات
ولما باكرتها^(٢) منك نعى
أعدت^(٣) بها الليالى وهى بيض،
فليس بعادم مرعى خصيباً
فلا عدم الشأم وساكنوه
سهاد جفونها فى كل فيح^(٦)
فالئم بالسواحل فهى صور
[٢٨٠] فقلب القدس مسرور، ولولا
أدرت على الفرنج - وقد تلاقى
فى بيسان ذاقوا منك بؤساً ،
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً ،
وخانهم الزمان ولا ملام ،
لقد جردت عزماً ناصرياً
فكنت كيوسف الصديق - فما
لقد أتعبت من طلب المعالى ،
وإن تك آخرأ^(٩) - وخلاك ذم - ،

كغيد نذاك أبقاراً وعونا
بنان تفضح الغيث الهتونا
وقد كانت بها الأيام جونا
أخوسب^(٤) ، ولا ماء معينا
ظبي تشفى^(٥) بها الداء الدفينا
سهاد يمنح الغمض الجفونا
إليك ، وألحق الهام المتونا
سطاق ، لكان مكتئباً حزينا
جموعهم عليك - رعى طحونا
وفى صفد لقوك^(٧) مصفدينا
كانت صروفها كانت كميناً
فلست بمبغض زمناً^(٨) خؤونا
يحدث عن سناه طور سيناً
له هوى الكواكب ساجدينا
وحاول أن يسوس المسلمينا
فإن مهذا فى الآخرينا

(١) الأصل «وغيدا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٢) س : «ولما كرتها» . (٣) س : «أعدت» .

(٤) الأصل : «سيف» والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٥) الأصل : «ظبا يشفا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٦) الأصل وس : «فتح» وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٧) كذا فى الأصل ، وفى الديوان والروضتين وس : «أتوك» .

(٨) س : «ذمن» .

(٩) الأصل وس : «آخر» والتصحيح عن المرجعين السابقين .

ذكر فتح عكا

ثم رحل السلطان إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة - وخيم بقربها وراء التل ، ولما طلع الصبح من يوم الخميس استهل جمادى الأولى ركب في عساكره ، ووقف بازاء التل^(١) مصمما على الزحف والقتال ، وبينما هو يرتاد موضعا للنزال إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الإقامة والظن ، فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين ، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي على حالها ، ودخل المسلمون يوم الجمعة ثاني جمادى الأولى البلد ، واستولوا على ما فيه من الأموال والذخائر ، واستنقذوا^(٢) من كان بها من أسرى المسلمين ، وكانوا أربعة [آلاف]^(٣) أنفس .

وحضر القاضي الفاضل كنيستها العظمى ، فرتب فيها المنبر والقبلة ، وأقيمت الجمعة ، وهي أول جمعة أقيمت في الساحل بعد يوم الكسرة ، وسلم السلطان البلد إلى ولده الملك الأفضل نور الدين ، وأعطى جميع ما فيه مما كان للداوية^(٤) من إقطاع وضياع للفقير ضياء الدين عيسى الهكاري .

(١) س (١٣ ب) : «البلد» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من س .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٣ ب) و (ابن شداد : السيرة البوسنية ، ص ٦٤) .

(٤) س : «لداوية والاسنارية» وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق ونص العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ٨٦) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) .

ذكر فتح مجدليّابة^(١)

[٢٨١] وأقام السلطان نجما على النبل بباب عكا ، وكتب إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بما فتح الله تعالى على يديه ، ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة الديار المصرية فيمن بقي عنده من العساكر في محاصرة ما يليه منها ، فسار إلى حصن مجدليّابة ، فحصره وفتحها وغنم ما فيه ، وورد كتابه بذلك إلى السلطان ، فكان فتحا عظيما .

ذكر فتح عدة حصون حول عكا

وفي مدة مقام السلطان بعكا فرّق عسكره إلى الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا ، والشقيف ، والفولة ، والطور ، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا ، فملكوها ونهبوا ما فيها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا من ذلك بما سد الفضاء ، وسير السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين فنزل على تبين ليقطع الميرة عنها وعن صور ، وسرّ ابن اخته^(٢) حسام الدين بن لاجين إلى نابلس .

ذكر فتح نابلس

فأتى حسام الدين سبسطية ، وفيها قبر زكريا — عليه السلام — ، فأخذها من أيدي الكفار ، ووصل إلى نابلس ، فدخلها وحصر قلعتها ، واستنزل من بها

(١) الأصل : « مجدل ياقا » وفي س و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٠٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧) : « مجدل يابا » ، وقد رسمت كما بالمتن وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قرية قرب الرملة بها حصن محكم .

(٢) الأصل : « أخيه » والتصحيح عن س (١١٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٨) .

بالأمان ، وتسلم القلعة ، وأقام أهل البلد - وكانوا مسلمين - تحت الذمة ، فأقرهم على أموالهم وأملاكهم .

وكتب السلطان في تلك الأيام إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله - أمير المؤمنين - كتابا بالإنشاء العادي ، أوله :

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» (١) ، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل من بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهو أن الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطف الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى ، فالأولى في عصر النبي والصحابة ، والأخرى هذه التي عتق بها من ذل الكتابة ، وهو قد أصبح حرا ريان الكبد الحرا ، والزمان كهيئته استدار ، والكفر قد رُدَّ ما كان عنده من المستعار ، فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدا ثوبه ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله .

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر [٢٨٢] الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الجبور لكافة المسلمين ، ويورد البشري بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية (٢) ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية :

فيوم الخميس الأول فتحت طبرية .

(١) الآية ١٠٥ (ك) ، السورة ٢١ (الأنبياء) .

(٢) الأصل : «خالية» والتصحيح عن س (١٤ ب) والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ،
وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه ، أخذ القرى وهي ظالمة .

وفي يوم الخميس الثاني سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت أعلام الإيمان ،
وهي أم البلاد ، وأخت إرم ذات العماد .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصليبوت مأسور ، وقلب ملك
الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في يد
الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر
عن الإقدام ، وأنصار الصليب وكباره^(١) وكل من العمودية عمدته والدير داره
قد أحاطت به يد القبضة ، وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب
والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت من عكاملة^(٢)
الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها .

وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت
المذابح مواقف لخطباء المنابر^(٣) ، واهترت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما
ارتجت لموقف الكافر .

فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا^(٤) .

وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم ، وقطعتهم سيوف
نار المحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقتل الابرنس كافر الكفار ،
ونشيدة^(٥) النار من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم .

(١) س : « وكهارة » ، وما بالمتن يتفق ونص العماد .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٣) الأصل رس : « الخطباء والمنابر » وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٤) س : « ثلاثين ألف فارس » .

(٥) الأصل : « ونشده » والتصحيح عن العماد ، أما س (١٤ ب) فإن النص فيها : « وصار

إلى العذاب المقيم في النار » .

والمعاقل التي فتحت :

طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، [٢٨٣] ، نابلس ، حيفا ،
معليا ، الفولة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة .

الملك المظفر تقي الدين - ظفروه الله - مضايق لصور و"احصن تبينين" ،

والأخ الملك العادل سيف الدين - نصره الله - قد كوتب بالوصول فيمن
عنده من العساكر ، وينزل في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب
الأسطول المنصور إلى عكا .

وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه ، ولقد دام عليه ليل
الظلام ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه .

ذكر فتح تبينين وصيدا وبيروت وجبيل

قد ذكرنا منازلة^(٢) الملك المظفر تقي الدين عمر بتبينين ، ولما ضايقها ولم يمكنه
فتحها كتب إلى عمه السلطان يستدعيه ليتولاها بنفسه ، فرحل السلطان من عكا
ثامن جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليها في حادى عشره ، فحصرها
وضايقها وزحف إليها وهي قلعة منيعة على رأس جبل ، فلما اشتد عليهم الحصر
راسلوا السلطان يطلبون منه الأمان^(٣) ، واستمهلوه خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ،
فأمهلوا^(٤) ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ، وتقربوا بإطلاق الأسارى من المسلمين

(١) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٢) س : «السلطان الملك المظفر» وهذا خطأ .

(٣) بعد هذا اللفظ في س (١١٥) : «فأجابهم إلى ذلك على قاعدة بينه وبينهم» .

(٤) س : «فأترلوا» .

وهم يزيدون على مائة^(١) رجل ، فكساهم السلطان وسيرهم إلى أهلهم ، ولما أخلى
الفرنج البلد سيرهم السلطان إلى ما منهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فأوصلوهم
إلى صور ، وتسلمها السلطان يوم الأحد لاثني عشرة [ليلة]^(٢) بقيت
من جمادى الأولى ، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن [ففعلوا
ذلك] ^(٣)

ولما فرغ من تبزين سار إلى صيدا ، واجتاز في طريقه بصرفند ، فأخذها
بغير قتال ، ثم سار إلى صيدا ، فلما علم صاحبها مسيره إليها ، سار عنها وتركها
فارغة من غير ممانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها إلى السلطان ،
وظلعت أعلامه الصفرة^(٣) على سورها^(٤) ، وكان تسلمه لها تسع بقين
من جمادى الأولى .

ثم سار السلطان إلى بيروت ، فوصلها من الغد ، فضايقتها وحاصرها
ثمانية أيام ، ثم طلبوا الأمان وأمنهم ، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين
من جمادى الأولى .

وذكر ابن الأثير :

أن السلطان لما نازلها اغتر أهلها [٢٨٤] بحصانة البلد وقوته ، فأنعوا
وقاتلوا ، وزحف المسلمون إليها مرة بعد أخرى ، وبينما الفرنج على السور
يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة ، وغلبة زائدة ، فأتاهم من خبرهم أن البلد
قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهرا وغلبة ، فأرسلوا يسألون ما الخبر ،

(١) س : « مائتي » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥) .

(٣) هذه إشارة قيمة تدل على أن أعلام صلاح الدين كانت صفراء اللون

(٤) بعد هذا اللفظ في س : « وأعطى لصاحبها جميع ما كان له فيها » .

وإذا ليس له صحة ، وأرادوا تسكين من به ، فلم يمكنهم ذلك لكثرة من اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف راسلوا في طلب الأمان على أموالهم وأنفسهم ، فأجيبوا [إلى ذلك]^(١) .

وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم ، فتحدث مع نائب السلطان بدمشق في تسليم جبيل على شرط إطلاقه ، فعرف السلطان ذلك ، ، فأحضر إليه مقيدا تحت الاستظهار ، والعسكر^(٢) إذ ذاك على بيروت^(٣) ، فسلم حصنه ، وأطلق أسرى المسلمين الذين به ، وأطلقه السلطان كما شرط له ، [وتسلمت بيروت بالأمان]^(٤) فانتظمت هذه البلاد كلها للمسلمين ، وخلص من بها من الأسر .

وذكر عماد الدين الأصفهاني - رحمه الله - :

أنه خلع في هذه السنة من الأسرى^(٤) أكثر من عشرين^(٥) ألف أسير ، ووقع في الأسر من الكفار مائة ألف أسير .

ذكر خروج المركيس إلى صور

لما انهزم القومص صاحب طرابلس من الوقعة - كما ذكرنا - سار أولا إلى مدينة صور ، وهي من أقوى بلاد الساحل وأشدّها حصانة ، فلما ملك

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥) .

(٢) النص في س : « وذلك على بيروت » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٥ ب) ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٠) : « وتبعها فتح بيروت وتلاها ، فانتظمت هذه البلاد » .

(٤) الأصل : « أسرى الكفر » ولا يستقيم بها المعنى ، فالمقصود أسرى المسلمين ، وقد صحح المتن بعد مراجعة الأصل المتقول به وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٥) س : « ثلاثين » وما هنا يتفق ونص العماد .

السلطان تبين وصيدا ويروت خاف أن يقصد السلطان صور فيأخذها ، لأنها فارغة ليس فيها من يقاتل ولا يقوى على حفظها ، فسار إلى مدينة طرابلس ، وهلك فيها - كما ذكرنا - ، وكان - كما قيل - : " راح يبغى نجوة من هلاك فهلك " .

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينهم ، داهية خبيثا ، نخرج في هذه السنة من داخل البحر بمال كثير للزيارة^(١) ، ولم يشعر بما جرى على الفرنج ، فأرسي بعكا ، وظن أنها لهم ، فلم ير بها شيئا من عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح^(٢) ، وضرب الأجراس وغير ذلك ، فأنكر ما رأى من زى أهل البلد ، فوقف ولم يدرك ما الخبر ، وكانت الريح قد ركبت ، فأرسل الملك الأفضل نور الدين - وهو صاحب عكا - بعض أصحابه [٢٨٥] في سفينة يبصر ما هو ومن هو وما يريد ، فأتاه القاصد ، فسأله المركيس عن الأخبار ، فأخبره بكسر الفرنج ، وأخذ عكا وغيرها ، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ، وحثى الأمر على جلسته ، فلم يمكنه الحركة لركود الريح ، فأخذ في المخادعة ، ورد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ووال ، فأجيب إلى ذلك ، فرده مرارا كل مرة يطالب شيئا لم يطلبه في المرة الأولى ، وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء لسيربه ، فبينما هو في مراجعاته إذ دبت الريح ، فسار نحو صور .

وسير الملك الأفضل الشواني^(٣) في طلبه فلم يدركوه ، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ، لأن السلطان [كان] كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها ، إلا أنهم ليس لهم رأس

(١) س : « لزيارة البيت المقدس » .

(٢) الأصل : « الفرنج » والتصحيح عن س و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٥) .

(٣) أنظر ما فات هنا ص ١٣ ، هامش ١

يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم ، وكانوا عازمين على مكتبة السلطان وطلب الأمان منه ، وتسليم البلد إليه ، فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم ، فردهم عنه ، وقوى نفوسهم ، وضمن لهم حفظ البلد ، وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره ، فأجابوه إلى ذلك ، وأخذ أيمانهم عليه ، فأقام عندهم ودبر أحوالهم ، وشرع في تحصين البلد ، وتجديد حفر الخنادق له ، وبني الأسوار وحصنها .

ذكر فتح عسقلان وبلادها

ولما فرغ السلطان من صيدا سار إلى عسقلان ، وكانت عنده أهم من غيرها ، ^(١) لأنها على طريق الديار المصرية ، فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل ^(٢) ، فتسلم قبلها في طريقه الرملة ، وتبنين ، وبيت لحم ، والخليل ، واجتمع بأخيه الملك العادل سيف الدين ومن معه من العساكر المصرية ، ونازل عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخر من هذه السنة - أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسةائة - .

وكان السلطان قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق، وقال لهما : " إن سلمتا البلاد إلى فلكما الأمان " ، فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرونهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما ، وردوا عليهما أقبح رد ، وجبهوهما [٢٨٦] بما يسوءهما ، فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ، ونصب المنجنيقات عليها ، وزحف مرة بعد أخرى ، وتقدم التقابون إلى السور ، فنالوا من باشورته ^(٢) شيئا .

(١) هذه الجملة غير موجودة في س .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

هذا وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ، ويشير عليهم ، ويعددهم أنه إذا أطلق أضرم البلاد على المسلمين نارا ، واستنجد بالفرنج من البحر ، وأجلب الخيل والرجل عليهم من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها ، وهم لا يجيبون إلى ما يقول ، ولا يسمعون ما يشير به ، ولما رأوا أنهم لا يزدادون كل يوم إلا ضعفا ووهنا ، وإذا قتل الرجل لا يجدون له عوضا ، ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا ملكهم المأسور في تسليم البلد على شروط اقترحوها ، فأجابهم السلطان إليها ، وكانوا قتلوا في الحصار الأمير حسام الدين إبراهيم بن حسين المهراني ، فخافوا عند مفارقة البلد أن تقتلهم عشيرته ، فاحتاطوا فيما شرطوا لأنفسهم ، فأجيبوا إلى ذلك جميعه ، وسلموا البلد في سلخ جمادى الآخرة ، وكانت مدة مقام الحصار أربعة عشر يوما ، وسيرهم السلطان ونساءهم وأولادهم إلى البيت المقدس .

ذكر فتح غزة وما معها من الحصون

وما برح السلطان مقيا بظاهر عسقلان حتى تسلم حصون الداوية ، وهي :
غزة والنطرون ، وبيت جبريل .

وكانت مدة مقام عسقلان بيد الفرنج نحسا وثلاثين سنة فإن الفرنج ملكوها من المصريين لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة .

ووصل إلى السلطان وهو نازل بظاهر عسقلان ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان ، فقرت عينه به .

وكان السلطان قد استدعى من مصر الأساطيل المنصورة .

وقال العماد :

«بجاءت كالفتح بالغلك الموانح، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج تراحم أفواجاً، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها، والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها، وضرغام غايتها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه» .

[٢٧٣] ذكر فتح بيت المقدس

وحين خلا سر الساطان من فتح عسقلان وماحولها، ووصل الأسطول، سار متوجها إلى البيت المقدس وبه البترك المعظم^(١)، وهو عندهم أعظم شأنا من ملكهم، وبه أيضا بديان^(٢) بن بارزان - صاحب الرملة -، ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضا من خاص من فرسانهم من حطين [وغيرها]^(٣) وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أدل عسقلان ونواحيها إليهم [وهم]^(٣) يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم البيت المقدس، إذ هو بيت معبودهم، ومحل تجسد^(٤) ناسوتهم، كما زعموا - بلاهوتهم، وفيه قمامة التي يدعونها القيامة، ومحل ضلالتهم، وقبلة جهالتهم، وفيها زعموا أن المسيح [عليه السلام]^(٥) دفن بعد الصلب، وقام بعد ثلاث^(٥)

(١) الأصل : «الأعظم» والتصحيح عن س (١٧ ب) و (ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٢٠٦) وهو المرجع المقول عنه هنا .

(٢) هو بليان الثاني الإيبيني (Balain II of Ibelin) والاسم في ابن الأثير : «باليان بن بيرزان»

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) في س (١٧ ب) : «ذلك» .

من القبر ، وصعد إلى السماء ، فهم يعتقدون أن بذل الأنفس والأموال والأولاد بعض ما يجب عليهم في حفظه والذب عنه ، فخصنوه في تلك الأيام بكل ممكن ، ونصبوا المنجنيق على السور ليمنعوا ممن يريد النزول عليه والدنو منه .

ولما قرب السلطان منه تقدم الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى في جماعة من أصحابه ، غير محتاط ولا حذر ، فلقيه جماعة من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا^(١) ، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه ، فأهم المسلمين فقده ، وبفجوا بقتله .

وسار السلطان في عساكر المسلمين حتى نزل على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب ، ونزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، لقد تحاذر [كذا] أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة ، بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان .

وبقى السلطان خمسة أيام يطوف حول البلد ، لينظر من أين يقاتله ، لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو [باب عمود أو كنيسة صهيون]^(٢) ، فانتقل إلى هذه الناحية يوم الجمعة لعشر بقين من رجب ، ونصب عليها المنجنيقات ، وأصبح العدو وقد فرغ من نصبها ، ورمى بها ، ونصب العدو على سور البلد منجنيقات ورموا بها ، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، وكل [٢٨٨] منهم يراه فرضا واجبا في دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث ساطاني ، بل كانوا يمتنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا يتزجرون . وكانت خيالة^(٣) الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون وبارزون ، فيقتل من الفريقين جماعة ، فمن استشهد من المسلمين على القدس الأمير

(١) راجع مافات مناص ٣٨ ، حاش ٣

(٢) الأصل رس : « باب عمودا » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي س : « رجالة » .

عز الدين عيسى بن شهاب الدين بن مالك العقيلي ، الذي كان أبوه صاحب قامة
جعبر ، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم
عليهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم ، وأدخلوهم
بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق ، فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه ،
وزحف الرماة يرمونهم ، والمجانيق توالى الرمي ، ليكشف العدو عن السور ،
ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما نقبوه حشوه [بالأخشاب] (١)

ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكم المنجنيقات في السور ، وتمكن
النقابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا يتشاورون فيما
يأتون ويذرون (٢) ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان ، وتسليم القدس للسلطان ،
فأرسلوا جماعة من كبارهم في طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان ، وامتنع
السلطان من إجابتهم للأمان وقال :

” لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه [من المسلمين] (٣) سنة إحدى
وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها (٤) “ .

فلما رجع الرسل خائنين محرومين أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان
لنفسه ، ليحضر عند السلطان في هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك ،
وحضر ورغب في الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك ، فاستعطفه فلم يعطف
عليه ، واسترحمه فلم يرجمه ، فقال له :

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١١٨) ، والنص في ابن الأثير : « حشوه ، اجرت به
العادة » ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤) : « والتصقوا بالسور فنقبوه ، وعلقوه
وحشوه وأحرقوه » .

(٢) س : « ويدبرون » .

(٣) ما بين الحاصرتين من س .

(٤) س : « وجزاء السيئة سيرة مثلها » وما هنا ، يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧)
وهو الأصل المقول عنه هنا .

«أيها الملك : اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم^(٥) إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه ، كما أجت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ، ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تنعمون منا ديناراً ولا درهما ، ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك كله أنحربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرهما من المواضع الشريفة ، [٢٨٩] ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة^(١) آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم نخرجنا إليكم ، وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت عزاء ونظفركر ما^(٢)» .

فاستشار السلطان أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، وأن لا يخرجوا وبجملوا على مالا ندرى عاقبة الأمر فيه ، وعن أى شىء ينجلي الأمر ، وقالوا :

«نحسب أنهم أسارى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم» .
فأجاب السلطان إلى بذل الأمان للفرنج ، واشترط : أن يزن كل رجل عشرة دنائير ، يستوى فيها الغنى والفقير ، وتزن المرأة خمسة دنائير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً نجح ، ومن انقضت الأربعون يوماً ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً .

فبذل الملك باليان بن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك .

(٥) س : « لا يعلم عددهم » .

(١) س : « ستة » . وما هنا يتفق والأصل المقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٨) . وأنظر أيضاً العباد (الرضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥) .

(٢) س : « ونموت أعزاء كراماً ولا نموت أذلاً لنا » ، والنص هنا يتفق ونص ابن الأثير .

وسلمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب من دذه السنة - أعنى
سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة -

وكان ذلك اليوم مشهودا ، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، ورتب
السلطان على كل باب من أبواب البلد أمينا من الأمراء ، ليأخذوا من أدله
ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا الأمانة ، واقتسم الأمانة الأموال ،
وتفرقت أيدي [سبا] (١) ، ولو أدت فيها الأمانة ، لملائت الخزائن ، فإنه كان
فيه ستون ألفا ، ما بين فارس وراجل ، سوى ما يتبعهم من النساء والولدان
والأطفال ، وأطلق باليان بن بارزان ثمانية عشر ألف [رجل] (٢) ، ووزن
عنهم ثلاثين ألف دينار ، وبقي بعد هذا كله من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيرا
سنة عشر (٣) ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبي ، وهذا بالضبط اليقين .

ثم إن كل واحد من الأمراء وأصحاب الأطراف ادعى أن جماعة من رعية
إقطاعه مقيمون بالقدس ، فكان يطلقهم ويأخذ منهم القطيعة ، كظفر الدين
بن زين الدين ، ادعى أن جماعة من أهل الرها بالقدس ، وعدتهم ألف نفس ،
وكذا صاحب البيرة ، ادعى أن فيه جماعة من أهل بلده من الأرمن ، وعدتهم
خمسمائة نفس .

وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند [٢٩٠] من المسلمين
ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها ، واستوهب جماعة من السلطان
عددا من الفرنج ، فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم .

(١) ما بين الحاصرتين عن س وابن الأثير .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) ، والنص في س : « وأطلق
باليان بن بارزان ثلاثة الاف رجل ووزن عنهم سنين ألف دينار » .

(٣) س (١١٩) : « ستة الاف » وما هنا يتفق والأصل المتقول عنه وهو ابن الأثير .

وكان في القدس بعض نساء ملوك الروم وقد ترهبت وأقامت به ، ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النقيصة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ولمن معها ، فأمنها وسيرها .

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور [كى]^(١) وهي ابنة الملك أمارى ، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والخول^(٢) والجواري ، فاستأذنت السلطان في الاجتماع بزوجها ، وكان مقيما في برج نابلس ، موكلابه ، فأذن لها في ذلك ، فتوجهت إليه وأقامت عنده^(٣) .

وأنت أيضا امرأة الأبرنس أرناط - صاحب الكرك - الذي قتله السلطان بيده يوم حطين ، فشفت في ولد لها مأسور ، فقال لها السلطان : "إن سلمت الكرك أطلقته" ، فسارت إلى الكرك ، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه ، ولم يسلموه ، فلم يطلق ولدها ، لكنه أطلق مالها ومن يتبعها .

وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ، ومعه من أموال البيع - منها الصخرة والأقصى وقمامة - مالا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له السلطان ، فقيل له : "خذ ما معه لتقوى به المسلمين" فقال : "لا أغدر به" ، ولم يأخذ منه غير عشرة^(٤) دنانير ، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

(١) ما بين الحاصرتين عن س ، والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦) .

(٢) س : « الخيول » وما هنا يتفق والنص المتقول عنه وهو العماد (المرجع السابق) .

(٣) في س (١٩ ب) بعد هذا اللفظ : « إلى أن خلا جميعا » .

(٤) س : « عشرين ديناراً » ، وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير (١) من ذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلا القبة ليقتلعوا الصليب ، حين صعدوا نظر المسلمون إليهم والأفرنج لينظروا ماذا يصنعون ، فلما قلعوه وسقط ، صاح الناس كلهم صوتا واحدا ، من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والأفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحا ، وأما الأفرنج فصاحوا توجعا وتفجعا ، فسمع الناس صيحة كادت الأرض تميد بهم لعظمتها وشدتها ، ولم يأت صلاة الجمعة يوم الفتح ، وضاق الوقت [٢٩١] لأدائها .

وكان المسجد الأقصى — لاسيما (٢) محرابه — مشغولا بالحنازير والحبث ، وما أحدثوه من الأبنية ، فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى (٣) ومستراح ، وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم ، وبنوا فى وجه المحراب جدارا ، وتركوه هريا للغلة ، وقيل اتخذوه مستراحا عنادا للإسلام وبغيا ، فأمر السلطان بإزالة ما أحدثوه من البنيان ، وكشف الجدار الساتر للمحراب ، وتنظيفه وما حوله من الأقدار والنجاسات ، ونصب المنبر لإقامة الخطبة الإسلامية ، ونقض ما أحدثوه بين (٤) السوارى ، وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبوارى ، وتعليق القناديل وإقامة شعار الدين .

(١) هو صليب الصليوت ، وقد وصفه العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) بقوله : « وهم يزعمون أنه من الخشب التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، وقد غلقوه بالذهب الأحمر وكللوه بالدر والجوهر... الخ » ، أنظر أيضا ما فات هنا ص ١٨٩ هامش ١

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) الهري ، والجمع «أهرا» و«هري» البيت الكبير الضخم تخزن فيه الغلال أو طعام السلطان أنظر : (اللسان) ر (المقرئى ، إغاثة الأمة ، شرز زيادة والشبال ، ص ٢٨) .

(٤) الأصل : « ما أحدثوا من السوارى » رس (١٢٠) : « وخفض ما أحدثوا من السوارى » والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٨) .

ذكر أول خطبة

خطب بها ببيت المقدس بعد الفتح

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف ، ففُصَّ بالزحام ، فإنه من حين^(١) تسامع الناس به في سائر الأطراف ، وكسر العدو ، والقصد إلى فتح بيت المقدس ، توافى الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل^(٢) الإسلام عدد عظيم لا يقع عاينهم الإحصاء ، فلما أذن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح ، إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح ثانيا لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الفاتح الأول وميزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام^(٣) .

وامتلأت عراض المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح ، وخبشت الأصوات ، ووجلَّت القلوب ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبتهم وألقوا ما يخطبون به ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدي سره ، فلما حان وقت الخطبة نصَّ على القاضي محي الدين بن زكى الدين ،

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « أعمال » .

(٣) س : « دون سائر ملوك المسلمين » .

وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقى^(١) المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب
خطبة بديعة بليغة ، هي :

[٢٩٢] ” فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ”^(٢) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ”^(٣) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ”^(٤) ثم الذين
كفروا برَّبِّهم يَعْدِلُونَ ”^(٥) .

” وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ”^(٤) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ”^(٦) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ”^(٤) وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قِيًّا لِيُنذِرَ
بِأَسْأَفِيذٍ مِنْ لَدُنْهِ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ،
بِمَا كَانُوا فِيهِ أَبْدًا ، وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ”^(٧) .

(١) الأصل رس : « فرقا » .

(٢) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ٤٥ (ك) .

(٣) السورة ١ (الفاتحة) : الآية ٢ (ك) .

(٤) بعد هذا اللفظ في الأصل : « الآية » أى أن الناح لم يشأ أن يتم الآية اختصارا ، وقد أتمها
صاحب شفاء القلوب (ص ١٣٥) ، وقد آثرنا نحن أيضا إتمامها هنا .

(٥) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ١ (ك) .

(٦) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١١١ (ك) .

(٧) السورة ١٨ (الكهف) ، الآيات ١ - ٥ (ك) هذا ولم يتم صاحب شفاء القلوب هذه
الآيات كذلك وإنما وقف عند لفظ « قيا » ثم قال ، الى قوله « كذبا » فآتممتنا الآيات ليكمل النص .

” قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشِيرُونَ (١) “ .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ، يَعْلَمُ مَا يَلْبِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ “ (٢) .

” الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا “ (٣) .

الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره
ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولا بعدله ،
وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين
كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خايقته فلا ينازع ، والآمر بما
يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازة لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير
بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره
وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،
الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ،
وأرضى به ربه .

(١) السورة ٢٧ (النمل) ، الآية ٥٩ (ك) .

(٢) السورة ٣٤ (سبأ) ، الآيتان ١ ، ٢ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ١ (ك) . وهذه الآية لم تذكر في نص الخطبة في نسخة من .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذي أسرى بعبده ليلا^(١) من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق ، السابق إلى الإيمان ؛ وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليبان ؛ وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ؛ وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، منزل الشرك ومكسر الأوثان ؛ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم [٢٩٣] من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمارة الشرك عن طريقه ، بعد أن امتد عليها رواقه^(٢) واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأوامر والنهي ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر^(٣) ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ،

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل .

(٢) س : " امتد عليه رواقه " وهو خطأ ، وما هنا يتفق ونص الخطبة فى (الرضخين ، ج ٢ ، ص ١١٠) . و (الحنبل : شفاء القلوب ، ص ٣٥ ب) .

(٣) س : " المنشر " . وما هنا يتفق والنص فى المرجعين السابقين .

وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحها عيسى، الذي شرفه الله برسالته، وكرمه بنبوته^(١)، ولم يزرحه عن رتبة عبوديته^(١)، فقال تعالى: **«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِي»**^(٢) وقال: **«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ»**^(٣).

وهو أول القبالتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم في شرفها مبارٍ^(٤)، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح^(٥) العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات^(٦) الخالدية.

بخزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منا ومنكم ما تقرتكم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة [٢٩٤]

(١) هذه الجملة غير موجودة في س (١٢١) ولا في (شفاء القلوب)، ولكنها موجودة في الروضتين.

(٢) السورة ٤ (النساء)، الآية ١٧٢ (م).

(٣) السورة ٥ (المائدة)، الآية ١٧ (م).

(٤) كذا في الأصل وفي الروضتين، وفي س والشفاء: **«ولا يباريكم في شرفها مزار»**.

(٥) كذا في الأصل وفي الروضتين، وفي س والشفاء، **«والفتوحات»**.

(٦) كذا في الأصل والروضتين؛ وفي س والشفاء (١٣٦): **«والهجمات»**.

حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة (١) عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبليجت بأنواره وجود الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عيناً (٢) الأنبياء والمرسلون ، فإذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي يقوم بسيفهم بعد فترة من الرسل (٣) أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الحضراء أكثر (٤) من التهانى به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونصّ عليه في خطابه ؟ فقال تعالى : "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" (٥)

أليس هو البيت الذي عظّمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عز وجل ؟

أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟

أليس هو البيت الذي أمر الله [تعالى] موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلاً ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

(١) كذا في الأصل والروضين ، وفي س والشفاء : "المنة" .

(٢) الأصل : "وقرت به أعين الأنبياء والمرسلون" ، وفي س : "وقرّه عين الأنبياء المرسلون" ، وما هنا صيغة (الروضين ، ج ٢ ، ص ١١١) ، وهي أصح .

(٣) كذا في المراجع الثلاثة ، وفي الروضين : "النوبة" .

(٤) الأصل وس : "لأكثر" والتصحيح عن المرجعين الآخرين .

(٥) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١ (ك) .

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكثت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم^(١)
على العالمين ، ووقفكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع
كلماتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى

فلينبهكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم
جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم إلى هذا البيت من طيب
التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد^(٢) ، وما أمطم فيه عن طرقهم من أذى
الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو^(٣) الآن يستغفر^(٤) لكم
أملاك السموات ، ويصلي^(٥) عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله
التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع
[٢٩٥] الهوى ، ومواقف^(٥) الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدى ،
وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ،
وبيعوا أنفسكم عباد الله في رضاه إذ^(٦) جعلكم من عباده^(٧) ، وإياكم أن

(١) من وحدها : " وقد فضلتهم " ، وهو خطأ .

(٢) كذا في الأصل والروضتين ، وفي س : " والتحميد " ، وفي الشفاء (٣٦ ب) : " والتحميد
والتحميد " .

(٣) الأصل : " فهذا الآن " ، وفي الروضتين والشفاء : " والآن " وما هنا صيغة س .

(٤) الأصل : " تستغفر " و " تصلي " .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س والشفاء : " ومراقبة " ، وفي الروضتين : " ومواقفة " .

(٦) كذا في الأصل والروضتين ، وفي س والشفاء : " الذي " .

(٧) كذا في الأصل والشفاء ؛ وفي س : " من عباده الذين اصطفى " ، وفي الروضتين :

" من خير عباده " .

يستذلکم الشیطان ، وأن یتداخلکم الطغیان ، فیخیل إلیکم أن هذا النصر
بسیوفکم الحداد ، وبخیولکم الجیاد ، وبجلادکم فی موضع الجلاد ، والله ما النصر
إلا من عند الله ، [إن الله عزیز حکیم] (١) .

واحدروا — عباد الله — بعد أن شرفکم بهذا الفتح الجلیل ، والمنح الجزیل ،
وخصکم بهذا النصر المبین ، وأعلق أیدیکم بحبله المتین ، أن تقرفوا كثيرا
من مناهیه ، وأن تأتوا عظیما من معاصیه ، فتکونوا کالتی نقضت غزلها من بعد
قوة أنکاثا ، والذي آتیناه آیاتنا فانسلخ منها فاتبعه الشیطان فكان من الغاوین ،
والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتکم وأشرف عاداتکم ، انصروا الله ینصرکم ،
اذکروا الله یدکرکم ، اشکروا الله یزدکم ویشکرکم ، جدوا (٢) فی حسم الداء ، وقطع
شأفة الأعداء ، وتطهیر بقیة الأرض التی أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع
الکفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامیة والملة المحمدیة .

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من کفر .

واعلموا — رحمکم الله — أن هذه فرصة فاتهزوها ، وفریسة فناجزوها ،
ومهمة فأخرجوا إلیها هممکم وأبرزوها ، وسيروا (٣) إلیها سرايا عزماتکم
وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمکاسب بذخائرها ، فقد أظفرکم الله بهذا
العدو المخذول وهم مثلکم أودون ، فكیف وقد أضحی فی قبالة الواحد منهم منکم
عشرون ، وقد قال تعالی : ” إِنْ یَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ یَغَابُوا مَا تَتَيْنِ ” (٤)

(١) الأصل : ” من عند الله عزیز الحکیم ” ، والتصحیح عن المراجع الثلاثة الأخری .

(٢) کذا فی الأصل والرضین ، وفی س (١٢٢) والشفاء : ” خذوا ” .

(٣) الأصل : ” وامرؤا ” ، والتصحیح عن المراجع الثلاثة الأخری .

(٤) السورة ٨ (الأقال) ، الآیة ٦٥ (م) .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجه، وأيدنا معشر المسلمين
بنصر من عنده ، ”إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَحْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ“ (١) .

ثم أتم الخطبة الأولى وجلس .

ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة :

[٢٩٦] ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ثم قال :

”اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف
بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك الدافع ، والذاب
عن حرمك [وحرمة رسولك] (٢) الممانع ، السيد الأجل (٣) الملك الناصر جامع
كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصليبيات ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر يوسف [صلاح الدين] بن أيوب ،
محي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن
عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاهه .

اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المشارق
والمغرب دعوته .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس ، بعد أن ظنت [به] الظنون ، وابتلى
المؤمنون ، فافتح على يديه دائي الأرض وقواصيها ، وملكه صياصي الكفر

(١) السورة ٣ (آل عمران) ، الآية ١٦٠ (م) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٢٢ ب) ، والشفاء (ص ١٣٧) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س والشفاء ”والكهف الأطل“ .

وبواصيه . فلا يبقى منها كتيبة ، لا مرفه ، ولا حمع ، لا وفه ،
ولا طائفة بعد طائفة^(١) ، لا ألحفها ، سبقها .

اللهم اشكر عن محمد - صلى الله عليه وسلم - سعيه ، وأنفذ في المشارق
والمغرب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك
وأكنافها .

اللهم ذلل به معاطس^(٢) الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب
ملكه على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بيته وبني أبيه
الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقص باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما أجريت على يده في الإسلام^(٥) هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ،
وتتخذ على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذي لا ينفد في دار
المتقين ، وأجب دعوته ودعائه في قوله : ” رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ [٢٩٧]
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ”^(٦) .

ثم دعا بما جرت به العادة ، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة .

(١) بعد هذا اللفظ في س والشفاء : ” بهوتك ” .

(٢) بعد هذا اللفظ في س والشفاء ” عزتك ” .

(٣) بعد هذا اللفظ في س فقط : ” بهرك ” .

(٤) بعد هذا اللفظ في س والشفاء : ” أناف ” .

(٥) هذا هو نص الأصل والروصين ، وفي س والشفاء : ” وكما أحربت على مديته اموتك هذه

الحسنة التي تبقى على الأبداء ” وهي حلة صطبه المعنى .

(٦) السورة ٢٧ (النمل) الآية ٩ (ك)

ولما قضيت الصلاة نُصب سرير الوعظ [وتقدم السلطان صلاح الدين إلى زين الدين الواعظ]^(١) ، بفلس وذكر الفتح ، وفضائل الأرض المقدسة ، والصخرة وما ورد فيها من الأخبار والآثار ، فحلب بعبارة العبرات ، وشار^(٢) العسل بمسول الإشارات .

ثم خطب مجي الدين بالبيت المقدس بعد هذه الخطبة ثلاث خطب كلها من إنشائه .

ذكر نقل المنبر

الذي أنشأه نور الدين - رحمه الله - إلى البيت المقدس

لما فتح السلطان القدس أمر بعمارة المحراب الغربي^(٣) القديم وترخيمه ، ووضع منبر رسمي ليقام عليه الفرض ، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن فائق لائق بذلك المكان ، وكان نور الدين محمود - رحمه الله - قد أنشأ منبرا برسم الأقصى قبل فتح القدس بنيف وعشرين سنة ، لأنه - رحمه الله - كانت أطباعه متعلقة بفتح القدس ، وأمانيه لم تزل تحدث به ، وكان بحلب رجل نجار يقال له "الأختريني" من ضيعة تعرف بأخترين ، لم يكن له نظير في صناعته ، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس ، فقال له : "اجتهد أن تأتي به على أحسن نعت يمكن ، وأحكمه" ، فجمع الصناع ، وبالغ في إتقانه وصنعتة ، وأتمه في سنتين ، ثم اتفق أن جامع حلب في الأيام النورية أحرق واحتيج

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٢٣) يتضح بها المعنى ، راجع أيضا العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٠٩) .

(٢) الأصل : "رشاب" والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : "الحزاب العمري" وما هنا عن س .

إلى منبر ، فنصب ذلك المنبر ، وتولى ذلك النجار عمل محراب حلب مشابها
للمنبر في الرسم ، ومن رأى الآن محراب حلب ، شاهد^(١) فيه مثال المنبر المقدسى .
فلما من^(٢) الله سبحانه على السلطان الملك الناصر بفتح بيت المقدس تقدم
بحمل المنبر من حلب ، فحمل ونصب بالمسجد الأقصى ، وهو الآن منصوب .
ثم أمر صلاح الدين فعمل الجامع حلب منبر شبيه المحراب والمنبر الذى
في القدس ، فكان كما أراد^(٣) .

ذكر ما أزاله السلطان [صلاح الدين]

من آثار الشرك بالبيت المقدس

وكان الفرنج قد بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة ، وستروها بالأبذية ، وغيروا
أوضاعها ، وملئوها بالصور ، وندبوا في ترخيمها أشباه الخنازير ، ونصبوا عليها
مذبحا ، وعينوا بها مواضع للربان ، وعط الإنجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم
قبة صغيرة مذهبة بأعمدة الرخام ، وأمر السلطان بمحو تلك الآثار كلها ، وأزال عن
الصخرة تلك الأبذية ، فأبرزها للعيون ، ولم يكن يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة
منها ، وكان الفرنج قد قطعوا [٢٩٨] منها قطعا وحملوا منها إلى قسطنطينية^(٤) ،
ونقلوا منها إلى جزيرة صقلية ، وقيل كانوا يبيعونها بوزنها ذهبا ، وقيل إن بعض
ملوكهم تقدم بستر الصخرة إشفاقا عليها من القطع ، فتولى إصلاحها والقيام بأمرها
الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى ، وأدار عليها شبابيك من حديد .

(١) الأصل : " شاهد مثال فيه مثال " وقد حذفت مثال الأولى ليستقيم المعنى ، وفي س :
" شابه فيه مثال " .

(٢) الأصل : " منا " والتصحيح عن س (٢٣ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٢٣ ب) .

(٤) الأصل : " قسطنطينية " .

وأحضر الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله - [إلى] (١) قبة الصخرة أحمالا من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحاتها وعراصها ، ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أفاض عليها ماء الورد ، ثم طهر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم بنجرها (٢) بمجامر الطيب ، وفرق مالا كثيرا على الفقراء .

وجاء الملك الأفضل - رحمه الله - بسط نفيه (٣) ، ففرشها فيها .

ورتب السلطان في الجامع الأقصى من يقوم بوظائف الخطبة والإمامة ، ورتب في قبة الصخرة إماما حسنا ، ووقف عليها (٤) دارا وأرضا وبستانا ، وحمل إليها وإلى المحراب والمسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات منصوبة على الكراسي ، ورتب القومة والمؤذنين ، وجدد بهما شعار الدين .

ثم عين كنيسة صندحنه (٥) مدرسة للفقهاء الشافعية ، ووقف عليها وقوفاً جليلية ، وعين دار البطررك (٦) رباطا للفقراء .

وكان لأمرأء (٧) الأفرنج ومقدميهم مقابر مجاورة للصخرة وباب الرحمة [و] (٨)

قباب معمورة فأزالها ومحا آثارها .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة الأصل المقول عنه هنا باختصار وهو العمد الاصفهاني في البرق الشامي (الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤) .

(٢) الأصل : " بنجرها " ، وقد صححت بعد مراجعة المرجع السابق ومن .

(٣) هذا اللفظ ساقط من س .

(٤) الأصل : " عليه " والتصحيح عن س والمرجع السابق .

(٥) الأصل : " صيدحنه " والتصحيح عن العمد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤) والمقصود كنيسة " القديسة حنا أرسنت آن " وقد ذكر العمد أن موقع هذه الكنيسة كان عند باب أسباط ، أما نسخة س ، فالنص فيها : " ثم بنى مدرسة جليلة للفقهاء الشافعية " دون أن يشير إلى الكنيسة .

(٦) حدد العمد (المرجع السابق) موضع هذه الدار فقال : " وهي بقرب كنيسة قمامة " .

(٧) الأصل : " الأمرأء " .

(٨) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العمد ، وذلك لاستقيم المعنى .

وأمر بإغلاق كنيسة قمامة ، وحرم على النصارى زيارتها . وشاور أصحابه فيما يعتمد في أمرها ، فمنهم من أشار بهدمها وتعفية آثارها ، وقالوا : « [إذا] ^(١) هدمت القبة ونبشت المقبرة ، وحرثت ^(٢) أرضها وعفت ، انحسرت ^(٣) عن قصدها مواد أطاع الكفار ، ومهما بقيت كانت الزيارة مستمرة » ؛ وقال أكثر الجماعة : « لا فائدة في هدمها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والمقبرة لا ما نشاهد من البناء ، فلو نسفت أرضها في السماء لما انقطع عنها قصد أهل دين النصرانية ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - البيت المقدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدمه » ، فأعرض السلطان عن هدمها ؛ ثم تقرر بعد ذلك على من يدخلها منهم قطيعة يؤديها .

قلتُ : ولهم في هذا المكان ضلالة تقع في كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصيحهم ، وهو أنه يزعمون أن نورا ينزل من السماء ، ولقد كذبوا [٢٩٩] وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس من بتركهم ، يغرُّ به ضعفاء العقول ويستدرجهم به إلى ضلاتهم وغيرهم ^(٣) ، ولقد حضرتُ في زمن الصبي يوم سبت النور هذه الكنيسة مرارا على سبيل التفرج ، فكنت أجدهم يعكفون على القبة الصغيرة التي فيها القبر ، والنصارى مجتمعون ^(٤) بها يرفعون صلبانهم ويقرآن إنجيلهم ، ويضجون ، والديوان ^(٥) - الذي للمسلمين على باب الكنيسة - والموالي يأخذون من كل رجل القطيعة المقررة ، وذلك في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل - رحمهما الله - فإذا كان وقت الظهر أو بعده دخل البترك القبة ، وأخرج شمعة

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العباد ، وذلك ليستقيم المعنى .

(٢) الأصل : " حرث " و " انحسرت " ، والتصحيح عن العباد (الرضنين ، ج ٢ ، ص ١١٥)

(٣) الأصل : " وغيرهم " والتصحيح عن س (٢٤ ب) .

(٤) س : " محبطون " .

(٥) لاحظ أن المؤلف يستعمل هنا لفظ " الديوان " بمعنى الموظف .

موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذي اشتعل بالنور المنزل [من السماء] (١)، فيأتيه
النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشمعة ، فيمتلئ المكان بالشمع الموقدة ،
ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار مالا مزيد عليه ، جهلا وضلالة ،
وظنا فاسدا أنه نور أنزل عليهم ، وإنما هو نار محرقة افتعلها عدو الله البترك
على سبيل المخرقة والإيهام ، وهؤلاء القوم دون سائر الطوائف أكثر أمورهم مبنية
على ذلك (٢) .

ولقد (٣) حدثني القاضي نحر القضاة ابن بصاقة — رحمه الله — ونحن بالكرك ،
وهو من أهل الفضل والمعرفة والتقدم في الدول ، قال :

« كنت صبيا صغير السن ، وقد حضر البترك الذي كان [مقيا] (١) بقامة
عند والدي ، فسمعت والدي يقول له : إن السلطان قد عزم على كشف قضية
هذا النور الذي تدعون أنه ينزل عليكم [من السماء] (١) ، فقال له البترك : إن النور
كان ينزل في قديم الزمان ثم انقطع ، فنحن اليوم نفعله لإقامة الناموس وحفظا
لحرمة دين النصرانية ، وليس من المصاححة أن تتعرضوا لهذا ، وكشف سره ،
فإنه يَفُوتُ (٤) عليكم أموالا جزيلة ، وليس لكم في بطلان ذلك منفعة » .
قلت (٥) : وكان الواجب على ولاة الأمر أن لا يلتفتوا إلى ما يحصل من هذا
السحت ، وأن يهتكوا ستر هؤلاء القوم فيما يدلسون به على الأمم ، وأن يرفعوا
القناع عن هذا التدليس الموقع (٦) في عمايات الضلال الداعية إلى أنواع الكفر
والجهالات .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س

(٢) هذا استطراد من المؤلف له قبته وأهميته .

(٣) قبل هذا اللفظ في س (٢٤ ب) : " قال جمال الدين صاحب هذا التاريخ " .

(٤) س : " يروح " .

(٥) مكان هذا اللفظ في س : " قال القاضي جمال الدين بن واصل المؤلف " .

(٦) هذا اللفظ ساقط من س .

ولما أفتتح القدس [٣٠٠] مدح السلطان - رحمه الله - الشريف النسابة
محمد بن أسعد^(١) بن علي بن معمر الحسيني المعروف بالحواني المصري تقيب
الأشراف بالديار المصرية بقصيدة منها :

أترى منامًا ما بعيني أبصرُ ؟ القدس يفتتح والفرنجية تكسرُ !!
وقامة قمت من الرجيس الذي بزواله وزوالها يتطهرُ
ومليكم في القيد مصفود ، ولم ير قبل ذلك لهم ملك يُوسرُ^(٢)
قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا
فتح الشام وطهر القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشرُ
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له ، وماذا يذكرُ ؟
يا يوسف الصديق أنت لفتحها فاروقها عمر الإمام الأطهرُ
ولأنت عمانُ الشريعة بعده ، ولأنت في نصر النبوة حيدرُ

(١) الأصل : "اسماعيل" ، وهو شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحواني ، صاحب كتاب "النقط بعجم ما أشكل من الخطط" ولم يظهر للان ما يثبت وجود هذا الكتاب ، غير أن المؤلفين المتأخرين نقلوا عنه كثيرا ، وخاصة المقرئ في خطه حيث يقول عنه إنه "نبه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت" ، وقد ولد الشريف سنة ٥٢٥هـ وتوفي سنة ٥٨٨هـ (١١٣١-١١٩٢) وقال (العقاد الاصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١١٧) إنه كان تقيب مصر في الأيام المصرية (يقصد الفاطمية) ، والآن فهو ملازم مشغل بالتصنيف في علم النسب ، وهو فيه أرحم ، وله فيه تصانيف كثيرة . أنظر أيضا : (المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٦ - ٧) و (ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، ج ٦ ، ص ١١٩ ، ٢١٨) و (عثان : مصر الإسلامية ، ص ٣٩ ، ٥٥ ، ٨٩) و (الصفدي : فوات الوفيات ، طبعة استانبول ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) و (لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٧٤) و (ابن الأثير : اللباب في الأنساب) .

(٢) ص (١٢٥) : "يى من قبل ذلك ملك موسر" وهو نص مضطرب .

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي (١).

أَعْيَاءُ (٢) وقد عاينتُمُ الآيَةَ العَظْمَى؟
وقد ساغ (٣) فتحُ القديس في كل منطقٍ،
فليت فتى الخطابِ شَاهِدَ فَتْحِهَا
حَبَا مَكَّةَ الحُسْنَى وَنَى بيثربٍ،
وما كان إلا الداءَ أَعْيَاءَ دَوَاؤُهُ،
وأصبح ثغرُ الدينِ (٨) جَدْلَانِ بِاسْمَا
سَلَا السَّاحِلَ المَخْشَى عن سطواته،
لأيةٍ حالٍ تدنرُ الذرَّ والنُّظْمَا
وشاعَ إلى أن (٤) أسمعَ الأَسْلَ الصُّمَّا
فيشهدَ أنَّ السيفَ (٥) من يوسفِ أَصْمَى
وأسمع (٦) ذِيَاكَ الضَّرِيحَ وما ضَمَّا
وغيرُ الحسامِ العَضِبِ لا يُحَسِّنُ (٧) الحسما
والسنةُ الأغمادِ توسعهُ ثَمَّا
فما كان إلا ساحلاً صادقاً (٩) اليَمَّا

وقال القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك (١٠) يمدح السلطان الملك
الناصر ويهنئه بالفتوح، ويذكر وقعة حطين، وقتل البرنس، من قصيدة أولها:
لستُ أدري بأى فتحٍ تُهنِّأُ؟ يا منيلَ الإسلامِ ما قد تمَّنا

(١) أظرمافات هنا ٨٣، هامش ٣

(٢) الأصل: "أعيا" والتصحيح عن (ابن الساعاتي: الديوان، ج ٢، ص ٢٨٥)
و(الروضتين، ج ٢، ص ١٠٦).

(٣) الأصل: "شاع"، والتصحيح عن المرجعين السابقين.

(٤) الأصل: "وقد شاع حتى أسمع" وما هنا عن المرجعين السابقين.

(٥) كذا في الأصل والروضتين، وفي الديوان: "السهم".

(٦) في الديوان والروضتين: "وأطرب".

(٧) في الديوان: "لا يعرف".

(٨) في الديوان: "وأصبح ذاك الثغر".

(٩) الأصل: "صادق" وما هنا عن المرجعين السابقين.

(١٠) أظرمافات هنا ص ١٣٧، هامش ٣.

[٣٠١] أَنُهَيْكَ إِذ تَمَلَّكَتَ (١) شَامَا ؟ أم نُهَيْكَ إِذ تَمَلَّكَتَ عَدْنَا ؟

قد ملكت الجنان قَصْرًا فَقَصْرًا ، إِذ فَتَحْتَ (٢) الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنًا

ومنها :

قَتَّ فِي ظُلْمَةِ الْكُرْبَةِ كَالْبَدْرِ سَنَاءً ، وَالْبَدْرُ يَطْلَعُ وَهَذَا

لَمْ تَقِفْ قَطُّ فِي (٣) الْمَعَارِكِ إِلَّا كُنْتَ يَا يُوسُفُ كِيُوسُفَ حُسْنًا

تَجْتَنِي النَّصْرَ مِنْ ظُبَاكَ (٤) كَانَ الْعَضْبَ قَدْ صَحَّفُوهُ (٥) أَوْ صَارَ غُصْنًا

قَصِدُوا نَحْوَكِ الْأَعَادِي فَرَدَّ اللَّهُ مَا أَمَلُوهُ عَنْكَ وَعَنَّا

حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عِظْمًا ، وَلَكِنْ جَعَلْتَهَا جَمَلَاتٌ خَيْلِكَ عَيْنًا

جَمَعُوا يَكْتُمُهُمْ وَجَاعُوكَ أَرْكَانًا ، فَمِنْ هَدَّ فَارِسًا هَدَّ رُكْنًا

لَمْ تُلَاقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنَّكَ لَأَقِيَّتَهُمْ جِبَالًا (٦) وَمُدْنَا

كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ الْحَدِيدَ لَهُ ثَوْبًا وَتَاجًا (٧) وَطَيْلَسَانًا وَرِدْنَا

خَانِهِمْ ذَلِكَ السَّلَاحُ ، فَلَا الرَّحُّ تَنَا وَلَا الْمَهْنَدُ ظَنَّا

وَتَوَلَّتْ تِلْكَ الْخَيُْولُ وَلَمْ يَثْنِي عَلَيْهَا بِأَنَّهَا لَيْسَ تَنَا

(١) س : "ملككت" ، وما هنا هو الصحيح ويتفق والنص في (شفاء القلوب ، ص ١٤١) .

(٢) س : "وفتحت" والنص هنا يتفق وشفاء القلوب ، ولم يورد صاحب الشفاء من هذه

القصيدة غير الأبيات الثلاثة الأولى .

(٣) هـ : اللفظ ساقط من س .

(٤) س : "طباعتك" .

(٥) س : "صحفوه" .

(٦) س : "جبالا منك ومدنا" .

(٧) هـ : اللفظ ساقط من س .

واستحالت شفاشق الكفر ضماً حين عادت الشجاعة جينا
وتصيدتهم بحلقة صيد يجمع الليث والغزال الأغنى
وجرت منهم الدماء بحاراً ، بخرت فرقة الجزائر سفناً
صنعت فيهم وليمة عرس رقص المشرفي فيها وغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسير يتنا في أدم يتنا
يحسب النوم يقظة ، ويظن الشخص طوداً ، ويبصر الشمس دجناً
كم تمنى اللقاء حتى رآه ، تمنى لو أنه ما تمنا
ظن ظناً ، وكنت أصدق في الله يقيناً ، وكان أكذب ظناً
[٣٠٢] رَقَّ مِنْ رَحْمَةٍ لَهُ الْقَيْدُ وَالغُلَّ عَلَيْهِ ، فَكَلِمَا أَنَا
واللعين الأبرس أصبح مذبوحاً بين لم يعلم الدين يمننا
أنت ذكيتك فوفيت نذراً كنت قدمته بخوزيت حسناً
وتهدت عرائس المدن تحلاً ، وثمار الآمال منهن تجنا
لا ينحس الشام منك التهاني ، كل صفع وكل قطر بيني
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً ، وحويت الآفاق سهلاً وحرناً
وتفردت بالذي هو أسماً ، وتوحدت بالذي هو أسناً
واغتدى الوصف في علاك حسيراً أئ لفظ يُقال أو أي معنى ؟
ورأينا الآلة قال أطيعوه سمعنا لربنا وأطعنا

وقال الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهنشاه بن أيوب - قدس الله روحه -

بني عمه السلطان الملك الناصر - رحمه الله - بفتح القدس بقصيدة مطلعها يقول فيها:

دَعْ مَهْجَةَ الْمُشْتَاقِ مَعَ أَهْوَانِهَا بِالْأَيْمَى مَا أَنْتَ مِنْ نَصَبَاتِهَا

ومنها :

جاءتكَ أرضُ القدسِ تطلبُ ناصحاً
يا كفوها ، ما العذرُ من عذرائها
زُفَّتْ إليك عروسُ خديرٍ مُجتَلَى
ما بينَ أعبيدِها وبينَ إمامِها
إليه صلاحُ الدين ، خُذها (١) غادةً
بكرًا ، ملوكِ الأرضِ من رفقائها
كم طالبٍ لجمالها قد رده^{وهو}
عن نيلها أن ليس من أكفائها

وكان الملك المظفر - رحمه الله - فاضلاً متأدباً حسن الشعر ، وكان أخوه
عز الدين فرخشاه كذلك .

ومن جملة شعر الملك المظفر - رحمه الله :

يعاتبنى قومٌ يمزُّ عليهم^{وهو}
مسيري ، ما هذا السرى في السبابِ
فقلتُ لهم : كُفُّوا ، فإوكفتُ لكم
جفوناً (٢) ولا ذُقتُم فراقَ الحبابِ

ومن شعره :

إني لأكتمُ لوعتي وأظنه^{وهو}
يوم التفرُّقِ بالمدامعِ فاضحى
[٣٠٣] لا تجحوا في هجرِكُم ، فلربما
خُشِيَ العنارُ على الحصانِ الجاحِ

ومن شعره :

أحبابنا إن الوشاة إليكم
سعت ، لا سعت أقدام من كان واشيا
يرومون بتَّ الحبلِ بيني وبينكم
فلا بلغوا مما أرادوا الأمانيا

(١) م : "إيه صلاح الدين طادت"

(٢) م : "فاوكفت جفوني"

ومن شعره :

كُلُّ يَوْمٍ يَسْمَى إِلَى الْمَلِكِ قَوْمٌ فِي ازْدِيَادٍ وَعَمْرُهُمْ فِي انْتِقَاصٍ
شِرْكٌ هَذِهِ الْأَمَانِي ، فِيهَا اللَّهُ تَكْمٌ وَاقِعٌ بِغَيْرِ خَلَاصٍ (١)

ومن شعره :

إِن كُنْتَ وَاحِدًا ذَا الْجَمَالِ فَإِنِّي فِي الْحَزَنِ وَاحِدَةٌ
كُلُّ يَبُوحٍ بِجَبِّهِ ، وَأَنَا كَتُومُ الْحَبِّ جَاحِدَةٌ

ومن شعره يخاطب عمه الملك السلطان الناصر صلاح الدين - رحمه الله تعالى -

أَصْلَاحَ دِينِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ، فَمُرُّ الزَّمَانِ بِمَا تَشَاءُ فَيَفْعَلُ
فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا بِيَهْجَةٍ حَسَنِيهَا تَحَلَّيَا عَلَيَّ إِذَا رَأَيْتُكَ مَقْبَلَا

قلت : كان السلطان - رحمه الله - يحب الملك المظفر تقي الدين أكثر من محبته لسائر أهله لما كان خص الملك تقي الدين [به] من الشهامة والنجابة والإقدام العظيم ، الذي لم يكن لأحد مثله من بني أيوب ، ولفرط طاعته لعمه صلاح الدين واتباعه إليه ، ولأنه كان ألصقهم به قرابة ، لأن والده الملك المظفر ركن الدين شاهنشاه - رحمه الله - كان أخا الملك الناصر لأمه وأبيه ، والملك العادل ، وتاج الملوك ، وسيف الإسلام ، كانوا أخوته لأبيه فقط .

وقيل ركن الدين شاهنشاه قتل شهيدا على باب دمشق لما حاصرها الفرنج ، ولم يدرك الدولة الأيوبية ، وقد ذكرنا ذلك .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين وإلى سائر ملوك الأطراف ينشرهم بهذا الفتح العظيم ، فمن جملته كتاب فاضل إلى الديوان العزيز :

(١) هنا تنتهي ص ٢٦ ب من نسخة س ، ثم تضطرب الصفحات مرة أخرى وتنقطع الصلة بين النص فيها والنص في الأصل المعتد للنشر وهو نسخة (ك) .

” تقلص ظل الكفر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط ، واسترد المسلمون ترانا كان عنهم آبقا ، وظفروا بقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا “

ومنه [٣٠٤] فصل في وصف نقب السور :

” فأخلى السور من الستارة^(١) ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى الصخر فضع سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربة الإحراق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرا بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض “ .

فصل :

” واستقرت على الأعلام أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها - وإن كانت صخرة - كما يشفى الماء غلهم ، وملك الإسلام خطة كان عهدُه بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأهبطهم .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهد المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورد ، وأقيمت الخطبة فيه يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات^(٢) للنجوم يتفطرن ، والكواكب منها للطرب ينتثرن ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ،

(١) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٠) : «السيارة»

(٢) الأصل : «السياء» ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

وأقيمت الخمس و كان التثليث يقعدھا ، وجهرت الألسنة^(١) بالله أكبر وكان
سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر ،
فرحب به ترحيب من بر بمن بر^(٢) ، وخفق علماه في حفايفه^(٣) ، فلو طار سروراً
لطار بجناحيه .

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه [المنقبة]^(٤) العظمى ، ولا يقاسى تلك
البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة
فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ،
وكانت الألسنة ربما صامتة فانضج قلوبها بالاحتقار^(٥) ، وكانت الخواطر ربما غلت
عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر^(٦) ،
ومن رام صفة رابحة جاسر^(٧) ، ومن سما لأن تجلى غمرة غامر^(٨) .

ومنه فصل في وصف يوم حطين :

« وكان [٣٠٥] اليوم مشهودا ، والملائكة شهودا ، وكان الصليب^(٨) صارخا
وكان الإسلام مولودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وأكّد وصلته بالدين
وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، مدهموا قط بأمر
إلا وقام بين دهماتهم يحرضهم ، يبسط لهم باعه ، وكان مد اليدين في هذه الدفعة
وداعه ، لاجرم أنه تهافت على ناره فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم ،

(١) الأصل : « الأنس » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

(٢) صيغة الروضتين : « ترحيب من بر » فقط .

(٣) الأصل : « علائزه في حفايفه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن الروضتين .

(٥) النص في : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) : « بالاكْتفاء والاقْتصار » .

(٦) الأصل : « نفاطر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) الأصل : « كان رابح أو خاسر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) النص في الروضتين : « وكان الضلال » .

ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا ينون عليه
أشدَّ عقد وأوثقه ، ويعدونهُ سورا لا تحفر الخيل خندقه^(١) ، و^(٢) بعد الكسرة
مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغا ، البيضاء صنعا ،
الخافقة هي وقلوب أعدائها ، العالية هي وعزائم أوليائها ” .

وكتب السلطان إلى أخيه سيف الدين ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب
اليمن يبشره بالفتح بإنشاء عمادي ، من جملة : :

”وهو فتح بيت المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه ، وطال
في أسره سجنه ، واستحكم ودهنه ، وقوى مكره وضعف ركنه ، وزاد حسنه وزال
حزنه ، وأجديت من الهدى أرضه وأخلف مزنه ، وواصله خوفه وفارقه أمنه ،
واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى
عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه
التوحيد فكاد يهـي^(٣) منته ، ودرج الملوك المتقدمون على تمنى استنقاذه ، فأبى
الشیطان غير استيلائه واستحواده ، وكان في الغيب الإلهي أن يعاد إلى معاذه ،^(٤)
وطيب أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ، وجلبت الصخرة
المقدسة جلاوة العروس ، وزازها شهر رمضان مضييفا لها نهار صومها بالتسبيح ،
وليل فطرها^(٥) بالتراويح ” .

(١) كذا في الأصل ، والنص في الروضتين : « سورا تحفر حوافر الخيل خندقه » .

(٢) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) بين لفظي : « خندقه » و « وبعد » فقرة أسقطها
المؤلف ولم ينقلها هنا ، وهي : ” ولا بقلت منهم معروف إلا القمص ، وكان لعنه الله جليا يوم الظفر
بالقتال ، وملينا يوم الخذلان بالاحتيال ، فنجوا ولكن كيف ، وطارخونا من أن يلحقه منسرا رخ
وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده ، وأهلكه لوعده ، وكان لعنتهم فذلك (كذا) ” وانتقل
من ملك الموت الى مالك ” .

(٣) الأصل : « وأفرد التثليث فكاد يهـي منته » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٩)

(٤) النص في الروضتين : « أن معاده في الآخرة إلى معاده » .

(٥) الأصل : « وليلها » ، والتصحيح عن الروضتين .

ذكر منازلة السلطان - رحمه الله - صور

ولم يزل السلطان مقياً بالقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة - يرتب إخوته ، وينظر في مصالحه ، ويفرق الأموال .

فحكى عماد الدين الأصفهاني ، قال :

”سمعت الملك [٣٠٦] العادل يقول - وقد جرى ذكر إفراط السلطان في العطاء - : أنا توليت استيفاء قطيعة القدس ، فأنفدت إليه ليلة سبعين ألف دينار ، بفناءني رسوله بكرة وقال : يريد اليوم ما يخرج في الإنفاق ، فإن الذي سيرت إلينا بالأمس قد نفذت ، فنفذت إليه ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال ، فأنفقها“ .

ثم وردت على السلطان كتب الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب - وهو نائب السلطان بصيدا وبيروت - يحرضه على حصار صور ، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان متوجها إلى عكا ، وقد سبقه إليها ولده الملك الأفضل نور الدين ، وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، وودع السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وردّه إلى الديار المصرية ، وكان آخر عهده به .

وترك الملك العزيز خزانة سلاحه بالقدس كلها ، وكانت كثيرة جدا ، وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا خيلهم وعدتهم فتوفر بذلك عدد البلد .

وتوجه مع السلطان أخوه الملك العادل ، فوصلا إلى عكا مستهل شهر رمضان من السنة ، فأصلح السلطان من شأنها ، ثم رحل منها وزل على صور يوم الجمعة

تاسع شهر رمضان ، وخيم بآزاء السور ، بعيداً منه على النهر ؛ وصور مدينة حصينة ، متوسطة^(١) في البحر ، وكان المركيس - لعنه الله - قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر ، وبني السور والبواشير وأحكم أمرها واستظهر بالعدد والعدد ، واغتم اشتغال السلطان بفتح البيت المقدس ، فأقام السلطان على تلك الحال بالمنزلة ثلاثة عشر يوماً ، حتى تلاحت به العساكر ، وجاءته العدد والآلات ، ورتب المنجنقات .

ثم حوّل السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه ، ثم أخذ في محاصرة البلد ، ووكل كل واحد من الملوك بجانب يكفيه إياه ، منهم : الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك المظفر ؛ فحاصروهم وضايقوهم .

ووصل في تلك الأيام الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - بعسكره ، فاستظهر السلطان أبوه به ، واستدعى الأصطول^(٢) المصري - وكان بمكا - بجاء منه عشرة شواني^(٣) ، وكان للفرنج في البحر مراكب وشواني ، وفيها رماة الجرخ^(٤) .

(١) الأصل : "مظها" ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١١٩) .

(٢) كذا بالأصل ، راجع ما فات دنا ص ١١ ، هامش ١

(٣) الأصل : "عشره أذراع شواني" ، وشرح "شواني" راجع ما فات هنا ص ١٣ ،

هامش ١

(٤) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات دنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ، هذا وقد عقد (الحسن بن عبد الله : آثار الأول في ترتيب الدول ، ص ١٦٠) فصلاً في صفة القسي والنشاب ، أضاف فيه معلومات قيمة عن الشعوب التي تؤثر استعمال الجرخ ، وعن المفاضلة بين الجرخ والقوس العقار ، وأين يستعمل كل منهما ، لأن قوس الجرخ يصنع من القرن ، والعقار يصنع من الخشب ، قال : "والمغاربة والفرنج يعانون قسي الجرخ ، وهي أكثر قسماً من داخل السور وفي مراكب البحر ، والقسي الجرخ القرن تصلح للقلاع ، والعقار يصنع من الخشب ، ما تصلح إلا في البحر ، لأن دواء البحر يضر بالقرن ويفسده ، والعقار الخشب ما تتغير فيه ، وقليل أن تخلى مهام الجرخ إذا كان الرامي بها عارفاً حاذقاً" .

والزنبورك^(١) يرمون من دنا من البحر، فلما وصل الأسطول الاسلامي استطال عليها وأبعدها ، [٣٠٧] فأحاط بهم المسلمون ، وقتلهم برا وبحرا ، فبينما هم في استظهار وظفر إذ ملك الفرنج خمسة من شواني المسلمين ، وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ، ومتولى بدران الفارسي ، فألقى جماعة أنفسهم في البحر ، فمن ناج وهالك ، وذلك أنهم سهرروا تلك الليلة بازاء ميناء صور إلى

(١) الزنبورك : والجمع زنبوركات — قد يعنى نوعا من القسي التي ترمى عنها السهام ، وقد تعنى نوعا من السهام ذاتها ؛ فن النصوص التي تؤيد المعنى الأول ما ورد في : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤) عند حديثه عن فتح صهيون سنة ٥٨٤ ، إذ يقول : ” ودام رشق السهام من قسي اليد ، والجرخ ، والزنبورك ، والزيار “ ، فهذه جميعا أنواع معروفة من القسي ، وذكر الزنبورك بينها دليل على أنه واحد منها ؛ وجاء أيضا في : (العمد : الفتح القسي ، ص ١٦٨) : ” وتوتير الجروح والزنبوركات ، وتطير الناوكات “ فالتوتير لا يكون إلا للقوس ، والتطير لا يكون إلا للسهم ، فالنارك — تبعًا لهذا — نوع من السهام ؛ وجاء أيضا في : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٦) : ” الروم أهل صنائع وحرف وحكم ، وفيهم صبر وخدمة ، ولهم حيل في السياسات ووضع آلات حربية ، وحظهم في الفروسية قليل ، ولهم ضرب بالسيف ، ورمى بالجرخ والزنبورك... الخ “ ؛ وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩) ” مراكب وحراريق وفيها رماة الجروح والزنبوركات “ .
ولكن (Dozy : Supp. Dict. Arab.) يورد نصا آخر قلا عن تاريخ بطارقة الاسكندرية يؤيد المعنى الثاني ، أي أن الزنبورك يعنى نوعا من السهام ، وقال :

“ Suivant l'histoire des patriarches d'Alexandrie, Le Zenbouek était une flèche, de l'épaisseur du pouce, de la longueur d'une coudée, qui avait quatre faces; la pointe de la flèche était en fer, et des plumes en rendaient le vol plus sûr. Partout où ce trait tombait, il transperçait; il traversait quelquefois du même coup deux hommes placés l'un derrière l'autre, perçant à la fois la cuirasse et l'habillement du soldat; il allait ensuite se planter en terre; il pénétrait même dans la pierre des murailles. ”

وترجمة هذا النص :

” الزنبورك سهم في سمك الإبهام وفي طول الذراع ، وله أربع أوجه ، وطرفه من الحديد ؛ وهو حريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتا ، وحيثما سقط فإنه يؤكد الإصابة ؛ وقد اخترق الزنبورك أحيانا — في رمية واحدة — جسمي رجلين اثنين وقف أحدهما خلف الآخر ؛ واخترق في قس الوقت درع الجندي وملابسه ، ثم نفذ بعد ذلك واستقر في الأرض ؛ وقد يصيب كذلك أجار الأسوار “ .

السحر، ثم غلبهم النوم ، فما اتجهوا إلا والفرنج قد ركبهم ، فودن المسلمون بذلك ووجهوا ، وتقدم السلطان إلى المراكب الباقية أن تسير إلى بيروت ، وخاف عليها لقلتها أن يستولى عليها العدو ، فجا منها شينى رئيس جبيل ، والباقون نظروا إلى الفرنج ورائهم فألقوا أنفسهم فى الماء ، وخرجوا إلى [البر] على وجودهم ، فأخذ السلطان الشوانى فنقضها ، وعاد إلى مقابلة صور فى البر ، فكان ذلك الشوانى لحدوى لضيق المجال (كذا) .

ذكر الواقعة على باب صور

ولما وقعت واقعة الأسطول طمعت الفرنج وخرجوا منها يوماً بعد العصر مستعدين للقتال ، فالتقاهم المسلمون ، فكانت الدائرة على الفرنج ، وأسر مقدم كبير لهم ، وظن أنه المركيس ، فسلمه السلطان إلى ولده الملك الظاهر ليحفظه ، فضرب عنقه ، ثم دخل الليل وأصبحوا ، وتبين أن المركيس بعد فى الحياة .

ذكر رحيل السلطان من صور

ولما طال الحصار على صور ضجر كثير من أمراء المسلمين ، لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيل لثلاث تفتى الرجال وتقل الأموال ، وكان الشتاء قد دخل واشتد البرد ، وكان رأى السلطان وجماعة من أتقياء أمراءه ، كالفقيه ضياء الدين عيسى ، وحسام الدين طمان ، وعزالدين

= ويقول دوزى بعد هذا — قلاع كاترمير — أن اللفظ قد يعنى " الزبور الصغير " ، سمي كذلك للشبه بين الصوت الذى تحدثه تلك الحشرة الصغيرة " الزبور " وبين الصوت الذى يحدثه وتر القوس عند انطلاق سهمه ؛ ثم يردف دوزى بعد هذا قوله إن هذا اللفظ أصبح — منذ اكتشاف الأسلحة الحديدية — يطلق على نوع من المدفع الصغير الذى يحمل على ظهر الجمل : انظر كذلك :

جوردك النورى إلى الثبات إلى الفتح ، لثلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال ، وقال السلطان :

” إن السور قد تهدم ، وقاربت الأمور النجاز ، فاصبروا ولا تعجلوا تفاجوا“
فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها ، ولم يصدقوا القتال ، وتعالوا بكثرة الجراح ، وقلة العلوفات ، فلم يسع السلطان إلا الرحيل فأمر بنقل الأثقال ، فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت ، وأحرق الباقي لثلا يناله العدو ، [٣٠٨] فرحل في آخر شوال من السنة ، وهو الموافق أول كانون الأول .

وسار الملك المظفر إلى دمشق على طريق هونين ، واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين .

ذكر وصول السلطان إلى عكا ومقامه بها

ورحل السلطان إلى عكا [فوصلها] في ثلاث مراحل ، لأنه سلك طريق الناقورة ، وهى طريق ضيقة ، مطلة على البحر لا يعبر منها إلا جمل بعد جمل ، فعبرت الأثقال فى أسبوع ، وعين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل ، وخيم السلطان عند التل ، وسار الملك العادل إلى مصر ، والملك الظاهر إلى حلب ، وبدر الدين دلدريم الياروقى إلى بلاده .

ذكر الكبسة على حصن الكوكب

كان السلطان لما سار إلى عسقلان قد جعل على قلعة كوكب من يحصردا ، ويحفظ البحر والطريق للبيجنازين ، لثلا يتزل من به من الفرنج يقطعونه ، وقدم على الجماعة الأمير سيف الدين محمود أخا جاولى الأسدى ، وسير طائفة أخرى من العسكر إلى قلعة صفد فحصرها ، وهى مطلة على مدينة طبرية ، وكانت كوكب للاستارية ، وصدق للداوية ، وقدم على المنازلين بصدق مسعود الصلتي .

وكان سيف الدين محمود شهما شجاعا يرجع إلى دين وعبادة ، فأقام على كوكب إلى آخر شوال ، وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبة ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة ، وكان قد صلى وردد من الليل إلى السحر ، وكانت ليلة باردة ذات رعد وبرق وريح ومطر ، فلم يشعروا إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ، ووضعوا السلاح فيهم ، فاستشهد سيف الدين وأصحابه ، وأخذ الفرنج ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره ، وعادوا إلى قلعته ، فتقووا في ذلك قوة عظيمة ، وأتى الخبر بذلك إلى السلطان عند رحيله من صور ، فعظم ذلك عليه ، مضافاً إلى ما ناله من أخذ الشواني وما فيها ، ورحيله من صور .

ثم رتب على حصار كوكب الأمير صارم الدين قايماز النجفي في جماعة من الأجناد .

ذكر فتح هونين

[٣٠٩] كان السلطان لما فتح تبين امتنعت عليه هونين ، وهي من أحصن القلاع وأمنعها ، فلم ير التعريج عليها ، ولا الاشتغال بمحاصرتها ، بل سير إليها جماعة من الأمراء والعسكر ، فحاصروها ، ومنعوا من حمل الميرة إليها ، فلما كان السلطان على محاصرة صور أرسل من بها يطلب الأمان فأمّنهم ، فسلموا هونين إلى السلطان ، ونزلوا منها ، فأمّنهم .

وأقام السلطان بظاهر عكا ، ينظر في أمورها ، ودخلها وسكن قلعته ، وسكن ولده الملك الأفضل ببرج الداوية ، وولى عكا عز الدين جرديك ، ووقف دار الاسبتار نصفين : نصفاً على الفقهاء ، ونصفاً على الصوفية ، ووقف دار الأسقف بيمارستان ، ووقف على ذلك وقوفاً جليلاً ، وفوض جميع ذلك إلى قاضيه كمال الدين بن الشيخ أبي النجيب .

ذكر قدوم رسل الملك والملوك إلى السلطان بالتهنئة

وورد على الساطان رسل الروم ونحراسان والعراق ، وكلهم يهنئ السلطان بما خصه الله تعالى به من فتح بيت المقدس ، الذي درج على حسن تمنيه الملوك ، وتقاصرت عنه أيديهم وهمهم ، ومن جملة الرسل : رسول صاحب العجم ، وهو أتاك مظفر الدين قرا أرسلان بن عثمان بن إيلدكز ، وهو الذي ملك بعد أخيه البهلوان ، وكان في الظاهر إليه الأتابكية ، واسم السلطنة للسلطان طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وهو آخر من دعى له بالسلطنة ببلاد العجم من السلجوقية .

ذكر ورود رسول الديوان العزيز إلى السلطان بالعتب

كان السلطان لما كسر الفرنج بمحطين قد ندب للرسالة إلى الديوان العزيز في معنى البشارة شابا بغداديا من الأجناد كان قد هاجر إلى الأبواب السلطانية مسترفدا ، وكان ببغداد حاملا كثير الإدبار ، مشمرا في دروب بغداد ، فتوجه إلى الشام هاربا من الفقر والفاقة وكان يعرف بالرشيد البوشنجي .

فلما سيره السلطان في الرسالة إلى بغداد قامت القيامة بمراسلته ، وأنكر ذلك على السلطان غاية الإنكار ، وحقروا الرسول وما وقروه ، ونظروه بالعين التي يعرفونه بها ، وحبوه بحباء قليل يليق به ، فتمسح المذكور [٣١٠] في الكلام ، وصدرت منه أمور قبيحة لا تليق ، فأنهى إلى المقام النبوي شيئا من مقالاته الردية ، وجهالاته ، فاشتد العتب بسبب ذلك .

وانضاف إليه أن قوما من أعداء السلطان تطرقوا إلى القول والقدح، وراموا إبعاد السلطان ، وإيغال قاب الخليفة عليه ، فقالوا : إنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضافا للاسم الأشرف الذي هو الإمام الناصر ، وأن مقصوده قلب الدولة والاستبدال بها ، كما فعل بالمصريين فإنه يُدَلُّ بماله من القوة والعساكر وكثرة الممالك ، وقالوا من ذلك ما كثروا حتى الديوان .

وأفضى ذلك إلى أن أرسلوا إلى السلطان تاج الدين الأصفهاني - أخا عماد الدين الكاتب - ، وقالوا : إن أخاه مطلع على الأسرار ، وهو منتظم في سلك الأولياء ، فعولوا عليه في هذه الرسالة ، وردوا معه جواب البشارة ، وقد كتب له تذكرة بموجبات مقاصد العتب والمخاطبة فيها ، وخشّنوا في القول وأغاظوا ، وكان ابن البوشنجي قد عاد شاكيا من الديوان ، ونجّبا بأن أخا العماد واصل بكتب عتب وغضب ولفظ ممض .

ولما قرب تاج الدين من العسكر السلطاني ، وكان بعد نازلا على صور ، تقدم السلطان إلى الملوك والأمراء بتلقيه ، فتلقاه الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك المظفر ، والأمراء على مراتبهم ، ثم ركب السلطان بنفسه وتلقاه ، وبالغ في إكرامه واحترامه ، وآنسه ، وأراه مواضع الحصار ، ومصارع الفرنج ، ثم نزل وأنزله بالقرب منه ، ثم حضر عنده داخل المجلس له ولأخيه عماد الدين قارئ الرسالة ، وأحضروا التذكرة فقرأها عماد الدين على السلطان ، وكان فيها غلظة وألفاظ مؤلمة ، فقال السلطان :

” إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الألفاظ ، والأسباج الغلاظ ، وقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق من هذه الكلمات ، ومعاذ الله أن يجبط عملي في خدمة الديوان ، وأماما نسب الأعداء إلى فما عرف عني إلا الاعتراف بالعارفة “ .

ثم ذكر أياديه السابقة في الفتوحات الإسلامية وإقامة الدعوة العباسية [٣١١] بمصر واليمن وإزالة الأعداء ، وإبادة الأعداء ، وفتح البيت المقدس .

” وأما النعت الذي أنكر على ، فهذا من عهد الإمام المستضى بنور الله أمير المؤمنين ، والآن فكل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أشرف [به] وأعرف ، وما غرضي إلا استكمال الفتوح لأمر المؤمنين ، وقطع دابر الكفار “ .

ثم ودّع السلطان تاج الدين ، وأودعه من المشافهة كما في النفس ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ، ومضى ماضى ، وكان جماعة من الملوك والأمراء قد ونخوا السلطان لما قيل في حقه ، وأرادوا أن يفضوه ، كالملك العادل ومظفر الدين بن زين الدين ، فما غضب بل احتمل ، وتلقى ذلك بصدر رحب .

ذكر الفتنة بعرفة بين أصحاب الخليفة والسلطان

ومقتل شمس الدين المقدم

لما فتح السلطان البيت المقدس طلب الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك - المعروف بابن المقدم - إذنا من السلطان في أن يجمع ، ويحرم من القدس ، ويجمع في سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل إبراهيم عليه السلام وما بالشام من مشاهد الأنبياء وبين زيارة قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فأذن له في ذلك .

وكان قد اجتمع في تلك السنة من الحجج بالشام الخلق العظيم من العراق والموصل وبلاد الجزيرة وبلاد الروم وغيرها ، ليجمعوا بين زيارة القدس أول فتوحه وبين مكة ، فجعل شمس الدين بن المقدم أميراً عليهم ، وساروا حتى وصلوا عرفات سالمين ووقفوا ، فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا فأمر بضرب كوساته التي هي أمانة الرحيل ، فضربها أصحابه ،

فأرسل إليه أمير الحاج العراقي ، وهو محي الدين طاشتكين ينهيه عن الإفاضة من عرفة قبله ، ويأمره بكف أصحابه عن ضرب الكوسات ، فأرسل إليه : " أنه ليس لي معك تعلق ، أنت أمير الحج العراقي ، وأنا أمير الحج الشامي ، وكل منا يفعل ما يراه ويمختاره " ، وسار ولم يقف ولم يسمع قوله .

فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ، ركب في أصحابه وأجناده ، ومعهم من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم^(١) العالم الكثير ، وقصدوا الحاج الشامي مهولين عليهم ، فلما قربوا منهم خرج الأمر [٣١٢] عن الضبط ، وعجزوا عن تلافيه ، فهجم طاعة العراق على حجاج الشام ، وقتلوا منهم جماعة ، ونهبت أموالهم ، وسُبيت^(٢) جماعة من نساءهم إلا أنهم رُددن عليهم .

و. روح شمس الدين عدة جراحات ، وكان يكف أصحابه عن القتال ، ولو أذن لهم لا نتصف وزاد ، ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم ، فلما أئمن بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خيمته ليمرضه ، وأنزله عنده ، ليستدرك الفائت في حقه ، وساروا تلك الليلة من عرفة ، فلما كان من الغد توفي شمس الدين بمنى ، ودفن بمقبرة المعلى .

ورزق الشهادة بعد الجهاد وفتوح بيت المقدس - رحمه الله - .

وارتاع طاشتكين بما اجترمه ، وكيف لم يراقب الله في الحرم الشريف ، وكيف اعتدى على حجاج بيت الله تعالى وسفك دماءهم بغير حق ، فكتب محضرا

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص عنده (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢١٢) : "من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم وطاعتهم العالم الكثير" ، ويفهم منه أن لفظ "بطاطى" مرادف لغوغاء وطاعة ؛ وقد جاء في (التاموس) : "البطيط : العجب ، ورأس الخف بلا ساق ، والداهية" وفي (اللسان) : "البُطُّط : الأتاجيب ، والأجواع ، والحق ؛ والبطيط : رأس الخف ، عراقية" .

(٢) الأصل : "وسبا" ، والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجح الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

على ما اقترحه ، وألزم أعيان المجاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ما عينه ، فكتبوا خطوطهم مكرهين ، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل ونهاه فأبى .

فلما انتهت تلك الحالة إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أنكرها أشد الانكار ونصبها إلى طيش طاشتكين ، فانحط قدره عنده بسبب ذلك ، ثم نكبه بعد سنتين ، وحبسه وأطال سجنه ، ثم عفا عنه بعد مدة ، وولاه [حرب] (١) بلاد خوزستان وخراجها ، وولى إمارة الحج غيره .

ولما بلغ السلطان استشهاد شمس الدين حزن عليه واحتسبه ، وأقر ولده الأمير عز الدين مقامه ، وأقر عليه إقطاعه .

وأقام السلطان بعكا إلى آخر السنة .

ذكر منازة السلطان حصن كوكب

ولما دخلت سنة أربع وثمانين وخمسة مائة خرج السلطان من عكا ، ونازل كوكب في العشر الأوسط من المحرم ، وحاصرها وصابرها أياما ، ولم يتمكن من فتحها لمنعتها وحصانتها ، وراها تحتاج إلى طول مدة ومصابرة ، فوكل بها صارم الدين قايمار النجوى ، ووكل بصفد طغرل الجاندار ، كل واحد منهما في خمسة مائة فارس ، ووجه إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشيه (٢) الأسدي ، وكانت هذه الحصون [٣١٣] الأربعة في غاية الحصانة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٣) ، وهو المرجع الذي

ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل "كشيا" ، والتصحيح عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٤) .

ووصل السلطان - وهو بكوكب - رسولُ صاحب آمد قطبُ الدين سجان ابن نور الدين محمد بن قزل أرسلان الأرتقى ، وكان خائفا من السلطان أن يسترجع آمد ، لأنها من جملة مواهبه - كما سبق - واستوثق بالوصلة بإحدى بنات الملك العادل ، وكان قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر ، فلما قدم رسوله تمت الوصلةُ بينهما .

ووصل أيضا اختيار الدين حسن بن غفراس - مديبر دولة الملك قايخ أرسلان صاحب الروم - وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلج والديباج والموشى ، وفي يده زنود وخواتيم مرصعة بزينة ثقيلة الجواهر ويواقيت ثمينة ولآلي نفيسة ، وفي يده عمود من ذهب ، وعدته مجوهرة ، وكان السلطان اذا رآه تبسم تعجبا من قلة عقله ، ويقول : "بهذا سافر لينظر الناس ذهبه وجوهره".

وكان جماعة من أهل الحزم قد أشاروا على السلطان بتخريب عكا وتعفية أثارها حتى يؤمن عود الكفر إليها ، ويبنى قلعة القيمون ، وكان هذا عين المصلحة ، فكاد يجيب إلى ذلك ، ف قيل له : "هذه مدينة كبيرة ، وعماراتها كثيرة ، والمصلحة تبقىها ، وأن تعمر وتحصن" ، فولى عمارتها وتدير أمورها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو الذي تولى إدارة السور على مصر والقاهرة ، فاستدعاه من مصر ، وأمره أن يستنيب^(١) في تلك العماره ، فقدم عليه وهو بكوكب ، ففوض إليه عمارة عكا ، فشرع في تجديد سورها وتعليق أبراجها ، وكان لما قدم من مصر قدم معه أساتيد العمل^(٢) وأبقاره وآلاته ودوابه .

(١) الأصم : "يستنيب" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٥) وهو المقول عنه هنا .

(٢) الأصل : "أسارى للعمل" ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : "وتحت" ، والتصحيح عن المرجع لمسبق .

ذكر مقدم السلطان إلى دمشق

ولما رتب السلطان الأمور على كركب رحل إلى دمشق مستهل ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة أربع وثمانين وخمسمائة - وكان طريقه شرق بحيرة طبرية ، وتجنب عقبة فيق لاستصعاب رقيها ، ولما قرب دمشق تلقاه الناس وفرحوا بقدومه ، لأنهم كانوا متعطشين إلى رؤيته ، فإنه كانت عيبته عنها هذه الدفعة سنة وشهرين وخمسة أيام ، كسر فيها الكفر ونصر فيها الإسلام . وفتح بيت المقدس ، وكان دخوله دمشق سادس ربيع الأول .

[٣١٤] ولما استقر بها قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد ، وابتدأ بالجلوس في دار العدل ، وبحضرتة الفقهاء والعلماء وأهل الدين .

وكان قد ولي بدمشق بدر الدين مودودا المعروف بالشحنة - وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه - ثم فوض إليه ولاية الديوان ، وكان مع الصفي بن القابض ، وكان الصفي قد بنى للسلطان دارا بالقلعة مظلة على الشرفين ، وأنفق عليها أموالا جليمة ، وبالغ في حسنها ، وظن أنها تقع من السلطان بموقع ، فلما رآها السلطان ما أعارها طرفه ولا استحسناها ، وكانت من جملة ذنوب الصفي التي أوجبت عزله عن الديوان ، وقال :

” ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ وما خلق العبد إلا للعبادة والسعي في تحصيل السعادة الأبدية ، وما جئنا إلى دمشق بذية الإقامة “ - رحمه الله وقدس روحه - وكذا فلتكن الملوك .

ولم يكن سعيه إلا في الجهاد وتحصيل مجد ، ولم يكن يرغب [فيما كان يرغب] غيره من الملوك من الملمات الخبيسة ، لذاب البطن والفرج ، ولم يكن من رأيه التوزع والسكون وإضاعة الحرم . بل الحذر والتشعب والحرم والعزم الصادق فيما يحصل به المجد في الدنيا ، والحمد في الأخرى

ذكر رحيل السلطان من دمشق إلى الغزاة

ولما عزم السلطان على الخروج للغزاة بدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، وأقام عنده إلى الظهر ثم ودعه ورحل، وكانت مدة مقامه بدمشق خمسة أيام، فسلك على عين الجر والدمية والبقاع، وأتى بعلبك، وخيم بمرج عدوسه، ثم رحل على سمت اللبوة.

ثم أتى الدراعة، ووصله الخبر بوصول عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في جموعه وجنوده، ونزوله على بحيرة قدس من عمل حمص، فسار إليه، واجتمعا، ونزل السلطان وعماد الدين بالبحيرة، وعمل عماد الدين على البحيرة للسلطان دعوة، وعمل له السلطان دعوة، واجتمعا في الرأوب والجلوس، وتأكد بينهما التصافى والمودة.

وأرسل السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر - صاحب حماة -، وولده الملك الظاهر [٣١٥] - صاحب حلب - فأمرهما بأن يجتمعا ويتزلا بتيزين^(١) قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا.

وأقام السلطان بالبحيرة إلى آخر ربيع الأول، ثم رحل في أول ربيع الآخر، وخيم على تل قبالة حصن الأكراد، وشن الغارة على نواحي الحصن، وصافيتا، والعزيمة، وتلك الحصون، وفتح حصن يحمور، ولم تزل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر ربيع الآخر.

(١) تيزين، عرفها (ابن الشحنة: الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب، ص ٢٢٢) فقال إنها من مضافات أنطاكية من الحصون، وهي مدينة صغيرة قديمة كان لها سور قد تهدم، ولم تزل في أيدي المسلمين إلى أن استولت الفرنج على أنطاكية، ثم استعادها المسلمون منهم، وقصبتها الآن "أرتاح".

ووصل إلى السلطان وهو في تلك المنزلة قاضي جبلة منصور بن نبيل، وجماعة معه، فأشار على السلطان بقصد جبلة، وتكفل له بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون الشمالية والمعقل، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية، وعزل عليه فيها، وقال للسلطان:

”إن الاشتغال بطرابلس مع حصاتها ومنعتها يذهب الزمان، والمسلمون يجبله راغبون في التسليم، منتظرون للسلطان أن يخلصهم من الفرنج“.

فأصغى إلى قوله.

ذكر فتح أنطربوس

ثم سار السلطان من منزله تلك ذلك اليوم - يوم الجمعة رابع جمادى الأولى - على تعبئة لقاء العدو، ورتب الأطلاب، ومارت الميمنة ومقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الآخرة، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، والثقل في وسط العسكر، حتى أتى المنزل، فبات تلك الليلة في بلد العدو، ثم رحل صبيحة السبت ونزل على العزيمة، فلم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد، فوصل إلى أنطربوس، فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة، وأمرها بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغنم العسكر جميع ما فيها، ونخرج الناس ومعهم الأسرى والأموال، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب، ووفى بقوله - رحمه الله - فإنه كان قد عرض عليه الغدا، فقال: ”نتغدى بانطربوس إن شاء الله“.

قال القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - :

” فعاد إلى خيمته فرحا مسرورا ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عاداتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال [٣١٦] يحاصره حتى أنخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بأحراق سور البلد ، وقسمه على الأمراء .

وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيًا بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة فيه ، وخذقه فيه الماء ، وفيه خروج^(١) كثيرة تجرح الناس على بعد ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أيسر منه ، واشتد في خراب السور حتى أتى عليه ، ونخر البيعة ، وهي بيعة عظيمة يحجونها من سائر البلاد ، وأمر بوضع النار في البلد ، وأحرق جميعه ، والأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأقام يخرّب البلد إلى رابع عشر جمادى الأولى .

ثم سار يريد جبّة ، فالتقاه ولده الملك الظاهر في أثناء الطريق ، ومعه العسكر التي كانت بتيزين^(٢) ، ونزل السلطان على مرقية ، وقد أخلاها سكانها ، نفيم بها ، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسلك ، وهناك حصن للاستتار يقال له المرقب ، مأهول معمور ، ولا طريق إلا تحته .

وكان ملك صقلية لما بلغه ما تم على الفرنج بالشام جهز أسطولا يشتمل على ستين قطعة ، وقدم عليها رجلا يقال له المرعريط ، فوصل وما ضر ولا نفع ، فإن فرنج الساحل لم يرفعوا به رأسا ، وضجروا منه ، فإنه كان في عشرة آلاف رجل ، ويحتاجون إلى ميرة وكلف كثيرة ، فصار إلى مدينة صور ، ثم رجع إلى طرابلس ، وتردد أشهرًا في البحر ، فلما سمع بعبور عسكر المسلمين على الساحل

(١) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ ، هامش ٣

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

إلى جبله جاء بالشواني، ووضعها على موازاة الطريق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاتي^(١) إلى هناك وتصفيها، وتكثير ستائرهما، وأجلس الرماة من ورائها، فما زال الأمر كذلك، والرماة ترمي، والمسلمون سالكون المضيق إلى أن عبرت الأتقال والأحمال، وخلص المسلمون من تلك المشقة، ووصلوا إلى مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها أهلها، فخيم السلطان عليها، ثم أصبح على الرحيل، فاعترضه نهر عميق ما فيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر، وعليه قنطرة واحدة، فتكبهها السلطان بالجحفل، ومضى يمينا إلى الجبل، وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، وأحاطت العساكر بالنهر من جانبه، (٣١٧) وتزاحمت الأتقال على القنطرة، فاخلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأتقال إلى بلده، ودى بليدة من غربي النهر على شاطئ البحر، وقد أخلاها أهلها.

ذكر فتح جبلة

وأصبح السلطان يوم الجمعة لا تقي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى نازلا على جبلة، وكان قاضيها قد سبق إليها، واتفق مع من فيها من المسلمين على التسليم، فما وصل المسلمون إليها إلا وقد رفعت على سورها الأعلام السلطانية،

(١) الجفّات — والجمع جفّات وجفّيات — حرفها دوزي بالكافة الفرنسية : (palissade) أي السياج الساتر، ويبدو أنها كانت نوعا من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو، أو الذي يستتر وراءه الجنود الرماة أثناء القتال، وفي المراجع المعاصرة نصوص قد تلقى الضوء على معنى هذا اللفظ؛ فقد جاء في (العقاد : الفتح القسي، ص ٥٨) : "فخول السلطان إلى قربها له خيمة صغيرة، وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة، وصف الجفّات، فصدف أيتها الآتي... الخ" وقال في ص ٦٠ : "توكان من إحكام العزم، وإتمام الحزم، تكميل الآلات وتعيمها، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليقها، وتقريب الجفّات والجنويات وتصفيها"؛ وقال في ص ٦١ : "وظمت الستائر من القضيبي، وصفت من سور صور بالمكان القريب، وكنت من ورائها الكافة، واستمرت بالجفّات قدامها الرماة".

وتحصن الفرنج بحصنها ، فما زال بهم قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استزلهم منها بشرط أن يأخذ منهم رهنا إلى أن يردوا من أنطاكية رهائن جبلة من المسلمين ، فأخذ منهم جماعة من رؤوسهم ومقدميهم ، فبقوا عنده حتى أعاد الابرنس صاحب أنطاكية الرهائن التي عنده ، فحينئذ أطلقوا .

وكان تسلم جبلة يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ، وأقام السلطان عليها إلى الثالث والعشرين منه .

ذكر فتح بكسراييل

وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن حصين يعرف ببكسراييل ، وكان أهل الحصن استعادوه من الفرنج منذ سنين ، فسلموه إلى السلطان ، ونزلوا مقدموا الجبل إلى خدمته سامعين مطيعين .

ثم سلم السلطان جبلة إلى الأمير سابق الدين [عثمان] بن الداية - صاحب شير - ، واحترم قاضي جبلة ، وأحسن إليه وحبس عليه أملاكاً ، وصرفه في أملاك آبائه ، وحكّمه في القضاء وفوضه إليه .

ذكر فتح اللاذقية

ثم رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء لسبع بقين من جمادى الأولى ، فبات بالقرب منها وصبحها يوم الخميس ، وقد امتنع الفرنج بقلاعها ، وهي ثلاث متلاصقات على طول البلد ، فاشتد القتال ، وعظم الزحف إلى آخر النهار ، فسلم السلطان البلد دون القلاع ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، وفرق بين الناس الليل ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً ، وأخذ النقوب من شمال

القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين^(١) ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليه ، حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال [٣١٨] حتى صاروا يتحاذفون بالمجارة ، فحينئذ استغاثوا بالأمان ، فاستدعوا بقاضي جبلة ، فدخل إليهم ، وقرر لهم قاعدة الأيمان ، فأجيبوا إليه ، وعادوا الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب .

ولما كان صبيحة السبت دخل إليهم قاضي جبلة ، واستقر الحال معهم على أن يطلقوا بنفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى ما منهم ، ورفع العلم السلطاني على السور في يوم السبت ، فأقام السلطان عليها يوم الأحد سابع عشر من جمادى الأولى .

ومن جملة كتاب كتبه السلطان إلى أخيه سيف الدين طفتكين بن أيوب

— صاحب اليمن — :

” وهذه اللاذقية مدينة واسعة ، وخطة جامعة ، معاقلها لا ترام ، وأعلاقتها لا تستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالا وضياعا وأزيناها ، وما في البحر مثل ميناها ، ولا للمراكب^(٢) الواردة إليها مثل مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس فعادت بالإسلام دار نعيم“ .

وكانت شوانى صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية ، طلبا^(٣) لامتناعها ، فلما فتحت وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره ، فطلب مقدم تلك الشوانى

(١) النص في (الروضتين ، ج ٤ ، ص ١٢٦) : « عشرين ذراعا » .

(٢) الأصل : ” المراكب “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٣) النص عند العماد (المرجع السابق) : ” طمعا في امتناعها “ .

أمانا ليصعد ويجتمع به ، فصعد وخدم السلطان ، وعفر وجهه على الأرض بين يديه ، وقال له :

”أنت سلطان عظيم قد شاع في الأرض عدلك ، واشتهر فضلك وإحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكيت قيادها ، ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا لك عبيدا وأطاعوك ، وإلا جاءك من وراء البحر في عدد الموج أفواجا فوجا بعد فوج ، وسار إليك ملوك النصرانية من سائر الممالك ، وأمر هؤلاء القوم أهون عليك من غيرهم ، فاعطف عليهم واصفح“ .

فقال له السلطان :

”قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، واقترضه علينا ، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما اقترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله تعالى“ .

فصلَّب الفرنجي على وجهه وعاد إلى مركبه .

ذكر فتح صهيون

ورحل السلطان من اللاذقية (٣١٩) قاصدا صهيون بعد أن سلمها إلى ابن أخيه الملك الظفرتقي الدين ، فنزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليها المناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة شاهقة في الهواء ، وهي في طرف جبل ، وخذادتها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد طوله ستون ذراعا ، وهو نقر في حجر ، ولها ثلاثة أسوار : سوران دون ربضها ، وسور دون القلعة^(١) مع سور القلعة .

(١) النص عند ابن شداد — وهو المرجع الذي ينقل عنه هنا — ”دون القلعة وسور القلعة“ ،

انظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٩) .

وأُتزل السلطان ولده الملك الظاهر على المكان الضيق من الوادي ، فنصب
منجنيقا مقابل قرنه من السور ، وكان صائب الحجر ، ولم يزل يضربها حتى هدم
من السور قطعة عظيمة ، وكان معه جماعة من الرجاله الحلبيين ، وهم في الشجاعة
بالمنزلة المشهورة ، ودام رمى النَّشَاب^(١) والجرخ^(٢) والزنبورك^(٣) والزَّيار^(٤) ،
فخرج أكثر أهل الحصن وهم يظهرون التجلده .

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف ، وركب
وتقدم ، وتواتر ضرب المنجنيقات ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج
بالتكبير والتهليل ، فتعلق المسلمون بقرنه من ذلك الجبل ، وقد أغفل الفرنج
إحكامها ، فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول ، فقاتلوه عليه
حتى ملكوه ، وملكوا بقية أسوار الربض وهجموا .

(١) النَّشَاب النبل أو الدهام ، واحده نُشَابَة ، والناشبة والنَّشَابَة قوم يرمون بالنشاب (اللسان) ،
وقد ذكر (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع
على الآخر ، قال : ”وأما النَّشَاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفنل والثقل والخفة ،
وطوله وقصره على حسب مقادير الرامي ، والمريش المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ،
والمثلث المريش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، لكن فيه بطل ، وريش الذنب لا خير فيه ، فإن اضطر
إليه فليحفظ مع غيره ... الخ“ .

(٢) راجع ما فات هنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ؛ ص ٢٤٣ ، هامش ٤

(٣) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٤) الزيار — والجمع زيارات — نوع من القسي الرامية للدهام ، يذكر غالبا مع أنواع القسي
الأخرى مثل الجرخ والعقار ، ولكنه أكبرها وأضخمها ، وقد وصفها (مرضى بن علي : تبصرة
أرباب الألباب ، ص ٦) وصفا واضحا دقيقا ، قال : ”قسي الزيار ، وهي أشدها رميا ، وأعظمها
جرما ، وأنكأها مهما ، ويحتاج إيتارها إلى عدة من الرجال ، وتركيب هيولاها من أصناف من الأخشاب ،
وتنصب على الأبراج وماشا كلها ، ولا يكاد أحد يقف لها“ ، أنظر أيضا : (Dozy : Supp. Dict. Arab) و (C. Cahen : Un Traité d' Armurerie . . . etc. P, 151 — 152) و (العقاد الأصفهاني :
الفتح القسي ، ص ٦٤) .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

” فلقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام ،
فياً كلونها وهم يقاتلون القلعة ، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم
أن يحملوه من أموالهم ، ونهب الباقي ، ثم استدار المسلمون حول أسوار القلعة ،
فلما عاينوا الهلاك استغاثوا وطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ، على أن يسلموا
بأموالهم وأنفسهم ، وقرر عليهم قطعة القدس ، فسلمت القلعة .

ثم سلم السلطان صهيون بجميع أموالها وسائر ما حوته من ذخائر وأموال إلى الأمير
ناصر الدين منكورس بن نهارتكين — صاحب بوقيس — فأحكم البلد وحصنه
وحفظه .

وكان ناصر الدين له همة عالية ، ومعروف [٣٢٠] كثير وسياسة تامة ،
وصدقات كثيرة دارة ، وأوقف وقوفا جليلة ، ولم يزل مشكور السيرة ، مرضى
الطريقة ، مقصدا وملاذماً لمن قصده من أهل الفضل والدين إلى أن توفي وهو
مالك صهيون ، وتولى بعده ولده مظفر الدين عثمان ، ثم توفي مظفر الدين عثمان
ابن منكورس بن نهارتكين ، فملكها بعده ولده سيف الدين مجد ، فلم يزل
مالكا لها إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة^(١) ، وولّى بها السلطان الملك
الظاهر ركن الدين نوابه ، فكان مدة ملك آل نهارتكين لها نحو سبع وثمانين سنة .

وكان مظفر الدين عثمان سالكا طريقة والده في العدل والإحسان ، والصدقة
وحسن السيرة ، وكان جده ناصر الدين نهارتكين — رحمه الله — أميراً جليل
القدر ، واستشهد بيد الباطنية ، وهو في خدمة السلطان ، وقد ذكرنا ذلك .

(١) هذا النص يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٧١ هـ .

ذكر فتح عدة حصون

ثم تسلم يوم السبت ثالث جمادى الآخرة قلعة العيد ، ويوم الأحد رابع الشهر قلعة الجماهريين ، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلاطنس ، وندب إلى كل حصن من تسلمه ، وكانت هذه الحصون متعلقة بصهيون .

ذكر فتح الشَّغْر وبكاس

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس ، وهي قلعة حصينة على جانب النهر العاصي المعروف بالارنايط ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان نزول السلطان على جانب العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة ، وصعد السلطان إلى القلعة وأحرق بها من كل جانب ، وقاتلها أشد قتال بالمنجنقات والزحف ، ثم تسلمها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قلعة تسمى الشَّغْر قريبة منها يجاز إليها بجسر ، وهي في عاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنقات من الجوانب الأربع ، فطلبوا الأمان ، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لأجل استئذان من بأنطاكية ، ثم سلمت ، وصعد العلم السلطاني على سورها يوم الجمعة سادس عشر الشهر ، ثم عاد السلطان إلى نخيمه .

ذكر فتح سرمانية

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة [٣٢١] بقيت من جمادى الآخرة سير السلطان ولده الملك الظاهر - صاحب حلب - إلى قلعة تسمى سرمانية ، فقاتلها قتالا شديدا ، وضايقها مضايقة عظيمة ، ثم تسلمها يوم الجمعة لسبع بقين من الشهر ، بعد قطيعة قررها وقبضها ، ولما أخرجهم منها هدمها وسواها إلى الأرض .

ومن عجيب الاتفاق أن هذه ست قلاع ومدن فتحت في ست جمع ،
وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان ، حيث يسر الفتوح
في اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات ، ولم يتفق مثل هذا في تاريخ ؛ وهي :
جبله ، واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشفر ، وسرمانية .

ثم أنعم السلطان بالشفر وبكاس على الأمير غرس الدين قلعج ، وكان هذا قلعج
قد تسلم كفردين - وهو معقل حصن الأرمن - ، وكان هذا أميراً جليل القدر ،
وخلف أولاداً أكبر ثلاثة ، وهم : شمس الدين ، وسيف الدين ، وعماد الدين ؛ وكان
شمس الدين أكبرهم ، وله ميل إلى الفضيلة ، وكذلك أخوه .

ثم أخذ منهم الملك الظاهر بعد موت السلطان الحصون ، وأقطعهم أرباباً كثيرة
بجلب ، ثم فارق سيف الدين وأخوه عماد الدين حلب ، وذلك بعد وفاة الملك الظاهر
ووفاة أخيهما شمس الدين ، وخدم الملك الكامل بن الملك العادل ، ثم تقلبت
بهما الأحوال ، فقتل عماد الدين بالشرق ، وأما سيف الدين فخدم الملك الناصر
داوود بن الملك المعظم عيسى ، فأقطعه عجلون ، ثم سلمها بعد ذلك سيف الدين
إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، وتوفي سيف الدين بدمشق ،
وكانت له مشاركة في علوم وفضيلة وثاقب رأى عند ملوك بني أيوب .

ذكر فتح حصن برزية

ثم سار السلطان جريدة إلى حصن برزية ، وهو في غاية المنعة والقوة على سن
جبل شاهق يضرب به المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين ، تحيط به أودية
من سائر جوانبه ، ودرع علو القلعة فكان نحسائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ،
ثم جرد عزمه على حصاره بعد رؤيته ، فاستدعى الثقل ، ونزل تحت جبل الحصن ،
ولما كان بكرة يوم الأحد لخمس بقين من جمادى الآخرة صعد السلطان جريدة مع

المقاتلة [٣٢٢] والمنجنيقات^(١) وآلات الحصار إلى الجبل ، وأحرق بالقلعة من سائر جوانبها ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلا ونهارا .

ولما كان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من جمادى الآخرة رتبَّ السلطان العسكر ثلاثة أقسام ، ورتبَّ كل قسم يقاتل شطرا [من النهار ، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الأخر]^(٢) بحيث لا يفتر القتال أصلا .

وكانت النوبة الأولى لعقاد الدين زنكي - صاحب سنجار - فقاتل قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وكلَّ أصحابه .

ثم تسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وخواصه ، وكان الزمان حرا شديدا ، فاشتد الكرب على الناس ، والسلطان في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وابن أخيه الملك المظفر كذلك ، فقاتلوه إلى قريب الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا ، فإما رآهم السلطان قد عادوا تقدم اليهم وبيده جُمَاق^(٣) فردَّهم ، وصاح في القسم الثالث وهم ينتظرون نوبتهم ، فوثبوا ملبين ، وساعدوا إخوانهم وزحفوا ، بجاء الفرنج ما لا قبل لهم به .

وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا ، فقاموا حينئذ ، وتناصرت أنصار الله ، واشتد الأمر ، وبلغت القلوب الحناجر ، فاشتد تعب الفرنج ونصبهم ، وظهر عجزهم وضعفهم عن حمل السلاح ، وخالطوهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم ، وكانت طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن ، فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك المكان ، فصعدوا إلى الحصن من تلك الجهة ، فلم يمنعهم مانع ، والتقوا مع المسلمين الداخلين والتقوا مع الفرنج ، فلكوا الحصن

(١) راجع (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع الذي ينقل عنه المؤلف هنا ، وهو ابن شداد ، راجع أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣١) ، وهي إضافة ضرورية يستقيم بها المعنى .

(٣) جُمَاق أو جوماق نوع من السلاح يشبه الدبوس ، عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.) بأنه "Une arme semblable à une massue" أي أنه نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس .

عنوة وفهرا ، ودخل الفرنج القلعة التي للحصن ، وأحاط بها المسلمون ، وأرادوا
نقبتها ، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة ،
وأرجلهم في القيود والخشب [المثقوب] ^(١) ، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي
الحصن والقلعة كبروا في سطح القلعة ، فظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا
إلى سطح القلعة ، فآلقوا بأيديهم إلى الأسر ، وملكها المسلمون عنوة ، ونهبوا
ما فيها ، وأسروا وسبوا ، وأمست خالية لا ديار بها ، وألقى المسلمون النار
في بيوتهم فاحترقت ، وولى السلطان حصن برزية للأمر عز الدين إبراهيم بن الأمير
شمس الدين بن المقدم - وهو صاحب حصن أفامية - وبين الحصنين بحيرة تحجز بينهما .

وكانت زوجة البرنس [٢٢٣] صاحب أنطاكية تهادى السلطان وتناصحه ،
وتطالعه على أسرار الفرنج ، وكان السلطان يكرمها لذلك ، ويهدى إليها أنفس
الهدايا ، وكانت أختها صاحبة برزية فسبيت يوم الفتح ، فما زال السلطان يطلبها
حتى أحضرها ، وأحضرها زوجها ، وابنة له ، وجماعة من أصحابها ، وصهرها ،
فأنعم عليهم السلطان بما لهم ، وسيرهم إلى أنطاكية إكراما لامرأة البرنس ، فشكرته
على ذلك ، ودامت مودتها له .

ذَكَرَ فَتْحَ دَرَبَسَاكَ ^(٢)

ثم سار السلطان حتى أتى إلى جسر الحديد ، وأقام عليه ثلاثة أيام ، ثم سار
إلى دَرَبَسَاكَ ^(٢) فنازلها يوم الجمعة ثامن رجب من هذه السنة ، وهي قلعة منيعة
من معقل الداوية ، قريبة من أنطاكية ، ونصب عليها المنجنيقات ، وتابع
الرمي بالحجارة ، فهدمت من سورها شيئا يسيرا ، فلم يبال من فيها بذلك ،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢) ، وهو المرجع
الذي ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل : "دربساك" ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٢)

فزحف إليها بعساكره ، وكشف الرجال عن سورها ، وتقدم النقبون فثقبوا برجا وعلقوه ، فسقط واتسع المكان لمن يريد أن يدخل من المقاتلة ، واستمروا يومهم ذلك على الزحف من الغد ، وحمل الفرنج موضع النقب بالرجال المقاتلة ، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عن من يصعد فيها .

قال القاضي بهاء الدين :

” ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين “ واشتد الأمر فطلبوا الأمان ، فأومنوا على أن يخرجوا بثياب أبدانهم ، ويدعوا كل ما في الحصن من خيل وعدة وأثاث وقماش وذهب وفضة ، واستهلوا ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية ، فأهلوا حتى أخرجوا ، وتسلم الحصن يوم الجمعة لثمان بقين من رجب .

ذكر فتح بَغْرَاس

ثم سار السلطان عن درْبَسَاك إلى قاعة بَغْرَاس بعد أن اختلف أصحابه في حصرها ، فمنهم من أشار به ، ومنهم من نهى عنه ، فقال : ” هو حصن ، وقلعته منيعة بالقرب من أنطاكية ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر يزكا في مقابلتها ، وحينئذ يفشل المقاتلون على بَغْرَاص ويتعذر الوصول إليها ، فاستخار السلطان الله تعالى ، وسار إليها ، [٣٢٤] وجعل أكثر العسكر في مقابلة أنطاكية يزكا يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين خوفا إن غفلوا لقربهم منها (كذا)

وبقي السلطان في بعض أصحابه يقاتل القلعة ، ونصب عليها المنجنيقات ، فلم تؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها ، فغلب على الظن تعذر فتحها ، وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم ، فبينما الناس على هذه الحال وإذا بباب القلعة قد فتح ، ونرج منها إنسان يطلب الأمان ليحضر ، فأذن له في الحضور ، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه بما فيه على قاعة درْبَسَاك فأجيبوا إلى ذلك .

وعاد الرسول ، وأخذوا الأعلام السلطانية ، فرفعت على الأسوار ،
ونزل من فيها ، وتسلم السلطان القاعة بما فيها من الرجال والسلاح والأموال ،
وأمر السلطان بتخريب الحصن نُخْرِبُ ، وكان في ذلك مضرة عظيمة على المسلمين ،
فإن ابن ليون - صاحب الأرمن - أخرج إليه من ولايته بعد ذلك ، بحدِّ
عمارته ، وأتقنه ، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون به على البلاد ، ووقع
الضرر بسببه .

وكان فتح بَغْرَاص في ثاني شعبان .

قال عماد الدين الكاتب :

”وهذان الحصنان دَرَبَسَاك و بَغْرَاص كانا لأنطاكية جناحين ، ولطاغية الكفر
سلاحين ، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات
وشققات (١) كثيرة حتى خاض ذلك الإقليم ، وتم (٢) الفتح العظيم ، وعادت الكنائسُ
مساجد ، والبيعُ معابد ، والصوامعُ جوامع ، والمذابحُ لعبدة الصليبان (٣) مصارع“ .

ذكر الهدنة مع الأبرنس صاحب أنطاكية

ولما فتح السلطان بَغْرَاص عاد إلى مخيمه الأكبر وأثقاله ، وراسله الأبرنس
في طلب الصلح ، فصالحه أشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين - صاحب
سنجار - في طلب الدستور ، واشترط على الأبرنس إطلاق جميع أسارى المسلمين

(١) في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٣) : ”شققان“ ، ولعلها جمع ”شقيف“ ، وقد قال
(ياقوت : معجم البلدان) عند كلامه عن شقيف أرنون : الشقيف كالكهف .

(٢) بهذا اللفظ يتقابل النص هنا مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما في ص ١٨٣ .

(٣) الأصل : ”السلطان“ والتصحيح عن س .

الذين عندهم [وكانوا ألف أسير فأطلقوا] (١) ، وكانت مدة الصلح ثمانية أشهر ،
أولها [أول] تشرين الأول ، وآخرها آخر أيار ، وودع السلطان عماد الدين
— صاحب سنجار — والعساكر [٣٢٥] الشرقية .

ثم سار السلطان إلى حلب ، وقد خرج كل من بها لتلقيه ، مستبشرين بإقباله ونصره ،
وصعد إلى قلعتها ، وأقام بها أياما ، ووجد ولده الملك الظاهر قد سار في أهلها
أحسن سيرة [ففرح بذلك] (١)

ثم سار السلطان إلى معرة النعمان ، وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا
المغربى ، بدير النقيرة ، وزار قبر عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه —

ثم سار إلى حماة ، فصعد مع صاحبها ابن أخيه الملك المظفر إلى قلعتها ، ومع
السلطان أمير المدينة النبوية — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — وهو السيد
الشريف عز الدين أبو فليحة القاسم بن مهنا ، وكان مصاحباً للسلطان في جميع
فتوحاته ، وكان السلطان لا يفارقه ، [وكان له فيه اعتقاد عظيم ، لأجل جده
وليمن طاعته] (٢) ، ووجد السلطان ابن أخيه الملك المظفر قد عمر قلعة حماة
وحصنها ، وعمر خنادقها ، وكانت ذات تل مسطح ، فأصبحت من القلاع
العظام المشهورة ، فسر السلطان لما رأى من حصاتها ، وقام الملك المظفر
بوظائف خدمة عمه .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) هذه الجملة واردة بهامش الأصل ، ولا توجد في س .

ذكر قدوم السلطان - رحمه الله - إلى دمشق^(١)

ثم رحل السلطان من حماة قاصدا دمشق ، فلم يبق بمحص ، وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبن ، ووصل إلى دمشق قبل دخول شهر رمضان ، فأقام بها إلى أن دخل شهر رمضان ، فأشير عليه أن يريح عسكره ، فقال رحمه الله : " إن القدر غير مأمون ، والعمر لا يعلم كم بقي منه ، وللفرص أوقات تنتهر ، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ، ولا بد من المبادرة إلى أخذها ، لا سيما صفد وكوكب ، فإنهما للدأوية والاسبتارية في وسط البلاد ، فنخرج ونشتو^(٢) عندهما لفتحهما " .

ذكر فتح الكرك والشوبك

قد ذكرنا أن الأمير سعد الدين كمشبا^(٣) الأسدي رتب السلطان على منازلة الكرك ، فلزم حصاره هذه المدة الطويلة حتى فئيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب مقبلا بتبنين في جملة من العسكر ، قد أقامه السلطان هناك عند توجهه إلى البلاد الشمالية ، فراسل الفرنج^[٣٢٦] الذين بالكرك الملك العادل يبذلون تسليم القلعة إليه ، ويطلبون الأمان ، وترددت بينهم في ذلك رسائل ، وآخر الأمر أنه أجابهم ، وأرسل إلى صهره سعد الدين كمشبا في المعنى ، فتسلم القلعة ،

(١) هذا العنوان غير موجود في نسخة س .

(٢) س : " نشتي " .

(٣) رسم هذا الاسم عند العاد (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٣٤) : " كمشبه " .

وتسلم أيضا ما يقاربها من الحصون ، كالثوبك وهرمز والوعر^(١) وسلع ، وفرغ القلب من تلك الناحية وأمن من في ذلك الصقع ، كأهل القدس وغيرهم ، فإنهم كانوا وجلين من مجاورتهم ، مشفقين من شرهم .

وكان هذا الفتح في أثناء شهر رمضان من هذه السنة - سنة أربع وثمانين وخمسة - ووردت البشرية بذلك إلى السلطان .

ذكر فتح صفد^(٢)

ثم سار السلطان من دمشق منتصف شهر رمضان إلى قلعة صفد ، فحصرها ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام الرمي إليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام ، وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم الفناء ، لأن عسكر السلطان كان محاصرا لهم قبل ذلك ، فلما رأوا قوة القتال ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك لقلّة الأوقات ، طلبوا الأمان فأنهم وتسلمها منهم ، وخرجوا إلى صور وكفى الله المسلمين شرها ، فإنها كانت في وسط البلاد الإسلامية ؛ وكان فتح صفد رابع عشر شهر شوال .

ذكر فتح كوكب

ولما كان السلطان على منازلة صفد قال الفرنج الذين بصور :
” إن فتح المسلمون^(٣) قلعة صفد لم يبق كوكب ، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد “ .

(١) الأصل : ” والوعيرة “ وس : ” والوعرة “ ، وما هنا عن العماد (المرجع السابق)

(٢) س : ” ذكر فتح صفد وكوكب “ ، وسيرد هنا بعد سطور فتح كوكب تحت عنوان خاص

بهذا الموضوع .

(٣) س : ” السلطان “ .

فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا في الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكمنين ، فاتفق أن رجلا من المسلمين الذين كانوا يحاصرون كوكب نخرج متصيدا ، فلقى رجلا من تلك النجدة ، فاستغربه بتلك الأرض ، فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه إلى هناك ، فأقر بالحال ودلّه على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى صارم الدين قايمز النجمي وهو مقدم ذلك العسكر ، فأعلمه بصورة الحال والفرنجي معه ، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الرجال ، فكبسهم وأخذهم ، وتبعهم في الشاب [٣٢٧] والكهوف ، فلم ينفلت منهم أحد ، وكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتارية ، فحملوا إلى السلطان وهو على صفا ، فأحضرهما ليقتلهما ، وكان عادته قتل من ظفر به من هذين البيتين : الداوية ، والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم^(١) ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما :

” ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح “.

وكان — رحمه الله — كثير العفو ، يؤثر فيه الاستعطاف والاعتذار ، فلما سمع كلامه^(٢) لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا .

ولما فرغ السلطان من صفا سار إلى كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرّد العسكر ، وأحرق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب العدو ، وبني له حائطا من حجر وطن يستر وراءه ، والنشاب يتجاوزه ، ولا يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة ، والوحول بحيث تمنع [الماشي والراكب]^(٣) إلا بمشقة عظيمة ، وعانى [السلطان]^(٣)

(١) الأصل : ” وعداوتهم “ ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩) .

(٢) الأصل : ” كلامهما “ والتصحيح عن ص (٧٩ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

شدايد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وجرح وقتل خلق كثير .

ولم يزل — رحمه الله — راكبا مركب الجدد حتى تمكن النقب من سورها ، وكان المقام قد طال عليها ، وفي آخر الأمر زحف إليها دفعات متناوبة في يوم واحد ، فوصل المسلمون إلى باشورة^(١) القلعة ، ومعهم النقبون والرماة يحونهم بالنشاب عن يد واحدة والجروح^(٢) ، فلم يقدر واحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة ، فسقطت ، وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الفرنج ذلك طلبوا الأمان ، فأمنهم ، وتسلم الحصن متصرف ذي القعدة ، فسيرهم إلى صور ، فاجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس وغيرهما يستغيثون ويستنجدون ، والأمداد في كل وقت تأتيهم ، وكان ذلك بتفريط السلطان في إطلاق كل من يحضره ، حتى عَضَّ بنانه أسفا وتندما حين جرى على المسلمين ما سذكروه إن شاء الله تعالى .

ثم ولى السلطان كوكب لصارم الدين قايماز النجمي ، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور ، فرحم الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين وشكره ، فما كان أشد ذبه وقيامه بنصرة الدين .

ولقد حكى عنه القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

”حضرت مع السلطان حصار صغد ليلة ، وقد [٣٢٨] عين مواضع خمسة مناجيق ، حتى نصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليه يخبرونه ، ويعرفهم كيف يصنعون ، حتى أظلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات ،

(١) انظر ما فات هنا ص ٨١ هامش ١

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ هامش ٣ ؛ ص ٢٤٣ ، هامش ٤

ولم يبق إلا تركيب خنازيرها^(١) فيها ، فرويت له الخبر المشهور في الصحاح ،
وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله عليه السلام :

” عينان لا تمسهما النار : عين [باتت]^(٢) تحرس في سبيل الله ، وعين
بكت من خشية الله “.

[فلقد رأيتُه وقد سر سرورا عظيما]^(٣) .

وكتب السلطان إلى الديوان العزيز كتابا بالإشياء العماوى مباشرا بفتح
الكرك والثوبك وصفد وكوكب ، يقول فيه :

” وقد خلص [لنا]^(٤) جميع مملكة القدس وحدثها في سميت مصر من^(٥)
العريش ، وعلى صوب الجاز من الكرك والثوبك ، ويشتمل على البلاد الساحلية
إلى منتهى أعمال بيروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور ، وفتح أيضا
جميع أعمال أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن ، وحدثه^(٦) من أقصى أعمال
جبله واللاذقية إلى بلد ابن لاون ، وبقيت أنطاكية بمفردها ، والقصير من حصونها ،
ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها ولم تحل عما كانت عليه سوى طرابلس ، فإنها
لم يفتح منها إلا مدينة جبيل ، فقد سحبت عليها المهلة الذيل ، ومعاقلها باقية ،
وليس لها من عذاب الله الواقع واقية ، والخادم الآن على التوجه إليها ، وعزم
التزول عليها ، وأنه قد رتب الجانب القبلى والبلد المقدسى ، وشحن الثغور من حد

(١) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد ؛ ولعلها « جنازيرها » وقد قال دوزى إن جِزير مأخوذة
من « زنجير » الفارسية ، ومعناها السلسلة .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) زيادة موضحة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) ، وفي س : ” وقد خلصنا “ .

(٥) الأصل : ” من سميت مصر إلى العريش “ والتصحيح عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) .

(٦) الأصل : « وهذه » ، والتصحيح عن العباد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٧) .

جبيل إلى عسقلان، بالرجال والآلات والعُدَد ، والعَدَد المتواصل المدد ، وربب فيها ولده الأفضل عالياً^(١) لحمايتها ، وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها ، لتهديب أحوالها وتقويمها .

ولما نزل السلطان إلى الغور ودَّعه القاضي الفاضل ، وتوجه إلى مصر ، ثم تحول السلطان إلى صحراء بيسان ، وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة .

ذكر ظهور جماعة من الشيعة بمصر

وثار في هذه السنة في القاهرة إثنا^(٢) عشر رجلا من الشيعة ليلا ، ونادوا : « يآل على . يآل على » ، وسلكوا الدروب ينادون ، ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم ، ويخرجون معهم ، فيعيدون دولة أهل القصر ، ويخرجون من هو محبوس منهم ، ويملكونه البلد ، فلم يلتفت أحد [٣٢٩] من الناس إليهم ، ولا أचारهم سمعه ، فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين .

وكوتب السلطان بذلك وهو على محاصرة صفد ، وكان على بابة جماعة من وفود المصريين^(٣) فأهمه هذا الأمر وأزعجه ، وتبرم بمن على بابة منهم ، وقال : « إلى متى تتحمل منهم هذا ؟ » ، وهم بطردهم من بابة وردعهم ، ودخل عليه القاضي الفاضل فأخبره بذلك ، فقال :

« يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة ، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعييتك ، أليس لم يلب دعوتهم أحد وأنه لم يكن لهم من يمدهم ؟ فطب بذلك نفسا^(٤) ، وتحقق زيادة منزلتك عند الله تعالى » .

(١) الأصل : « عليها » ، والتصحيح عن المرجع السابق . (٢) الأصل : « اثني » .

(٣) الذي ذكره العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٨) أن الوغد الذي كان يباب السلطان كان يتكون من جماعة من أولاد الوزراء المصريين والأمراء المقدمين .

(٤) بعد هذا اللفظ في س (٨٥ ب) : « وقرعينا » والنص هنا يتفق ونص العماد .

فقال له السلطان :

” [كان الملوك قبلي]^(١) تخافهم الرعية وتهرب منهم ، وتتوقع سطوتهم ، ورعيتنا^(٢) قد تكاثروا علينا وأضجرونا وملونا ، وإذا ركبنا ونزلنا تعاورونا بالقصص^(٣) .

فقال له القاضي الفاضل :

” أنت أولى الناس بشكر هذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب القصر وأشياعه ، وخدمه وأتباعه ، وأمراؤه وخواصه ، وما منهم أحد إلا ويرتج الخلق في رياض إنعامه ؛ وكان بالشام والبلاد الشرقية في كل بلد وإل وصاحب ، له على أهله نعم ؛ وفي كل قطر ملك يلوذ أهل ذلك القطر به ، وقد أصبحت اليوم سلطان الجميع ، وقد ردّ الله سبحانه آمال الكل إليك ، وجمع المتفرقين على بابك ، فلا يجدون لهم — بعد الله — إلا جودك وكرمك ” .

فأغرورقت عينا السلطان بالدموع ، وشكر الله على إحسانه إليه ، وآلى على نفسه ألا يرد قاصدا ، ولا ينخب وافدا ، فمثل هذا فليكن السلطان ، ومثل القاضي الفاضل فليكن الوزير المشير — رحمهما الله وقدمس أرواحهما —

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن العباد (المرجع السابق) ، وهي زيادة يقتضيا المعنى والسياق ، والنص في س : ” فقال له صلاح الدين : إن السلطان تخاف الرعية وتهرب منه ... الخ ” .

(٢) بعد هذا اللفظ في الأصل : ” الذي لنا ” وفي س : ” بحنا قد تكاثروا ” ، والنص هنا مختصر عن العباد .

(٣) الأصل : ” تعاودنا ” ، وس : ” يعاودونا ” ، وما هنا عن العباد .

ذكر وصول السلطان إلى القدس

وتوجهه بعد ذلك إلى عكا ثم إلى دمشق^(١)

ثم رحل السلطان من البلاد الغورية مستهل ذي الحجة من هذه السنة - أعني سنة أربع وثمانين وخمسمائة - وصحبته أخوه الملك العادل سيف الدين ، فوصل إلى القدس يوم الجمعة ثامن الشهر ، وهو يوم التروية ، وصلى الجمعة في قبعة الصخرة ، وعيد بها يوم الأحد الأضحى ، ثم سار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في أحوالها ، وسير أخاه الملك العادل إلى الديار المصرية لمعاونة ولده الملك العزيز [٣٣٠] ومساعدته ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان - وكان وهبها له .

ثم توجه السلطان إلى عكا ، فامر على بلد إلاقوى عدده ، وكثر عدده ، ووصل إليها ، وأقام بها إلى أن خرجت السنة .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين سرحه الله - مقيم بعكا ينظر في أمورها ومصالحها ، وقد تقدم إلى بهاء الدين قراقوش بإتمام العمارة^(٢) ، وولى حسام الدين بشارة الولاية [بها] ، وأقام السلطان بعكا معظم المحرم ، ثم سار يريد دمشق ، فدخلها في مستهل صفر من السنة .

وفي ثاني عشر صفر وصل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه رسولا من الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين يأمر بالخطبة لوليدته وولى عهده عدة^(٣) الدنيا والدين

(١) هذا العنوان غير موجود في س .

(٢) س : "عمارتها" .

(٣) الأصل : "عدة" والتصحيح عن س والروضتين .

أبي نصر محمد ، وهو الذي ولي بعده ، ولقب الظاهر بأمر الله ، فأمر السلطان
برقامة الخطبة له ، وسير معه رسوله ضياء الدين أبا^(١) القسم بن يحيى الدين بن
الشهرزورى ، وسيرت معه هدايا وتحف ، وأسارى من الفرنج بعددهم وتاج
ملكهم الأسير ، والصليب الذى كان فوق الصخرة ، وشئ كثير من الملبوس
والطيب .

وسار الرسولان إلى بغداد ، ودخلت الأسارى من الفرنج على هيتها يوم
قرأها^(٢) ، راكبة حصنها ، فى طوارقها^(٣) وأدراعها وبيارقها ، وقد نكست

(١) الأصل : "أبي" ، وفى س : "ضياء الدين القسم بن يحيى الشهرزورى" . وفى (المقرزى :
السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ و ١١٤) : "ضياء الدين القاسم أبو الفاضل بن يحيى بن عبد الله
الشهرزورى" .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى س : "مراعها" بدون ققط ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص
١٣٩) : "فراعها" ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الطارئة — وتجمع على طوارق أو طارقيات — ، اختلف فى أصلها ، ويرى (Dozy : *Suppl.*
Dict. Arab) أنها لا ترجع إلى أصل عربى ، بل هى مأخوذة عن الكلمة اللاتينية "targa" ومنها
أخذت الكلمة الإيطالية (tarja) والفرنسية (targe) ، والأصل اللاتينى لها جميعا (tergum) ، ويؤيد
دوزى رأيه هذا القائل بأن اللفظة ترجع إلى أصل أوروبى بشواهد كثيرة منقولة عن المراجع العربية
المعاصرة لحروب الصليبية ، ومعظم هذه الشواهد يورد لفظ "الطوارق" عند وصفه للصليبيين الأوربيين
وأسلحتهم ، فقد جاء فى : (العماد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٦٤) عند وصفه للقتال مع الفرنج
قوله : "وهم (أى الفرنج) لواضعهم ملازمون ... وبالحنادق من البوائق محتمون ، وبالطوارق
من الطوارق متصمون ..." ، ويقول فى ص ٢٤٧ : "فتراجع الفرنج واصطفوا على ختادتهم
وروقوا بقتارياتهم وطوارقهم" ، وقال فى ص ٢٦٢ : "وتدرع (أى العدو) بأسواره وخنادقه ،
وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه ، فلا يخرج منه إلى معاركه" ، وقال فى ص ٢٦٣ : "إلى
أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ... الخ" .

أما عن معنى اللفظ فالرأى مختلف ، ولكننا بدراسة هذه النصوص نستطيع أن نقول إن هذا
المصطلح كان يطلق على نوعين من السلاح :

الأول : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال ، أو هو كما عرفه دوزى : "ترس

كبير مستطيل يغطى معظم الجزء الأسفل من الجسم Un grand bouclier oblong qui couvrait
presque toute la partie inférieure du corps

أعلامها وبنودها ؛ فدفن الصليب^(١) تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه الشيء القليل ، وكان من نحاس قد طلى بذهب ، فديس بالأرجل ، وبصق الناس عليه .

= ويؤيد هذا المعنى قول العماد فيما سلف : " ووقفوا بقنطار باتهم وطوارقهم " ، وقول (بهاء الدين ابن شداد : السيرة اليوسفيه ؛ ونقله عنه ابن واصل فيما يلي هنا : " ما وجدت مع واحد منهم (من الفرنج) طارئة ولا رحا إلا النادر " ؛ وكان في القاهرة حارة تسمى " حارة الطوارق " أو " حارة صبيان الطوارق " ، قال (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٤) " وهم من جملة طوائف العسكر ، كانوا معدين لحل الطوارق " . وبهذا المعنى أيضا استعمل اللفظ في الغرب الإسلامي ، ففي كتاب الحلل مثلا فقرة لابن اليسع يقول فيها أحد الموحدين : " فصنعنا دائرة مربعة في البسط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرجال بأيديهم التنا الطوال والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحرب صفا ثانيا " .

والمعنى الثاني : آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كتراس يخفى الجنود الرماح والصخور خلفها ، فهي كما وصفها دوزي :

"Un mantelet, une sorte de machine composée de plusieurs madriers, derrière laquelle on se mettait à couvert des traits et des pierres."

ويؤيد هذا المعنى الثاني قول العماد السالف الذكر : " وهم بالخنادق من البواق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون " وقوله : " وتدرع بأسواره وخنادقه ، وتستر عن طوارق البلاه بستائره وطوارقه " وقوله : " إلى أن انتقل التتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق " ، نلفظ الطوارق في هذه النصوص يستعمل دائما مقرونا بلفظ الستائر أو الخنادق ، فكأنه كان يؤدي عملها ، وليس أوضح في هذا المجال من قول (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) عند وصفه لنوع من الدبابة أو البرج : " ... فتندفع وتجري على سهولة العجل التي ركبت عليها ، ويصعد الرجال في أعلاه ، وقد أديرت حوله الستائر والطوارق " .

وقد وصف مرضى بن علي الطوارق في كتابه (تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢) الذي ألفه لصالح الدين وصفا دقيقا يقطع الشك باليقين ، قال عند ذكره لأنواع التراس : " ومنها الطوارق ، وهي التي يستعملها الفرنج والروم ، ويتباها (؟) في حسن إذهابها ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ ، وتصويرها وإيقانها ، وهي مستطالة ، وتكون بناها إلى أن تستر الفارس والراجل ، تبتدى مدورة ، ثم تجمع أولا أولا إلى أن ينتهي آخرها إلى نقطة محدودة كزوس المعاول " . راجع كذلك : (Cahen : Un Traité d'Armurerie .. etc. P 155-156) .

و (ابن النلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩) .

(١) المقصود به : " صليب الصلبوت " المشهور ، راجع ما فات هنا ، ص ١٨٢ ،

هامش ١ ؛ ص ٢٠٩ هامش ٣

قلت (١) : إن عدة (٢) الدين أبا نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله كان الأكبر من ولد الإمام الناصر ، وكان شهما قوى النفس شجاعا مقداما له همة عالية ونفس أبية ، وكان أبوه يخافه ويستشعر منه لما يرى من شهامته وقوة نفسه ، وكان أيضا أبو نصر محمد مخالفا لأبيه في المذهب ، لأن أباه كان شيعيا ، وكان أبو نصر سنيا يبغض الروافض ، ويميل إلى الحنابلة ، وكان أبوه يكرهه أيضا لهذا الأمر ، لكنه لم يجد بدا من توليته العهد بعده إذ لم يكن له في ذلك الوقت من يصاح للأمر من بعده من ولده غيره .

ثم إن الناصر لدين الله من بعد ذلك [٣٣١] نشأ له ولد أصغر من أبي نصر محمد ، وهو أبو الحسن علي ، فكان منقادا لأبيه جدا ، موافقا له في مذهب التشيع ، فمال إليه الناصر لدين الله ميلا عظيما ، وأعرض عن أبي نصر محمد ، وقويت النفرة بينهما ، وأدى ذلك إلى خلع الناصر ولده أبا نصر من ولاية العهد ، وأمر بإسقاط اسمه من السكة والخطبة ، وكتب بذلك إلى سائر الآفاق ، وقيد أبا نصر وحبس .

ثم بعد ذلك توفي أبو الحسن علي بن الناصر ، فحزن عليه أبوه الناصر حزنا عظيما ، وتقدم إلى الشعراء بمرثيته ، (٣) وأظهر الملوك في سائر الأطراف شعار الحزن عليه ، وجلسوا له في العزاء (٤) ، ورثته - كما سنذكره إن شاء الله تعالى - الشعراء ، ولم يبق للخليفة غير أبي نصر ، فدعته الضرورة إلى إعادة أبي نصر (٤) إلى ولاية عهده ،

(١) مكان هذا اللفظ في س (٨٦ ب) : "قال صاحب التاريخ قاضي قضاة حماة المحروسة ابن واصل" .

(٢) الأصل "عمدة" والتصحيح عن س والروضتين . (٣) هذه الجملة غير موجودة في س .

(٤) انظر ابن واصل هنا بما ذكره من أن الخليفة الناصر كان شيعيا ، وأنه عزل ابنه أبا نصر محمد عن ولاية العهد لأنه كان سنيا يختلف مع أبيه في المذهب ، والذي ذكرته المراجع الأخرى أن أبا نصر محمدا هو الذي استال من ولاية العهد فأقاله والده . راجع في هذا : (ابن عربي : محاضرة الأبرار ، ج ١ ، ص ٤٨) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٠) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، حوادث سنة ٦٠١) و (ابن الساعي : الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد ص ١٤٤) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩) .

وكاتب بذلك الملوك ، نخطبوا له بولاية العهد ثانيا سنة ثمانى عشرة وستائة ،
لكنه لم يرض عنه ، ولم يزل محبوبا مقيدا ، والخطبة والسكة باسمه إلى أن توفى
الناصر ، وولى الخلافة بعده ، لكنه لم يبق في الخلافة إلا أشهراً ومات .

ذكر منازلة السلطان شقيف أرنون^(١)

ثم خرج السلطان من دمشق يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من هذه السنة بعد
صلاة الجمعة ، فنزل بمرج فلوس ، ونزل من الغد وهو يوم السبت بمرج برغوث ،
وأقام به والعساكر تتابع إلى حادى عشره ، ورحل إلى بانياس ، ومنها إلى مرج
عيون ، نخيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل [يوم] فيشارفه
ثم يعود ، والعساكر تتواصل ، وتأتى من كل ناحية ، فأقام أياما يشرف كل يوم
على الشقيف ، فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط^(٢) — صاحب صيدا —
بنفسه إلى السلطان ، وكان صاحب دهاء [ومكر]^(٣) ، وكان من كبار الفرنج
وعقلائهم ، عارفا بالعربية^(٤) ، وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والأحاديث ،
فحضر عند السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به ، وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته ،
وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موصعا يسكنه بدمشق ، فإنه
بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج ، وإقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وقال :
” إني أخاف من المركيس أن يعرف ما بينى وبينك ، فينال أولادى وأهل
منه أذى ، فإنهم عنده ، وأريد أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم من [٣٣٢]
عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ، ونسلم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك “ .

(١) هرفه ابن شداد بأنه موضع حصين قريب من بانياس .

(٢) هو Reynold Garnier, Lord of Sidon and Beaufort أنظر عن سياسته لعقد هذه الهدنة .

(RUNCIMAN : Op. Cit. Vol. 2, pp.469-470)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٨٧) .

(٤) هذا شاهد له أهميته ، لأنه يدل على أن بعض أمراء الصليبيين فى الشام بدأوا يتعلمون اللغة

العربية ويتأثرون بالثقافة الإسلامية .

فظن السلطان صدقه ، وإنما كان ذلك مكرًا ودفعا للوقت ، فأجابه إلى ما سأل ، واستقر بينهما الأمر أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة .

وأقام السلطان بمرج عيون ينتظر الميعاد ، وهو قلق يفكر لقرب انقضاء الهدنة بينه وبين يرنس^(١) بيمند — صاحب أنطاكية — ، فتقدم إلى الملك المظفر تقي الدين أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد الشرق ، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضا متزعج^(٢) الخاطر لما بلغه من اجتماع الفرنج في مدينة صور ، وما يتصل بهم من الأمداد من البحر .

وكان السلطان لما فتح عسقلان والبيت المقدس قد أطلق ملك الفرنج ، فاصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما ، واجتمعا في خلق لا يحصون ، وخرجوا من صور إلى ظاهرها قاصدين استنقاذ البلاد التي أخذت ، فكان هذا وما أشبهه يزعم السلطان ، وكان يخاف أن يترك الشقيف وراء ظهره ، ويتقدم إلى صور وفيها الجموع المتواترة فتقطع عنه الميرة ، فأقام منتظرا انتهاء المدة التي ضربها له أرناط ، وأخذ أرناط — صاحب الشقيف — في شراء الأقوات من سوق العسكر، والسلاح وغير ذلك مما يحصن به الحصن ، وهو شقيفه ، والسلطان يحسن به الظن ، وإذا قيل له ما هو فيه من المكر وأن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدى صفحته ، ويظهر مخالفته ، و[هو] لا يقبل فيه .

وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت . قال القاضي بهاء الدين :
« وكان يناظرنا في دينه ، وناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاوره ، متأدبا في كلامه ، ولما كثر عند السلطان القول فيه رأى السلطان أن يصعد إلى ظهر الجبل ليقترب من المكان ، ويمنع من دخول نجدة وميرة ، وأظهر أن سبب ذلك هو الزمان والفرار من وخم المرج ، فزل أرناط وسأل أن يمهل تمام سنة ،

(١) كذا في الأصل ، وفي س : « الابرنس » .

(٢) الأصل : « مزع » والتصحيح عن س .

فماطله السلطان [وما] ^(١) آنسه ، وقال : ” تفكر في ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم “ ، ثم وكل به من حيث [٣٣٣] لم يشعر إلى أن كان من أمره ما سئد كره “ [إن شاء الله تعالى] ^(٢) .

وفي أثناء ربيع الأزل وصل الخبر بتسليم الشوبك بالأمان ، وقد ذكرناه عند تسليم الكرك .

ذكر وقعة اليزك مع الفرنج ^(٣)

قد ذكرنا اجتماع الملك والمركيس بصور واتفاقهما ، وتواتر أمداد الفرنج إليهم ، وحشدهم ونحروجهم إلى ظاهر صور ، وكان الملك قبل ذلك لما أطلق — وكان إطلاقه والسلطان منازل حصن الأكراد — قد اشترط عليه ألا يشهر عليه سيفاً أبداً ، ويكون مملوكه وطليقه ، فنكت — لعنه الله — ، وجمع الجموع وأتى صور نخيم على بابها ، وطلب الدخول إليها ، فمنعه المركيس ، وجزت بينهما مراجعات كثيرة ، وقال له المركيس :

” إنني نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لي في تسليمها إليك “ .
ثم استقرت القاعدة بينهما على الاتفاق على حرب المسلمين ، وعسكروا ظاهر صور كما ذكرنا .

ولما كان يوم الاثنين لثلاث عشرة ^(٤) ليلة بقيت من جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهي الأرض التي الساطان عليها ، فركب الساطان بنفسه نحو اليزك في شجعان أصحابه ، سوى من جعله على الشقيف ، فوصل وقد انفصلت

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد . (٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س . (٤) هذا اللفظ ساقط من س .

الوقعة ، وكان صورتها : أن الفرنج عبر منها جماعة الجسر ، فنهض إليهم يرك الإسلام ، وكانوا في عدة وقوة ، فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة (١) فغرقوا .

ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك واحد للسلطان يعرف بأبيك الأخرس (٢) ، وكان شجاعا فارسا مقداما ، فتقنطربه فرسه ، فاجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فنى نسابه ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وأسر من الفرنج سبعة من فرسانهم المشهورة ، ثم عاد الفرنج إلى مكانهم خائبين .

ذكر واقعة الغزاة المطوعة

ولما وصل السلطان إلى اليزك وقد فاتته الوقعة أمر فضربت له خيمة صغيرة (٣) وأقام ينتظر عود الفرنج لينتقم منهم ، ويأخذ بثأر من قتل (٤) من المسلمين ، فلما كان يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ركب السلطان ليشرف على [٣٣٤] القوم على عادته ، فتبعه خلق عظيم من الرجال والغزاة المطوعة والسوقة ، وحرص على ردهم ، فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجا ليس للرجال فيه ملجأ ، ثم هجم الرجال الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع عليهم من الفرنج خلق كثير وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث يعلمون أنه ليس وراءهم كمين ، فحمل الفرنج عليهم جملة واحدة ، وقاتلوهم ، وكان السلطان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ،

(١) النص في س (ص ٧٩ ب) : ” ورموا في النهر جماعة أنفسهم فغرقوا “ ، وما هنا يتفق ونص ابن شداد ، وهو الأصل الذي ينقل عنه هنا .

(٢) عند (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٨١) : ” الأخرس “ أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٣) س : ” خيمته الصغيرة “ .

(٤) س : ” من بئى “ ، وما هنا هو الصحيح .

فإنه لم يخرج للقتال ، وإنما قصد كشف حال العدو فقط ، ولما بان له
الوقعة وظهر غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ،
وقد تكاثرت الفرنج حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفر العدو
بالرجال ظفرا عظيما ، وأسروا جماعة كثيرة ، وقتلوا نحو مائة وثمانين نفرا ، وقتل
من الفرنج أيضا عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وقتل منهم مقدم الألبانية
وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين الأمير غازي
ابن سعد الدين بن النصار^(١) ، وكان شابا حسنا شجاعا ، فاحتسبه أبوه في سبيل الله
ولم تقطر من عينه دمعة عليه .

ذكر توجه السلطان إلى عكا وعوده إلى معسكره

بمخرج عيون^(٢)

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في هذه الوقعة النادرة التي لم يصابوا
بمثلها قبل ذلك جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ، ويعبر
الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأقتهم . وكان الفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا
قريبا من الجسر ، وبين صور وبين الجسر مقدار فرسخ أو أكثر ، فلما صم
العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها ، فحينئذ توجه
السلطان جريئة إلى عكا ليلاحظ ما بني من سورها ، ويحث على الباقي ، فمضى
إلى تبين ، ثم إلى عكا ، فرتب أحوالها ، وعاد إلى المعسكر بمخرج عيون ،
منتظرا مهلة صاحب الشقيف .

(١) كذا في الأصل ، وفي س : "الصار" بدون قط ، وفي (ابن شداد : السيرة اليوسفية
ص ٨٢) : "ابن البصار" ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) — قلا عن ابن شداد — :
"ابن اليطار" .

(٢) نص العنوان في س (ص ١٨٠) : "ذكر خروج السلطان وعوده إلى معسكره بمخرج عيون" .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغ السلطان أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين^(١) ويصلون إلى جبل تبنين، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر كميناً لهم، وبلغه أنه [٣٣٥] يخرج وراءهم^(٢) أيضاً خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكري تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين^(٣) على تلك الرجالة، فان تبعهم خيل العدو ينهزموا إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكري عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكري العدو، وحتى إن تحركوا يكونوا في نصرة أصحابهم، وقصد واخيمهم.

وركب السلطان في عساكره إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكري تبنين، حتى قطع تبنين ورتب العسكري ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طُلب عشرين فارساً، وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم، حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكريهم، يقدمهم الملك، وجرى بينهم وبين [هذه] الفرقة السيرة قتال شديد والترمت السرية^(٤) القتال، وأنفت من الانهزام، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل، فبعث بعوثاً كثيرة، فعاد الفرنج ناكسين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة، ومن

(١) الأصل: "مشردين"، والتصحيح عن س، والأصل المتقول عنه هنا وهو (ابن الأثير الكامل، ج ١٢، ص ١٢).

(٢) الأصل: «لهم» والتصحيح عن: (الروضتين، ج ٧، ص ١٤١).

(٣) الأصل: "غابرين"، والتصحيح عن س وابن شداد والروضتين.

(٤) س: "الرجال".

المسلمين ستة : اثنان من الترك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل (١) ، وكان مقدم عشيرته ، وسبب قتله أن فرسه تقنطرت به ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضا ، وأسر هو وثلاثة من أهله ، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم لئلا يستنقذوا ، وجرح (٢) من الطائفتين ومن خيولهم كثير .

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا من ممالك السلطان يقال له "أبيك" أثنخ بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما ، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، فتفقده أصحابه ، فلم يجدوه ، فعرفوا السلطان فقده ، فأنفذ من يكشف حاله ، فوجده بين القتلى ، فحملوه إلى [المخيم] (٣) وداووه ، وعافاه الله تعالى ، وعاد السلطان إلى المخيم عاشر جمادى الآخرة فرحا مسرورا .

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتهم لها

قد ذكرنا حشد الفرنج واجتماعهم بصور ، وتواصل الأمداد إليهم من البحر ، وكان الرهبان والقساوس من حين ملك المسلمون (٤) بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن [٢٣٦] وأخذهم بطرك القدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا (٥) ، ويستنجدون أهلها ، ويحثونهم على استرجاع القدس ، وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه [بعضا] (٦) وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ، وقالوا : هذا المسيح يضربه مجد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله .

(١) كذا في الأصل و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) وفي س وابن شداد : "رامل" .

(٢) بهذا اللفظ انتهى ص ٨٩ ب من نسخة س ثم تضطرب الصفحات ، وتبدأ ص ١٧٠ من هذه

النسخة بالكلية التالية وهي : "وجرح" . (٣) ما بين الحاء مرقين زيادة عن س .

(٤) النص في س : "بيت المقدس دخلوا بلاد الفرنج يطوفون بها جميعا" .

فعظم ذلك على الفرنج ، فحشدوا وحشروا (١) ، حتى النساء خرجن للمقاتلة ،
ومن لم يستطع الخروج استأجر من نخرج عوضه ، أو يعطيهم مالا على قدر حاله ،
فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يقع عليه الإحصاء ، ولما عظمت جموعهم
وتكاملوا صمموا على قصد عكا ومحاصرتها ، وساروا إليها نحو النواقر ، وبعضهم
نزل باسكندرونة (٢) وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة ، وقتل من المسلمين
نفر يسير ، وأقاموا هناك .

ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا
من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا
للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب ، فوصل قاصد يخبر أن الفرنج في بقية ذلك
اليوم دخلوا ونزلوا عين بصّته (٣) ووصل أوائلهم إلى الزيت (٤) ، فعظم ذلك
عليه ، وكتب إلى سائر الأطراف بالمسير إليه ، وعزم على قصد الفرنج .

ذكر القبض على صاحب الشقيف وفتح الشقيف

وقد ذكرنا خداع أرناط — صاحب الشقيف — ومكره ومدافعه ، وأن
السلطان وكل به من حيث لم يشعر ، وقد ذكرنا تحول السلطان بعسكره إلى
قرب الحصن ، ولما قربت مدة الهدنة ، وبقى منها يومان تضرع [أرناط] (٥)

(١) س : " فحشدوا وجمعوا وجندوا " .

(٢) س : " باسكندرية " ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الأصل رس : " عين قصه " والتضحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) و

(DUSSAUD : Topographie Historique de la Syrie. p.17)

(٤) الأصل : " الزيت " ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها
بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا . وقد ذكر (DUSSAUD : Op. Cit.) أنها قرية على الشاطئ ،
بين عكا وصور .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٧٠ ب) .

وأبدى ضرورة وملقاً ، فقيل له لا بد وأن تسلم ولا تحوج إلى المقابحة ؛ فطلب قسيساً ذكره ليحمله رسالة إلى أهل الشقيف ليسلموه فأحضره عنده ، فسار به إلى دمشق ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف ، فأظهروا العصيان ، وقالوا : " يبقى مكانه " ، فحينئذ تحقق غدره ، وبطل الرجاء منه فقيّد وحبس ، ثم استحضر في سادس رجب وتهدد وتوعد (١) ، فلم يفد ذلك ، فسيره السلطان إلى دمشق بعد رحيله إلى عكا ، وحبس بها .

ورتب السلطان عدة من الأمراء على محاصرة الشقيف صيفا وشتاء [٣٣٧] فتسلموه بعد سنة بحكم السلم ، وأطلق صاحبه وعفا عنه .

ذكر رحيل السلطان إلى عكا ومنازلة الفرنج المنازلين لها

ثم رحل السلطان إلى عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب على طريق طبرية إذ لم يكن طريق يسع العساكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبنين يتشرفون العدو ويواصلون بأخباره .

ولما كان غد يوم الرحيل — وهو يوم الثلاثاء — سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة ، واشتد حنقه عليه ، بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً .

ومار (٢) السلطان جريدة (٣) من المنية (٣) حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان واعدهم إليه ، وتقدم إلى

(١) الأصل : " وتهدد وتوقد " وفي س : " وشدد عليه بالقول وتوعد " وقد صححت العبارة بعد مراجعة العاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٢) بهذا اللفظ تسمى (ص ٧٠ ب) من نسخة من ثم يضطرب ترتيب الصفحات ، وثلق بالنص مرة أخرى في (ص ١١٥) من نفس النسخة وتبدأ بلفظ " السلطان " .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من س .

الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يتزل حتى شارف العدو من الخروبة وأنفذ بعض العسكر ؛ فدخل عكا على غرة من العدو وتقوية لمن فيها ؛ ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير .

وذكر عماد الدين الكاتب : أن العدو لما قصدوا عكا كان من رأيه مسيرتهم في الطريق ليمنعهم من النزول ، لأنهم إذا نزلوا صعب إزالتهم وأتعب قتالهم ، يخالفه أمراؤه في ذلك ، وقالوا : ” بل نمضي على أسهل (١) الطرق “ ، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحه ، وجب يوسف ، والمنية .

ووصل الثقل عصر يوم الثلاثاء رابع عشر رجب كفرنكا (٢) والسلطان نازل بها ، ونزل يوم الأربعاء (٣) منتصف رجب على جبل الخروبة ، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر يحيطونها ، وضرب الملك خيمة على تل المصلبة (٣) ، ورابطت سراكبهم بشاطئ البحر ، ثم عبأ السلطان أطلابه ، وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، فنزل عليه ، وأمر الناس أن ينزلوا على التعبئة وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقابل تل العياضية ، واخذت العسكر الإسلامي بالعدو ، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب ، وصار السلطان محاصراً للفرنج ، والفرنج محاصرين لمكا ، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، وترتب اليك الدائم ، وحُصر العدو في خيامه [٣٣٨] بحيث لا يخرج منهم أحد إلا ويجرح أو يقتل ، وكانت عدة خيالتهم ألفين (٤) ورجالتهم ثلاثين ألفا .

(١) الأصل : ” أسفل “ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد : « على تل المصلين قريبا من باب البلد » ، انظر :

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٤) كذا في الأصل ، وهو يتفق وما في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) وفي س : ” أربعة

آلاف “ .

قال القاضي بهاء الدين :

”مارأيت من نقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر متصل غير منقطع ، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهاونون على قتالهم ، والساطان يمنعهم من ذلك إلى وقته^(١) ، وعساكر المسلمين وملوكهم وأمراؤهم تتواصل من الأمصار ، ووصل من حماة الملك المظفر تقي^(٢) الدين عمر ، ووصل من الشرق مظفر الدين بن زين الدين على كوجك ، وتوفي في تلك الأيام حسام الدين سنقر الخلاطى وكان شجاعا دينا“ .

ذكر الواقعة الأولى التي تيسر للمسلمين بها دخول البلد

ولما استفحل أمر العدو وحصروا البلد من جميع جهاتها بحيث تعذر على المسلمين دخول البلد والخروج منه ضاق صدر الساطان بذلك ، وسمت همته إلى فتح الطريق إلى عكا ، لتستمر السابلة ، وترد إليها الميرة والنجدة ، فباكر الفرج القتال مستهل شعبان من هذه السنة ، فلم ينل منهم ما يريد ، وبات الناس على تعبئة .

فلما كان الغد باكرهم القتال ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، فقاتلهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبورا تاما حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل الملك المظفر حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزالهم عن مواقعهم ، يركب بعضهم بعضا ، لا يلوى أخ على أخيه ، فالتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم ، واحتتموا بهم ، وأخلوا جانب البحر الشمالى^(٣) ، شمال عكا ،

(١) الأصل : ”وقتهم“ ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٨٨) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٢) الأصل : ”زين الدين“ وما أثبتناه هو الصحيح .

(٣) هذا اللفظ غير موجود في س .

ولم يكن لهم هناك خيام، لكن عسكرهم كان قد امتد جريدة شمال عكا إلى البحر، ولما انكسر العدو في ذلك الجانب تبعهم المسلمون، وهجموا خلفهم إلى أول خيامهم، ووقف اليزك الإسلامى مانعا أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل، وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقاعة الملك إلى باب بهاء الدين قراقوش الذى جدده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوق ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو.

ودخل السلطان ذلك^(١) اليوم إلى عكا، وورق إلى السور [٢٣٩] ونظر إلى عسكر العدو، وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا للقتال، وأصبحوا يوم الأحد ثالث شعبان فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا، ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد.

ذكر الواقعة الثانية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان خرج الفرنج من مخيمهم بفارسهم وراجلهم، والراجل حولهم كالسور يتلو بعضهم بعض، حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية، فركبوا بأجمعهم، وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصا على عقبيه، والسيف يعمل فيهم، فالسالم جريح والعاطب طريق، حتى لحقوا بخيامهم، وانكفوا عن القتال أياما، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

(١) تنهى بهذا اللفظ (ص ١١٥ ب) من نسخة س، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النص هنا

فلما كان الحادى عشر من شعبان رأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصائبين مشرف على العدو وعكا ، وتوفى في هذه المنزلة حسام الدين طمان ، وكان من شجعان المسلمين ، ودفن في سطح التل .

ذكر وقعة العرب

ثم باغ السلطان أن جمعا من الفرنج يخرجون للاحتطاب والاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فكمن لهم جماعة من العرب فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوسا عدة بين يديه ، وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

وفي عشية هذا اليوم وقع بين الفرنج وبين أهل البلد حرب عظيم ، قُتل فيها جمع عظيم من الطائفتين ، وطال الأمر بين الفئتين ، فلم يخل يوم من جرح وقتل وسبي ونهب ، وأنس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدثون ، وربما غني^(١) بعضهم لبعض ، ثم يعاودون القتال بعد ساعة ، وكانوا ربما خرجوا صبيانهم وقتلوا صبيان المسلمين ، وأصرعوهم وصارعوهم^(٢) ، وأسر بعضهم بعضا .

ذكر الوقعة العظمى بمرج عكا

ولما كان يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان من هذه السنة خرج الفرنج بفارسهم وراجلهم ، وتحركوا حركة لم يتحركوا قبل ذلك مثلها ، واصطفوا ميمنة [٣٤٠] وميسرة ، وفي القاب الملك ، وبين يديه الإنجيل محمول مستور

(١) الأصل : "غنا" .

(٢) راجع قصة الصراع والمقاتلة بين الصبية من المسلمين والفرنج أثناء القتال حول عكا عند ابن شداد :

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣) .

بثوب أطلس مغطى ، وأربعة أنفس يمسكون أطرافه ، وهم يسرون بين يدي الملك ، وامتدت الميمنة مقابلة ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها ، والميسرة في مقابلة الميمنة ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وميسرتهم إلى البحر ، ونادى الجاوش (١) : " يا للإسلام وعساكرا الموحدين " ، فركب الناس وباعوا أنفسهم بالحنة ، وامتدت الميمنة إلى البحر ، كل قوم يركبون ويصطفون بين يدي خيمهم ، والميسرة إلى النهر كذلك .

وكان السلطان في القاب ، وفي الميمنة ولده الملك الأفضل نور الدين ، ثم ولده الملك الظافر خضر - وهو المعروف بالمشمر - ، ثم عسكر الموصل ، ومقدمهم ظهير الدين بن البتكري (٢) ، ثم عسكر ديار بكر ومقدمهم قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن وآمد ، ثم حسام الدين لاجين بن أخت السلطان [صاحب] (٣) نابلس ، ثم صارم الدين قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلون بطرف الميمنة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بعسكره ، وهو (٤) مقل على البحر .

(١) يفهم من النص هنا أن الجاوش جندي كانت مهمته النداء واستنفار الجند للقتال ، ومثل هذا ما جاء في (الراد : الفتح القسي ، ص ٢٤٢) : " وضايقوا البلد أشد مضايقة ، . . . فامر الجاوش حتى نادى . . الخ " ، هذا في العصر الأيوبي ، أما في العصر المملوكي فقد كان النظام يقضى بأن يسير أربعة من جنود الحلقة الشجبان أمام السلطان في مواكبه للنداء وتقيه المارة ، والجاوش أيضا جندي من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها ، والجاوش أو الجاوش أو الشاوش لفظ تركي ، ووجهه جاريشية . انظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab.) و (المقريزي : السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٨٧٠ ، هامش ٢)

(٢) كذا في الأصل ، وهو في (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٤٤) : " البتكري "

(٣) الأصل : " السلطان بالسر " وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٩٣) .

(٤) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٩٠) من نسخة من ، وبهذا تعود للقارنة بين النسختين .

وأما الميسرة فكان مما بلى القاب الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب^(١) — ملك الأكراد ومقدمهم — والأمير مجلي ، وجماعة من المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكري سنجار ، وجماعة من الماليك ، ثم مظفر الدين ابن زين الدين بعسكره ، وأواخر الميسرة كبار الأسيديّة ، مثل : سيف الدين يازكوج^(٢) ورسلان بغا .

وفي مقدمة القلب الفقيه ضياء الدين عيسى وجمعه .

والسلطان يطوف بنفسه على الأطلاب ، ويحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم فيما عند الله من الأجر والثواب الجزيل لمن جاهد في سبيل الله وقام بنصرة دينه .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى مضت أربع ساعات من النهار ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلابات^(٣) كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم قليلا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر أمده بأطلاب [٣٤١] عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر.

ولما رأى الدين في مقابلة القاب [ضعف القلب]^(٤) ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة رجل واحد بفارسهم

(١) س : " سيف الدين بن علي المشطوب " وما هنا هو الصحيح فهو يتفق وما في (ابن شداد ،

ص ٩٣) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤) .

(٢) الأصل وس : " يازكوج " والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .

(٣) كذا في الأصل وفي السيرة اليوسفية لابن شداد والروضتين ، وفي س : " مناوشات " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

وراجاهم ، وجاءت الحملة على الديار بكرية ، وكان بهم غرة عن الحرب^(١) ،
فانهزموا هزيمة قبيحة ، وسرى الأمر حتى انهزم معظم الميمنة .

واتبع العدو المنهزمين^(٢) إلى العياضية ، فإنهم استداروا حول التل ، وصعد العدو
إلى خيم السلطان ، وجالوا حولها جولة ، ثم رأوا انقطاع أصحابهم عنهم ،
فاتحدروا عن التل ، وأما الميسرة [فقد] ثبتت إذ لم تصادفها الحملة .

وظاف السلطان على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على
الجهاد ، وينادى بالإسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف ويتخرق
الصفوف ، وأوى إلى تحت التل الذي عليه الخيام ، وأما المنهزمون فإنه باغت
هنزيمتهم إلى الأخوانة قاطع جسر طبرية ومنهم من تم إلى دمشق .

قال عماد الدين الكاتب :

” كنت في جماعة من أهل الفضل ، ونحن على بغال بغير أهبة^(٣) قتال ، فرأينا
العسكر موليا ، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا ، فوصلنا إلى طبرية
فيمن وصل ، ووجدنا ساكنها قد أجفل ، فسقنا إلى جسر الصنبرة ، ونزلنا
على شريقه ، وكل منا ذاهل عن شبعه ورية ، ومن المنهزمين من باغ عقبة فيق
[وهو غير مفيق]^(٤) ، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق “ .

وأما المتبعون للمنهزمين فلأنهم تبعوهم إلى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا
الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فاقبهم جماعة من الغلمان

(١) الأصل : ” عزة في حراب الافرنج “ ، والتصحيح عن الأصل المقول عنه وهو (ابن شداد ،
ص ٩٤) . أنظر أيضا (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٢) الأصل : ” المنهزمون “ ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١٨ ؛ هامض ٣)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع المقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٦)

والخرَّبندية (١) والساسة (٢) منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، وقتل منهم جماعة ، فإن أهل السوق كان أكثرهم يحمل السلاح .

وكان الساطان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعود على الحملة على العدو ، فلما رأى الفرنج الذين كانوا صعدوا إلى خيم الساطان منحدرين من التل أراد لقاءهم فأمر [٣٤٢] أصحابه بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، وأسرعوا يطلبون أصحابهم ، فصاح الساطان في الناس ، فحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة ، واشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس (٣) وراءهم ، حتى لحقوا أصحابهم ، والطردهم وراءهم ، فلما رأهم أصحابهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قُتل ، وأنه (٤) إنما نجا هذا النفر فقط (٤) ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، ثم تحركت الميسرة من المسلمين على العدو .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتناخت (٥) الرجال ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكثر القتل والجرح في الفرنج إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو ، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا قد أعادوها خشية من هذا الأمر مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس (٦) ، والخوف والعرق قد أجمعهم ، فتراجع الناس (٦) عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين .

(١) خربندج أو خربنده — والجمع خربنديه — لفظ فارسي معناه الخمار أو المكارى .

(٢) الأصل وس : " الساسة " والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : " وتكاثروا للناس " والتصحيح عن نس والروضتين .

(٤) هذه الجملة غير موجودة في س ، ولكنها موجودة في الأصل المتقول عنه هنا وهو (ابن شداد ص ٩٥) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س (ص ٩٠ ب) : " تناحا " ، وفي ابن شداد : " وتجمت " .

(٦) س : " المسلمون " .

وعاد الساطان وجاس أصحابه في خدمته يتذاكرون من فقد منهم ، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان المجهولين^(١) مائة وخمسين .

واستشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه ضياء الدين عيسى .

قال القاضي بهاء الدين :

” ولقد رأيت الفقيه عيسى وهو جالس يضحك والناس يعزونه ، وهو ينكر عليهم ، وهو يقول : هذا يوم الهنا لا يوم العزا “ .

واستشهد في ذلك اليوم الأمير مجلى بن سروان ، والحاجب خليل الهكاري .

وأما قتلى العدو فحزرتنا قتلاهم سبعة آلاف نفس .

قال القاضي :

” ولقد رأيتهم وقد حملوا إلى شاطيء النهر ليلقوا^(٢) فيه ، فحزرتهم بدون^(٣) سبعة آلاف “ .

وكانت الهزيمة لما وقعت على المسلمين أولا ، ورأى الغلمان خلوا الخيام ، وظنوا أن الكسرة تم ، وأن العدو لا بد أن يستأصل الخيم ، ووضع الغلمان أيديهم ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة ، فلما عاد الساطان إلى الخيم ، ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين ، وتببع من شد^(٤) من العسكر ، وتتابعت الرسل في هذا [٣٤٣] المعنى حتى باغت عقبة فيق وردوهم

(١) الأصل : ” غير المجهولين “ والتصحيح عن ابن شداد .

(٢) الأصل : ” ليكنفوا “ والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٩٦) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٣) س : ” فوق “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٤) س : ” سلم “ وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

وأخبروهم بالكسرة للمسلمين^(١)، فعادوا، وأمر بجمع الأقمشة [من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة]^(٢) في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس وأصحابه حوله، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا وحاف عليه يُسلم إليه .

وشدت من عساكر الإسلام خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منهم إلا رجل معروف خاف على نفسه، والباقون ذهبوا في حال سبيلهم .

وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة، وأعادها إلى أصحابها، وأقام المنادية في المعسكر، وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه، واجتمع من الأقمشة في خيمته شيء كثير حتى أن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر، فرد كل شيء على مستحقه، فلم يُعدم إلا القليل .

قال عماد الدين الكاتب :

”العجب أن الذين ثبتوا منا في الواقعة لم يبلغوا ألفا، فردوا مائة ألف، وكان الواحد يقول : قتلت من الفرنج ثلاثين وأربعين“ .

ولما عاد السلطان إلى مضاربه أمر بمواراة الشهداء، وكان من جملتهم : الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن الشيخ أبي محمد عبدالله بن الحسين بن رواحة ابن إبراهيم بن عبدالله بن رواحة بن عبيد بن محمد بن عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي الحموي^(٣)، وهذه النسبة نقلتها من نسخة بخط الشيخ جمال الدين هذا،

(١) النص في س : ”وأخبروهم بأن المسلمين كسروا الفرنج كسرة عظيمة“ .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س وابن شداد .

(٣) هذه أطول ترجمة عثرت عليها لابن رواحة، إذ لم يترجم له إلا (ياقوت : معجم الأدباء، ج ١٠، ص ٤٦ وما يليها)، ولا عجب في هذا فإن رواحة مواطن للؤلؤف . أنظر أيضا ما نقله أبو شامة في : (الروضتين ج ٢، ص ١٤٧) عن البرق الشامي للعماد عند ترجمته لهذا الشاعر؛ و(العماد : الخريدة، قم شعراء مصر، ج ١، ص ١٤٧ و C. CAHEN : Une Chronique Syrienne du

VI (XII) Siècle. Le Bustan Al-Jam'i. : p. 47)

وكان رجلا عالما فاضلا شاعرا زاهدا، سافر من حماة بلده إلى الديار المصرية ،
ومدح العاضد والصلاح رزيك ، وأحسنا إليه إحسانا كثيرا ، وسافر في البحر
فأسره الفرنج ثم من الله تعالى بإطلاقه ، وحج إلى بيت الله تعالى ، وزار قبر
النبي — صلى الله عليه وسلم — وامتدحه بقصيدة أولها :

دَعِ الْعَيْسَ فِي طَيِّ الْفَلَا تَبْلُغُ الْمَدَى ، فَقَدْ أَلْهَمْتَ أَنْ الْمَسِيرَ إِلَى هُدَى
لَقَدْ غَنَيْتَ بِالْقَصْدِ عَنِ جَاذِبِ السَّرَى (١) كَمَا شَفَعْتَ بِالشَّوْقِ عَنِ سَائِقِي الْحَدَا
سَرَتْ فَرَأَتْ طَيْبَ الْمَعْرِسِ فِي السَّرَى ، وَعَدْتَ ظِلَّ التَّأْوِيلِ فِي الْخَمْسِ مَوْرَدَا
أَعْدْتُ لَهَا فِي قَبِيضِهَا بِأَنَا مَسْلَى يَدَا ، كَمَا أَلْقَتْ إِلَى يَثْرِبِ يَدَا
[٣٤٤] وَلَمْ أَرَ فِي الْأَيَّامِ يَوْمًا مَبَارِكًا عَلَيَّ ، كَيَوْمِ زُرْتُ فِيهِ مُحَمَّدَا
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَكْرَمُ شَافِعٍ لَوْ فِدَا ، وَأَوْلَى أَنْ يُزَارَ وَيُقْصَدَا

وهي طويلة جدا . وزاداه — صلى الله عليه وسلم — يودعه بهذين البيتين :

يَا خَاتِمَ الرُّسُلِ سَلِّ اللَّهُ لِي خَاتِمَةَ مَحْمُودَةَ الْعَاقِبَةِ
وَلَا تُرَدَّنِي (٢) يَدِي — بَعْدَ مَا مَدَدْتَهَا مُسْتَشْفَعًا — خَائِبِهِ

فذكر أنه نام فرأى النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول له : ” قُبِلَتْ
يَا بِنِ رَوَاحَةٍ “ ، فقبل الله شفاعته رسوله فيه ، وقبضه شهيدا إليه بمرج عكا ، وشارك (٣)

(١) الأصل : ” البرى “ وما هنا عن س (ص ٩١ ب) .

(٢) الأصل : ” ولا يردان “ والتصحيح عن س .

(٣) الأصل : ” وسار إلى “ والتصحيح عن س .

جده عبد الله بن زواحة الأنصاري - رضى الله عنه - في فضيلته (١) اللتين هما :
مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والشهادة ؛ مات ذلك شهيدا بمؤته
في غزو الروم ، ومات هذا شهيدا بالمرج .

وذكر عماد الدين الكاتب بأنه كان قد أنعم السلطان عليه بمزرعة في حاب (٢) ، قال :
”وكتبْتُ توقيعه ، وأراد الله تعويقه ، وحماتُ توقيعه تلك الليلة إلى السلطان
ليعلم فيه فما علم ، وراجعتُه في معناه فسكت وماتكلم ، وكان ساعة الوقعة راجبا
معنا ، ثم قال : ”وقوفنا يطول“ ، ومضى إلى خيمته فتودع ، فلما علم بان دفاعنا (٣)
ساق وراءنا ، فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي ، وكان قال لنا لما أصبح :
رأيت كأن رجلا يحلق رأسي في المنام ، فقلنا له : هذا من أضغاث الأحلام
فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام . - رحمه الله - “ .

ومن الشهداء : إسماعيل الصوفي الأرموي المكبّس ، وشيخ من الطشت دارية (٣) ،
وغلّام في الخزانة أمين ، وآخرون صودفوا فدفتوا عند التل .

وانتمش الفرنج - لعنهم الله - بعد هذه الوقعة ، وجاءتهم في البحر سراكب
أخلفت من عدم منهم ؛ وكان السلطان قد نقل جيف القتلى إلى النهر لما اشتد
تنها ، ليشرب الفرنج من صيدها .

(١) الأصل : ”قصديته“ وقد صححت إلى ما بالمتن لينسق المعنى ، هذا والجملة في الأصل وس
مضطربة ويبدو أنه قد سقط منها ألفاظ عند النسخ . ويوضحها ما ورد في المراجع الأخرى ، فقد جاء
في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥) : ”وما ورث الشهادة من بعيد فإن جده عبد الله بن
زواحة صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتله الروم يوم مؤته ، وهذا قتله الفرنج يوم عكا“
ولكن العماد أنكر في (البرق الشامى) نسبة إلى ابن زواحة الصحابي ، قال : ”وليس هو من أولاد
ابن زواحة الصحابي ، ذلك لم يعقب ، وإنما في أجداده من اسمه زواحة“ . (الروضتين ، ج ٢ ،
ص ١٤٧) . وانظر أخبار عبد الله بن زواحة الأنصاري الصحابي في : (ابن هشام : السيرة ، نشرة السقا
وآخرين ، ج ٤ ، ص ١٣ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ٢١ و ٢٠٠ إلخ) و (المقرئ : إمتاع الأسماع ، نشر محمود
شاکر ، ج ١ ، ص ٣٤٦ و ٣٤٨ و ٣٥٠) .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س (١٩٢) .

(٣) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، هامش ٤) .

ذكر انتقال السلطان والعسكر إلى الخروبة^(١)

ولما انقضى أمر الوقعة وسكنت نائرتها أمر السلطان بالانتقال إلى الخروبة ،
فانتقل في رابع^(٢) شهر رمضان من السنة ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، ووجد
بذلك الفرج ، فشرعوا في حفر الخندق على معسكرهم [٣٤٥] حوالي عكا^(٣)
من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصار ، وعمموا
الخندق عايمهم ، وأداروا حولهم سورا مستورا^(٤) بالستائر^(٥) ، ورتبوا عليه الرجال ،
وتركوا له أبوابا يظهرون منها إذا أرادوا الخروج ، فانقطعت طريق المسلمين
إلى عكا بالكلية .

(١) س : " ذكر انتقال العسكر السلطاني " .

(٢) س : « سابع » ، وما يأتى يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ص ١٤٧) و (ابن الأثير ،
ج ١٢ ، ص ١٦) .

(٣) الأصل : « معسكرهم » والتصحيح عن س والروضتين .

(٤) الأصل : « مسورا » .

(٥) الستائر جمع ستارة ؛ وهي من أهم معدات الحرب عند المسلمين في العصور الوسطى ، كانوا
يخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنظرون لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط ،
وكانت تستعمل بوجه خاص لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب ، وكذلك لحماية السفن من
قذائف النفط ، قال : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ؛ ص ١٩٧) : " وليس في حرب البحر شيء
أصعب من النفط ؛ بسبب الزيت والقيح الذي يطل به المركب ؛ فيحتمل لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل
والشب والنظرون " ؛ وكان هناك نوع آخر من الستائر يعلق بميدان الأسوار ليضعف قذائف المهاجمين
والجروح والزيارات فتقل قوتها ولا تؤثر في جدران القلاع والحصون ؛ وقد وصف هذا النوع
(الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٤) وصفارائما ، قال : " وأما ما يدفع به آلات
الحصار فالمنجنيق أشدها ، فن أراد التوق منه فليخرج من أعلى السور أخشابا طوالا يظهرها كالخنازير
المطل ، ويدلى منها البسط والأكسية والشباك من الخبال الغلاظ واللبود ما أمكن ، ولتكن مرصاة
بميدة من السور ، فيجىء الحجر وقد ضعف فعله وبطلت قوته ، وكذلك النشاب والجرخ والزبار ، لا يجاوز
تلك الستائر " . أنظر أيضا : (مرضى بن على : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨ - ١٩) .

وما كان انتقال السلطان من منزلته صوابا ، فإنه لو أقام لما تمكن العدو ،
لكن كان أمر الله قدرا مقدورا ، وكان السبب في تأخر السلطان أنه استحضر
الأمراء وأرباب المشورة^(١) .

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد - رحمه الله - :

« كنتُ من جماتهم ، فقال السلطان : « بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على
رسول الله : اعلّموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا ، ووطىء أرض
الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم إن شاء الله تعالى ، وقد بقي
[العدو]^(٢) في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد
أوجب علينا ذلك ، وأتمّ تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءها نجدة
نتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو وإن بقي وطال أمره
إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندي مناجزته ، فليخبرنا
كل منكم ما عنده في ذلك » .

وكان ذلك في ثالث عشر تشرين الثاني من الشهور الشمسية ، وهو آخر شعبان ،
فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر
أياما حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ،
واستولى على نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمرا على خلاف ما يحمله القوى لا تؤمن
غائلته ، والناس لهم نحسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت
من عرك اللجم ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل
الملك العادل ، ويشاركنا في الرأى [والعمل]^(٣) ونستعيد من شدّ من العساكر ،
ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة العدو » .

(١) الأصل : « الأمراء المشهورة وغيرهم » ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٩٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد وس .

وكان السلطان قد انحرف مزاجه لجمه على قابه ومعاناة التعب لحمل السلاح، والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه، ورآه مصلحة، فأقام بالحروبة يصلح مزاجه، ويجمع العسكر إلى عاشر رمضان.

[٣٤٦] وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ المسلمون بعكا مراكبا للفرنج كان مقلعا إلى صور، محتويا على ثلاثين رجلا، وامرأة واحدة، ورزمة^(١) من الحرير، فقوى نشاط أهل البلد، فصاروا يخرجون ويقاتلون ويفنمون.

وفي منتصف شوال قدم من مصر الملك العادل سيف الدين بعساكره.

ذكر وصول الأسطول^(٢)

وقدم من مصر خمسون قطعة من الأسطول، مقدمها حسام الدين لؤلؤ، وذلك منتصف ذي العقدة، فجاءت إلى مراكب الفرنج بغتة [فخرقتها]^(٣) وسحقها، وبددت شملها، وظفر المسلمون ببطشتين كبيرتين من بطش العدو بما فيها من الرجال والأموال والغلال^(٤)، ونقل السلطان إلى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد برجال الأسطول وكانوا عشرة آلاف، وتطرقت رجالة المسلمين إلى العدو، وأذاقوهم القتل والأسر والسرقة^(٥)، حتى أن رجالة المسلمين ربما كانوا يختفون في الحشيش في أجواف^(٦) الأنهار فإذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل والأسر.

(١) الرزمة: الربطة أو الحزمة أو البالة؛ وبالفرنسية (ballot) أنظر: (Dozy: Supp. Dict. Arab.)

(٢) أكل كاتب نسخة من هذا العنوان بقوله: «ومكاتبة السلطان صلاح الدين إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد» غير أن كاتب الأصل فصل جزئى العنوان، وأورد الجزء الثانى وحده بعد قليل.

(٣) ما بين الحاصرتين عن س . (٤) بعد هذا اللفظ فى س : «ركان شئى كثير» .

(٥) كذا فى الأصل، وفى س، «وأذاقوهم ثمرا من القتل والأسر... إلخ» وعند العماد (الروضتين، ج ٢، ص ١٤٨): «ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ويلا» .

(٦) الأصل: «أجواف»، والله حبيب عن العماد (المرجع السابق) .

ذكر مكاتبة السلطان إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد

وواصل السلطان كتبه إلى جميع الأقطار يستدعي الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه ، وسرح عدنان النجّاب إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ابن أيوب - صاحب اليمن - يشرح له ما جرى من الحوادث ويطلب منه الإعانة بالمال .

وكتب مظفر الدين قرا أرسلان - صاحب العجم - يحتج عليه بما افترضه الله تعالى من القيام بنصرة الإسلام ، وكان اسم السلطنة بالعجم لابن أنحى مظفر الدين هذا لأنه ، وهو السلطان ركن الدين طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وهو آخر السلاطين السلجوقية ، فورد على السلطان كتابه يتظلم إليه من عمه قرا أرسلان ، ويطلب من السلطان إعانتته عليه ، فاعتذر إليه السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد مع الكفار ، وأرسل رسولا - في السفارة بينه وبين عمه - جمال الدين أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه ، وكتب إلى زين الدين [٣٤٧] بن نور الدين - صاحب إربل - ، وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور يأمرهما بالتوفر^(١) على خدمته .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :
” وقد مضت ثلاثة أشهر [شهر]^(٢) بها التمثيل وحل التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت [و]^(٢) الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ، وراح

(١) الأصل : « بالوفود » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن نص الرسالة الوارد في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

وتارس^(١) ونابل ، فما أثر ذلك في تقصمهم ولا أرث إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عايبه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كائبها ، وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، وثار نائرها^(٢) ، وسار سائرها^(٣) ، وطار طائرها ، وتقضت خزائنها ، وانقضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخاثرها^(٤) ، وثملت كنائن كائسها ، واستخرجت دفائن نقائسها ، وخرج بصالبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج بفاجها ومسالكها ، وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للصاب المصيب ، وتادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم^(٥) الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر فمر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره ، فحاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحديد ، وتواصلت منهم الأمداد .

وورد على السلطان من عز الدين مسعود بن مودود — صاحب الموصل — أخبار من النفط الأبيض ، ومن التراس والرماح ، ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده .

قال : وكتب إليه السلطان :

« ووصل السلاح ، وتم الإسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فإن الحرب المتطاولة [٣٤٨] المدد أتت على جميع العدد ، ومن العجب أن العدة تفنى وما تفنى العداة ؛ وتتمو على الحصاد كأنها النبات ؛ فالبجر يمدهم ؛ والكفر إلى الردى يردهم » .

(١) هذا اللفظ غير موجود في س ولا في نص الرضتين .

(٢) هذان اللفظان ساقتان من س .

(٣) الأصل : « أجابرها » ، وما هنا عن الرضتين .

(٤) الأصل : « أنارهم » ، وما هنا عن الرضتين .

ذكر من وصل في هذه المدة من مدد العدو^(١)

ووصل في البحر^(٢) امرأة جلييلة المقدار ؛ وفي صحبتها^(٣) خمسمائة فارس
بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم ، وهي متكفلة بجميع ما يحتاجون إليه من المؤونة ،
فهم يركبون لركوبها ، ويحملون بحملها .

وذكر العماد الكاتب :

أن في يوم الواقعة قاتل مع الفرنج جماعة من النسوة ؛ وأنهن لم يعرفن حتى
سُلبن ونزع عنهن لأمة^(٤) الحرب ؛ وأنه سُبى منهن عدة ، واشترين ، وأنه حضر
المصاف جماعة من العجائز يحرصن على القتال ويحثن عاياه ، ووصل في مركب
ثلاثمائة أفرنجية مستحسنات ، اجتمعن من الجزائر^(٥) وسبلن أنفسهن لله بزعمهن ،
والترمن أن لا يمنعن من أراد وطأهن من مقاتلة الفرنج ، وزعمن أن هذه قرية
ما فوقها قرية ، لا سيما إذا مكَّن من اجتمع فيه غربة وعزبة .

(١) لم يرد هذا العنوان في س (١٩٤) ، وإنما جاء مكانه : « قال صاحب التاريخ » .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : « من مدد العدو » .

(٣) الأصل : « وفي حملتها » ، والتصحيح عن س ، والنص عند العماد (الرضين ، ج ٢ ،

ص ١٤٩) : « وفي حملتها » .

(٤) اللأمة (والجمع : لأم ولؤم) الدرع ، أو السلاح بوجه عام ، والمعنى الثاني هو المقصود
هنا ، فقد جاء في (اللسان) : يقال : استلام الرجل إذا لبس ما عنده من عدة رُح وبيضة وينفّر
وسيف ونبل ، وفي : (ابن هذيل الأندلسي : حلية الفرسان وشعار الشجعان ؛ نشر محمد عبد الغني
حسن ، ص ٢٣٨) « فإذا لبس الفارس الدرع يقول استلام أي لبس اللأمة » .

(٥) الأصل : « الحرائر » ، والتصحيح عن : (العماد : الفتح القدسي ، ص ١٦٩) ، وس .

وتواصلت الأمداد من البحر إليهم يتلو بعضها بعضا ؛ وكان كلما نقص من العدو عدد جاء من داخل البحر أمثاله (١) .

وفي هذه السنة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري - رحمه الله - وذلك في تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة ؛ والأمير عز الدين موسك بن جكر (٢) وهو ابن خال السلطان .

وورد على السلطان من مصر كتاب فاضلي يبشر فيه بمولد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان ؛ وهو الذي ملك بعد أبيه - على ما سنذكره إن شاء الله تعالى - وأول الكتاب :

« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دائم رشاده وإرشاده ؛ وزاد سعده وإسعاده ؛ وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده ؛ واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده ؛ وأتمى الله عدده حتى يقال هذا آدم المملوك وهذه أولاده ؛ وينهى أن الله - وله الحمد - رزق الملك العزيز - عز نصره - ولدا مباركا [٣٤٩] عليا ؛ ذكرا سويا ؛ برازيكا ، نقياً تقياً ، من ذرية كريمة بعضها من بعض ، ومن بيت شريف كادت ولاته تكون ولاية في السماء ، وممالكه تكون ملوكا في الأرض ، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد ، وهي من الجمعة أولى العدد ، وبه وبآله يعز [الله] (٣) أهل الجمعة وينزل أهل الأحد » .

(١) بعد هذا اللفظ في س : « قال القاضي » ويقصد به المؤلف ابن راصل .

(٢) الأصل : « موسكى بن خلوه » وفي س : « موسى بن خلوا » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص الوارد في (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٥٠) .

ذكر مسير القاضي بهاء الدين بن شداد

في الرسالة إلى الشرق وإلى الديوان العزيز

وورد كتاب الملك الظاهر - صاحب حلب - إلى أبيه السلطان يخبره أنه صح أن ملك الألمان قد خرج من جهة القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل إنهم مائتا ألف ، وقيل مائتا ألف وستون ألفا ، يريد البلاد الإسلامية ، فاشتد على السلطان ذلك وعظم عليه .

قال القاضي بهاء الدين :

”فاستندبني السلطان بالمضى إلى خايقة الوقت [الإمام الناصر لدين الله] (١) وإعلامه بهذه الحادثة ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار ، وإلى صاحب الجزيرة وصاحب الموصل ، وإربل ، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم ، فسرت (٢) حادي عشر شهر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم ، وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين بمعظم عسكره ، ووعد الديوان بكل جميل ، وعدت إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسبقت العساكر ، وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للسير ، فسرت بذلك“ .

وذكر عماد الدين :

”أن السلطان كان قد سير القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولا إلى بغداد ، وأن القاضي بهاء الدين لما وصل إلى حلب متوجها إلى بغداد

(١) مدين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) مكان هذا اللفظ في س : «من» .

صِادَفُ الْقَاضِي ضِيَاءِ الدِّينِ قَدَّ عَادَ مِنَ الرَّسَالَةِ ، فَقَالَ ضِيَاءُ الدِّينِ : "أَنِي قَدْ بَلَغْتَ الْمِرَادَ ، فَمَا هَذَا الرَّسُولُ الرَّايِحُ ؟" وَوَصَلَ إِلَى الْعَسْكَرِ السُّطَانِيِّ وَهُوَ مَغْتَاظٌ ، وَتَغَيَّرَ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَ(١) نَسَبَ إِتْفَاقَ الْقَاضِي بِهَاءِ الدِّينِ إِلَى ، (١) ثُمَّ اجْتَمَعَ بِالسُّلْطَانِ وَعَرَفَهُ فَرَاغَ الشُّغْلِ وَبَلُوغَ الْمَقْصُودِ ، وَقَرَّرَ مَعَهُ أَمْرًا ، ثُمَّ عَادَ عَلَى النَّجْبِ إِلَى بَغْدَادَ وَصَادَفَ الْقَاضِي بِهَاءِ الدِّينِ بِنِشْدَادِ (٢) فَلَمْ يَسْفِرْ أَمْرَ سَفَارَتِهِ عَنْ سِدَادٍ ، وَقِيلَ لَهُ : "جَوَابُ مَا أَتَيْتَ بِهِ مَعَ ضِيَاءِ الدِّينِ ، (٣) نَسِيرُهُ (٤) وَنُنْدِبُهُ فِيمَا نَتَخَّرَهُ (٥) ."

وَدَخَلَتْ سَنَةٌ سِتٌّ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةً :

وَالسُّلْطَانُ نَازِلٌ [٣٥٠] بِالْخَرْوَبَةِ عَلَى حِصَارِ الْفَرَنْجِ الْمُحَاصِرِينَ لِعُكَا ، مَرَابِطًا لِلْجِهَادِ ، وَعِنْدَهُ أَخُوهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ ، وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ ، وَابْنُ أَخِيهِ الْمَلِكُ الْمُظْفَرُ تَقِيُّ الدِّينِ - صَاحِبُ حِمَاةٍ - وَكَانَتْ الْعَسَاكِرُ الْغَرِيبَةُ قَدَانِصَرَفَتْ إِلَى بِلَادِهَا لِهَجُومِ الشِّتَاءِ ، وَتَوَالَى الْأَنْوَاءُ وَالْأَنْدَاءُ .

ذِكْرُ وَقْعَةِ الرَّمْلِ (٥)

وَاتَّفَقَ أَنَّ السُّلْطَانَ رَكِبَ يَوْمًا فِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ لِلصَّيْدِ بِالْبَزَاةِ ، فَطَابَ لَهُ الْقَنْصُ فَأَبْعَدَ ، وَكَانَتْ الْيَزِيدِيَّةُ عَلَى الرَّمْلِ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَخَرَجَ الْفَرَنْجِيُّ وَقَتَ الْعَصْرِ فِي عَدَدٍ لَا يَحْصَى ، وَتَسَامَعَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ وَطَرَدُوهُمْ إِلَى خِيَابِهِمْ ، وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى قَتَلَ نَشَابُ الْمُسْلِمِينَ ، وَشَاعَ نِدَاؤُهُمْ

(١) النَّصُّ فِي س : « بِسَبَبِ إِتْفَاقِ الْقَاضِي بِهَاءِ الدِّينِ إِلَى بَغْدَادِ » .

(٢) الْأَصْلُ : « بِهَاءِ الدِّينِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْفِرْ... إلخ » ، وَس : « فَصَادَفَ بِهَاءِ الدِّينِ وَلَمْ يَمْ لَهُ أَمْرٌ رَسَالَتَهُ » ، وَالتَّصْحِيحُ عَنِ الْأَصْلِ الْمَنْقُولِ عَنْهُ هُنَا وَهُوَ الْعَمَادُ (الرُّوضَتَيْنِ ٠ ج ٢ ، ص ١٥١) .

(٣) س : « بِهَاءِ الدِّينِ » وَمَا هُنَا هُوَ الصَّحِيحُ .

(٤) س : « فَرَجَعَ وَهُوَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ وَوَصَلَ الْقَاضِي ضِيَاءُ الدِّينِ فِي النَّوْبَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى بَغْدَادَ وَعَادَ إِلَى السُّلْطَانِ بِالْجَوَابِ الثَّانِي » ، وَمَا هُنَا يَتَّفَقُ وَنَصُّ الْعَمَادِ .

(٥) هَذَا الْعِنْوَانُ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي س ، وَمَكَانُهُ : « قَالَ » .

باستدعائه، فلما علم الفرنج بذلك تجاسروا عليهم، وحملوا على المسلمين حملة منكزة، فردوا بها المسلمين إلى النهر، وثبت جماعة من العادلية في وجه العدو، واستشهد جماعة من الشجعان، وسبب ذلك أنهم صرعوا جماعة من خيالة العدو ونزلوا لأخذ سلبهم، وصرت بهم حملة الفرنج، وأعجلوا عن الركوب، فاستشهدوا، ثم أظلم الليل، وافترق الجمعان.

ومن جملة من فقد من المسلمين الحاجب أيدغمش المجدي^(١)، وكان لاسطان مملوك يقال له "سراسنقر" عثر به جواده، فأخذ بعض الفرنج بشعره، وسلّ آخر سيفاً ليضربه به، فوقعت الضربة في يد الذي قبض شعره، فأطلقه، واشتد سراسنقر يعضو وهم خلفه فلم يدركوه، وكان هذا من غريب الاتفاق.

ثم عاد السلطان من صيده فوجد الأمر قد انفصل.

وفي خامس^(٢) ربيع الأول من هذه السنة تسلم السلطان شقيق أرنون^(٣) [بعد أن قنى ما فيه من الزاد]^(٤)، وأطلق صاحبه أرناط، فتوجه إلى صور.

ذكر قدوم العساكر إلى خدمة السلطان^(٤)

ثم دخل الربيع، وجاءت العساكر والنجد يتلو بعضها بعضاً، فوصل الملك المجاهد [٣٥١] أسد الدين شيركوه - صاحب حمص -، وسابق الدين عثمان - صاحب شير -، وعز الدين إبراهيم بن المقدم - صاحب بعيرين وقامية وكفر طاب -، ووصل معهم جموع من أعيان الأجناد وحشود من التركان والعرب.

(١) س: «الحمدى» وما هنا يتفق والعماد (الروضتين، ج ٢، ص ١٥٢).

(٢) كذا في الأصل وس، وفي الروضتين وابن شداد: «وفي يوم الأحد خامس عشر».

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س.

(٤) هذا العنوان غير موجود في س، وإنما مكانه: «قال».

ذكر مقدم^(١) السلطان إلى تل كيسان

ولما كثرت العساكر عند السلطان رحل من الخروبة إلى تل كيسان يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول^(٢) من هذه السنة ، ورتب الأطلاب ، فكان الملك المظفر في آنجر الميمنة ، والملك العادل في آخر الميسرة ، والملك الأفضل في أول ميمنة القلب ، وأخوه الملك الظافر في أول الميسرة على الجانب .

ثم وصل الملك الظاهر - صاحب حلب - ، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي - صاحب دارا - ، وغيرهم من الملوك والأمراء .

ثم وصل عماد الدين زنكي بن مودود - صاحب سنجار - وذلك لثمان بقين من ربيع الآخر ، فأكرمه السلطان وبالغ في احترامه ، وقدم له شيئا كثيرا من اللطف والتحف ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله إليه ، وطرحت له طراحة مستقلة^(٣) إلى جانبه ، وضربت خيمته على طرف الميسرة .

ووصل في سابع جمادى الأولى معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي ابن مودود - صاحب الجزيرة - ، فأنزله إلى جانب عمه عماد الدين .

ووصل بعده بيومين ابن عمه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود - صاحب الموصل - نائبا عن أبيه ، فالتقاه السلطان ، واحترمه ، وأنزله

(١) س : «تقدم» .

(٢) س : « ربيع الآخر » ، وما بالمتن هو الصحيح فإنه يتفق والنص عند ابن شداد (ص ١٠٢) والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

(٣) الأصل ، وس : « مستقلة » والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٠٤) ، والعماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

عنده في الخيمة ، وقدم له تحفا كثيرة ، ثم أمر بضرب خيمة له بين ولديه :
الملك الأفضل ، والملك الظاهر .

ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين كوجك — صاحب إربل —
فأكرمه السلطان ، وأنزله عند أخيه مظفر الدين في الميسرة .

ذكر وصول رسول^(١) الخليفة الإمام الناصر لدين الله تعالى أمير المؤمنين إلى السلطان

[٣٥٢] وهو الشريف نجر الدين نقيب مشهد التبن ببغداد ، وكان قدومه
سادس عشر ربيع الأول^(٢) من هذه السنة ، ومعه حملان من النفط ، وتوقيع
بعشرين ألف دينار تُقرض من بعض التجار على الديوان العزيز ، ونحسة^(٣)
من الزراقين^(٤) المتقنين صناعة الإحراق بالنار ، فاعتد السلطان بكلمها حضر ، وشكر
عليه الديوان ، وردّ التوقيع عليه ، وقال :

« كل مامعى من نعمة أمير المؤمنين ، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهاد ،
لكانت محمولة إلى الديوان » .

وأركب الرسول مرارا ، وأراه معارك القتال ، حتى يشهد بما شاهد ،
وأقام عند السلطان مدة ، ثم استأذن في العود ، فعاد .

(١) الأصل « رسل » والتصحيح يقتضيه السياق والمعنى .

(٢) س : « سادس عشرين شعبان » ، وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ،
ص ١٥٢) .

(٣) س : « وجماعة » ، وما هنا يتفق ونص العماد .

(٤) الزراق — والجمع زراقون — هو الذى يرمى النفط من الزرارة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق
بها النفط (Dozy : Supp. Dict. Arab) وجاء فى : (النعماني : الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٥٤)
أن النفط كان يرسل من أنابيب تجعل فى السفن وتعرف فى اليونانية بامم « سيفونية » ، وتسمى عند
العرب بالزراقات ، تنبعث منها نار النفط بإعادة ودخان شديد فتحرق السفن .

ذكر نصب الأبراج على عكا وإحراقها

وكان الفرنج قد شرعوا في بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية ، وقطم الحديد ، وتعبوا فيها سبعة أشهر ، وفرغوا منها في ربيع الأول من هذه السنة فعَلَّتْ كأنها أطواد ، ونُصِبَتْ في ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، ومائت طبقاتها بالعدد والعدة ، وكل برج منها في أركانه أربع اسطوانات عالية غلاظ ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد ، وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر^(١) وكانوا يقربونها كل يوم من البلد على حسب ما تيسر لهم ، وكشفوا من جوانبها سور البلد .

ثم شرعوا في طم الخندق ، وورد الخبر إلى السلطان بأن العدو قد طم بعض الخندق وقد قوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فكتب السلطان إلى سائر الأطراف يأمر بالحث على وصول العساكر ، واشتد خوف المسلمين بسبب الأبراج الخشب فإنها كانت في غاية العظم ، فإن كل واحد منها كان يحمل من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة فارس [٣٥٣] ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، ولم يبق إلا ملاصقة الأبراج السور ، ووقع الناس من حفظ البلد في تعب عظيم ، وأعمل السلطان فكره في إحراق الأبراج وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزرّاقين والنفاطين ووعدهم بالأموال الجزيلة إن أحرقوها ، فضاقت في ذلك حيلهم .

ولازم السلطان القتال صباح ومساء وفرّق العساكر فرقتين : فرقة تقاتل ، وفرقة تشغل الذين يجرون الأبراج عن جرها ، ورميت بكل قارورة نفظ فلم يؤثر فيها شيء .

(١) هذا نص هام يفيد من يدرس أحداث القتال في تلك العصور ، فقد كانوا يتعمون الجلود في الخل والخمر مدة لتصبح غير قابلة للاشتعال ، ثم يتخذونها ستائر يسترون بها الأبراج والحصون من القذائف النارية ، راجع ما فات هنا أيضا ص ٣٠٣ ، هامش ٥

وكان شاب من أهل دمشق يقال له علي ، ابن عريف النحاسين مولعا بجمع آلات الزرّاقين وتحصيل عقاقيرها [فوعده السلطان صلاح الدين بإحراقها ، وفرح بذلك ووعده بكل جميل]^(١) ، فدخل إلى عكا بعد أن حصل من الأدوية التي يعرفها ما يحتاج إليه ، فطبخ الأدوية من النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمره نار ، ورمى إحدى الأبراج ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ربيع الأول ، وهو يوم وصول الملك الظاهر ، فاشتعل البرج من ساعته ، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذوائبها نحو السماء ، فاستغاث المسلمون وضجوا بالتكبير والتهليل ، ثم رمى الثاني بالقدر الثانية ، والثالث بالثالثة ، فأحرق الثالثة .

وذكر العماد :

أنه رمى الأبراج أولا بقدور نطف خالية من النار ، حتى عرف أنه سقاها ورواها ، ثم رماها بالقدور المحرقة ، فتسلطت النار على طبقات الأبراج ، وذكر أنه احترق في البرج الأول سبعون^(٢) فارسا بعدتهم ، واشتد سرور المسلمين بهذا الفتح .

وحمل الزرّاق إلى السلطان [فأعطاه شيئا كثيرا]^(٣) ، فلم يقبل عطاه وقال : « هذا عماتة لله ، فما أريد من سواه جزاء » ، [^(٣) فأوقف السلطان عليه قرية من خيار قرى دمشق]^(٣) ، وخرج أهل عكا من البلد ، فطفقوا النار ، وسدوا الثغر ، وجاءوا إلى مواضع الأبراج فاستخرجوا حديدتها ، وما وجدوا من الزرديات والعدد التي سلمت فأخذوها .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٩٧) .

(٢) س : « تسعون » وما هنا يتفق ونص العماد (الرضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤) وبعد هذا اللفظ في س : « كذلك في الثاني والثالث أعظم من ذلك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

ذكر وصول الأسطول^(١)

[٣٥٤] ووصل الأسطول ، فخرج السلطان إلى لقائه بجميع كتائبه ، وجهزت الفرنج أساطيلهم لمقاتلة أسطول المسلمين ، فطحن أسطول المسلمين أسطول الفرنج ، وأخذ منهم مراكبا برجاله وأخذ العدو من أسطول المسلمين مراكبا ، واشتد القتال بين الفريقين في البحر إلى أن حمز بينهما الليل ، فتفرق الأسطولان وقد قتل من الفرنج مقتلة عظيمة .

وذكر عماد الدين :

أنه حرر ما قتل من الفرنج في مدة الحرب فكان أكثر من مائة ألف^(٢) .

ذكر خروج ملك الألمان

لنصرة الفرنج المنازكين لعكا وما آل إليه أمره

وقد ذكرنا وصول الخبر إلى السلطان في سنة خمس وثمانين بخروج ملك الألمان إلى بلاد الإسلام^(٣) فيما يزيد على مائتي ألف مقاتل ، وكان الحامل لملك الألمان على هذا الخروج ما بلغه من انكسار الفرنج بحطين قتلا وأسرا ، وأخذ بلادهم وانتزاع البيت المقدس منهم ، الذي فيه قمامتهم ، ومحل ضلالتهم ، فحملته الحمية لدينه والانتصار لبيت معبوده على أنه جمع وحشد ، وسار في أمم لا تدخل تحت

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه : « قال » .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : « ما بين فارس وراجل وغيرهم » ثم افدى السلطان أسطوله

بأسطول الفرنج .

(٣) س : « بلاد الشام » .

الحصر ، فسار مدة شهر حتى وصل قسطنطينية ، وهي يومئذ مع الروم ، فكتب ملك الروم بها إلى السلطان يخبره بأخبارهم ويقول :

« أنا لا أمكنهم من العبور »^(١) .

ثم إنه لما لم يقدر على منعهم لم يسعفهم بزاد ، فضاقت عليهم الأقوات وقلت ، ثم عبروا خليج القسطنطينية وقد اشتدت ضائقهم ، وكثرت جموعهم وجوعهم^(٢) ، ولما سلكوا^(٣) إلى حدود بلاد الإسلام سلكوا في الأودية والآجام ، فحطفتهم التريخان ، ودخل الشتاء ، فتراكت عليهم الثلوج ، فاحتاجوا إلى أكل الدواب ، وأحرقوا عددهم لعوز الحطب عندهم ، وعدموا العلف ، وكانوا مع هذا جاهلين بالبلاد ، لا يقطعون فرسخا إلا في يومين ، وذهبت بركتهم ؛ وصاروا كل يوم في نقص من أنفسهم ودوابهم ، ودفنوا من عددهم ما عجزوا عن نقله ، ثم عرضوا عسكرهم [٣٥٥] بعد أشهر بعد ما نقص من نقص منهم فكانت ستين ألف مدرع .

ولما قربوا من بلاد الملك قايچ أرسلان بن مسعود السلجوقي فنهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه بن قايچ أرسلان ، فوقع بينهم مصاف فكسروه ، واندفع عنهم إلى مدينة قونية ، فساقوا وراءه ، ودخلوها ، وأحرقوا أسواقها^(٤) ، فنفذوا إلى قايچ أرسلان :

« إنا لم نصل لأخذ بلادك ، وإنما نزلنا لئلا نأثر البيت المقدس » .

(١) بعد هذا اللفظ في س (١٩٨) : « فطاب قلب السلطان » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٣) س : « ولما وصلوا » .

(٤) س : « أسوارها » .

ونفذوا إليه هدايا ، وطلبوا الهدنة منه ، فهادتهم ، [فبقوا في بلاده مدة ، ولم يؤذوا أحدا منها ، وتقوا بعد ذلك بما أرادوا من بلاده]^(١) من العدة والأزواد ، وبعث قايچ أرسلان وابنه إلى السلطان يعتذران من تمكينهم إياه من العبور ، وأنهم غلبوا على ذلك .

ثم طلب ملك الألمان من قايچ أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم تمنعهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن ، فنفذ معهم خمسة وعشرين أميراً ، وكان ذلك موافقا لغرض قطب الدين ، لأنه كان كارها لجماعة من المقدمين ، فتقدم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان ، [فساروا معه]^(٢) فما قدروا على منع اللصوص والسراق ، فغضب عليهم ملك الألمان ، وقيدهم بعد أن أخذ كل ما كان معهم ، ثم منهم من خلاص بعد ذلك ، ومنهم من مات في الأسر .

ووصل ملك الألمان إلى بلاد الأرمن ، ومقدمهم لافون بن اصطفانه بن لاون ، فوصل إلى خدمة ملك الألمان ، ودخل في طاعته ، وأقام لهم الإقامات والغلوفات ، وهداهم الطريق ، فنزلوا بطرسوس ، وأقاموا بها أياما ليريجوا أنفسهم ، فعن ملك الألمان أن يسبح في النهر ، فسبح فعرض له مرض شديد أداه إلى الموت ، وأراح الله المسلمين منه .

وذكر في سبب هلاكه أنه لما عبرت جموعه^(٣) النهر ازدحموا والتطم الموج بهم ، واقتحموا ، فطلب الملك موضعا يعبر فيه وحده ، فدخل في مخاضة قوية بالحرية فاختطفه سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو في آحر رمق ، فهلك عن قرب .

(١) الأصل ، . تقفوا بمن بلاده بما أرادوا من العدة الأزواد » وهي جملة مضطربة المعنى وما بين الحاصرتين نص من وهو أصح .

(٢) ما بين الحاصرتين عن من (٩٨ ب) .

(٣) الأصل : « جموعهم » والتصحيح عن من .

[ووصل إلى السلطان]^(١) كتاب كاغيلوس الأرمني — صاحب قلعة الروم — وهو للأرمن بمنزلة الخليفة عندنا ، ونسخة كتابه :

« كتاب الداعى المخلص كاغيلوس : مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين^(٢) ، ساطان الإسلام والمسلمين ، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر^(٣) غصبا ، ثم دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه ، وأربعين نفرا من خالصائه^(٤) ، وأخذ منه^(٥) خمسين قنطاراً ذهباً ، وخمسين قنطاراً من فضة ، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً ، واغتصب المراكب ، وعدى بها إلى هذا الجانب ، وصحبتة الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قايج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقى سائراً ثلاثة أيام ، وتركان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والحيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركان وبينهم ، وضايقوه ثلاثة أيام^(٦) وهو سائر .

ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قلع أرسلان العساكر وقصده ، وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين ، وأقام بها خمسة أيام ،

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٩٨٠ ب) ، وبها يتم المعنى .

(٢) الأصل : « الدين والدنيا » ، وما هنا عن س ، وهو أفضل لتم به السبعة التالية .

(٣) الأصل : : « الهنك » ، وما هنا عن س ، وهو الأصح ، والمقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر .

(٤) س : « جلسائه » .

(٥) الأصل : « منهم » وما هنا عن س ، وهو الأصح .

(٦) الأصل ، « ثلاثة وثلاثين يوماً » ، والتصحيح عن س (١٩٩) و (الروضتين ، ج ٢ ،

فطلب قاج أرسلان منه الأمان ، فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل .

وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله بشرح حاله ، وأين قصده ، وما لقي في طريقه ، وأنه لا بد يمتاز بهذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتما ، وصحبه ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه ، وكانت الوصية معهم إلى بلاد قاج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ، وعرفوه الأحوال أبي إلا الانحراف ، [٣٥٧] ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط نهر ، وأكل خبزا ، ونام ساعة ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم في الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما لافون فكان سائرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال فدخل في بعض حصونه ، واحتفى هناك .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه البلاد نصيب ولده الذي هو معه عوضه ، وتأكدت قواعده ، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم ،

وقال :

” إن أبي كان شيئا كبيرا ، وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك ، وعانيت المشاق في هذه الطريق ، فمن أطاعني ^(١) وإلا بدأت بقصد دياره “ .

(١) س ، « فن لم يطعني » .

واستعطف لافون ، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ، وبالجملة هم في عدد كثير ، ولقد أعرض عسكره فكان اثنين وأربعين ألفاً^(١) ، وأما الرجالة فلا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم أجناس متفاوتة ، وخلق غريبة^(٢) ، وهم على قصد عظيم وجد وسياسة هائلة ، حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ، ولقد بلغهم^(٣) عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم ، واقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق كثير منهم ، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرّموا الملاذ^(٤) على أنفسهم ، حتى إن أى من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه ، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس ، ولقد صحّ عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرّموها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب في حال عظيم هذا آخر كتابه .

ولما هلك عدو الله ملك الألمان قام بالملك بعده ولده ، واجتمعت العساكر على طاعته ، ثم سار بهم إلى أنطاكية ، وقد عمّ المرض أكثرهم ، وصار معظمهم حملة عصى وركاب حمير .

ولما وصلوا إلى أنطاكية [٣٥٨] تبرم بهم صاحبها ، وثقلت عليه وطأتهم فحسن لهم قصد بلاد حاب ، فلم يفعلوا ، وطلبوا من صاحب أنطاكية قلعتهم لينقلوا إليها ما معهم من المال والخزائن والثقل ، فأخلاها لهم طمعا في أن يفوز بما ينقلونه

(١) كذا في الأصل ، وفي س (٩٩ ب) : « اثنين وأربعين ألف فارس » ، وفي (ابن شداد : السيرة ، ص ١٠٩) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٥) : « اثنين وأربعين ألف مجفف »

(٢) توجد بعد هذا اللفظ في س الجلة الآتية : « وهذا المعظم بعد ما ذلك منهم خلق مثلهم في طريقةهم » ، ولا توجد هذه الجملة في الأصل المنقول عنه هنا وهو (ابن شداد : السيرة ، ص ١٠٩)

(٣) س : « بلغ ملكهم » .

(٤) الأصل : « البلاد » ، والتصحيح عن ابن شداد وس .

إليها من المال ، وكان الأمر على ما حدس ، فإنهم لما فارقوا أنطاكية لم يعودوا إليها ، وفاز الأبرنس — صاحب أنطاكية — بكل ما صار فيها .

وجاءت فرقة من الألمانية إلى بغراس ، وظنوا أنها بعدُ بأيدي الكفر ، ففتح والى القلعة الباب ، وأخرج أصحابه ، وتسلم ما مع الألمانية من الأموال بصناديقها ، وأسر منهم وقتل كثيرا ، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندُها إلى طريقهم والتقطوهم ، فكان الواحد يأسر جماعة منهم ، ودانوا في الأنفس بعد ما كان قد تُهبوا هيبة عظيمة ، وبيعوا في الأسواق بالثمن البخس .

وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد :

أن ملك الألمان لما توفي وقام ولده مقامه ، مرض مرضا عظيما في بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا ، وأربعون داويا ، وجهاز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ، ومقدمها كند كبير^(١) عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل قهرا ونهباً ، وتكبوا إلى السلطان يخبرون عنهم بالضعف العظيم ، والمرض الشديد ، وقلة الخيل والعدد والآلات .

ولما اتصل خبرهم بالنواب بالبلاد الشامية سيروا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم ، فوقعوا على جمع عظيم منهم قد خرجوا لطلب العلوقة ، فقتلوا وأسروا زهاء عن خمسمائة نفس^(٢) .

قال القاضي بهاء الدين :

ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ، ويقول : "هم عدد كثير ، ولكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة ، وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة" ، قال الحاكي :

(١) الأصل : « قدمها لذكر » والتمحيص عن س (١١٠٠) .

(٢) س : « فارس » .

”ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدتُ مع أحد منهم طارقة^(١) ولا رمحا إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم أياما ، وقلت أزوادنا وأحطابنا ، فأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبجناها وأكلناها“

ومات الكُند الذي وصل [٣٥٩] إلى أنطاكية ، وطمع ابن لاون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك ، لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه .

ولما تحقق السلطان [صلاح الدين] وصول الألمانين إلى بلاد الأرمن ، وقربهم من البلاد الشامية ، شاور أمراءه فيما يصنع ، فوقع الاتفاق على تسيير بعض العساكر إلى طريقهم ، وأن يقيم على منازلة العدو ببقية العساكر ، فكان أول من سار الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر [تقي الدين] ، وكان إقطاعه منبج ، ثم سار عز الدين بن المقدم — صاحب بعين^(٢) وأفامية — ، ثم الملك الأجد — صاحب بعلبك — ، ثم سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيزر — ، ثم الياروقية من عسكر حلب ، ثم عسكر حماة ، ثم سار الملك الأفضل ولد السلطان لمرض عرض له ، وكذا بدر الدين^(٣) — شحنة دمشق — ، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لحفظ ما يليه من البلاد ، ثم سار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدير أمر العدو المجتاز .

ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة ، فأمر السلطان أخاه الملك العادل ، فانتقل إلى منزلة الملك المظفر في طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي بن مودود — صاحب سنجار — في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر مرض شديد ،

(١) راجع ملفات هنا ص ٢٧٩ ، هامش ٣

(٢) س : « بفراس » .

(٣) س : « عز الدين » وما هنا يتفق وابن شداد (السيرة البوصفية ، ص ١١٠) .

فمرض مظفر الدين بن زين الدين — صاحب حران — ، ثم شفى ؛ ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان ، ومرض خالق من الأكابر ، إلا أن المرض كان سليما ، وكان عند العدو مرض عظيم وموتان كثير ، وتقدم السلطان بهدم سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل ، وانتقل أهلها إلى بيروت .

ذكر الواقعة العادلية على عكا

لما علم الفرنج أن عساكر المسلمين قد تفرقت في أطراف البلاد ، وأن ميمنة العسكر قد خفت بسبب من سار منها لأجل حماية البلاد من العدو الواصل ، أجمع رأيهم واتفقت كلمتهم على الخروج من معسكرهم بغتة ، والهجوم على طرف الميمنة بفاة ، فخرجوا ، وقصدوا الميمنة ، وفيها خيم الملك العادل ، فلما نظر الناس لهم صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان ، ونادى مناديه : « يا الإسلام ! » ^(١) وكان أول [٣٦٥] راكب .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

« لقد رأيتُه وقد ركب من خيمته ومعه نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستم ركبهم ، وهو كالفاقة لولدها والشكلى لواحدتها ، ثم ضربت كوساته ^(٢) ، فأجابتها كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس ، ووصل الفرنج إلى خيم العادل قبل استتمام ركوب العساكر ، ودخلوا في وطاقته ^(٣) ، وأمتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، ووصلوا إلى خيمته

(١) الأصل : « الإسلام » ، وما هنا عن (ابن شداد : السيرة ، ص ١١٢) ، وفي س : « ياال الاسلام »

(٢) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١ ، هامش ٢)

(٣) س : « وطاقه » . والوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية (أوتاق ، أو أوطاق ، أو أوتاغ) . معناه الخيمة ؛ أو مجموعة الخيام ؛ أو المعسكر ؛ أو الفرنجة . أظن : (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

الخاصة ، وأخذوا من الشراب خانا شيثا ، وركب الملك العادل ، وركب معه من يليه من الميمنة ، كالأمير صارم الدين قايماز النجمي ، والأمير عز الدين جرديك النوري ، ووقف بمن معه حتى توغل الفرنج ، وطمعوا في الخيم ، واشتغلوا بالنهب ، وعانت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والأطعمة .

فلما علم [الملك العادل]^(١) اشتغالهم صاح بالناس ، وحمل — رحمه الله — بنفسه ، يقدمه ولده الأكبر شمس الدين مودود ، وهو والد الملك الجواد مظفر الدين يونس ، وحمل لجماته من كان يليه من الميمنة حتى وصل الصباح إلى عسكر الموصل ، فهجموا على العدو ، واشتد القتال ، ووقعت الكسرة على الفرنج ، فولوا على أذبارهم ، منهزمين نحو خيامهم ، وأخذتهم السيوف من كل ناحية ، وصاح صائح السلطان [صلاح الدين]^(٢) :

” يا أبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه ؛ فبادروا إلى إجابته “ .

[فحملت]^(١) حلقته وخاصته ؛ ثم طلب عسكر الموصل ، ومقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، [فتقدموا وتقدم بعدهم]^(٢) عسكر مصر ومقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، وقامت الحرب على ساق ، ولم يك إلا ساعة حتى ردوا^(٢) القوم من حد خيام الملك العادل إلى خيامهم ، ولم ينج من القوم إلا النادر ، وأسر من الفرنج يومئذ نفر يسير ، لأن السلطان أمر ألا يُستبق أحد ، وهذا كله كان في الميمنة ، وفي بعض القلب .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥١) .

(٢) الأصل : « زوى » والتصحيح عن س ، أنظر أيضا : (ابن شداد : السيرة الیوسفية ،

وأما الميسرة فما اتصل الصباح بهم إلا وقد نجز الأمر لبعد ما بين المسافتين ، وكان مبتدأ هذه الواقعة منتصف النهار من يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — أعنى سنة ست وثمانين وخمسمائة — ، [٣٦١] ولم يفقد من المسلمين سوى عشرة أنفس غير معروفين ، ولما شاهد المسلمون بعكا من الأسوار هذه الواقعة خرجوا من البلد ، وجرى مقتلة عظيمة ، وهجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة ، حتى القدور فيها الطعام ، واختلف في عدد القتلى [من الفرنج] ^(١) ، ف قيل عشرة آلاف ، وقيل ثمانية آلاف ، ولم ينقصهم أحد في الحزر عن خمسة ^(٢) آلاف .

قال القاضي بهاء الدين :

” لقينا إنسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعددهم ، فقلت له : كم عددت ؟ فقال : إلى ههنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلًا ، وكان قد عدّ صفين ، وهو في الصف الثالث ، وكانت الصفوف خمسة ، لكن ماضى من الصفوف أكثر عددا من الباقى “ .

وذكر عماد الدين الكاتب :

” أنهم كانوا مفروشين في مدى فرسخ من الأرض ، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض ، وكل صف يزيد على ألف قتيل “ .

وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة ، وسألوا في الصلح .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٠١ ب) .

(٢) س : « سبعة الاف » ، وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٨) .

ذكر قوة الفرنج

بوصول الكُندهرى إليهم وتحويل السلطان إلى الخروبة

لما وقعت هذه الواقعة العظيمة وهنَّ الفرنجُ وخافوا ، فلو أن السلطان عاودهم القتال فيه مرة بعد أخرى لاستأصدهم وأطفأ جمرتهم لكن لما يختاره الله تعالى تهاون بهم ، واشتغل عن قتالهم ، فوصلت إليهم النجد [من البحر] (١) ، وتقووا ، وورد إليهم أضعاف من هلك منهم ، ووصل إليهم كُند عظيم - يعرف بالكُندهرى - قد فرق الأموال واستخدم الرجال ، وأنفق في عشرة آلاف راجل ، وأظهر أنه يريد الخروج إلى لقاء عسكر الإسلام ، فتحول السلطان إلى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة ، ونصب الكُندهرى على عكا منجنيقات عدة ، فأحرقها المسلمون ، وقتل من الفرنج سبعون فارساً ، وأسر عدة معروفون ، ثم نصب منجنيقين آخرين (٢) فأحرقا أول شعبان (٣) ، وأنكبت (٤) فيهم العرب بالسرقة والنهب ، وكذلك من بعكا من المسلمين .

ذكر مكاتبة ملك الروم بقسطنطينية للسلطان بالموودة

وإقامة الخطبة [له] (٤) ببلده

وكان بين السلطان وبين ملك الروم بقسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان قد وصل منه رسول إلى الباب السلطاني - والسلطان [٣٦٢] إذ ذاك بمرج عيون - في جواب رسول كان أنفذه السلطان في تقريره القواعد وإقامة الخطبة في جامع القسطنطينية ، وهو الجامع القديم الذي بُني في عهد بني أمية ، فمضى (٥) الرسول

-
- (١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠٢) . (٢) س : « ثم نصب منجنيقات أخر » .
(٣) الأصل : « وانكب » : والتصحيح عن س . (٤) ما بين الحاصرتين عن س .
(٥) الأصل وس : « فأقام » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠) .

وأقام الخطبة ، ولقى باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان السلطان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعا^(١) من المؤذنين ، وكان يوم دخولهم إلى القسطنطينية يوما مشهودا عظيما من أيام الإسلام ، وكان ثمَّ جمع كثير من المسلمين من التجار ، ورقى الخطيب المنبر وأقام الدعوة الإسلامية العباسية .

ثم عاد رسول السلطان ومعه رسول ملك الروم وبيده كتاب من الملك محتوم بالذهب ، يتضمن إعلام السلطان وتمكينه من إقامة الخطبة ببلده ، واستعطاف السلطان وإظهار مودته ومحبته ، واعتذر إلى السلطان من عبور ملك الألمان ببلاده ، وأنه قد بفع في طريقه بالأمانى ، ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع .

ذكر ما آل إليه حال ابن ملك الألمان وأصحابه

قد ذكرنا نزول الألمانين بأنطاكية ، وأنهم طلبوا من صاحبها قلعة أنطاكية ، لينقلوا إليها خزائنها وذخائرهم ، وأنه أجابهم إلى ذلك طمعا فيها ، ولما كان الخامس والعشرون من رجب من هذه السنة سار ابن ملك الألمان من أنطاكية طالبا عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس ، وكان قد سار إليه المركيس - صاحب صور - من معسكر^(٢) الفرنج لأجل تنقيته ، وكان هو الأصل في استدعاء أهل الكفر إلى هذه الواقعة ، فلما وصل إليه قوى قلبه وبصره بالطريق ، وسلك به الساحل ، وكانت عدة من معه لما وصل إلى طرابلس نحسة آلاف بعد ذلك الجمع العظيم الذي خرج معه من بلاده .

ونزل ابن ملك الألمان في البحر في بعض أصحابه .

(١) الأصل وس : « جمع » والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١١٦) وانظر

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠) (٢) ص (١٠٢ ب) : « بعسكر من الفرنج » .

وسار الباكون على الساحل ، فثارت على ابن ملك الألمان ريح فأهلكت من أصحابه ثلاث مراكب ، ووصل ابن ملك الألمان إلى عكا في جمع قليل في سادس [٣٦٣] رمضان ، فلم يظهر لهم موقع ، ثم هلك ابن ملك الألمان على عكا في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة ، وأطفأ الله جمرته وجمرة أصحابه ، وأبادهم بعد أن كان المسلمون قد يئسوا - لكثرتهم - من بلاد الإسلام ، وتيقنوا أنهم لا طاقة لهم به ، ففعل الله تعالى ما لم يكن في حسابهم .

ذكر الواقعة الكائنة عند وصول ابن ملك الألمان

ولما وصل ابن ملك الألمان رام أن يظهر لمجيئه وقعا ، فركب في الفرنجية فارسها وراجلها وقربوا من تل العياضية ، وعليه خيم الزكية ، والنوبة فيها للولقة الساطانية وعسكر الموصل ، فقابلهم الزك ، وركب السلطان ، وتقدم إلى تل كيسان ، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن جن الظلام ، وكانت الدائرة على الكفار ، فقتل منهم وجرح خلق كثير ، فلم يزل السيف يعمل فيهم وهم هاربون حتى وصلوا إلى مخيمهم ، ولم يقتل من المسلمين ذلك اليوم إلا رجلا ، وجرح جماعة كثيرة .

ذكر دخول الميرة إلى عكا

وكان السلطان قد أعد بيروت بطشة^(١) عظيمة ، وأودعها أربع مائة غرارة قمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاج إليه ، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول البلد منعاه من أن يدخل إليها ميرة ، وكانت حاجة أهل البلد قد اشتدت جدا إلى الطعام ، فركب في تلك البطشة جماعة من المسلمين وتزوا

(١) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٧٧ ، هامش ١

بزى الفريج ، وحاقوا لحام ، ووضعوا الخنازير على سطح البطشة ، وعلقوا الصابان وجاءوا قاصدين إلى البلد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا عليهم واعترضوهم في الحراقات^(١) والشواني ، وقالوا لهم :

” نراكم قاصدين البلد “ واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : ” أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ “ فقالوا : ” لا ، لم نأخذ البلد بعد “ فقالوا : ” نحن نرد القلوع إلى العسكروورانا بطشة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد “ .

وكان وراءهم بطشة أفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة إلى العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، واشتدت البطشة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، واشتد الفرح والسرور بذلك ، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب .

ولما كان العشر الأول [٣٦٤] من شعبان كتب الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو والى البلد — ، والحاجب لؤلؤ — وهو مقدم الأسطول — يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان ، فكتب السلطان ذلك لثلاث^(٢) الأمر ، وقد كان كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث

(١) الحراقة (والجمع : حراقات وحراريق) نوع من السفن الحربية التي استعملها المسلمون في العصور الوسطى ، عرفها صاحب (محيط المحيط) وصاحب (تاج العروس) بأنها سفن بالبصرة فيها مراى نيران يرى بها العدو ، وذكرها (ابن بطي) (قوانين الدواوين) فقال أنها أصغر من الشيني ، وأنها تسير بنحو مائة مجذاف . والنصوص المختلفة تفيد أن هذا النوع من السفن الحربية كان يعمل بكثرة في مياه البحر الأبيض المتوسط وفي نهر النيل إبان الحروب الصليبية . انظر : (المقرئى ، ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ و ٣٥٨) و (البتانوى : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٦٤ ، ص ٨١ — ٨٢) ، وهناك نصوص أخرى تفيد أن هذا اللفظ كان يطلق على نوع من السفن الصغيرة المستعملة للترهة والنقل في مياه نهر دجلة في العصر العباسى . انظر مثلا : (البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر كرد على ، ص ٢٩١) و (دلال الصابى : تاريخ الوزراء ، ص ١٩) وراجع أيضا : (Kindermann ; Schiff im Arabischen. p. 22—23) و (الشيال : معجم السفن الحربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(٢) س (١٠٣ ب) : « شبع » .

بطش مشحونة بالأقوات والميروما يكفى البلد إلى آخر الشتاء ، فأقلعت البطش
الثلاث من الديار المصرية وطابت لها الريح ، ووصلت إلى عكا ليلة النصف من
شعبان ، وقد فئت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم ،
نخرج أياها أسطول العدو يقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل
والناس في تهليل وتكبير وقد كثر فرار رؤوسهم يتهلون إلى الله تعالى بسلامتها ، ولم
يزل القتال بين أسطول العدو وبين البطش إلى العصر من ذلك اليوم ، ووصلت
سالمة ، وكانت ليلة بليال .

ذكر المكتبة إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :

” وقد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت (١) ،
وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار ،
وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامثالاً لأمر
مركيسهم ، وغيره لمعبدهم ، وإحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على
قيامتهم ، لا يطالبون مع شدة الإملاق (٢) مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق
ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش (٣) ويقتحمون الردى
متدرعين للصبر مثبتين الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهم (٤) متبرزات ،

(١) س (١١٠٤) : « واستحبوا الفوت » وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦١) .

(٢) س : « الوقت » وما هنا يتفق ونص العماد : (المرجع السابق) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : « على لهب السراج » ، وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

(٤) الأصل : « بلادهم » والتصحيح عن العماد وس .

وسرن إلى الشام في البحر متجهزات ، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل : [فارس وراجل] ^(١) ورايح ونابل ، والترمت مؤتتهن ، فصودف مركبها بقرب الاسكندرية ، وأخذت برجالها ، وأراح الله من شر احتفالها .

ومنهن ملكة وصلت مع ذلك الجمع ، ذوات المقانع من الفرنج مقنعات دارعات ^(٢) ، يحلن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات ^(٣) ، وقد وجدت في الوقعات [٣٦٥] التي جرت عدة منهن في القتلى ، فما عرفن حتى سلبن .

وأن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعهم ومشاربهم وقال : ” من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محروم لا منكح له ولا مطعم “ . فلاجل هذا يتهافتون على الورد ، ويتهاكون على يومهم الموعود ، وقال لهم : ” إني واصل في الربيع ، جامع على الاستغفار شمل الجميع “ ، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول لله أهل وولد .

فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالهم ولجاجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فانهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتفألون ولا يجتمعون ، ويتسألون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة ، ليعلم أن الإسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بارادة الله محسور مدحور .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص عند العماد (الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٢) ، والنص في س : ” نعمائة فارس ما بين مقاتل ورايح ونابل “ .

(٢) يختلف نص العماد ونص س عما هنا قليلا ، فهو عند العماد : « ومنهن ملكة وصلت مع ملك الألمان وذوات المقانع من الفرنج مقنعات دارعات » ، وفي س : ” ومنهن ملكة وصلت مع ذلك إلى عسكر الفرنج في ذوات المقانع مقنعات دارعات “ .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، هامش ٢) .

ذكر ما اتخذه العدو من آلات الحصار

واتخذ العدو دبابة عظيمة يدخل تحتها خلق عظيم ، وهي مابسة بصفايح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد [وهي تسمى كبشاتنطح السور بشدة عظيمة] (١) لكثرة من يجرها ، فتهدمه بتكرار نطحها .

واتخذ آلة أخرى ، وهي قبو (٢) وفيه رجال تسحبها ، ورأسها محدد (٣) على شكل السكة التي يحرك بها ، وأما رأس الكبش فمدور ، فهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بجذتها وثقلها ، وتسمى هذه السكة سفودا .

واتخذ أيضا ستائر وسلايم هائلة كبار .

واتخذ في البحر بطشة هائلة ، وفيها برج بخرطوم ، فاذا أريد قلبه عن السور انقلب بحيل هندسية ويبقى طريقا إلى المكان الذي تنقلب عليه ، ليمشى عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه .

(١) النص في الأصل ناقص مضطرب وهو "من حديد شديدة عظيمة" ، وقد صحح إلى ما بين الحاصرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٢٦) وس (١٠٤ ب) ، وانظر أيضا (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) . وهذا شرح واضح لإحدى آلات القتال في تلك العصور ، وهي "الكبش" .

(٢) بعد هذا اللفظ في الأصل جملة زائدة يضطرب بها المعنى لحذفها ، وهي : "وهي كبشا ينطح بها السور" .

(٣) الأصل : "محدد" ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين وس .

ذكر إحراق منجنيقات العدو

ونصب العدو على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور، وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا وخيف على البلد ، فأحرق بعض المسلمين سهمين من سهام الجرخ الكبير حتى صاروا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في اطفائه فلم يقدر على ذلك [٣٦٦] وهبت ريح شديدة ، واشتعل اشتعالا عظيما واتصل لهبه بالآخر فاحترق ، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال في اطفائهما ، فاشتد بذلك فرح المسلمين .

ذكر إحراق ما حوصره به برج الذبان

وتحريق الكيش

ولما كان الثاني والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة ست وثمانين وخمسمائة - قصد العدو محاصرة برج الذبان ، وهو برج في وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا، يحرس منه الميناء، ومتى عبره المركب^(١) أمن غائلة العدو، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه، ويمتنع بذلك دخول شيء من البطش إلى عكا ، فتنقطع الميرة عن البلد ، فجهزوا بطشا متعددة ، وجعلوا على صواري البطش برجا ، وملى حطبا ونفطا ، وقصدوا أن يسيروا البطش ، فاذا قاربت البرج ولا صقته أحرقوا البرج الذي على الصاري ، وألصقوه بالبرج ليلقوه على

(١) الأصل: "ومن غير المراكب" ، وس "ومن عبر المراكب" والتصحيح عن (ابن شداد ،

السيرة اليوسفية ، ص ١٢٣) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

سطحه ، فهلك كل من على البرج (١) من المقاتلة و يأخذونه ، وجعلوا في البطشة وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه .

وعينوا (٢) بطشة ثانية وماؤها حطبا ووقودا ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطش الإسلامية ، ثم يحرقونها ، فتلهب البطش الإسلامية ، ويهلك ما فيها من المير .

وجعلوا في بطشة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا ، وكان طمعهم مشتتدا حيث كان الهوا مسعدا (٣) لهم ، فلما حرقوا البطشة التي أرادوا أن يحرقوا بها بطش المسلمين ، والبرج الذي أرادوا أن يحرقوا به من على البرج ، فأوقدوا النار و ضربوا فيها النفط ، وقدر الله انعكاس الهوا عليهم ، فاشتعلت البطشة التي كان فيها البرج بأسرها ، وهلك كل من كان بها من المقاتلة ، واحترقت البطشة الأخرى التي أريد بها إحراق بطش المسلمين ، ووثب المسلمون فأخذوها إليهم ، وأما البطشة الثالثة التي بها القبو فاضطرب [٣٦٧] من بها وخاف ، ووقع بينهم اختلاف ، فانقلبت بمن فيها وأغرقتهم ، وأذل الله الكافرين ، وأنزل بهم عقوبته .

ولما كان الثالث من شهر رمضان زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى ، فأهملهم أهل البلد حتى نشبت محاليب أطماعهم فيهم ، وسحبوا آلاتهم التي قدمنا ذكرها حتى قاربوا أن ياصقوها بالسور ، وحصل منهم في الخندق جمع عظيم ،

(١) النص في س : " فهلك كل من على برج الذبان الذي قبالة البلد من المقاتلة " .

(٢) كذا في الأصل وس ، وفي ابن شداد والروضتين : " وعبوا " .

(٣) الأصل : " مستعدا " ، والصحيح عن (ابن شداد ، ص ١٢٤) و (الروضتين ، ج ٢ ،

ص ١٦٣) وس (١١٠٥) .

فأطلق أهل البلد عليهم الجروح والمجانيق والنيران ، وفتحوا الأبواب دفعة ، وهجموا على العدو ، وكبسوهم في الخنادق ، فهربوا ، ووقع السيف فيمن بقي على الخندق .

ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، فاحترق حريقا شديدا ، وارتفع لهبه إلى السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، وسرت نار الكبش إلى السفود ، فاحترق حريقا شديدا ، وعلق المسلمون في الكبش كلاب الحديد المصنوعة في الأسل (١) فسحبوها وهو يشتعل حتى حصل عندهم في البلد ، وألقى عليه الماء حتى برد حديده ، وكان وزن ما فيه من الحديد مائة قنطار بالشامى ، ثم سيروا رأسه إلى السلطان لينظره .

وفي السادس عشر من شهر رمضان وصل الخبر إلى السلطان بأن الابرنس — صاحب أنطاكية — أغار على بلاد حلب فخرج إليه نواب الملك الظاهر ، فقتلوا من عسكره خمسة وسبعين نفرا ، وأسر خلق كثير ، فاعتصم بموضع يسمى شبيح حتى اندفعوا ، وسار إلى بلده .

وفي العشر الأوسط من الشهر ، ألفت الرياح بطشتين فيهما رجال ونساء وميرة عظيمة وغنم كثير قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر للمسلمين ببركوس (٢) فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول للبلد ، فكان أخذ هاتين البطشتين جابرا .

(١) كذا في الأصل وفي (الروضتين، ج ٢، ص ١٦٤) ، وفي مس و (ابن شداد) : "السلامل" ،

(٢) الأصل : "بركوس" ، ومس : "بركوس" بدون قط ، والتصحيح ما ذكرناه ، والبركوس — والجمع براكيس — نوع من السفن التي كانت تعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ، وهي أصغر حجما من البطمة ، جاء في (ابن شداد) : السيرة اليوسفية) : "وتألول السلطان : نحن نخوض البحر في براكيس و بطس إلى العدو ، فأذن لهم =

ذكر رحيل السلطان إلى المنزلة المعروفة بشفرعم^(١)

وسبب ذلك أنه بلغه عزم الفرنج على الخروج مرة ثانية لأخذ ثارهم ، وكثر المستأمنون^(٢) عنده ، وتواترت أخبارهم إليه بذلك ، فتأخر إلى هذه المنزلة ، لتكون أفسح للقاء ، فأقام مستعدا لدخول الشتاء ، وذلك في تاسع عشر رمضان .

= في ذلك ، وأعطاهم بركوسا — وهو المركب الصغير — « وجاء في (الروضتين، ج ٢، ص ١٨٧) :
"خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا ، وهو مركب صغير" ، وقد ذكره (ابن ماتي :
قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) — وإن كان الـ"الدكتور موربال قد أخطأ في قراءته وجعله
« مركوش » — ، فقال إنه مركب « لطيف يستعمل لنقل الماء خلفه ، ومعه مائة أردب » ،
غير أن النصوص الكثيرة التي أوردها المراد الأصفهاني في الفتح القسي تبين في وضوح أن البركوس كان
يستعمل لركوب الجنود والناس عامة » ، ويفهم من هذه النصوص أيضا أن حمولة البركوس الواحد
كانت حوالي خمسة وعشرين رجلا ، قال في ص ٢٣١ : « أخذ من الفرنج بركوسان ، فيما
نيف ونحمون قرا . . . وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس فيه من الفرنج مقدون
ورؤوس وهم نيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة » ، وقال في ص ٢٣٠ « وذكروا أنهم وقفوا
بحراقة كبيرة ومعها براكيس ، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس » ؛ وقال في ص ٢٣٨
« كان المستأمنون من الفرنج إلينا تسلوا براكيس يغزون فيها . . . وكنوا كل ما في الكنيسة ، من
الأعلاق النفيسة . . . وعادوا بها وبهم إلى براكيسهم » ، وقد جاء في محيط المحيط « البركوس —
والباركوس — ضرب من السفن بين البريق والفرقاطة ، معرب » وهو مأخوذ من الإبطالية
« Barcoso » ويقابلها بالفرنسية « Barque » وبالانجليزية « Bark » انظر أيضا
« Kindermann : Op. Cit. P.5 » و(والشيال : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(١) الأصل « سفرعم » ، وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها
بأنها قرية كبيرة بينها وبين حكا بساحل الشام ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : « وكثر ذلك » ، والتصحيح عن (الروضتين، ج ٢، ص ١٦٤) و(ص ١١٠٦) .

ذكر وفاة زين الدين - صاحب إربل -

ومرض زين الدين يوسف بن زين الدين [٣٦٨] على كوجك في المعسكر السلطاني ، وكان استأذن في الرواح إلى بلده ، فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى الناصرة ، فأذن له ، فأقام أياما ، ثم توفي - رحمه الله - في الثامن والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة ، وحزن عليه الناس حزنا شديدا لشبابه وغرْبته ، وكان كريما أريحيا ، فاحتاط أخوه مظفر الدين كوكبوري على ما خلفه ، وقبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم .

ذكر استيلاء مظفر الدين على إربل وبلادها

واستيلاء الملك المظفر على ما كان بيد مظفر الدين

ثم طلب مظفر الدين من السلطان أن يضم إربل وبلادها ، وأن يضاف إليه ولاية شهرزور ، وأنه يتزل عن حران والرُّها وسميساط والموزر^(١) ، وخدم بخمسين ألف دينار نقدا ، فأجيب إلى ذلك ، واستهل إلى حين وصول الملك المظفر بجنده ، ليكون في منزلته .

ولما كان يوم الأحد ثالث شوال وصل الملك المظفر ، فأضيف إليه ما استرجع من مظفر الدين من الأعمال ، ثم أمر السلطان أن يكتب منشور بإربل وبلادها لمظفر الدين ، وتُكتب إلى صاحب الموصل ، منه :

” لا شك في إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله تعالى ومقر رحته ، مجاهدا في سبيله ، شاكرا لنعيمته ، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم :

(١) توجد بعد هذا اللفظ في الأصل كلمة : ”رحل“ ولا ضرورة لها ؛ والنص عند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٤) : ”والموزر ، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في الموفر ، ويخدم بخمسين ألف دينار . الخ“ .

« ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ، فما أوجع القلوب بمصابه ، وما أنكى في النفوس أقول (١) شبابه ، ولقد كانت المهمة متوفرة على تربيته وإعلاء درجته ، لكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الآثار (٢) في إيثاره ، وبلى بدره التم بسراره في ضمير البلى من أسرارده ، وهذه إربل من إنعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني منذ سبعين عاما لم يحلوا لعقد إنعامهم بها نظاما ، ولم يزيدوا أحكامه إلا إحكاما وإبراما ، وما رأى أن يخرج هذا الموضع منهم ، وأن يصدف به عنهم ، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقدم في الولاية [٣٦٩] بمقتضى وصية أبيه ، وقد أنهض ليسد مسد أخيه .

ثم سافر مظفر الدين إلى إربل فتسلمها ، ولما فوض السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر ما كان بيد مظفر الدين أقام بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية ، وسيرنوابه إليها ، وكان بيده أعمال مياًفارقين ، ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس وبكرامل .

ذكر استئذان ملوك الأطراف بالرجوع إلى بلادهم لأجل دخول الشتاء

ولما دخل الشتاء وطالت مدة البيكار (٣) ، أبدت العسكر السامة والضيجر من الإقامة ، وجدَّ الملك عماد الدين زنكي بن مودود - صاحب سنجار - في الاستئذان في الرحيل ، وتكررت رقاعه إلى السلطان في ذلك ، فكتب إليه السلطان :

« من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا »

(١) الأصل رس : « وما أنكا في النفوس فلول شبابه » ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥) .

(٢) الأصل : « الإينار » والتصحيح عن المرجع السابق رس .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٩٥ ، هامش ١ .

فلما قرأ هذا البيت لم يراجع السلطان بعدها بكلمة في المعنى .

واستطال معز (١) الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي
— صاحب الجزيرة — المقام ، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان قبل يده ،
وودعه من غير سابقة الاستئذان ، فغضب السلطان من ذلك ، ثم خرج
الدين ، وسار من ساعته وتبعه أصحابه .

وذكر القاضي بهاء الدين :

أن رقاعه كانت قد ترددت إلى السلطان في طلب الدستور ، واعتذر إليه
السلطان بأن رُسلَ العدو متكررة في طاب الصلح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر
حتى تبين على ماذا يفصل الحال من سلم أو حرب .

ولما ودع السلطان وانفصل ، كتب إليه :

”إنك أنت قصدت الانتماء إلى ابتداء ، وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت
الخليفة على نفسك وبلدك من أدلك ، فقبلتك وأوتيتك ونصرتك ، فبسطت
يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك
مراراً ، فلم تنته ، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك فأتيت بعسكر
قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمت هذه المدينة ، [٣٧٠] وقلقت هذا القلق ،
وتحركت بهذه الحركة ، وانصرفت ، من غير طيب نفس ، وغير فصال حال من
العدو ، فانظر لنفسك ، وأبصر من تنتمى إليه غيري ، واحفظ نفسك ممن
يقصدك ، فما بقي إلى جانبك التفات“

وسلم الكتاب إلى نجات فأحرقه قريبا من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار
فلقيه الملك المظفر وهو متوجه إلى السلطان عند عقبة فيق ، فأخبره بأمره ،

(١) الأصل : ”معين الدين“ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥) وس

وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له في الرواح ، ففهم الملك
المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان ، فأمره بالرجوع ، وقال له :

” أنت صبي ، ولا تعلم غائلة هذا الأمر “ فقال :

” ما يمكنني الرجوع “ ، فقال :

” أرجع من غير اختيارك “ .

وكان الملك المظفر شديد البأس ، مقداما في الأمور ليس في عينه من أحد
شيء ، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه ، وسأل السلطان الصفع عنه ففعل ،
وطاب أن يقيم في جوار الملك المظفر خشية على نفسه ، فأذن له ، فأقام في جواره
إلى حين ذهابه .

ذكر خروج الفرنج للقاء المسلمين وعودهم خائبين

ولما كان يوم الاثنين حادي عشر شوال من هذه السنة خرج الفرنج على عزم
اللقاء بعد أن رتبوا على عكا من يلزم القتال مع ملك الألمان ، خرج معهم المركيس ،
والكندهرى ، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام [وزادها] ^(١) ، وكان مخيم اليك على تل
العباضية ، فركبوا وصاروا في مقاتلة العدو ، ونزل الفرنج تلك الليلة على آبار كان المسلمون
قد حفروها ^(٢) عند نزولهم هناك ، وباتوا واليكة يرموهم بالنشاب ، وأصبحوا
يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال سائرين إلى اللقاء ، وقد جعلوا راجلهم سورا لهم يذب
عنه بالزنبورك حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم
كالجراد .

(١) ما بين الحاصرتين في الهامش بالأصل .

(٢) الأصل : ” حورها “ ، والتصحيح عن : س (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨) .

وخيالتهم تسير في وسطهم ، بحيث لا يظهر منهم أحد ، وعامتهم^(١) مرتفع على عجلة ، وهو يسحب بالبغال ، وهو عال جدا كالمنارة ، نحرته بيضاء ملبعة بحمرة على شكل الصلبان .

ورفع السلطان ثقله إلى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمته إلى الجبل وإلى البحر ، وعنده في القلب أولاده : [٣٧١] الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين لاجين ابن أخت السلطان ، وصارم الدين قايمار النجمي ، ثم حسام الدين بشارة وبدر الدين دلدرم الياروق .

وكان في الميمنة ابن صاحب الموصل ، وعز الدين جرديك النوري .

وفي الميسرة صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ، وسيف الدين بن المشطوب ، وخُشْتَرَيْن ، والهكَّارِيَّة ، والحيدية ، والزرزارية ، والمهرانية ، وأمراء قبائل الأكراد^(٢) .

وضرب السلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف ، وكان مخبط الجسم وهو الذي منعه من مباشرة الحرب بنفسه ، وكان عماد الدين — صاحب سنجار — غائبا مع الثقل لمرض كان به ، وبقي عسكره ، فعاد وقد أقلمت الحمى عنه ، وكان الوخم قد عظم جدا بحيث أن الموت كثر في الطائفتين ، فكان السلطان يتمثل :

أقتلوني وما لكأ واقتلوا ما لكأ معي

وفي مرج عكا عين غزيرة الماء ، يجري منه نهر كبير إلى البحر ، وسار الفرنج ذلك اليوم شرقى النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء ، وشاهدوا عساكر المسلمين ، فأنحرفوا

(١) هذا وصف دقيق وطريف للعلم الصليبي .

(٢) بهذا اللفظ تنهى ص (١٠٧ ب) من نسخة س ، وبذلك تنقطع الصلة بين هذه النسخة والأصل لتصل بعد ذلك في ص ٢٨٩ من الأصل ويقابلها ص (١١٢٤) من نسخة س .

إلى غربى النهر ، فأنهض السلطان إليهم الجاليشية ، فأنحنوا فيهم الضرب باللتوت والدبابيس والنشاب والرماح ، وجرى بين الجاليشين من الجانبين قتال كثير ، وباتوا ليلة الأربعاء ، وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث عشر شوال فركبوا ، ووقفوا على صهوات خيولهم إلى ضحوة النهار ، والراجل محقق بهم كالأسوار ، وقد قربت العساكر الإسلامية حتى كادت تخالطهم ، والرمى بالنشاب متصل ، وهم ثابتون لا يتزلزلون ، ولما أحسوا بالعجز والضعف نكصوا على أعقابهم عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر من يسارهم ، والمسلمون حولهم يرمونهم بالنشاب ويقاتلونهم ، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وسيره ، ونزلوا ليلة الخميس على جرد عوف ، وقطعوا الجسر ليلا لئلا يتعدوا المسلمون إليهم .

وقاتل أياز الطويل وسيف الدين باركوج^(١) في هذا اليوم قتالا عظيما ، وأبليا بلاء حسنا ، ثم رجع العدو إلى مخيمه ، ورجع المسلمون إلى مخيمهم ظافرين منصورين ، وأعيد الثقل [٣٧٢] إلى مكانه .

ذكر وقعة الكمين ودخول البديل إلى عكا

[لما] كان يوم الجمعة الثانى والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدة وأمرهم أن يكنوا فى سفح تل هوشمالى عكا بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكنوا تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة ، وساروا نحو الفرنج ، وصالوا عليهم ، وأغاروا ، فاستقبلوهم الفرنج ، فخرج إليهم زهاء أربعائة فارس ، وقيل مائتا فارس ، وطمعوا فى المسلمين ، وتأخروا قليلا قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، وخرجوا عليهم فقتلوهم وأسروهم ، وأستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع فى الأسر مقدمون أكابر ، منهم خازن الملك وجماعة من الأفرنسيسية .

(١) كذا فى الأصل ، وهو فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "يازكوج" .

وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ، ووقف على تل كيسان ، وقد توافقت إليه الأسلاب والأسرى والحيوان ، فلم يعرض للأموال ، وأطلقها لآخذها ، وكانت عظيمة ، وجلس وأحضر الأسرى وبأسطهم وأطعمهم وكساهم ، وأذن لهم أن يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال ، وحفظهم بالقيود .

ودخل الشتاء، وعصفت الأهواء، وهاج البحر، وتكسرت بعض سفن الفرنج، فأنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وربطوا بعضها بصور، فخلا البحر من سراكبهم، وكان أهل البلد قد ملوا وضجروا ، وكانوا زهاء عشرين ألفا ، فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ، ولم يكن ذلك مصلحة ورأيا، بل كان الرأي إراحة غيرهم ، فإنهم قد ذبوا وصبروا ، وهم كنفس واحدة .

وأشير على السلطان بترتيب البدل، وتكفل الملك العادل بذلك ، وانتقل بنجيمه إلى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل ، واجتمع المنتقلون بالساحل ، فمن نبذ أمره انتقل ، وانتقل إلى البلد^(١) من لم يجرب الحصار ولم^(٢) ينخر أمور البلد ، ومن كان بالبلد أبو الهيجاء السمين نخرج ، ولم يبق بالبلد ممن كان به إلا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، ودخل عشرون أميرا عوض ستين ، واستخدمت الرجال ، [٣٧٣] وأنفقت الأموال ، وكان مقدم الداخلين الأمير سيف الدين المشطوب ، وتقدم السلطان إلى كل من دخل أن يستصحب ميرة سنة كاملة .

ودخل إلى ميناء عكا سبع بطش للمسلمين مملوءة ميرة وذخائر ونفقات، وكانت وصلت من مصر ، وكان دخولها إليه يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، وانكسر

(١) يقصد عكا .

(٢) الأصل : "لا" والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء ، وانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقى البطش وأخذ ما فيها .

ولما علم الفرنج انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر زحفوا إلى البلد من جانب البرزخفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وضرب البطش بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع من كان فيها ، وكان فيها ميرة عظيمة ، لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وتالم السلطان لذلك تألما عظيما ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد .

ذكر عود الملوك إلى بلادهم

ولما هجم الشتاء وهاج البحر، وأمنت غائلة العدو بسبب تواتر الأقطار واشتداد البرد أذن السلطان للعساكر في العود إلى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة ، فسار عماد الدين زنكي — صاحب سنجار — خامس عشر^(١) شوال ، ويعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازي — صاحب الجزيرة — بعد أن أنعم عليهما بما لم ينعم به على غيرهما .

ثم سار علاء الدين ابن^(٢) صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما .

ثم سار الملك الظاهر — صاحب حلب — في المحرم سنة سبع وثمانين .

ثم سار الملك المظفر في صفر منها .

ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاص .

(١) كذا في الأصل، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "خامس عشرى"

(٢) الأصل : "علاء الدين وعز الدين صاحب الموصل" وقد صححت بعد مراجعة المرجع السابق .

ذكر بقية الحوادث سنة ست وثمانين

وفي ليلة السابع من ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا ، فانثلم الثغر فبادر الفرنج إليها ، فجاء أهل البلد وسدوها^(١) بصدورهم ، وقاتلوا [٣٧٤] عليها إلى أن بنوها وعادت أقوى مما كانت .

وفي ثاني عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان ، وكُنْدُ عظيم^(٢) من كنودهم ومرض الكندهرى ، وكثر الموت في الفرنج ، فصار يموت كل يوم منهم المائة والمائتان^(٣) ، وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا شديدا ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم يبق لهم خيمة إلا اشتعل فيها النيران والثلاثة .

وأستأمن من الفرنج في هذه المدة خلق عظيم ، أخرجهم الجوع وقالوا للسلطان :
”نحن نخوض البحر في براكيس^(٤) ، ونكسب من العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين“ .

فأذن لهم السلطان في ذلك ، وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغيرة ، فركبوا فيه ، فظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، وأسروهم وكبسوهم^(٥) ، وأحضرهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم جميع ماغنموه ، فلما أكرموا بهذه المكرمة أسلم شطرهم ، وأحضروا مائة فضة وعليها

(١) الأصل : ”وسدوها“ ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨١

(٢) ذكر العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) أن هذا كان يقال له : ”كند بنياط“ .

(٣) الأصل : ”المائتين“ .

(٤) الأصل : ”براكيس“ ، انظرفات هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢ ، وفي السطر التالي بالمتن

تعريف واضح للبركوس .

(٥) الأصل : ”وكبسوهم“ ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢) .

مكبة عالية فضة ، ومعها طبق يماثلها في الوزن ، وذلك تقارب في الوزن قنطارا ،
فما أعارها السلطان طرفه .

واستشهد من الأمراء في هذه السنة على عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار .
والتقى في هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج ، فاحترقت للفرنج شوانى
برجالها ، وأحاطت مراكب العدو بشيبي مقدمه الأمير جمال الدين محمد بن
أرلكن^(١) ، فتواقع ملاحو الشيبى إلى الميناء ، فقاتل جمال الدين وصابر ، فعرضوا
عليه الأمان فقال :

” ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير “ .

بجاء إليه المقدم ، فعانقه ولازمه ، ووقعا معا في البحر ففرقا .

واستشهد أيضا الأمير نصر الحميدى .

وورد في هذه السنة كتاب سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب
— صاحب اليمن — يذكر استيلاءه على صنعاء ، وأنه استتاب بها ولده شمس الدولة .
ووصل في ذى الحجة القاضى الفاضل إلى المعسكر المنصور ، وكانت قد طالت
غيبته عن السلطان مدة سنتين .

ودخات سنة سبع [٣٧٥] وثمانين وخمسمائة والسلطان على شفرعم ، وأخوه
الملك العادل قاطع نهر حيفا^(٢) ، والبديل متصل بالدخول إلى عكا .

وفي أول ربيع الأول من هذه السنة خرج المسلمون من عكا بغنة ، وهجموا
على الفرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا من خيمهم جمعا عظيما ، منهم
اثنا عشرة امرأة .

(١) كذا في الأصل ، وفي المرجع السابق : ” اركرر “ .

(٢) الأصل : ” حتفا “ والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

ذكر وصول العساكر إلى المعسكر السلطاني

ولما أقبل الربيع توافقت العساكر وفاء بموعدها ، فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جنادر - صاحب عزاز وبغراس - ، والملك الأجد بهرام شاه ابن فرخشاه - صاحب بعلبك - ، وبدر الدين مودود - والى دمشق - ، وتواترت الأمراء ففى كل يوم يقدم أمير .

ووصل إلى الفرنج أمداد من البحر ، فوصل ملك افرنسيس فايب^(١) فى عدة كثيرة ، وهو من أعظم ملوكهم ، وكانوا يتواءون به حتى قدم ، وكان الذين قدموا معه فى ست بطش ، وكان العدو يتوهم وصوله فى أضعاف ذلك ، فلما قدموا وعدهم بالمدد بعده ، ثم قدم بعده كند فرير^(٢) ، وكان مقدما عظيما عندهم وكان حاصر حماة وحارم عام الرملة .

ذكر استيلاء نحر الدين أسامة على سفن الانكثير

ولما كان السادس والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة وصل ملك الانكثير ، وهو ملك عظيم من الفرنج إلى قبرص ، واشتغل بسبب أخذها عن الوصول إلى عكا ، وأقام حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت ، فاجتازت على بيروت وبها الأمير عز الدين أسامة ، فاستولى على خمس منها مائة رجالا ونساء وأموالا وخيلا ، وكان فى الزيب - وهو شمالى عكا - طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ، ويقطعون الطريق على الفرنج .

(١) الأصل : " نلبث " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢) الأصل : " فريد " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مضايقة الفرنج بعكا وجدُّهم في حصارها

ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى من هذه السنة زحف الفرنج إلى عكا، ونصبوا عليها سبعة مناجيق، ووصلت كتب أهل عكا إلى السلطان بالاستنفار العظيم وشغل العدو عنهم، فركب السلطان في العساكر، وكان هذا دأب السلطان كلما زحف العدو إلى البلد، وكانت العلامة بينهم [٣٧٦] وبين السلطان أنه متى زحف العدو عليهم دقوا الكوسات^(١)، فتدق كوسات السلطان إجابة لهم.

ذكر تحويل السلطان إلى تل العياضية

ووصول ملك الانكلتير

ولما اشتدت مضايقة البلد، واستبعد السلطان المنزلة التي هو بها، فحول إلى تل العياضية في تاسع جمادى الأولى.

ولما كان الثالث عشر من هذا الشهر وصل ملك الانكلتير من جزيرة قبرص ومعه خمس وعشرون قطعة، هو وأصحابه كلهم شاكون السلاح، فبلى الثغر منه بغير البلاء الأول، ومجانيق العدو مع ذلك توالى الرمي إلى البلد، وتمكن الفرنج من الخندق، وشرعوا في طعمه، ورموا فيه جنث الموتى والخنازير والدواب النافقة، وافترق المسلمون فرقتين: فرقة تلقى من الخندق مرمى فيه، وفرقة تقاتل العدو.

(١) اشرح هذا المصطلح راجع: (مفرج الكروب، ج ١، ص ١١، هامش ٢).

ذكر هلاك بطشة المسلمين الواصلة من بيروت

وكان الساطان قد أمر بتعبئة بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة ، والمير والرجال والمقاتلة ، لتدخل إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها ستائة ونحسين رجلا ، فوصلت إلى عكا في سادس عشر جمادى الأول ، فاعترضها ملك الانكلتير في أربعين شانيا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتد القتال ، فقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا من العدو شانيا كبيرا هلك أصحابه عن آخرهم ، وتكاثر الفرع على أهل البطشة ، وكان مقدم المقاتلة بها رجلا شجاعا يقال له " يعقوب " من أهل حلب ، فلما رأى أمارة الغلبة قال :

" والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطشة شيئا "

فوقع المسلمون في بطشتهم من جوانبها بالمعاول يهدمونها من كل جانب أبوابا ، فامتلاّت ماء ، وغرق كل من بها من المسلمين ، وهلك ما فيها من المير والآلات ، ولم يظفر العدو منها بشيء أصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها ، وأخذوه إلى الشواني من البحر ، وخلصوه من الفرق ومثلوا به ، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، فحزن الناس لذلك حزنا شديدا .

ذكر الدبابة التي صنعها العدو وإحراقها

وصنع العدو دبابة عظيمة هائلة ذات [٣٧٧] أربع طبقات : الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وتركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد خوفا عظيما ، وحدثتهم

نفوسهم بطلب الأمان من العدو، وكانوا قد قربوه من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما شاهد، وواتر أهل البلد رميها بالنفط ليلا ونهارا ، فقدر الله تعالى أنها اشتعلت بالنار ، وارتفعت لها ذؤابة نحو السماء ، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهايل ، وكان ذلك يوم غرق البطشة .

ذكر هجوم المسلمين على خيم العدو

واتفق أن المسلمين يوما هجموا خيم العدو ونهبوها . ووصل رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة والحرب قائمة ، فحمل حملة استشهد فيها في تلك الساعة ، ثم اتفق مرض ملك الانكاثير مرضا أشفى منه على الهلكة ، وجرح الافرنسيس ، وهرب المركيس إلى صور خوفا من الفرنج ، لأنه استشهروا منهم أنهم يأخذون صور منه .

ذكر المكاتبه إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بإنشاء فاضلي منه :
”ما قطع الخادم الخدم ، إلا أنه أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمره ، واستشر شره . فإن الناس مارأوا ولا سمعوا عدوا حاصرا محصورا غامر معمورا^(١) قد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز^(٢) ، وتعوق الفرض^(٣) عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكاتهم الحرب ولفظهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ،

(١) الأصل : ” حاصر محصورا ، عامر معمورا “ ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ،

ص ١٨٥) .

(٢) الأصل : ” الجوايز “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ” القرص “ . والتصحيح عن المرجع السابق .

وأعان أهل النار أهل النار، فاجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة
الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور في الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول
أبي الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث^(١) إلا القراجم

حتى أنه إذا أسر الأسير واستأن من المستأن ، أحتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ،
ينقل واحد عن آخر، ويقول ثان ما يقول أول، وثالث ما يقول ثان ، والأصحاب
كلوا [٣٧٨] وملوا ، وصبروا إلى أن ضجروا ، وتجدوا إلى أن تبدوا ، والعساكر التي
تصل من المكان البعيد لاتصل إلا وقد كلَّ ظهرها ، وقلَّ قرها ، وضاق بالبيكار
صدرها ، لاتستفتح إلا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو
المخدول .

ولهم - خذلهم الله - تنوع في المكيدة ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى
بالمجنقات ، وثالثة بالدبابات ، ورابعة بالكباش ، وأخرى باللوالب ، ويوما
بالنقب ، ولبلا بالسرايات^(٢) ، وطورا بطم الخنادق ، وأناة بنصب السلام ، ودفعة
بالزحوف^(٣) في الليل والنهار ، وحالة في البحر في المراكب .

(١) الأصل : " الحداث " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : " بالسرايات " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥) وعند
(Dozy : Supp. Dict. Arab) أن السربة أو السربة فرقة من الخيالة " troupe de cavaliers " ،
وفي (اللسان) : " السربة جماعة يفتلون من العسكر فيغيرون ويرجعون ، والسربة الجماعة من الخيل
ما بين العشرين إلى الثلاثين ، وقيل ما بين العشرة إلى العشرين " .

(٣) الأصل : " بالزحف " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥)

ثم شرعوا [فأقاموا] (١) في وسط خيامهم حائطا مستطيلا (٢) يشبه السور من التراب ، وتللا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالأخشاب ، وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول فأول ، وترتفع حالا بعد حال ؛ حتى صارت منه كمنصف غلوة سهم ، وقد كان الجمر والنار يؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ، ومنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ، ولا تعمل فيها النار الحامية .

ذكر من وصل من العساكر الإسلامية

وفي آخر جمادى الأولى من هذه السنة وصل مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنجار .

وفي ثانی جمادى الآخرة وصل ابن عز الدين مسعود — صاحب الموصل — في عسكره ، ووصل علم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر الدووي ، وغيرهما من الأمراء الأسيديّة في عساكر مصر .

وكان الملك المظفر تقي الدين لما فارق خدمة عمه السلطان ، وتوجه إلى الشرق لتسلم البلاد التي عينت له ، تعرض لبلاد مجاورة ، فكره السلطان ذلك .

وتأخر عسكر ديار بكر من الحجىء إلى الغزاة ، واعتذروا بالخوف من جوار الملك المظفر فقال السلطان :

“هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت يتعرض لما يفضب الله تعالى ، وإني أخاف عليه في هذه السنة” .

فكان ما سذكروه .

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : “ مستطيا ” ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مراسلة الفرنج للسلطان شغلا للوقت

وكان ملك الانكلتير قد مرض كما ذكرنا ، واشتدت علته ، فاشتغل [٣٧٩] العدو بذلك مدة عن الزحف ، وكان ذلك خيرا من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف إلى الغاية ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة ، ثم تمائل ملك الانكلتير من مرضه ، وراسل السلطان وطلب الاجتماع به ، ثم فتربعده أياما . ثم جاء رسوله ^(١) يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر، وذكر أنها ضعفت وتغيرت ، وطلب أن يحمل لها دجاجا لتتقوى ، ثم تهدي ، ففهم أنه يحتاج إلى ذلك لنفسه ، لأنه حديث عهد بمرض .

ثم نفذ السلطان يطلب أسيرا مغربيا عنده ، فأطلقه للسلطان .

ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل ذلك إليه .

وغرضه في هذا كله تفتير العزمات وتضييع الوقت على المسلمين ، وهم مع ذلك مشغولون بمحاصرة البلد ، ومواترة رمية بالمناجيق ، فاشتد ضعف أهل البلد ، وأهلكهم التعب والسهر ، لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، والعدو مجتهد في قتالهم ومضايقتهم ، وقد افرقوا فرقا تقتاتلهم كل فرقة نوبة ، فبلغ ذلك السلطان فصعب عليه .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

ولما كان يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ركب السلطان في العساكر الإسلامية ، وقصد الفرنج ، وزحف على خنادقهم حتى دخل فيها

(١) الأصل : "رسولا" ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٦) .

العسكر ، وهو - رحمه الله - كالوالهة الثكلى ، يسير من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، وينادى "بالإسلام" ، وعيناه تذر فان الدموع ، ولم يطعم هو ولا الناس في ذلك اليوم طعاما ، وإنما شرب شيئا أشار به الطيب ، ثم عاد إلى مخيمه لما هجم الليل ، ثم ركب سحرا في العساكر ، فأصبحوا على ما أمسوا عليه .

ووصلت مطالعة من البلد يجبرون بعجزهم عن مقاومة العدو وأنهم ضعفوا غاية ليس بعدها إلا التسليم ، ويقولون :

"نحن في الغد نسلم البلد ونطلب الأمان إن لم تعملوا معنا شيئا ، ونشترى مجرد رقابنا" .

وكان هذا أنكى خبر ورد على المسلمين ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، فرأى السلطان - رحمه الله - مهاجمة العدو ، فلم يساعده العسكر ، فإن الرجالة من [٣٨٠] الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك^(١) والنشاب^(٢) من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذب ، فحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرمى بها على المسلمين ، فوقع فيه زهاء عن خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ، ولم يمنعه ذلك عما هو بصدد من الذب ، حتى ضربه زراق بنقط فأحرقه .

ولم تزل الحرب قائمة إلى الليل ، وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فثأروها ، ونقبوا سور البساط وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنة من الباشورة ، فدخل العدو إليها وقتل منهم فيها زهاء عن مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : "لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية" ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية .

(١) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٦٢ ، هامش ١

وفي الغد ناداهم الفرنج :
”احفظوا الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم“ .

فقالوا :
”قد قتلناهم“ .

فخزنوا الفرنج ، وبطلوا الزحف ثلاثة أيام .

ونخرج الأمير سيف الدين المشطوب بأمان إلى ملك الافرنسيس وقال له :
”إنا قد أخذنا منكم بلادا عدة ، وكنا نهدم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إذا
سألونا الأمان أعطيناهم ، وحملناهم إلى ما منهم ، وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد
وتعطينا الأمان على أنفسنا“ .

فقال :
» أرى فيكم رأي « .

فأغلظ له سيف الدين القول وانصرف عنه .

ولما دخل سيف الدين بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد ، فأخذوا لهم
بركوسا^(١) ، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الإسلامي ، منهم : عز الدين أرسل ،
وحسام الدين تمر تاش بن الجاولي ، وسنقر الوشاق الأسدی ، [فأما أرسل وسنقر]^(٢)
فتغيبا خوفا من السلطان ، وأما ابن الجاولي فظفر به^(٣) ، فرمى في الزرد خاناه^(٤) ،
فقطع السلطان إقطاعه وبغره^(٥) عليهم .

(١) الأصل ، ”تركوسا“ ، انظر ما فات هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) :

(٣) الأصل ، ”نظفربا بن الجاولي فرمى“ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) معنى هذا اللفظ أصلا خزانة الزرد أو خزانة السلاح بوجه عام ، ولكنها هنا تعني نوعا من

السجون يسجن فيه كبار الأمراء أو عليا القوم ، راجع أيضا (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٥) كذا بالأصل ولا يتفق بها المعنى ، والنص في الروضتين : ”فأقطع السلطان إقطاعه وقطعها ،

وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها ومنعها“ .

وهرب أيضا عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية [الناصرية] (١) فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه بالعود ، فعاد في ليلته ، وأسر [بعد ذلك] (١) واستفكه السلطان بثمانمائة دينار .

وركب السلطان يوم الخميس [٣٨١] تاسع جمادى الآخرة مشعرا أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحي وآلات طم الخندق ، فمساعدته العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا : " نخاطر بالإسلام كله " .

وخرج رسل من ملك الانكثير ثلاثة ، وطلبوا فاكهة وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاستبارية يخرج من الغد يتحدث ويتحدثون معه في الصلح ، فأكرمهم السلطان ، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه ، وعادوا إلى معسكرهم .

وتقدم السلطان إلى الأمير صارم الدين قايماز النجمي أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم ، فترجل جماعة من الأكراد من أمرائهم ولقيفهم ، كالجناح أنحى سيف الدين المشطوب ، [وزحفوا] (١) حتى بلغوا أسوار الافرنج ، ونصب قايماز النجمي علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار .

ووصل في هذا اليوم عز الدين جرديك النورى والزحف قائم ، فترجل هو وجماعته ، وقاتل قتالا شديدا ، وبات ليلة الجمعة على ظهور الخيل .

وعلم السلطان أنه لاسلامه لعكا ، فانفذ إليهم جماعة سرا ، وقال لهم :

" خنوا حذرکم من العدو ، واتفقوا وخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة ، وسيروا على جانب البحر ، واتركوا البلد بما فيه " .

فشرعوا في ذلك ، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ، وظهر سرهم ، فلم يتم لهم هذا الأمر ، وحرس الفرنج مائر الجوانب .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة جاءت رسل الفرنج إلى السلطان ، ومنهم صاحب صيدا يطلب نجيب الدين العدل ، وكان مؤهلا للرسالة بين السلطان وبينهم ، وعزل السلطان في سماع الرسالة على ولده الملك الأفضل وأخيه الملك العادل ، وتردد العدل مرارا بينهم وبين السلطان فلم ينفصل بينهم أمر ، وبذل لهم السلطان عكا على ما فيها دون من فيها ، على أن يطلق لهم أسرى بعدتهم .

وذكر عماد الدين الكاتب :

أن ذلك كان يوم السبت ، واشترط الفرنج إعادة جميع البلاد ، وإطلاق جميع أسراهم .

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها :

”إنا قد تبايعنا على الموت ، فلإياكم أن تخضعوا للعدو وتنبؤوا لهم ، فإننا نحن قد فات أمرنا“ .

[٣٨٢] ووصل الأمير سابق الدين بن الداية - صاحب شير - ، وبدر الدين دلدرم - صاحب تل باشر - ، ومعه خلق كثير من التركمان ، وكان السلطان أنفذ إليه ذهبا لينفقه فيهم .

ووصل الملك المجاهد - صاحب حمص - ، واشتد ضعف البلد ، وكثرت ثور سوره ، فبنوا عوض التلمة^(١) سورا من داخلها .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام ومعه كتب فيها :
”أن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم ، وأنهم قد صالحوا الفرنج على أنهم يسلمون إليهم البلد بما فيه من الآلات

(١) الأصل : ” التلمة “ ، والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ص ١٨٨) .

والعدد والمراكب ؛ ومائتي ألف دينار ، ونحسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ؛ وضمنوا للمركيس - وكان قد استرضاه الفرنج - وأوعده بعشرة آلاف دينار ، لأنه المتوسط بينهم وبين أهل البلد ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار " واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في إنكار ذلك عليهم ، فهو في مثل هذا الحال وقد جمع أمراءه وأصحابه للمشورة ، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصابانهم وشعارهم على أسوار البلد ، وذلك ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، وانحصر كلام أهل الإيمان في تلاوة : " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، وارتفع البكاء والمويل في عسكر الإسلام .

ودخل المركيس - لعنه الله - البلد ، ومعه أربعة أعلام للملوك ، فنصب علما على القاعة ، وعلما على مئذنة الجامع ، وعلما على برج الداوية ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الإسلام ، وحيز [المسلمون] ^(١) إلى بعض أطراف البلد .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - :

ومثلت بخدمة السلطان عشية ذلك اليوم ، وهو أشد حالة من الوالهة الثكلي الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما استقبله [٣٨٣] من الأجر في معنى البلاد الساجية والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الأمر على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق غرض في المضايقة ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التي كان عليها أولا بشفرعم ، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا

(١) ما بين الحاصرتين عن الهاد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، وانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح .
فاشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل
إلى الثقل^(١) ، ووصل إلى السلطان ثلاثة نفر ومعهم أقوش - حاجب^(٢)
بهاء الدين قراقوش - مستنجزين ما وقع عابه عقد الصلح من المال والأسرى ،
وأقاموا تلك الليلة ، وساروا إلى دمشق ينتظرون الأسرى .

ذكر مراسلة السلطان لملك المغرب

وكان السلطان قد راسل المنصور أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن
عبد المؤمن الخليفة بالمغرب مستنجدا به على عدو الدين^(٣) ، وكان الرسول إليه
شمس الدولة بن منقذ ، فلما ملك العدو عكا وجرى ما ذكرناه كتب السلطان
إلى شمس الدولة بالانشاء الفاضلي يستحثه على العود بالنجدة ، ويعرفه الواقعة ،
ومنه :

” لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفا^(٤) ،
قولا لا يطرقه التسمح ، بل بحرزه^(٥) التصريح ، فأنبرى في هذه السنة ملكا افرنسييس

(١) الأصل : ” الحقل ” ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

(٢) الأصل : ” صاحب ” ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) توجد نصوص كثيرة من الرسائل المرسلة من صلاح الدين إلى السلطان أبي يوسف ، وإلى رسوله
إليه شمس الدولة بن منقذ في : (صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٠) و (الروضتين ، ج ٢
ص ١٧٠ - ١٧٨) فراجعها هناك ، وفي قسم الملاحق بآخر هذا الجزء .

(٤) الأصل : ” ألف ” ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

(٥) الأصل : ” لا بطنه التسمح بل تحريره التصريح ” ، والتصحيح عن المرجع السابق .

وانكثير وملوك آخرون في مراكب بحرية، وحمالة^(١) حملوا فيها الخيول والخيالة،
والمقاتلة والآلة، ووصلت كل سفينة تحمل مدينة، وأحدثت بالثغر، ومنعت
الناقل بالسلح إليه، والداخل بالميرة عليه.

فصل : وأخذوا البلد على سلم كالحرب، ودخله العدو، ولو لم يدخل من الباب
لدخل من النقب، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا ولا رجعنا
ورانا، ولا انصرفنا، بل نحن في مكاننا ننتظر أن يبارزوا فنبارزهم^(٢)، أو يخرجوا
فنتأجرهم، أو ينتشروا فنطويهم، أو ينبثوا فنزويهم، وأقنا على طرفهم، رخيما
على مخنقهم، وأخذنا بأطراف^(٣) خندقهم، [٣٨٤] وأحوج ما كنا الآن إلى النجدة
البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا بها ترد، وعاديتنا بها تشتد.

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة
مقام خطيبه، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السهم ويسبق بشرى
الإصابة، ويشعر بأن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه، فإن للإسلام نظرات
إلى الأفق الغربي يقلبها^(٤)، وخطرات من اللطف الخفي يقربها، ويكفي من
حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرق غربا، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة
لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا.

(١) راجع ما فات هنا ص ١٣، هامش ٢

(٢) الأصل : " فبرز إليهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٩

(٣) الأصل : " طراز خندقهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : " قلبها " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر ما جرى عليه الحال في أمر أسارى المسلمين

وما تجدد من حوادث

لما تسلم الفرنج عكا لم يقفوا على الشروط التي اشترطوها المسلمون ، فاحتاطوا عليهم ومنعواهم من الخروج ، ثم أخذوا أموالهم وحبسواهم ، وعزم ملك افرنسيس على المسير إلى بلاده لأمر اختل عليه ، فأخذ قسما من الأسارى ، وسلمهم إلى المركيس ، ووكله في قبض نصيبه .

وخرج الفرنج يوم الخميس ساخ جمادى الآخرة من جانب البحر ، وانتشروا بالمرج ، ووصلوا إلى الآبار التي حفرها اليزك ، وتواقعوا مع اليزك ، وأمدهم السلطان ، فكسرهم المسلمون ، وألحقوهم بخنادقهم ، ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان وبينهم إلى يوم الجمعة تاسع رجب ، فخرج حسام الدين حسين بن تازيك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الانكار ، فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور ، وذكروا شيئا من أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليوت ، وأنه هل هو في العسكر أو حمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصليوت ، فشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا خدودهم على التراب ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون ما أوقع عليه القرار أن يدفع في نجوم ثلاث ، كل نجم في شهر .

ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك النجم [٣٨٥] وهو: الصليب ومائة ألف دينار، وستمائة أسير، وأنفذوا ثقاتهم^(١) ، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى النجم الأول في ثامن عشر رجب .

(١) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد - الأصل المقبول عنه هنا - : "قباهم" .

ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطابون ذلك ، فقال لهم السلطان :
«إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتسلموا الذي عيّن لكم في ذلك النجم ،
ونعطيكم رهائن على الباقي تصل إليكم في نجومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن
على مانسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا» .

فقالوا :

«لأنفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا النجم ، وتقنعون بأماننا
حتى نسلم إليكم أصحابكم» .

فأبى السلطان ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلموا الصليب والأسرى وأصحابنا عندهم
يؤمن غدرهم ، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم مبرزين
في الحادى والعشرين من رجب .

ونخرج الانكثير وجماعة من الخيالة والتركيبي^(١) ، وركبوا في وقت العصر
السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل
العياضية ، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من أراد الله تعالى شهادته^(٢) ،
ووقفهم وحملوا عليهم فقتلوهم صبوا ، واليزك الإسلامى يشاهدهم ولا يعلمون
ما يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب
القوم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه ، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ،
وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها جروح كثيرة وقتل من الجانبين .

وأصبح المسلمون فوجدوا المسلمين الشهداء في مواضعهم صرعى ، وعرفوا
من عرفوا منهم ، ولم يبق العدو من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدما ، أوقويا له
يد للعمل في عمائرهم ، وتصرف السلطان في المال ، وأعاد الاسارى إلى أربابها .

(١) الأصل : «التوكيل» ، وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩) ،

ولشرح اللفظ راجع ما فات هنا ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) بعد هذا اللفظ في الروضتين : «وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الجبال» .

ذكر رحيل المسلمين والفرنج نحو عسقلان

والحرب التي جرت بينهم

ولما استهل شعبان من هذه السنة [٣٨٦] أصبح الفرنج سائرين نحو عسقلان ، وسار السلطان في الجيوش الإسلامية في عراضهم يقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ، وكلما أتى السلطان منهم بأسير أمر بقتله ، ووصل الفرنج إلى حيفا فأقاموا بها ، ونزل السلطان بالقيمون ، وقدم السلطان ثقله إلى مجدليابة ، وأضحى نازلا على النهر الجاري إلى قيسارية ، وودعه القاضي الفاضل ، وسار إلى دمشق ليقوم بها مقام السلطان في تنفيذ الأمور .

وفي تاسع شعبان وصل الخبر إلى السلطان بأن الفرنج قد ركبوا وساروا بفارسهم وراجلهم في الساحل ، ومراكبهم تحاذيهم ، ورجالتهم مستديرون حولهم كالسور ، عليهم الكبور^(١) النخينة ، والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزنبورك^(٢) فيجرحون خيول المسلمين .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

” لقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشاب والعشرة مفروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ، لا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء وأثنخهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمال ، هذا والخيلة في وسط الرجالة لا يخرجون عنهم إلا وقت

(١) الكبور — واجمع كبور — نوع من التباء الذي يتخذ للرب ، جاء في (اللسان) : ” القردمان ” فباء محشو يتخذ للرب ، فارسي مرب ، يقال له ” كبر ” بالرومية أو النبطية . انظر أيضا : (الجواليقي : العرب ، ص ٢٥٢) .

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

الحملة لا غير ، وقد اقساموا ثلاثة أقسام : الملك العتيق جفرى ، وجماعة الساحلية معه^(١) في المقدمة ، والانكليز والافرنسيه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة ؛ ورج القوم في وسطهم كالمنارة^(٢) العظيمة على عجلة .

وسار السلطان في جيوشه^(٣) ، وسوق الحرب قائمة بين الفريقين ، والمسلمون يرمون من جوانبهم بالنشاب ، وهم يسرون سيرا رفيقا ، إلى أن أتوا المنزل فزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أنقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم ، وطاف الجاليش^(٤) حولهم ولزؤهم بالنشاب ، وكما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون [٣٨٧] يرمونهم من ثلاثة جوانب .

قال القاضي :

ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه إلا صبيين بجنينين لا غير ، وهو يسير من طلب إلى طلب^(٥) يحتمهم على التقدمة ، ويأمرهم بمضايقه القوم ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تخرج المسلمين وخيالهم بالزنبورك^(٦) والنشاب ، إلى أن أتوا نهر القصب فزلوا عليه وقت الظهر ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، وكان قتل في ذلك

(١) الأصل : "معهم" ، والتصحيح عن : (الروضيين ، ج ٢ ، ص ١٩٠)

(٢) النص في الروضتين : "وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعليهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة"

(٣) بعد هذا اللفظ في الأصل كلتا : "سارواهم" ، ولا ضرورة لها فحذفناهما .

(٤) راجع ما فات هنا ، ص ٤١ ، هامش ١

(٥) راجع ما فات هنا ، ص ٥٩ ، هامش ٣

(٦) راجع ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

اليوم أياز الطويل من ممالك السلطان ، وكان من المشهورين بالبأس والشجاعة ، وسبب قتله أن فرسه تقنطربه فاستشهد ، ودفن على تل هناك ، وقتل عليه مملوك له .

ونزل السلطان بالثقل على البركة ، ثم رحل بعد العصر ، فنزل على نهر القصب أيضا ، فكان المسلمون يشربون من أعلاه ، والفرنج يشربون من أسفله ، وبينهم مسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك .

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف ، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب ، فطلب ملك الانكثير الاجتماع بالملك العادل خلوة ، فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : "أنه قد طال بيننا القتال ، ونحن جئنا في نصره أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه .

فقال الملك العادل :

"على ماذا يكون الصلح ؟"

فقال :

"على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذتم من البلاد"

فأبى الملك العادل ذلك ، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل ، فرجع مغضبا .

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان تاهب المسلمون للقاء الفرنج ، وأزعجهم وضايقوهم ، فلما رأى الفرنج منازل بهم من الضائقة اجتمعوا وحملوا حملة واحدة .

قال القاضي بهاء الدين :

لقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة ، وأخذوا رماحهم ، وصاحوا صيحة واحدة ، وفرج لهم رجالتهم ، فحملوا من جميع الجوانب ، فانكشف المسلمون من بين أيديهم ، ولم يبق في طُلب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلاً^(١) ، والأعلام باقية ، والكوسات^(٢) تدق لا تفتقر ، فلما رأى السلطان [٣٨٨] ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طُلبه ، فوقف فيه والناس يفرون من القتال ، وكلمنا رأى فاراً^(٣) من الحرب يحضره عنده ، فاجتمع في الطُلب خلق عظيم ، ووقف العدو في مقابلتهم على رؤوس التلول والروابي ، وخاف العدو أن يكون في الشعرا كمين ، وكان يومئذ مع السلطان صارم الدين قايماز النجمي وعسكر الموصل ، فندبهم السلطان لقتال العدو ، وركب العساكر على العدو ، وجرت بهم مقتلة عظيمة ، وقتل من العدو كند عظيم ، وقاتل دون جماعة من مقدميهم فما قتل حتى قتلوا ، والتجأ العدو إلى جدران أرسوف ، ولولا ذلك لاستأصاوا .

وجلس السلطان ينتظر عود الناس ، وأحضرت إليه الجرحى ، فتقدم بمداواتهم ، وجرح من الطائفتين جمع كثير ، وصدم يومئذ الملك الأفضل نور الدين ولد السلطان ، وانفتح دمل كان في وجهه ، وسال منه دم كثير ، وأحضر بين يدي السلطان ، وأخذ من أسرى الفرنج أسيراً فضرب عنقه .

(١) الأصل : « سبعون رجلاً مقاتلاً » ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ١٧٦) .

(٢) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ ، هامش ٢) .

(٣) الأصل : « فار » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول السلطان إلى عسقلان وتخريبه لها

ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، ورحل منه ليلا وأصبح على تبنّي ، ثم رحل منها إلى عسقلان بعد العصر ، وكان لما نزل أحضر أخاه الملك العادل وأكابر الأمراء ، وشاورهم في تخريب عسقلان ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بتخريبها للعجز عن حفظها، ووافقت الجماعة على ذلك ، وقالوا :
« هذه يافا قد نزل العدو بها ، وهي مدينة متوسطة بين عسقلان والقدس ، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا ، فاعمد إلى أشرفهما فخصمه » .

فاقتضت الآراء إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحوّل العدو كانوا منه على علم .

ولما نزل السلطان بعسقلان وعزم على خرابها اهتم لذلك وكثر حزته .

قال القاضي بهاء الدين :

« ما نام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً ، وكنت قد فارقت بعد مضي نصف الليل ، فحضرت ، وبدأنا الحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل ، وشاوره في ذلك ، وطال الحديث ، ولقد قال - رحمه الله - : والله لئن أفقد أولادي بأسرهم أحبّ إلى من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله تعالى [٣٨٩] بذلك ^(١) وعرفته بحفظ مصلحة المسلمين طريقا ، فكيف امتنع ^(٢) ؟ » .

ثم شرع في خرابها ، ووضع أبراجها على الأمراء ، ووقع الناس في الضجيج والبكاء ، وكان بلدا خفيفا ، محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا في سكناه ،

(١) النص عند ابن شداد في : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) : « وعبه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف أصنع » .

وكان هو وولده الملك الأفضل يحثان الناس على الخراب خشية^(١) أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خراب البلد ، ولم يزل الخراب والحريق يعمل في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان .

ووصل كتاب من عز الدين جرديك يذكر أن القوم تفسحوا ، وصاروا يخرجون من يافا ، ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم ، فعزم على الرحيل على أن يترك في عسقلان حجارين ، ومعهم خيل تمهيم^(٢) ويستنضمونهم^(٣) في الخراب ، ثم رأى أن يتأخر حتى تخرب ويحرق البرج [المعروف]^(٤) بالاسبتار ، وكان برجا عظيما ، فخر به بعد حشوه وإحراقه .

وعمر الفرنج يافا ، وحصنوا أسوارها .

ذكر رحيل السلطان عن عسقلان إلى جهة الفرنج

وما جرى بينه وبينهم من الحرب والمراسلة

ثم رحل السلطان عن عسقلان بعد خرابها يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على تبنى^(٥) ، ثم نزل على الرملة يوم الأربعاء ثالث رمضان ، وأمر بتخريب

(١) بهذا اللفظ تبدأ ص (١١٢٤) من نسخة م ، وبذلك تلتقى مع النسخة الأصلية مرة أخرى .

(٢) الأصل : « تحتهم » ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٣) الأصل : « ليستقصوا » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن م و (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٥) الأصل : « يتنا » و « يتنا » بدون ققط ، وفي (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) « بتنا »

وقد صححت وضبطت بعد مراجعة : (ياقوت : معجم البلدان) حيث قال إنها بلدة بجوران من

أعمال دمشق .

حصنها ، وتخریب كنيسة لدا^(١) ، وركب جريدة إلى البيت المقدس ، فاتاه يوم الخميس وخرج منه يوم الإثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة ، وعاد إلى النخيم يوم الثلاثاء تاسع رمضان .

ووصل معز^(٢) الدين قيصر شاه بن قاچ أرسلان - سلطان الروم - مستنصرا بالسلطان على أبيه وإخوته ، فإنهم قصدوا أخذ بلده منه ، وكان بيده ملطية ، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ، وتزوج ابنة الملك العادل على صداق مائة ألف دينار ، ثم سار مستهل ذي القعدة من هذه السنة^(٣) .

في ثامن^(٤) رمضان خرج جمع من المسلمين على ملك الانكليز ، وكان خرج في فوارسه مخفرا للحطابة والحشاشة ، وكاد يؤخذ الملك ، لكن فداه أحد خواصه بأن أظهر حسن لباسه ، نظن أنه الملك فأسر^(٥) .

وفي ثاني^(٦) عشر رمضان وقعت وقعة بين المسلمين والفرنج كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدم كبير من الفرنج ، ووقعت وقعات كثيرة بينهم وبين اليك [٣٩٠] ، ثم رحل السلطان إلى النظرون ، نفيم على تل هناك ، فأمر بهدم حصن النظرون ، فهدم .

-
- (١) الأصل : "له" وس : "ذا" ، وما هنا عن العماد (المرجع السابق) و (ابن شداد ، ص ١٨٢) .
- (٢) الأصل : « نصر » ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٨٢) و (الروضتين ، ج ٨ ص ١٩٢) .
- (٣) بعد هذا اللفظ في س : "وقد أمن من أخوته وغيرهم لأنه راح معه كتب بتهديد ووهيد وعسكر كثير" .
- (٤) س : "عائز" وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) .
- (٥) بعد هذا اللفظ في س : "ونجا الملك ، فأفداه الملك الانكليز بمائة ألف دينار وهدية من أسارى المسلمين أطلقهم" .
- (٦) س : "وفي ثامن عشر" ، وما هنا يتفق ونص العماد (المرجع السابق) .

ثم راسل ملك الانكلتير الملك العادل راعياً في المسئلة والمصالحة ، ورعم أن له أختاً عزيزة عيه كبيرة القدر . وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم . — وهو صاحب صقلية — توفي عنها ، ورغب في أن يزوجه الملك العادل . يجعل له الحكم في جميع البلاد الساحلية ، ينفذ فيها أمره ، وهو يقطع الداوية الاسبتارية ما أراد من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها قسيسون ورهبان في صحبتها .

فرأى ملك العادل ذلك مصلحة ، وشاور السلطان في ذلك فأجابه إليه ، ونفذ رسوله إلى الانكلتير بالإجابة ، فدخل الفرنج إلى المرأة وخوفوها ، وأعلموها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة ، وفيه عصيان للمسيح وإغضاب له ، فما أجابت ، واعتذر الانكلتير بعد ذلك بعدم موافقتها ، إلا أن يدخل الملك العادل في دينها^(١) .

ووصل رسول المراكيس — صاحب صور — يذكر أنه يصالح بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، وشرط على نفسه مجاهرة الفرنج بالعداوة ، وأنه يقصد عكا ويحاصرهما ويستخلصهما للمسلمين . فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها ومن بصور ، ولما سمع الانكلتير بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المراكيس إليه .

ثم ورد الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية^(٢) .

ثم راسل الانكلتير السلطان :

”أن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ؛

(١) بعد هذا اللفظ في س : ” فصفح الملك العادل عن ذلك الأمر “ ، وبعده في العماد :

(الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) : ” نعرف أنها خديعة كانت من الإنكلتير “ .

(٢) بعد هذا اللفظ في س (١٢٤ ب) : ” فوهن الانكلتير لذلك “ .

والقدس متعبدا ما نزل عنه ولو لم^(١) يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم .

فأرسل السلطان في جوابه :

”القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن تنزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلائكم كان [٣٩١] طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرابة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها“ .

وهرب في تلك المدة شيركودين باخل الكردي ، وهو من جملة الأسارى الذين كانوا بعكا إلى السلطان^(٢) .

ثم ورد الخبر على عزم النهوض من الفرنج ، فسار السلطان من المخيم بالنظرون إلى الرملة في سابع شوال من هذه السنة ، فأقام بها عشرين يوما ، ووجرت وقعت بينه وبين العدو ، منها وقعة في ناحية يازور ، وكان النصر فيها للمسلمين ، ولم يقتل من المسلمين غير ثلاثة ، وكانت ثامن شوال .

وفي سادس عشر شوال وقعت وقعة عظيمة قتل فيها جماعة من الأمراء ، وأسرى فيها فارسان من الفرنج معروفان ، وقتل منهم بها [زهراء عن]^(٣) ستين نفرا ،

(١) الأصل وس : ”والقدس مستعبدا ما ينزل عليه ولم يبق منا واحد“ وهي جملة مضطربة والتصحيح عن الأصل المقول عنه هنا وهو : (ابن شداد : السيرة البوسنية ، ص ١٨٧) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) .

(٢) بعد هذا اللفظ في س : ”وكان من الأمراء الكبار“ .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

وكان وصل الخبر في خامس شوال بأن الأسطول المصرى استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مُسَطَّح^(١) ذكر أن كان فيه نحو مائة نفر ، وما يزيد عليه ، وقتل منهم خلق كثير ، واستبقى منهم أربعة مذكورون .

ولما كان الثامن عشر من شوال اجتمع الملك العادل والانكلتير على طعام ومحادثة ، فطلب الانكلتير منه أن يجتمع بخدمة السلطان ، فامتنع الملك العادل وقال : ” الملوك إذا اجتمعوا تقبح^(٢) بينهم المخاصمة بعد ذلك ، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع “^(٣) .

ذكر رحيل السلطان — رحمه الله — إلى القدس ومقامه به

ولما كان ثالث ذى القعدة رحل الفرنج إلى الرملة ، وأظهروا قصد بيت المقدس ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ثم رحل السلطان إلى القدس بنية المقام [فيه]^(٤) وذلك لسبع بقين من ذى القعدة ، وكان الشتاء قد دخل واتصلت الأمطار ، فوصل إلى القدس ، ونزل بدار الأقساء^(٥) مجاور كنيسة قمامة .

(١) المسطح — واجمع مسطحات — نوع من السفن الحربية الكبيرة ، ويتضح من النص هنا أنها كانت تسع ٥٠٠ راكب أو تزيد ، وقد ذكرها (ابن عماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٤٠) بعد ” الشاندى “ ، وقال : ” ودو فى معناه “ أى أنه شبيه به ، وقد عرفه دوزى (Dozy : Supp. Dict. Arab.) بأنه نوع من السفن ولم يزد ، غير أنه حاول أن يفسر معنى اللفظ فقال إنه يعنى نوعا من السفينة ذات السطح : (sorte de navire, peut-être un navire qui a un pont, un tillac). راجع مخطوطتنا (معجم السفن العربية) .

(٢) الأصل وس : ” اقتنع “ ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س (١٢٥ ب) : ” وكان الملك العادل رجلا عظيما القدر ، وله أولاد جماعة ، منهم : الكامل والمنعظم والأشرف وغيرهم “ .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٥) الأصل : ” دار الاقفاء “ ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) وس (١٢٥ ب) .

وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر ورجال مع أبي الهيجا السمين ،
وتحول الفرنج إلى النظرون . فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية للفرنج
فغنموها ، ووصل إلى القدس الشريف نيف ونمسون أسيرا .

ولما كان يوم عيد الأضحى واقع الأمير سابق الدين بن الداية - صاحب شيزر -
الفرنج فاحتوى على عشرة من مقدميهم قتل وأسرا ، وتسلق الفرنج في الجبال ،
وتركوا خيابهم ، فغنمها المسلمون ، وبقى الفرنج في النظرون كالمحصورين [٣٩٢]
وقطع المسلمون الطريق على تجارهم حتى أخذوا قافلة كبيرة بما فيها ، وما قدروا
على تخليصها ، فرحلوا عائدين إلى الرملة للياتين بقيتا من ذي الحجة .

وفي ذلك اليوم وصل خمسون رجلا من الموصل برسم قطع الصخور من الخندق (١) ،
وشرع السلطان في تحصين (٢) القدس وعمارة أسواره ، وحفر خنادقه ،
وأرسل إلى البلاد في جمع رجال يقومون بهذه الأعمال ، وعمل السلطان فيه بنفسه ،
بنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب

قد ذكرنا توجه الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله - إلى البلاد التي زاده
السلطان [إياحا] (٣) وراء الفرات ، فلما توجه إلى تلك البلاد امتدت يده إلى بلاد غيره ،
فاستولى على السويدا وحاني ، وقصد بلاد خلاط ، وكمر عسكر صاحبها سيف الدين

(١) النص في س أ أكثر وضوحا وهو : " وفي ذلك اليوم وصل من الموصل جماعة كبيرة من
الحجارين برسم قطع الصخور من خندق القدس " .

(٢) الأصل : " تحصين " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) ما بين الحاصرين زيادة عن س .

بكتمر، وتملك معظم البلاد، فاستصرخ سيف الدين بكتمر بالخليفة الناصر لدين الله، فورد كتاب الخليفة إلى السلطان ينكر فيه قصد تقي الدين أخلاط، ويظهر العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين - صاحب إربل -، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل إلى الديوان لبت حال وفصل أمر، فأجابه السلطان :

بأننا لم نأمر تقي الدين بشيء من هذا، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم الخادم إلى مظفر الدين حتى يحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازماً للجهاد، وأما القاضي الفاضل فاعتذر عنه بكثرة الأمراض، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

ثم إن الملك المظفر نازل مدينة ملاز كرد - وهي لبكتمر - وحاصرها وضايقها، ومعه عساكر كثيرة، وكان في صحبته ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر، فاعتري الملك المظفر مرض شديد، وتزايد به إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، وذلك يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من هذه السنة - أعني سنة سبع وثمانين وخمسمائة - فأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن ملاز كرد، وعاد به إلى البلاد التي هي في يده، وعجب الناس من حزمه وثباته. ووصل الملك المنصور بعد ذلك إلى حماة بأمواله وخزائنه [٣٩٣] وأصحابه، ودفنه بظاهر حماة من شماليها، بالتربة المعروفة به، وبني السلطان الملك المنصور إلى جانب التربة مدرسة للشافعية، ورتب لها وقفاً جليلاً.

سيرة الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله -

كان الملك المظفر - رحمه الله - ملكاً شجاعاً جواداً، شديد البأس، عظيم الهمة، ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وشعر حسن قد

ذكرنا بعضه ، فأصيب السلطان بموته ، لأنه كان من أعظم أعوانه على ما يكابد من الشدائد ، غير أنه كان قد تغير قلبه عليه في آخر وقت بسبب اشتغاله بمجارية جيرانه ، وخذلانه له في وقت الحاجة إلى مساعدته على ما هو بصدده من الجهاد .

واتفق أنه في ليلة الجمعة المذكورة أصيب السلطان أيضا بالأمر حسام^(١) الدين محمد ابن عمر بن لاجين ، وهو ابن أخته ، فأصيب في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، وحمل حسام الدين إلى دمشق ، ودفن في التربة الحسامية^(٢) المنسوبة إليه ، من بناء والدته ست الشام بنت أيوب ، وهي المدرسة الشامية^(٣) ظاهر دمشق .

وفي الجمعة التي^(٤) توفى فيها الملك المظفر توفى قاضي بلدة أمين الدين أبو القاسم ابن حبيش ، وذلك حادي عشر شهر رمضان ، وكان أمين الدين هذا رئيسا جوادا عظيم القدر بحماة ، وكان مشهورا عند الملوك .

ذكر استيلاء الملك المنصور ناصر الدين محمد

ابن الملك المظفر تقي الدين على حماة وبلادها

وتملك الملك العادل البلاد الشرقية

لما توفى الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — راسل الملك المنصور عمه السلطان يخبره بأنه قام مقام أبيه فيما كان له من البلاد ، وطلب منه شروطا نسبه السلطان بسببها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب ، وطلب الملك الأفضل

(١) الأصل : « ناصر » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٥)

(٢) راجع ترجمة ست الشام أخت صلاح الدين ، وأخبار التربة والمدرسة في : (النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٣٠٠)

(٣) الأصل : « الذي » والتصحيح عن ص .

من أبيه ما كان بيد الملك المظفر قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، فأجابه الساطان إلى ذلك، ورحل من القدس ثالث صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأطلق له الساطان عشرين ألف دينار، سوى ما أصحبه من الخلع والتشريفات ووصل إلى حلب فاحتفل به أخوه الملك الظاهر صاحبها، وقام بواجب خدمته، وأحضر له مفاتيح البلد، وقدم له مقدمة كثيرة.

ولما سمع الملك [٣٩٤] المنصور بذلك اشتد انزعاجه، وراسل عمه الملك العادل — وهو إذ ذاك بالقدس — ملتجئاً إليه ومحتمياً به، فخطب الملك العادل الساطان في حقه، واستعطفه له، وقال: "أنا أمضى إليه وأحضره"

وكان مقترح الملك المنصور أحد قسمين: إما حران والرها وشميساط وميافارقين، وإما حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقاعة نجم، وأنه يكفل أخوته.

فامتنع الساطان من الإجابة إلى شيء منه، فراجعه الملك العادل مراراً فلم يفعل، وكثرت الشفاعة إليه في معناه فخاف له أولاً على الرها وحران وشميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع التي اقترحها، ويكفل أخوته، ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده، فالتمس الملك العادل خط الساطان، فأبى، وألح عليه، فخرق^(١) نسخة التميمين، وانقطع الحديث، وأخذ من الساطان الفيظ كيف يُخاطب بمثل ذلك في جانب بعض أولاد أولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقرت به القاعدة عليه.

ثم إن الملك العادل التمس من الساطان البلاد التي كانت بيد الملك المظفر تقي الدين أولاً قبل أن يعطى البلاد الجزرية، ثم أعطى البلاد الجزرية عوضاً عنها وآخر ما استقر الأمر عليه أن الملك العادل يتسلم البلاد الشرقية، ويتزل عن كل ماله في الشام ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وعليه في كل

(١) الأصل: «مخرق»، والتصحيح عن (الروائين، ج ٢، ص ١٩٧)

سنة ستة آلاف غرارة [غلة] (١) تحمل للسلطان من الصنات والبلقاء إلى القدس ، واستزاد الملك العادل قلعة جعبر على البلاد الشرقية ، فأجيب إلى ذلك ، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها إليه ، ثم أجاب بعد ذلك (٢) .

وسار الملك العادل من القدس في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وكتب السلطان إلى الملك الأفضل يأمره بالعود إليه ، فعاد منكسر القلب متعتبا ، ووصل إلى دمشق ، ولم يصل إلى خدمة السلطان ؛ فلما (٣) أشد خبر الفرنج سير إليه يطلبه ، فما وسعه التأخير ، فسار إليه يطلبه وصحبه العساكر الواصلة من الشرق ، فلقية السلطان ، وترجل له جبراً لقلبه وتعظيماً له (٤) .

وأما الملك العادل فإنه وصل [٣٩٥] إلى حرّان والرّها، وقرر أمرهما، واستقر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقاعة نجم .

وعاد الملك العادل في آخر جمادى الآخرة إلى خدمة السلطان ، وفي صحبته الملك المنصور [محمد بن تقي الدين] (٥) ، فلقية الملك الظاهر ولد السلطان إني بيت نوبة ، ودخل به على السلطان ، فنهض إليه واعتنقه ، وضبه إلى صدره ، وغشيه بالبكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى ، وبكى الناس لبكائه ساعة ، ثم باسطه ، وسأله عن الطريق ، وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان به ، وأنزله في مقدمة عسكره .

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) بعد هذا اللفظ في س (١٢٧ ب) : "وللك المنصور البلاد الشامية التي كانت بيد والده" .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة في س في هذا الموضع ، وإنما وردت فترة أخرى تؤدي معناها بعد كلمة "قلعة نجم" في السطر التالي ، ونصها : "ثم إن السلطان استدعى بولده الملك الأفضل إلى عده فاستزاه ، وقام له قائماً عند لقياه ، وورعد من البلاد بما هو خير مما أخذ منه من البلاد الشرقية ، ثم خاع عليه خلعة سنية ، وأمره إلى منزله ، وقد طاب قلبه بما وعده" .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

وفي آخر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة توفي علم الدين سليمان بن جندر وهو شيخ الدولة وكبيرها .

وفي هذه السنة في ربيع الأول نازل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل - الجزيرة وبها ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ، وحاصرها ، وكان السبب في ذلك سوء سيرة معز الدين وخروجه عن طاعة عمه عز الدين ، ومساعدة أعدائه عليه ، فإنه انتقل عنه (١) إلى الملوك المجاورين له ما يوحشهم منه ، وبقي محاصرا لها إلى رجب من هذه السنة ، ثم صالحه على قاعدة استقرت (٢) بينهما ، وتحالفوا خرج معز الدين إلى خدمة عمه عز الدين ، واعتذر إليه بأعداء قبلها منه ، ثم رحل عائدا إلى الموصل (٣) . ودخلت سنة ثمان (٤) وثمانين وخمسمائة والساطان مقيم بالقدس ، مجتهد في عمارته .

وفي ثالث المحرم منها رحل الفرنج إلى عسقلان ، ونزلوا بظاهرها ، وأظهروا الاجتهاد في عمارتها ، ورأى ملك الأتراك دخانا على بعد فقصده ، وكان ثم جماعة من الأسدية ، وسيف الدين كوج (٥) ، وعلم الدين قيصر ، فوصل إليهم ، وهم غارون [عمادهمهم ، فوصل الاعمين إليهم] (٦) وقت المغرب ، وكانوا قد نزلوا مفترقين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الأول وواقعه حتى ركب الفريق الآخر ، فدافعوه ، وساقوا ، وقد ربحوا الفرنج أثقالهم ، وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم منهم ، ولم يفقد من المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة ، وفي الله شرها .

(١) س : " عن عمه " .

(٢) الأصل : " استمرت " ، والتصحيح عن س .

(٣) س : " إلى الجزيرة " .

(٤) الأصل : " ثمانية " .

(٥) الأصل : " باركوج " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

(٦) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيا إتمام المعنى ، أضفنا هنا عن المرجع المتول عنه هنا ، وهو العماد الأصفهاني (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

وفي حادى عشر المحرم من هذه السنة كبس الأمير عز الدين جرديك تبنى^(١) على من نزل بها من الفرنج، فأوقع بهم البلاء، وساق منهم اثني^(٢) عشر أسيرا، ومتاعا [٣٩٦] كثيرا، وفي ثاني صفر أغار أيضا على ظاهر عسقلان، وجاء بثلاثين أسيرا^(٣).

وفي الرابع عشر من صفر كنت سرية - مقدمها الأمير فارس الدين ميمون القصرى - عند تبنى^{وهـ} إلى أن عبرت قوافل الفرنج، فساقها بأحمالها وأنقلها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الآخر من هذه السنة وصل الأمير سيف الدين المشطوب، وقد خلاص من الأسر، وقطع الفرنج عليه خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألف دينار، وأعطاهم بالباقي رهائن، فأحسن السلطان ماقاه، وأقطعه نابلس وأعمالها، وكانت قبله خبز الأمير حسام الدين لاجين ابن أخت السلطان.

ذكر مقتل المركيس صاحب صور - لعنه الله -

كان الأسقف بصور أضافه، فأكل عنده وشرب، وكان رجلا من الباطنية قد دخلوا صور، وتنصروا وأظهروا التردب والتعبد، وشكرهما الأقباء والرهبان، وأحبهما المركيس، ولم يكن يصبر عنهما، فلما خرج من دعوة

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلدة بحوران من أعمال دمشق، أنظر أيضا : (Dussaud : Op, Cit, P. 334-335) و (الروضتين، ج ٢، ص ١٩٦)

(٢) س (١٢٨ ب) : " أربعة عشر " ، وما هنا يتفق ونص العباد (المرجع السابق) .

(٣) بعد هذا اللفظ في س : " من الفرنج ، وكان السلطان كلما أتوه بأسير بعد أخذ عكا ضرب عنقه " .

الأسقف وثبا عليه بسكاكينهما فقتلاه ، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، فقال
المركيس - وهو مجروح - : « احملوني إلى الكنيسة » ، فحملوه ، فلما حمل
إليها بصربه ذلك الجارح الهارب ، فجرحه ثانيا ، وعجل الله بروحه إلى النار ،
وقبض على الجارحين ، وبحث عنهما فوجدا من الفداوية الإسماعيلية ،
فسألوهما : « من أمركما بهذا الفعل ؟ » ، فقالا : « ملك الأنكلتير » ، فقتلا شر
قتلة ، ولم يعجب السلطان قتل المركيس ، لأنه كان قد أبدى عداوة الأنكلتير
ومنازعة في الملك .

ولما قتل المركيس جلس مكانه الكندهرى بأمر الأنكلتير ، وتزوج زوجة
المركيس في ليلته ، ودخل بها وهي حامل ، وليس هذا عندهم مانعا من صحة
النكاح . ويكون الولد منسوبا إلى الملكة ، وهذا الكندهرى ابن أخت ملك
افرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك الأنكلتير من أمه^(١) ، وجرى حكمه على افرنج
الساحل ، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسةائة .

وفي التاسع من جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ، ثم خربوها
ورحلوا عنها ، وأسروا من فيها .

وفي رابع عشر نرج المسلمون على الفرنج بـمَجْدَلِيَايَه^(٢) ، وقتلوا [٣٩٧]
منهم كندا كبيرا ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم التطرون ، ثم بيت نوبة ، وأهلبهم^(٣)
المسلمون بالنهب والسلب ، وساطوا^(٤) عليهم ، وكنوا لهم تحت كل رابية .

(١) الأصل : « من أمره » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) وس
(١١٢٩) .

(٢) الأصل : « مجدل بابا » وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر
أنها قرية قرب الرملة ، فيها حصن محكم .

(٣) الأصل : « وأهلبهم » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧) وس .

(٤) الأصل : « وبتطوا » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

وفي أواخر الشهر التقى الجمعان على فرسخين من القدس بمكان يعرف بقلونية^(١) ، ثم رجع العدو ناكصا على عقبيه ، والمسلمون في أثرهم ، يكفون^(٢) لهم ، وينالون منهم^(٣) ، وكان في الزك بدر الدين [دلدوم]^(٤) الياروقي ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا ، فمرت به فوارس ، فاستولى عليهم الكمين ، وما سلم منهم أحد .

ذكر كبس الفرنج للعسكر المصرى

كان العسكر المصرى قد تجهز للضى إلى خدمة السلطان ، فكتب السلطان إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببابيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالفرنج ، ثم سار العسكر طالبا البلاد الشامية ، والفرنج ترقب أخبارهم وتتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو خبر العسكر الواصل والقفل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل ، فأتى تل الصافية ، فبات بها ثم سار .

وبلغ السلطان مسير العدو إلى طريق العسكر المصرى ، فندب الأمير نجر الدين الطنبا العادلى ، وشيخ الدين أسلم^(٤) الناصرى ، حتى يعلموا العسكر ، فالتقيا بهم بالحسى ، وأخبراهم الخبر ، ونزأوا وعرضوا وهم يظنون

(١) الأصل : « علونية » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٢) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧) ، وقد ذكر (ياقوت : معجم البلدان) مدينة بهذا الهم ، ولكنه قال ، إنها بلد بالروم بينه وبين قسطنطينية ستون بريدا ، وهذه غير تلك دون شك .

(٢) مكان هذه الفقرة في س : " يقتلون منهم و يابرون " .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن س (١٢٩ ب) .

(٤) الأصل : " إسلام " ، والتصحيح عن ابن شدادوس .

أن لاحتس للعدو بأرض الحسى ، بجاءهم العدو بغتة ، وكان في جملة العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لأمه ، وطاف الأنكلير حول القفل في صورة عربى ، فرآهم ساكنين قد غابهم النعاس ، فاستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبُفِتَ (١) الناس ، ووقع عليهم (٢) بنجيلة ورجله ، فكان الشجاع الأيد القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه .

وانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب ، وقسم [٣٩٨] استولى عليهم العدو ، فساقهم بجاهم وأحماهم وجميع ما كان معهم .

وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام مثالا من مدة مديدة ، وتبدد الناس في البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكن جمعه من الخيل والجمال والأقمشة ، وسائر صنوف الأموال ؛ وكلف [الانكلير] (٣) الجمالين خدمة الجمال ، وانحربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، ونجا غانما إلى عسكره .

ونجا فلك الدين أخو الملك العادل في معظم العسكر بأنفسهم وماقدروا على حمايته ، وكان عدة من وقع في أسر العدو من المسلمين خمسمائة ، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ، وكان وصول العدو إلى نجيمة سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان يوما عظيما عندهم .

(١) الأصل : "فتعب" والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ٢٠٩) .

(٢) الأصل "منهم" ، وس : "بيهم" ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المنقول

عنه هنا .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ص .

ذكر قصد الفرنج

حصار البيت المقدس وكفاية الله المسلمين شرهم

ولما جرى ما ذكرناه وقوى الفرنج بما حصل لهم من الغنيمة صحَّ عزيمتهم على قصد القدس ، فرتبوا (١) جماعة على لَدَّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة (١) ، وأنفذوا الكندهرى إلى صور وأطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ، ليصعدوا إلى القدس (٢) ، ولما علم السلطان بقصدهم قسم أسوار القدس على الأمراء ، وتقدم إليهم في تهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس ، فأحرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ما يُشرب أصلاً .

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، وحضر الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وسيف الدين المشطوب ، والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

” أمرني السلطان أن أكلهم وأحتمهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قلته : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة — رضى الله عنهم — على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به — صلى الله عليه وسلم — ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف

(١) مكان هذه الفقرة في سر : ” فرتبوا جماعة الذي يقاطعون الطريق على من ينقل الميرة “ وما بالمتن هو الصحيح ، فهو يتفق والأصل المقول عنه وهو ابن شداد ، أنظر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٨) .

(٢) الأصل : ” إلى السلطان “ ، والتصحيح عن المرجع السابق وس (١١٣٠) .

على الموت ، فعمل ببركة هذه النية يندفع العدو ، فاستحسن [الجماعة] (١) ذلك ، ووافقوا [٣٩٩] عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر (٢) ، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، وقال :

” الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومِنَعْتُهُ (٣) ، وأتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرياتهم متعلقة في ذمكم (٤) ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أتم ، فلو لَوَيْتُمْ أَعْتَمَكُمْ - والعياذ بالله - طوى البلاد طوى السجل للكُتُب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أتم الذين تصدقتم لهذا ، وأكلتم [مال] (١) بيت مال المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام “ .

فانتدب (٥) لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال :

« يا مولاي : نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا ، وكبرتنا وعظمتنا وأعطينتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت “ .

فقال الجماعة مثل ما قال ، وانبسخت نفس السلطان بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ، ثم انصرفوا .

(١) ما بين الحاصرتين عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٢١٢)

(٢) الأصل : ” فكر “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ” وشيعته “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : ” ذمتكم “ ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المتداول عنه هنا .

(٥) الأصل : ” فانتدب “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ثم انقضى يوم الخميس^(١) على أشد حال من التأهب والاهتمام حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعنا في خدمته على العادة ، وسهرنا حتى مضى هزيع^(٢) من الليل وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلوة هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف .

قال القاضي بهاء الدين :

فاستدعاني — رحمه الله — وقال لي : ” أعلمت ما الذي تجدد ؟ ”

قلت : ” لا ”

قال :

فإن أبا الهيجا نفذ إلى اليوم ، وقال : إزّه اجتمع عندي الممالك والأمرء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا لامصلحة في ذلك [فإننا نخاف أن نحصر]^(٣) ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، والرأى أنا نلقى مصاف ، فإن قدر الله أنا نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها مدة بغير^(٤) القدس .

وكان — رحمه الله — عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة .

(١) الأصل : ” الجمعة ” والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٢١٢) و(الروضتين ،

ج ٢ ، ص ١٩٨) وس (١٣٠ ب) .

(٢) الأصل : ” ربع ” ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) الأصل : ” بأننا نحصر ” ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) أضيف ما بين الحامرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٢١٣) ،

والنص في س : ” بمضى القدس ” .

قال :

وأقمت تلك الليلة في خدمته إلى الصباح، وهي من الليالي التي أحيها في سبيل الله .
وكان [٤٠٠] مما قالوه له في الرسالة :

”إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد^(١)
لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد“ .

وانفصل الحال على أن يقيم من أهله الملك الأجد مجد الدين - صاحب بعلبك -
وكان - رحمه الله - يحدث نفسه بالمقام ، ثم امتنع من ذلك لما فيه من خطر
على الإسلام ، فلما قارب الصبح أشفقت عليه ، وخاطبته في أن يستريح ساعة
لعل العين تأخذ حظها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فما وصات إلا
والمؤذن قد أذن، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ،
وكنت أصلي الصبح في غالب الأوقات عنده ، فصرت إلى خدمته وهو يجدد
الوضوء ، فصاينا ، ثم قلت له :

” قد وقع لي واقع أعرضه “ .

فأذن فيه ، فقلت :

المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجزت
أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة، وهو أبرك أيام
الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضع نقدر
أن نكون فيه^(٢) في يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث
لا يشعر أنه منك ، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك وتفوض
مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصدق له ، فاعل الله يرحمك ويستجيب
دعائك“ .

(١) الأصل : ” فأكراد “ ، والتصحيح عن المرجع السليم .

(٢) الأصل : ” أن يكون في يومنا “ ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) ٧

وكان - رحمه الله - حسن العقيدة تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بكل انقياد وقبول ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيتُه ساجدا ودموعه تتقاطر على مصلاه - رحمه الله - ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة ، فوصات رقعة من عز الدين جرديك - وكان في اليزك - يقول فيها :

” إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا على ظهر في البر ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم “ .

ولما كان صبيحة السبت - وهو الحادي والعشرون من جمادى الآخرة - وصلت رقعة أخرى تخبر أن الجواسيس رجعوا فأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل [٤٠١] إلى بلادهم ، فذهب الفرنسية إلى الصعود إلى القدس وقالوا :

” إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ، ولا نرجع دونه “ .

وقال الانكليز :

” إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا ، فمن أين نشرب ؟ “

فقالوا له :

” نشرب من ماء نقوع “ (١) - وبينه وبين القدس مقدار فرسخ -

فقال :

” كيف نذهب إلى السقي ؟ “

(١) الأصل : ” نقوع “ ، وما هنا عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ٢١٤) ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) ولم أجد لهذا النهر ذكرا عند باقوت ، وإنما أشار إلى قرية اسمها ” نقوع “ وقال إنها من قرى بيت المقدس ، يضرب بجودة عملها المثل .

فقالوا :

”تنقسم قسمين : قسم يذهب إلى السقي مع الدواب^(١) ، وقسم يبقى على البلد في المنزل^(٢) ، ويكون الشرب في اليوم مرة واحدة“

فقال الانكثير :

إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج^(٣) عسكر البلد على الباقيين ، ويذهب دين النصرانية .

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يفعلونه“ .

فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم المخالفة ، فأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راجعين إلى نحو الرملة ، فاكسين على أعقابهم ، ثم نزلوا الرملة ، وتواتر الخبر بذلك إلى السلطان ، فركب ، وركب الناس معه ، وكان يوم فرح وسرور .

ذكر ما جرى

بين المسلمين والفرنج من المراسلة في معنى الصلح

ثم ورد رسول ملك الانكثير إلى السلطان يقول :

”قد أهلكنا نحن وأتمم ، والأصلح نحقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل أريد المصلحة ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلي ، فالكبش

(١) عند هذا اللفظ تنهى (ص ١٢١ ب) من نسخة س ثم تقطع الصلة بين النسختين بعد ذلك .

(٢) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) : ”اليزك“ .

(٣) الأصل : ”ويذهب“ ، والتصحيح من المرجع السابق .

يتأخر لينطح ، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك
الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك
يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا ، وإن جماعة
من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كفايس فما بنحت عليهم بها ، وأنا أطلب
منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك في المراسلة لما كانت
المراسلة تجرى مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني قرية
أو مزرعة^(١) قبيلتها وقبيلتها .

فاستشار السلطان الأمراء في جوابه ، فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان
قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب ، وعلاهم [٤٠٢] من الديون ، واستقر الحال
على هذا الجواب :

”إنك إذا دخلت معنا في هذا الأمر ، فاجزاء الإحسان إلا الإحسان ، وابن أختك
يكون عندي كبعض أولادي ، وسيدانك ما أفعل في حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر
الكائنات وهي القمامة ، وبقية البلاد تقسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ،
والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العمليين يكون مناصفة ، وعسقلان
وما وراءها يكون خرابا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذي
كنت أكرهه حديث عسقلان“ .

فانفصل الرسول طيب القلب .

ثم ورد رسوله :

”أن يكون في القدس عشرون نفرا ، وأن من سكن من النصارى والفرنج
في البلد لا يتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد
الجبلية تكون لكم“

(١) كذا في الأصل ، وعند ابن شداد (المرجع السابق) : ”مقرعة أو قرية“ .

وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة: أنهم قد نزلوا عن القدس ماعدا الزيارة، وإنما يقولون ذلك تصنعا، وأنهم راغبون في الصلح، وأن الانكثير لا بد له من الرواح إلى بلده .

فأجابه السلطان :

” بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة “ .

فقال الرسول :

” وليس على الزوار في القدس شئ يؤخذ منهم ؟ “ .

فأجابه السلطان إلى ذلك ، وقال له :

” أما البلاد فعسقلان وما والاها وما وراءها فلا بد من خرابه “ .

فقال الرسول :

” إن الملك قد خسر في أسوارها ما لا جزيلا “ .

فسأل سيف الدين المشطوب أن تجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته، فأجاب السلطان إلى ذلك ، وشرط أن الداروم تخرب ، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة .

ثم جاء رسوله يقول :

” الملك [يسألك و] ^(١) يخضع لك في أن تترك [له] ^(١) هذه الأماكن الثلاثة

عامرة، وأى قدر لها عند ملكك وعظمتك؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرينج [لم] ^(١) يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيها رهبان ولا قسوس، إلا [في] القيامة وحدها، فتترك أنت له هذه [٤٠٣] البلاد، ويكون

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد، ص ٢١٨) و(الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٠).

الصالح عاما ، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ولكم ما في أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، وإن لم ينتظم الصالح فالفرنج ما يمكنونه من الزواح وما يمكنه مخالفتهم“ .

فأجابه السلطان :

” بأن أنطاكية لنا معهم حديث [فيها]^(١) ، ورسلنا عندهم ، وإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا ، وأما البلاد التي سألتها فلا يوافق المسلمون لي دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها“ .

ثم جاء رسوله وقال :

إن الملك قال : ” لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ، ولا مناكرة فيها“ .

ذكر رحيل السلطان

من القدس وأخذه ربض يافا

ثم بلغ السلطان في العاشر من رجب من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين — وخمسةائة — أن الفرنج قد رحلوا طالبين بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ،^(٢) واتفق وصول الملك العادل من الشرق — كما ذكرنا —

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٢١٨) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠).

(٢) الأصل : ” الجنب“ وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : حصنان يقال لها : الجيب الفوقاني ، والجيب التحتاني ، بين بيت المقدس وقابلس من أعمال فلسطين ، وهما متقاربان .

والملك الظاهر من حلب ، ثم رحل السلطان من الحبيب إلى بيت نوبا^(١) ، ثم رحل إلى الرملة ، فنزل بها على تلال بين الرملة ولد ، وركب جريدة حتى أتى^(٢) يازور وبيت جبرين^(٣) وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد^(٤) ، فرتب في الميمنة ولده الملك الظاهر ، وفي اليسرة أخاه الملك العادل ، وركب المنجنقات ، وزحف إلى البلد ، فأرسل العدو رسولين : نصرانيا وافرنجيا ، يطلبان الصلح ، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، وأمر بالنقب ، فحش وأحرق ، فوقع بعض البدنة ، فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب ، فالتهمت ، فمنعت من الدخول في الثلمة ، وقاتلوا إلى الليل ، وأصبحوا فوقعت البدنة ، فعلا غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب^(٥) الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم . [٤٠٤] .

فلما رأى العدو ما قد نزل به طلب الأمان .

(١) الأصل : " بيت توبة " ، وقد صححت عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بليدة من نواحي فلسطين .

(٢) الأصل : " إلى بيت يازور " والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٠) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) . وذكر (ياقوت) أن " يازور " بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين .

(٣) الأصل : " بيت جن " والتصحيح عن ابن شداد ، وفي ياقوت : بيت جبرين لغة في جبريل بليدة بين بيت المقدس وغزة ، وبينه وبين القدس مرحلتان ، وبين غزة أقل من ذلك ، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين .

(٤) الأصل : " العدو " ، والتصحيح عن (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٥) الأصل : " نابت بياب " ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٣) و (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

فقال السلطان :

الفارس بفارس والتركيبى^(١) بمثله ، والراجل براجل .

فطلب الرسول من السلطان أن يبطل [القتال]^(٢) إلى أن يعود .

فقال : ” ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن أدخل إلى أصحابك

فقل لهم ينحازون^(٣) إلى القلعة ، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقي
دونه مانع“ .

ف فعلوا ، وانحازوا^(٤) إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة .

ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأنانا

وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية .

واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان .

ووصل كتاب من صارم الدين قايماز النجمى - وكان في طريق الغور لحمايته من

عسكر العدو الذى كان بعكا - يخبر فيه أن الانكثير لما سمع خبر يافا أعرض عن

قصد بيروت ، وعاد إلى يافا ، فاشتد عزم السلطان والأمرء على إخراج من

في القلعة ليتسلمها .

(١) هذا نص له أهمية كبرى ، فهو يدل على أن جيش صلاح الدين عرف نظام فرق ”التركيبى“

بدليل النص على استبدال ”التركيبى بمثله“ ، ولشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين ليتضح به المعنى عن الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠١

(٣) الأصل : ”ينحازون“ ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠١) .

(٤) الأصل : ”رتجاروا“ والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول ملك الانكلتير

إلى يافا واسترجاعه ربضها

ووصل ملك الانكلتير بغتة ، فاشعر المسلمون سحرا إلا وبوقاته [تنعق ، فعلمنا
بوصول النجدة ، قد وصلت في البحر] (١) .

قال القاضي بهاء الدين :

فسير معي السلطان عز الدين جرديك ، وعلم الدين قيصر ، ودر باش المهراني ،
وشمس الدين عدل الخزانة ، وقال : امض إلى الملك الظاهر ، وقل له يقف
ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة ، ويخرجون القوم
ويستولون على ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر ،
وهو ظاهر البلد يسيرها إلينا .

قال :

فعلنا ودخلنا القلعة ، وأمرنا الفرنج بالخروج ، فأجابوا وتهاؤوا ،
فقال جرديك : لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى تخرج الناس من البلد
خشية أن يتخطفوهم ، فإنهم قد داخلهم الطمع في البلد ، وأخذ يشتد في ضرب
الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين في مكان ، فكيف
يمكن إخراجهم ، فطال الأمر إلى أن علا النهار ، وأنا ألومه وهو لا يرجع ، والزمان
يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت ، قلت له : إن النجدة قد وصلت
والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، [٤٠٥] فأجاب ، وأخرجنا خمسة وأربعين
نفرا بنحوهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدتهم أنفسهم

(١) الأصل : " فاشعر المسلمون سحرا إلا وبوقاته تنعق في البحر " ولا معنى لها ، وما هنا عن

(ابن شداد ، ص ٢٢٤) .

بالعصيان ، وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم ، وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكاثير مع القوم ، ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى أن تعالى النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج .

ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، وظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله ، فقلت لأصحابنا : خذوا حذرکم ، فقد تغيرت عزائم القوم ، فما كان إلا ساعة بحيث صرنا خارج البلد ، وإذا القوم قد حملوا من القلعة ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، وازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقى في بعض الكائنس جماعة من رعاك العسكر مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم ، وقتلوا وأسروا ، وأمر السلطان الناس بالزحف ، فزحفوا ، وعاد الحصار كما كان ، واضطرب العدو في القلعة واستبطئوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطر يقهم والقسطلان^(١) يعتذران مما جرى ، ويسألان السلطان القاعدة الأولى .

وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق^(٢) المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت ، وانضاف إلى ذلك كثرة الضجيج والتكبير والتهليل ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول إليهم مع كثرتها ، فإنها كانت قد بلغت نيفا وخمسين مركبا فيها خمسة عشر شانيا^(٣) ، [علموا أن]^(٤) النجدة ظنوا أن القلعة قد أخذت ، فوهب رجل من أهل

(١) معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، ويقابله في الفرنسية (Châtelain) . أنظر تعليقات الدكتور محمد مصطفى زيادة (المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، هامش ٣) .

(٢) البيرق معرب اللفظ الفارسي "بيراق" ، ومعناها الراية والعلم واللواء راجع : (القس طويبا العنيسي الحلبي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥) .

(٣) راجع ما فات هنا ، ص ١٣ ، هامش ١ .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن شداد ، ص ٢٢٦) .

القلعة نفسه للسيح ، وقفز من (١) القلعة إلى الميناء ، وكان رملا فلم يصبه شيء (٢) ، وعدى إلى البحر ، وحدث الانكثار بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء ، وحملوا على المسلمين فأخرجوهم من الميناء ، فقبض السلطان على الرسل ، وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور (٣) فرحل الناس ، [٤٠٦] وتخاف لهم ثقل عظيم مما كانوا أخذوا من يافا .

وأخرج الانكثار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقه البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه فيعظم سواده ، واستدعى جماعة من خواص ممالك السلطان والحاجب أبا بكر العادلي وغيره ، فلما حضروا عنده باسطهم وقال :

”هذا السلطان عظيم ، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر منه ولا أعظم ، فكيف رحل عن المكان لمجرد وصولي؟ والله ما لبستُ لامة (٤) حربي ولا تأهبتُ لأمر ، ولا في رجلى إلا زربول [البحر] (٥) فكيف تأخر؟“

(١) الأصل : ”مع“ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : ”شيئا“ والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : ”باروز“ ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٤) اللامة الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لامة لإحكامها وجودة حلقاتها ، وقيل هي السلاح كله ، ولامة الحرب أدواته ، وجمعها لام ولؤم ، واستلام الرجل لبس اللامة ، أي إذا لبس ما عنده من عدة رمح وبيضة ومنفر وسيف ونبل . أنظر : (اللسان)

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ، وزربول أو زربول — والجمع زرا بيل — ، ويقال : زربولون — والجمع زرابين — ، كلمة من أصل يوناني (σέρβουλα) ومعناها نوع من الخذاء ، وكانت تطلق في القسطنطينية على الخذاء الذي يلبسه العبد ، ويرى (Dozy) أن الكلمة مشتقة من (servus) ، كما أن اللفظ الأسباني (servilla) ويعني نوعا من الخذاء مشتق من (serva) ، لأن الخدم اعتادوا أن يلبسوا هذا النوع ؛ ويبدو أن اللفظ انتقل من الدولة البيزنطية إلى بلاد الشام ، واستعمله العرب في العصور الوسطى للدلالة على هذا النوع من الخذاء الذي يلبسه العبد ، فقد استعمل بهذا المعنى (وإنما يرسم زربولون) في كتاب ”ألف ليلة وليلة“ . وقد وصفه (Dozy) وصفا ينطبق على ذلك النوع من الخذاء المعروف في مصر إلى عهد قريب باسم (المركوب) ، فهو خذاء أحمر اللون ذو طرف أمامي مدبب مرتفع إلى أعلى . وهو ذلك النوع الذي كان يلبسه المشايخ إلى عهد قريب . أنظر : (Dozy : Supp. Dict. Arab) ولعل هذا هذا الشرح يفسر لنا أيضا كلمة « زربولون » التي كنا نطلقها أحيانا على العبد ، فنقول له تحقيرا لشأنه : « عبد زربولون » ، ولاحظ أيضا أن التعبير في المتن هنا يدل على أن رتشارد كان يلبس نوعا من الخذاء أو الزربول خاصا بالبحر .

ثم قال :

”والله إنه لعظيم ، والله ماظنته يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين؟!“

ثم قال لأبي بكر الحاجب :

تسلم على السلطان ، وتقول له : بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد منه ، ولا بد لهذا الأمر من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء^(١) البحر ، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم .

فأرسل السلطان إليه في الجواب :

”إنك [كنت] ^(٢) طلبت [الصلح] ^(٣) أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن فقد خربت هذه يافا ، فيكون لكم من قيسارية إلى صور“ .

فأجابه الانكثير :

”إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي“ .

فأجابه السلطان :

حيث دخلت هذا المدخل فتفق على أن نجعل البلدين قسمين : أحدهما لك ، وهو يافا وماوراءها ، والثاني لى ، هو عسقلان وما وراءها“ .

(١) الأصل : « ووزان » ، والتصحيح عن الروضين .

(٢) أصيب ما بين الحاصرتين عن (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) لاستقيم المعنى .

ثم رتب السلطان اليك بيازور ، وأمر بخرابها وخراب بيت جبرين (١) ،
ورتب النقاين لذلك ، ثم سار إلى الرملة .
وعاد رسول الانكثير يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ،
ويقول :

” إن وقع الصلح في [هذه] (٢) الأيام الستة سرت إلى بلادى ، وإلا احتجت
أن اشقى هنا “ .

فأجابه السلطان [في الحال] (٣) :

” أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما هاهنا تشبته فلا بد منها ،
لأنه قد استولى [٤٠٧] على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت
بالضرورة ، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشقى ههنا ،
ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت
اقتناص لذاته ، ما يسهل على أن اشقى وأصيف وأنا في وسط بلادى ، وعندى
أهلى وأولادى ، ويأتى إلى ما أريده ومن أريده ، وأنا شيخ قد كرهت لذات
الدنيا ورفضتها عنى ، والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون
عندى فى الصيف ؟ ! وأنا اعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى
يعطى الله تعالى النصر لمن يشاء “ .

ثم جاء رسوله يقول له :

” كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنت أحرص حتى أعود
إلى بلادى ، وإلآن فقد هجم الشتاء ، وتغيرت الأنواء ، [وعزمت على الإقامة] (٤)
وما بقى بيننا حديث .

(١) الأصل والروضتين : « بيت حسن » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٣

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ليستقيم المعنى .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عزم السلطان

على كبس الانكثير ، وانصرافه عنه

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد رحلوا من عكا قاصدين يافا ، فسار إلى العوجا ، فنزل بها ، ثم بلغه أن العدو دخل قيسارية ، ولم يبق فيه مطمع ، وبلغه أن الانكثير خارج يافا في نفر يسير ، فوقع له أن يكبسه ، فأتاه ، فوجد خيمته عشر خيم ، فحمل عليهم ، فثبتوا ولم يتحركوا عن أماكنهم ، وكشروا عن ناب الحرب ، فارتاع العسكر منهم ، ووجهوا من ثباتهم وداروا حولهم حلقة ، وكانت عدة الخيل سبعة^(١) عشر ، وقيل تسعة ، والرجال ثلاثمائة ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة ، ودار على الأطلاب يحثهم على الحملة ، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب :

”قل لغلمانك الذي ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون“

وكان في قاب العسكر غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة ، فله رأى السلطان ذلك غضب ، وأعرض عن القتال وسار إلى يازور^(٢) .

وذكر أن الانكثير أخذ رمحه ذلك اليوم ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف اليسرة ، ولم يعرض له أحد .

ثم سار السلطان إلى النظرون ثم إلى القدس ، فنظر إلى العمار ورتبها ، ثم عاد إلى النظرون ، وتوافت إليه العسكر ، ووصل [٤٠٨] علاء الدين بن عز الدين - صاحب الوصل - ، ثم قدم عسكر مصر ، وفيهم سيف الدين يازكوج^(٣) وجماعة الأسيدي في خدمة ابنه الملك المؤيد مسعود .

(١) الأصل : « سبع » .

(٢) الأصل : « باروز » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٣) الأصل : « بالوج » ، والتصحيح عن : (الروضين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عقد الهدنة بين المسلمين والفرنج

ثم جمع السلطان عنده أرباب الرأي ، وقال :
” إن الانكلتير قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسيسية قد ساروا راجعين
ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، والرأى أنا نسير إلى يافا ، فإن
وجدنا فيها مطمعا وإلا سرنا إلى عسقلان ، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا
منها غرضا“ .

فوافقوه على ذلك .

فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا
من يافا ، ورسل الأنكلتير مترددة إلى السلطان في طلب الفاكهة والتلج ، وأوقع
الله في مرضه شهوة الكثرى والخوخ ، فكان السلطان يمدده بذلك ، ويقصد
كشف الأخبار بتواتر الرسل .

ومما انكشف له أن الكندهرى يتردد بينه وبين الأفرنسيسية في
مقامهم ، وهم عازمون على [عبور] (١) البحر قولا واحدا ، فسار السلطان إلى
الرملة .

وجاء رسول الانكلتير مع الحاجب أبي بكر العادلى يشكر السلطان على إسعافه
بالفاكهة والتلج ، وقال له :

” قل لأئى الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ،
ويستوهب لى منه عسقلان ، وأمضى وبقى هو هاهنا مع هذه الشردمة اليسيرة ،
ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضى إلا إقامة جاهى بين الإفرنجية ، وإن لم ينزل
السلطان عن عسقلان فيأخذ لى منه عوضا من خسارتى على عمارة سورها“ .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

فأرسل السلطان إلى الملك العادل :

” إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد سجر من ملازمة البيكار^(١) ، والنفقات قد نفدت “ .

ثم إن الانكثير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها ، واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وذكر ياقا وعمليها — فأخرج الرملة منها واتد ومجدليابة^(٢) — ثم ذكر قيسارية وعمليها ، وأر سوف وعمليها ، وحيفا وعمليها ، وعكا [٤٠٩] وعمليها — وأخرج منها الناصرة وصفورية — وأثبت الجميع في ورقة ، وقال للرسول :

” هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فبارك ، وقد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة “ .

وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا ، ويتفق المسلمون وهم على خرابها ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطراباس في الصلح ، وشرطوا أن تكون الرملة ولد مناصفة بينهم وبين المسلمين ، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء لثمان بقين من شعبان من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة — وحلفوا ، ولم يحلف الانكثير ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع السلطان بذلك^(٣) وحلف الكندهري ، وهو ابن أخته ، وهو المستخلف عنه في الساحل ، وبالبيان بن بارزان — ابن^(٤) صاحب طبرية — .

(١) البيكار — وقد تجمع على بياكير — لفظ فارسي معناه الحرب . أنظر : *Dozy : Supp.* .
• *Dict. Ar.*

(٢) الأصل : « ومجدل بابا » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٨٢ ، هامش ٢

(٣) النص عن ابن شداد : « وقنع من السلطان بمثل ذلك » .

(٤) الأصل : « وابن » وقد حذف الواو ليستقيم المعنى .

ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يده على الصلح ، واستحافوا الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأجد — صاحب بعلبك — ، والأمير بدر الدين الباروقى ، وصاحب تل باشر ، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيزر — ، والأمير سيف الدين المشطوب ، وغيرهم من المقدمين الكبار ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها [مبتدأ] (١) أيلول الموافق الحادى والعشرين من شعبان .

ولما وقعت الهدنة قال أبو الحسن على بن الساعاتى يمدح السلطان الملك الناصر — رحمه الله — من قصيدة :

مِنَعَتْ زِبَاءُ الْمُنْحَى بِأُسُودِهِ ،	وَأَشَدُّ مَا أَشْكُوهُ فَتَكُ (٢) زِبَائِهِ
فَعَلَتْ بِنَا وَهِيَ الصَّدِيقُ لِحَاطِظِهَا	كَظِيٍّ صِلَاحِ الدِّينِ فِي أَعْدَائِهِ (٣)
سَلَّ عَنْهُ قَلْبَ الْإِنْكَتِيرِ ، فَإِنَّ فِي	خَفَقَانِهِ مَا شِئْتَ مِنْ أَنْبَائِهِ
لَوْلَاكَ أُمَّ الْبَيْتِ غَيْرَ مَدَافِعِ	وَأَسَالَ سَيْلَ نَدَاهُ (٤) فِي بَطْحَائِهِ
وَبَكَتْ جَفُونَ (٥) الْقُدْسِ ثَانِيَةً دَمًا ،	لَتَرْتَمِ النَّاقُوسُ فِي أَفْنَائِهِ

(١) ما بين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٢) الأصل : « قتل » ، وما هنا عن (ابن الساعاتى : الديوان ، ج ١ ، ص ٧٧) و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤) .

(٣) ورد هذان البيتان فقط في ختام المقدمة الغزلية للقصيدة بالديوان ، أما بقية الأبيات فقد وردت في الروضتين ، ونقلها عنها ناشر الديوان في نهاية الجزء الثانى منه (ص ٤١١) .

(٤) الأصل : « ولسان سيل نذاك » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٥) الأصل : « وجرت عيون القدس » ، وما هنا عن الروضتين .

[٤١٠] ثم أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات (١) والأسواق :

” ألا وإن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل “ .

وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً عمّ فيه للطائفتين الفرح والسرور ، ولم يكن ذلك من إيثار السلطان .

فحكى القاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - قال :

” قال لى السلطان فى بعض محاوراته فى الصلح: أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شئ يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة ما فى أيدي المسلمين المأخوذة منهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة - يعنى أخاه وأولاده وأولاد أخيه - قد قعد فى رأس قله (٢) - يعنى قلعه - ، وقال : ” لا أنزل “ (٣) ويهلك المسلمون “ .

قال بهاء الدين :

فكان كما قال ، توفى - رحمه الله - عن قريب ، واشتغل كل من أهل بيته وأولاده بناحية ، ووقع الخلف بينهم ، وأعرضوا عن النظر فى المصلحة العامة للمسلمين ، فلو قدر الله حياته لكان الغالب على الظن أن العدو لا يبقى له فى البلاد الشامية ثغر ولا بلد ، لكن الله تعالى إذا أراد أمراً قدر أسبابه ، وبالجملة فكان

(١) الوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية : أوتاق أو أوطاق أو أوتاغ ، ومعناه الخيمة أو مجموعة الخيام أو المعسكر .

(٢) الأصل : « تله » ، والتصحيح عن ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤) ، وفى اللسان : (قلة كل شئ رأسه أو أعلاه ، والقلة أعلا الجبل) .

(٣) الأصل : « أويهك » ، والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

الصالح مصلحة . إذ لو قدر موته في أثناء تلك الحروب لكان الإسلام على خطر .

ثم رحل السلطان إلى النطرون ، واخذتاط^(١) عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، ونفد معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا وطهرهم من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرهم .

ولما علم الانكثير كثرة من يزور منهم صعب عليه ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح أن لا ياذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة ، وعلم الفرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا بالحج ، فكان يرد كل يوم منهم جموع كثيرة مقدمون وأوساط ومالوك متنكرون .

وشرع السلطان في إكرام من يرد ، ومد الطعام لهم ومباستطهم ومحادثهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك [٤١١] من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوما قد وصلوا من ذلك البعد ، وتيسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منهم .

ثم اشتد المرض بالانكثير ، فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان ، هو والكندهرى وسائر المقدمين إلى ناحية عكا ، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ، ونفر يسير .

(١) الأصل : « واحتاط » والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

ذكر رحيل السلطان إلى القدس ونظره في مصالحة

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وعرض رجاله ، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها ، وتعمير خنادقه ، وزاد في وقف المدرسة المعروفة ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تُعرف بصند حنة (١) يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم - عاينها السلام - ، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج القدس ، وكان يدرس بها العلم الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي قبيل أخذ الفرنج للقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، ووقف عليها وقوفا جليلة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، وترلاها جماعة من الفقهاء ، منهم : نخر الدين بن عساكر ، وتولاها والدي - رحمه الله - من جهة الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل ، وأقمنا بها من سنة اثنين وعشرين وستمائة (٢) .

(١) هذا تحريف عن التسمية الفرنسية (Sainte Anne) أي القديسة حنة ، وقد ذكر (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٢ - ١٢٣) أن هذه المدرسة كانت تعرف بالمدرسة الصلاحية ، فقد وقفها صلاح الدين على الفقهاء الشافعية ، وأرخ لها بقوله إن صلاح الدين كان نازلا في كنيسة صهيون فقارض جلساءه من العلماء الأكارب في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصالحاء الصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة « بصند حنة » عند باب أسباط ، وقيل كان موضع هذه المدرسة ديرا للراحيات أقيم في مكان بيت القديسين : يواكيم وحنة ، فهدمه الملك وأقام المدرسة مكانه ، وتاريخ وقفها سنة ٥٨٨ ، وكان الأتراك نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البيض في القرن الماضي ، فعملوها مدرسة أكاديمية ، وفي الحرب العامة أخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية ، فلما سقط القدس في أيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة .

(٢) هذه إشارة لها قيمتها عند التاريخ لازلف جمال الدين بن راصل ووالده سالم ، فقد عين المعظم الوالد سالما مدرسا بالمدرسة الصلاحية بالقدس سنة ٦٢٢ ، وظل ابنه جمال الدين مقيا معه بالقدس إلى سنة ٦٢٤ ، وفي تلك السنة سافر الوالد لأداء فريضة الحج ، فتاب ابنه عنه في التدريس بنفس المدرسة إلى قبيل رمضان سنة ٦٢٥ هـ . ويشير المؤلف إلى هذا كله فيما يلي من صفحات هذا الكتاب انظرا أيضا بحثنا الذي لم يطبع بعد عن (جمال الدين بن راصل وكتابه مفرج الكرب في أخبار بني أيوب)

ورتب السلطان أيضا موضعا ملاصقا للآقصى خانقاه للصوفية ، وقف
عليها وقوفا جليلة ، وجعل الكنيسة التي في شارع قمامة بمارستان^(١) للمرضى ،
ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه ، وفوض ولاية القدس إلى عزالدين جرديك النورى ،
وفوض القضاء والأوقاف إلى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمهم الله — .

ذكر عزم السلطان على الحج ثم انتقاض عزمه

ولما وقعت الهدنة صمم السلطان على الحج ، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب
عسقلان وإخراج من بها من الفرنج ليتفرغ سره من جانبها ، ويحج في عامه [٤١٢]
وكتب إلى مصر وإلى أخيه سيف الإسلام — صاحب اليمن — ما عزم عليه ،
وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والخلع
والكسوة ، ثم فند السلطان في عزمه ، وقال له أصحابه :

لا يمكن الحج إلا بعد أمر يكتب إلى الخليفة ، وتعرفه ذلك ، حتى لا يظن
بك أمرا أنت عنه برىء ، والوقت قد ضاق ، وهذه البلاد والمعقل ربما يخاف
عليها عند غيبتك من غائلة العدو ، ولا تغتر بالهدنة ، فإن القوم دأبهم الغدر
وإذا وجدوا مكنة فعلوا .

فأنحل عزمه عن ذلك واقرعته .

ذكر مسير السلطان إلى دمشق ووصوله إليها

ثم رحل السلطان من القدس لخمس ماضين من شوال ، وهو يوم الخميس ، ووصل
يوم الجمعة إلى نابلس ، فنزل بظاهرها ، وبها صاحبها الأمير سيف الدين على

(١) قال ابن شداد (السيرة اليوسفية ، ص ٢٤٢) : «... وأمرنى بالمقام فى القدس الشريف
لعارة بمارستان أنشأه فيه ، بإدارة المدرسة التى أنشأها فيه إلى حين عوده» ، أنظر أيضا : (الروضتين ،
ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

ابن أحمد الشطوب، فشكاه أهداها إلى السلطان، فأزال شكواهم، وأمره بالإحسان إليهم والعدل فيهم، ثم رحل عنها ظهر يوم السبت سابع شوال، ووصل إلى بيسان يوم الاثنين تاسع شوال، وصعد قلعته، وقال: "الصواب أن نبني هذه ونحرب كوكب".

ثم وصل إلى كوكب وبات بقلعته، ورحل منها يوم الثلاثاء عاشر شوال، ونزل بطبرية، ولقي بهاء الدين قراقوش، وقد خلص من الأسر، وخلص السلطان بقية أصحابه، ومضى مع السلطان إلى دمشق، وسافر قراقوش من دمشق إلى الديار المصرية، وأقام السلطان يومين لتوالي الأمطار، ثم رحل يوم الخميس ثاني عشر شوال إلى صفد، فرتب أمورها، ثم سار إلى تبين، ثم وصل إلى بيروت يوم الخميس تاسع عشر شوال، وبها الأمير ز الدين أسامة.

ووصل إلى خدمته يميند - صاحب أنطاكية - يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وآنسه، ورفع مجلسه، وأجرى له ولأصحابه العطاء، وأقطعه من مناصفات أنطاكية ما يبلغه عشرون ألف دينار، وفارقه غد ذلك اليوم.

ثم سار السلطان إلى دمشق فوصلها يوم الأربعاء بقاء الخميس بقمين من شوال، وفرح الناس به، لأن غيبته كانت قد [٤١٣] طالت عنهم مدة أربع سنين، وأفاض العدل والإحسان بدمشق، وواظب بالجلوس في دار العدل في الأوقات التي جرت العادة بالجلوس فيها.

وفي يوم الأحد مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر دعوة، وبالغ فيها في التجميل، وحضرها السلطان جبراً لقلبه، وحضرها جميع الأمراء والأكابر.

وأذن السلطان للعساكر في التفرق إلى بلادهم، فتفرقوا، وكان الملك الظاهر - صاحب حلب - قد فارق أباه بالقدس، ووصل إلى دمشق لما بلغت حركة أبيه

إلى دمشق ، وأقام بها حتى فاز بالنظر إليه ثانيا ، وكان نفسه حدثه بدنو أجل والده — رحمه الله — ، ثم لما حضر دعوة أخيه ودع أباه وداعا لم يكن بعده لقاء ، ورحل إلى حاب ، وبقى عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل نور الدين وجماعة من أولاده ، والقاضي الفاضل .

وكان القاضي بهاء الدين بن شداد قد أمره السلطان بمقامه في القدس إلى حين عودته ، لأن السلطان كان عزمه أن يعود إلى القدس ، ثم يتوجه منه إلى الديار المصرية ، لأن عهده كان قد بعد عنها .

وكان الملك العادل قد استأذن السلطان في القدس في آخر رمضان بأن يمضي إلى الكرك — وهي حصنه ومستقره — ليتفقدتها ، فأذن له في ذلك ، فمضى إليها وأصاح ما قصد إصلاحه ، ثم رحل منها طالبا للبلاد الشرقية التي أعطاه السلطان إياها ، فوصل إلى دمشق سابع عشر ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه ، وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه ، وسارا جميعا يتصيدان ، ثم دخلا دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة .

وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب^(١) — رحمه الله — بنابلس ، وكانت إقطاعه بعد حسام^(٢) الدين لاجين ابن أخت السلطان ، فوقف السلطان بعده

(١) سمي هكذا لشطبة كانت في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضردا ، هكذا ذكر العماد الأصفهاني وقال : وله مواقف في الجهاد كثيرة معهودة ، ومقامات مشهورة مشهودة ؛ وقد كان ابن المشطوب ركنا من الأركان التي قامت عليها دولة بني أيوب منذ نشأتها ، فهو كردى ، وهو حكارى ، أى أنه ينتمى إلى قيس القبيلة التي ينتمى إليها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، وقد صحب أسد الدين في الحملات الثلاث على مصر ، ثم لازم صلاح الدين إلى وقت وفاته ، وكانت له معه مواقف مشهودة أثناء نضاله ضد الصليبيين . أنظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٩) ، وسيكون لابنه أحمد بن علي مواقف أخرى مع خلفاء صلاح الدين من ملوك البيت الأيوبي ، سترد الإشارة إليها فيما يلي .

(٢) الأصل : « لحسام » ، وقد صححت ليستقيم المعنى .

ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين المشطوب وأميرين معه .

وفي شعبان من هذه السنة توفي السلطان [٤١٤] عز الدين قايج أرسلان ابن مسعود بن قايج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن ساجوق - سلطان الروم - ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطرا ، وأكبرهم قطب الدين ملك شاه ، وكانت له سيواس ، فاتبع هواه ، وسوّلت له نفسه القبض على والده وبقية إخوته ، وأن يفرد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فبعث صاحب أرزنكان إلى السلطان عز الدين يطلب منه وزيره اختيار الدين حسين بن عفراس ليتفق معه على مصلحة فيما بين عز الدين وأولاده ، وذلك باتفاق في الباطن بين قطب الدين ملكشاه وبين صاحب أرزنكان ، فظن عز الدين أن الأمر على ما أظهره صاحب أرزنكان ، فبعث وزيره اختيار الدين ، فلما وصل إلى صاحب أرزنكان أوقع عليه صاحب أرزنكان التركمان ، فقتلوه شر قتلة ، ومثلوا به وبولده أقبح مثلة .

ثم سار قطب الدين ملكشاه إلى والده عز الدين فكسره وهجم عليه في مدينة قونية ، وقبض على والده واستقل بالسلطنة ، وقال لوالده : " أنا بين يديك ، أشفق عليك ، وأنفذ أمرك " .

ثم إنه قتل جماعة من أمراء أبيه ، وأنشأ له أمراء اختارهم ، وبقى أبوه معه كالمعتقل ليس له أمر ولا نهى ولا تصرف ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولى عهده ، وأبقى الخطبة والسكة باسم أبيه ، والملك في الظاهر لابنه ، وفي الحقيقة ليس لأبيه إلا مجرد الاسم .

ثم ملك أقصرا ، ثم مضى إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه - صاحب قيسارية - ووالده في القبضة معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده فحضر نور الدين بقيسارية ، ونخرج عسكر قيسارية لحرب قطب الدين .

واغتتم السلطان عز الدين فرصة ، فخرج من صف ابنه قطب الدين هاربا ،
ودخل إلى قيسارية ، واجتمع بولده نور الدين سلطان شاه ، فأكرم
أباه وعظمه ، ورجع قطب الدين إلى قونية ، وهي دار الملك ، فأقام بها
يخطب بالسلطنة لنفسه .

وبقي السلطان قلعج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده من ولد إلى ولد ،
ومن بلد إلى بلد ، وكلما ضمير منه واحد منهم [٤١٥] ينتقل إلى آخر ، حتى حصل
عند ولده غياث الدين كيخسرو - صاحب برغلوا - فقوى أباه ، وأعطاه ،
وجمع له وحشد ، وجاء معه إلى قونية ، ودخلها وملكها ومضى به إلى أقصرا
محاصرا لها ، فامتنت عليه ، بجمع الأوجية (كذا ؟) الأجناد ، فاتفق
أن السلطان عز الدين مرض ومات في التاريخ المذكور ، فتركه ولده غياث الدين
كيخسرو في محفة ، وكنم أمره ، وأظهر أنه متقل لأجل المرض ، ومضى
يمشي قدام المحفة ليوهم الناس حياته ، حتى أتى به قونية ، فدخلها واستقل
بقاعتها ، واستحلف الأمراء والأعيان ، ثم أظهر وفاة أبيه ، وأنه ولي عهده ،
وقوى على أخيه قطب الدين ملكشاه ، ثم أنه تغاب على غياث الدين كيخسرو ،
وأخيه ركن الدين سايمان ، وأخذ منه قونية ، وهرب غياث الدين إلى الشام
مستجيرا بالملك الظاهر - صاحب حلب - .

ثم مات ركن الدين سنة ستمائة ، وملك ولده قباچ أرسلان ، فرجع غياث
الدين إلى البلاد كلها ، واستقرت السلطنة ببلاد الروم للسلطان غياث الدين
كيخسرو بن قلعج أرسلان بن مسعود .

ثم توفي غياث الدين كيخسرو ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكابوس
ابن كيخسرو ، وسند كرقصده لبلاد بني أيوب وكسر السلطان الملك الأشرف
ابن الملك العادل له .

ثم توفي كيكائوس ، فولى أخوه السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسروا ، وهو الذى أدركنا زمانه ، وسند ذكر بعض أخباره مع بنى أيوب ، وتوفي علاء الدين سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وولى بعده غياث الدين كيخسروا بن كيقباد وكسره التتر كسرة عظيمة سنة إحدى وأربعين وستمائة^(١) ، وتضعض من حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم .

ثم مات غياث الدين ، وخلف صبيين : أحدهما ركن الدين ، و[الآخر] عز الدين ، فلكامعا مدينة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين كيكائوس إلى قسطنطينية ، واستجار بملكها ، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد فى الحقيقة للتتر ، وخراج البلاد يحمل إليهم ، ثم قتل معين الدين ركن الدين ، وأبقى إبنه^(٢) لركن الدين يخطب له بالسلطنة ، والحكم [٤١٦] للبرواناه وهو نائب التتر بالبلاد ، والأمر على ذلك إلى اليوم .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - قد بعث رسوله للقاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى - المعروف بابن الفراش - رسولا إلى السلطان عز الدين بن قباچ أرسلان وأولاده الإصلاح بينهم ، فتردد إليهم مرارا أكثر من سنة ، ولما عاد إلى ماطية توفي بها فى شهر ربيع الأول من هذه السنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والملك الناصر مقيم بدمشق على أكل ما يكون من المسرة ، ورسلى الأمصار واردون إلى بابه ، وهو يجلس كل يوم لإسداء المكارم وكشف المظالم ، ثم برز إلى الصيد من شرق دمشق بزاد خمسة

(١) لهذا النص أهمية ، فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا القسم من كتابه بعد سنة ٦٤١ هـ .

(٢) هذا الابن هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، ولى الحكم سنة ٦٦٣ هـ ، وعمره ستان ونصف ، فهذا النص يدل على أن أرواص كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٣ هـ ، راجع : (زامباور : معجم الأنساب . . . الخ . الترجمة العربية ، ص ٢١٨) .

عشر يوماً، وصحبتته أخوه الملك العادل ، وأبعد في البرية، ثم عاد إلى دمشق ووَدَّعه الملك العادل وداعاً لالقاء بعده ، فمضى إلى الكرك وأقام به إلى أن بلغت وفاته السلطان - رحمه الله - .

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد :

ونخرجت من القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ؛ وكان وصولي إلى دمشق ثاني عشر صفر ؛ وكان الملك الأفضل حاضراً في الإيوان الشمالي ، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان ؛ فلما شعر السلطان بحضورى استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ؛ فدخلت عليه - رحمه الله - فقام ولقبنى ملقياً ما رأيت أشد من بشره فيه ؛ ولقد ضمنى إليه ودمعت عيناه .

وفي ثالث عشر صفر طلبنى فحضرت ، فسألنى عن من هو فى الإيوان ، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس فى الخدمة ، والأمراء والناس فى خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال .

ثم استحضرنى يوم الخميس رابع عشر صفر ، وهو فى صُفَّة^(١) البستان وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل : رسول الفرنج وجماعة من الأمراء الأكابر ، فاستحضر الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير يسمى أبابكر ، وكان كثير الميل إليه ، وكان حاضراً وهو - رحمه الله - يدأبه ، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم [٤١٧] خاف منهم وبكى ، فاعتذر السلطان إلى الفرنج وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لى : "أكلت اليوم شيئاً؟" ، وكانت عادته - رحمه الله - هذه المباشطة ، ثم قال : "أحضروا لنا ما تيسر" ، فأحضروا أرزا بلبن ، وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة ،

(١) لشرح هذا اللفظ راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، هامش ٤) .

فأكل — رحمه الله — وكنت أظن بأنه ليس عنده شهوة ؛ وكان في هذه الأيام يعتذر للناس بثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل ، فلما فرغنا من الطعام قال :

ما الذى عندك من خبر الحاج ؟

فقلت :

«اجتمعت بجماعة منهم فى الطريق ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم» .

فقال :

«نخرج إن شاء الله إلى لقائهم» .

وأمر بتنظيف طريقهم من المياه، فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء ؛ وقد سالت المياه فى الطرق كالأنهار .

وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه منه .

ثم بكر فى يوم الجمعة خامس عشر صفر فركب ؛ ثم لحقته وقد لقي الحاج، ولم أجد عليه كراغندا^(١) وما كان له عادة أن يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من فى البلد، فأذكرته ذلك فكأنه استيقظ، فطلب الكراغند فلم توجد ، فأوقع الله فى قلبى تطيرا بذلك ، ولما لقي السلطان الحاج استعبرت عيناه كيف فاته الحاج ، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها، وحال الخصب بها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين له ورواتبهم وإدراواتهم ، وسر بسلامه الحاج .

(١) أنظر ما فات هنا ص ٤٤ ، هامش ه .

ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب ،
فتلقاه بالإكرام ؛ قلت : أظنه هو الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ، فإن
أباه أخرج من عنده مرتين خوفا على نفسه منه ، وسنذكر أخباره في موضعه
اللائق به إن شاء الله تعالى .

ثم سار السلطان بين البساتين يطاب جهة المنيع حتى أتى القاعة ، فعبر على
الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته - رحمه الله - .

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر

صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب - رحمه الله تعالى -

ولما دخل السلطان إلى القلعة بعد لقاء الحاج وجد ليلة السبت سادس
عشر صفر كسلا عظيما ، فما [٤١٨] انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية
وكان مافي باطنه منها أكثر مما في ظاهره ، وأصبح يوم السبت وعليه أثر الحمى ،
ولم يظهر للناس ذلك .

قال القاضي بهاء الدين :

فحضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ،
وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث
إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور
على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضي الفاضل
عادة بذلك ، فانصرف^(١) ، ودخلت الإيوان القبلي وقد مدَّ الطعام ،
والملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ، وما كان لي قوة على الجلوس

(١) الأصل : « فانصرفت » والصحيح عن ابن شداد .

استيحاشا، وبكى في ذلك اليوم جميع من حضر ، وتناولنا يجلس ولده في موضعه ؛
ثم أخذ المرض يتزايد من حينه ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار ، وأدخل أنا
والقاضي الفاضل في النهار مرارا ، ونُعطى (١) الطريق في بعض الأيام التي يجد
فيها خفة .

وكان مرضه في رأسه ، ورأى الأطباء فصدده فنصدوه في الرابع ، فاشتد
مرضه ، وقلَّت رطوبات بدنه ، وتزايد به المرض إلى أن انتهى إلى غاية الضعف ،
ولقد أجلسناه في السادس من مرضه ، وأسندنا ظهره إلى محدة ، وأحضرنا
ماء فاترا ليشر به عقيب شراب يابن الطبع ، فوجده شديد الحرارة ، فشكا (٢) من شدة
حره ، فقير وعرض عليه ثانيا ، فشكا (٢) من برده ، ولم يفضب ، ولم يقل سوى هذه
الكلمات :

” سبحان الله ، لا يمكن أحد تعديل الماء ؟ “

فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل
يقول :

” أبعبر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ؛ والله لو أن
هذا بعض آحاد الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره “ .

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل مترايدا (٣) ويغيب ذهنه ،
ولما كان التاسع حدثت به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد
الإرجاف في البلد ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق ، وغشى الناس من البكاء والحزن
ما لا يمكن حكايته .

(١) الأصل ، « ونعطا » .

(٢) الأصل : فشكى .

(٣) الأصل : « متزايد » .

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلث أو قريب [٤١٩] منه ، ثم نحضر في باب الدار ، فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه ، وإلا انصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان اليوم العاشر من مرضه حُقن دفتين ، وحصل له من الحقنة راحة ، وحصل بعض الخفة ، وتناول من ماء الشعير مقدارا جيدا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد ، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه - ولد السلطان - يقول : " إن العرق قد أخذ في ساقيه " ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق قد أفرط حتى نفذ من الفراش ، وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما ، وخارت القوة ، واستشعر الأطباء .

ولما رأى الملك الأفضل ما حلَّ بوالده^(١) وتحقق اليأس منه شرع في تخليف الناس ، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكاه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين^(٢) مختصرة محصاة للمقاصد^(٣) ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، وما يعلم ما يكون .

وكان ممن حلف من أعيان الأمراء : سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة^(٤) ، وناصر الدين منكورس بن ناصر الدين نهار تكين - صاحب صهيون -

(١) الأصل : « بولده » .

(٢) الأصل : « نسختين مختصرة ... الخ » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣)

(٣) الأصل : « للقاصد » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن ابن شداد .

(٤) الأصل : « سعد الدين مسعود وأخوه بدر الدين مودود والشحنة ناصر الدين الخ ... » وهي

عبارة مضطربة ، وقد صححت بمراجعة (ابن شداد : الديرة اليوسفية ، ص ٢٤٨) و (الروضتين ،

ج ٢ ، ص ٢١٣) .

وسابق الدين عثمان بن الداية - صاحب شيرز - ، وخوشتين (١) الهكاري ،
ونوشروان الزرزاري ، وعلكان ، ومنكلان ؛ ثم مدَّ الخوانُ وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد مجلس التحايف ، وأحضر فارس الدين ميمون القصرى ،
وشمس الدين سنقر الكبير ، وعز الدين أسامة (٢) ، وسنقر المشطوب (٣) ، والفارس
البيكى (٤) ، وأيبك الأفتس (٥) ، وأخو [الأمير] سياروخ (٦) ، وحسام الدين
بشارة ، ولم يحضره أحد من الأمراء المصريين ، ولا تعرض لهم .

ولما كانت ليلة الأربعاء [٤٢٠] السابع والعشرين من صفر من هذه السنة
- أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة - وهى ليلة الثانى عشر من مرضه ، اشتد
بالسلطان المرض ، وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل ؛
واستدعيت أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة ، والقاضى محيى الدين بن زكى
الدين ، وهو يومئذ قاضى القضاة بدمشق ، ولم تكن عادته الحضور فى ذلك
الوقت ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك
رأيا ؛ فإن الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، وخاف أن لا تنزل
فيقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة
فى نزولنا ، واستحضر الشىخ أبى جعفر - إمام الكلاية - لبيت فى القلعة ، حتى
إن احتضر بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ؛ وذكره بالشهادة ؛ ففعل
ذلك ، ونزلنا .

-
- (١) الأصل : « جوسر بن الهكاري » ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .
(٢) الأصل : « شامة » ، والتصحيح عن الروضتين .
(٣) الأصل : « المطلوب » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٤) الأصل : « البك » ، والتصحيح عن : (الروضتين « ج ٢ ، ص ٢١٣) .
(٥) الأصل : « فطيس » ، والتصحيح عن المرجع السابق .
(٦) الأصل : « وأخو ساروج » وقد أضيف ما بين الحاصرتين وصحح الاسم عن المرجع السابق .

وذكر عن الشيخ أبي جعفر أنه قرأ عنده القرآن ، وكان ذهنه غائبا ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (١) » سمعه وهو يقول : «صحيح» ، وهذه لفظة في وقت الحاجة وعناية من الله به .

وقيل إنه لما بلغ أبو جعفر في قراءته قوله تعالى : « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » (٢) تبسم وتهال وجهه وسلمها .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته . قال القاضي بهاء الدين :

« ووصات أنا وقد مات ، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته » .

ذكر جلوس الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي

ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين

للغزاة وتجهيز السلطان ودفنه

ثم جلس الملك الأفضل للغزاة في الإيوان الشمالي ، وحفظ باب القاعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما .

وكان أولاد الساطان يخرجون مستغيثين بين الناس ، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، واشتد بكاء [٤٢١] الناس وحنهم ، ودام الحال كذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه .

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية (٢٢) م .

(٢) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٢٩ (ك) .

قال القاضي :

فما مكا أن ندخل في تجهيزه حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي يأت به الطين ، وغسله الفقيه الدولي - خطيب دمشق - ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط ، وجميع ما احتاج إليه في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وأول من أم^(١) بالناس قاضي القضاة محي الدين بن زكي الدين ، ثم أعيد - رحمه الله - إلى الدار التي في البستان التي كان ممرضا بها ، ودفن بالصفة القريبة منها ، وكان نزوله إلى حفرة قريب صلاة العصر ، ونزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر خضر^(٢) - المعروف بالمشمر - وهو شقيق الملك الأفضل ، يعزى الناس ، ويسكن قلوب الرعية .

واشتغل الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته : الملك العزيز بمصر ، وكذلك إلى الملك الظاهر - صاحب حلب - ، وعمه الملك المعادل - وكان بالكرك - يخبرهم بهذا الحادث .

(١) الأصل : « أقام » ، والتصحيح عن : ابن شداد ، والروضتين .

(٢) هو الملك الظافر خضر ، لقبه مظفر الدين ، وكنيته أبو الدوام ، وأبو العباس ، قيل له « المشمر » لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال « وأنا مشمر » فغلب عليه هذا اللقب ، ولد بالقاهرة في خامس شعبان سنة ٦٨٥ هـ ، وهو شقيق الملك الأفضل ، حج على تيماء سنة ٦١٠ هـ ، فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه خوفا منه على اليمن ، وأمره بالرجوع ، فقال : « قد بقى بيني وبين مكة مسافة يسيرة ، ووالله ما قصدى إلا الحج . فقيدوني حتى أفضى مناسكى وأعود ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفى في جمادى الأولى - أو الآخرة - سنة ٦٢٧ هـ ببحران عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وقتذاك ملكها ، وإنما كان مجتازا لها عند دخوله بلاد الروم . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦) و (الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٧٣) .

وفي اليوم الثاني جلس للغزاء جلوسا عاما، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء،
وتكلم المتكلمون، ولم يؤذن لأحد من الشعراء أن ينشد شيئا^(١)، واستمر حضور
الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له .

وما زال الملك الأفضل مفكرا في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك، فأشير عليه
في سنة تسعين وخمسمائة بأن يبني تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية
وقالوا: "إذا وصل الملك العزيز استغنى^(٢) بزيارتها عن الدخول إلى دمشق"،
وقالوا: "إن السلطان - رحمه الله - لما مرض سنة إحدى^(٣) وثمانين وخمسمائة
بحران أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل
[وطريق القواقل]^(٤) ليدعوله البادي والحاضر، والوارد والصادر".

فأمر الملك الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى [٤٢٢] عمارتها
بدر الدين مودود - والى دمشق -، فاتفق وصول الملك العزيز تلك السنة
للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرب ما كان قد ارتفع من البناية،
ثم استقرأ^(٥) الملك الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق^(٦) لدار
كانت لبعض الصالحين، وهي في حد البنيان الذي زاده القاضي الفاضل
في المسجد، فاشتراها منه وأمر بعمارها [قبة]^(٤) وعمرت، ونقل إليها السلطان
يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بكرة الخميس .

(١) الأصل: «شيء» .

(٢) الأصل: «استغنا» .

(٣) الأصل: «أحد» .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد: (الروضتين، ج ٢، ص ٣٢٤) .

(٥) الأصل: «اشترى»، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٦) الأصل: «فاتفق»، والتصحيح عن المرجع المتقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين، ج ٢،

ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته ، وحمله مماليكه وخدمه وأمرأؤه وأولياؤه ، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم فمنعهم الملك الأفضل من ذلك ، وقال لهم : ” يكفيه أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته “ ، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد ، وأدخل منه إلى الجامع ، ووضع قدّام [باب] (١) النسر ، وصلى عليه القاضي محي الدين بن زكي الدين ، ثم حمل إلى ملحده ، ودخل إلى ملحده الملك الأفضل ، ثم سد باب الملحد على أبيه ، وجلس في الجامع ثلاثة أيام للغزاء ، وأنفقت ست الشام — أخت (٢) السلطان — في هذه النوبة أموالا جزيلة .

ذكر مبلغ عمره وأولاده وتركته

كان مولده — رحمه الله — في شهر سنة اثنين وثلاثين وخمسة ، فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه الديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، ومالكة للشام قريب من تسعة عشرة سنة ، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ، وبناتا واحدة ، فأما أولاده الذكور فهم :

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي — وهو أكبرهم — ، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسة ، وكان عمره يوم ولي الملك بعد أبيه نحو من أربع وعشرين سنة .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ؛ ج ٢ ؛ ص ٢١٤) .

(٢) الأصل : « بنت أخت » وهو خطأ ، والصحيح ما أثبتناه .

والمك العزیز [أبو الفتح] ^(١) عماد الدین عثمان - صاحب مصر - ، ومولده بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة .

والمك الظاهر [أبو منصور] ^(١) غياث الدین غازى - صاحب حلب - ومولده بمصر . [٤٢٣] [منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسة] ^(٢) .

والمك المفضل قطب الدین موسى . [ثم نعت بالمظفر ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين] ^(٣) .

والمك الظافر مظفر الدین [أبو العباس] ^(٤) خضر ؛ - وهما شقيقا الملك الأفضل .

والمك الأغر [أبو سيف] ^(١) شرف الدین يعقوب ، [ولد بمصر فى ربيع الآخر سنة اثنين وسبعين] ^(١) - وهو شقيق الملك العزیز - .

والمك الزاهر [أبو سليمان] ^(١) مجير الدین داود - وهو شقيق الملك الظاهر - [ولد بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين] ^(١) .

والمك المؤيد [أبو الفتح] ^(١) نجم الدین مسعود [ولد بدمشق فى ربيع الأول سنة إحدى وسبعين] ^(١) .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) الأصل : «ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة» وهو خطأ ، وما بين الحاصرتين هو الصحيح نقلناه عن العماد (المرجع السابق) .

(٣) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) . راجع أيضا : (الحنلى : شفاء القلوب ، ص ١٥٤) .

(٤) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد . انظر أيضا ما فات هنا ص ٤٢١ ، هامش ٢

والملك المعز [أبو يعقوب] ^(١) فتح الدين إسماعيل [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين] ^(١) .

وشقيقه الملك الجواد [أبو سعيد ركن الدين] ^(١) أيوب [ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين] ^(١) .

والملك الأشرف [أبو عبد الله] ^(١) نصير الدين ^(٢) محمد [ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسة] ^(١) .

وشقيقه الملك المحسن يمين الدين ^(٣) أحمد [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين] ^(١) .

والملك المعظم نحر الدين [أبو منصور] ^(١) توران شاه [ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين] ^(١) .

وشقيقه الملك الغالب [أبو الفتح ملكشاه ، مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين] ^(٤) .

والملك المنصور سيف الدين أبو بكر [وهو أيضا أخو المعظم لأبويه ، ولد بخران بعد وفاة السلطان] ^(٥) .

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦)

(٢) عند العماد : « عز الدين » انظر أيضا : (الشفاء) .

(٣) كذا في الأصل ، وعند العماد : « ظهور الدين » ، وفي (الشفاء) : « زين الدين » ، وقيل ظهور الدين .

(٤) الأصل : « الغالب فروخ شاه » وقد صحح وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) و(الحنبل : شفاء القلوب ، ص ١٥٤) .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) .

[ونصرة الدين مروان لأم ولد]^(١) .

وعماد الدين شاذى [لأم ولد]^(٢) .

وأما البنت [فهى مؤنسة خاتون ، تزوجها]^(٣) ابن عمها الملك الكامل ناصر الدين
محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب^(٤) .

ولم يخلف - رحمه الله - على ما ذكره القاضى بهاء الدين فى خزانته إلا سبعة
وأربعين درهما وجرما^(٥) واحدا صوريا ، وهذا من مثل رجل له الديار
المصرية والشامية وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط جوده ، ولم ينقل
عن أحد غيره له مثل هذه المملكة لم يوجد فى خزانته إلا هذا القدر اليسير التافه
ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ، ولم يكن له رغبة فى زخرفة بنيان
ولا حسن مسكن .

(١) الأصل : « وشقيقه نصره الدين إبراهيم » ، وما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : « أما البنت فتزوجها » وقد عدلت الصيغة وذكر اسم البنت عن المرجع السابق ،
وانظر : أيضا (شفاء القلوب ، ص ١٧٤) .

(٤) وقد أضاف سبط ابن الجوزى فى (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٤) أن صلاح
الدين كان له ولد اسمه إسماعيل مات فى حياة أبيه ، وحدد : (الخليل : شفاء القلوب ، ص ١٥٤)
العلاقة بين هؤلاء الأولاد بعضهم البعض الآخر ، قال : « الأشقاء منهم ثلاثة : على ، خضر ، موسى ؛
ثلاثة أيضا : تورانشاه ، ملكشاه ، أبو بكر ؛ اثنان : عثمان ، يعقوب ؛ اثنان آخر : غازى ، داود ؛
اثنان آخر : محمد ، أحمد » .

(٥) كذا فى الأصل وفى (سبط ابن الجوزى ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٢ - قلا عن ابن شداد -)
وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) : « دينار » ، ويبدو أن لفظ جرم كانت تعنى
دينارا ، فقد ورد فى (مرآة الزمان ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٣) : « وقال العماد الكاتب : لم يخلف
فى خزانته سوى ستة وثلاثين درهما ، ودينارا واحدا ذهبا » ، هذا ولم أعثر فى المعاجم التى بين يدي
على أن لفظ « جرم » يعنى الدينار ؛ وعن الدينار الصورى انظر ما فات هنا ، ص ٧٦ .

ذكر جمل من سيره — رحمه الله —

ما نقل من أوصافه في الكرم المفرط والشجاعة والعدل وحسن السيرة والحكم أكثر من أن يحصى ، فنذكر من ذلك ما تيسر لنا ذكره .

قال عماد الدين الكاتب :

حسبت ما أطلقه السلطان بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش^(١) للماضرين معه في الجهاد فكان اثني عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من اثمان الخيل المصابة في القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه .

وذكر أنه تأخر عنه في بعض أسفاره الأمير أيوب بن كنان ، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه ، فذكر ديناً ، فأحضر غرماًه وتقبل الدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا .

(١) إكديش وكديش — والجمع أكاديش أو كُدش أو كُدشان — ، عن الفارسية « أكُدش » أو التركية (إِكُدش ، إِنْغُدش ، إِنْكُدج ، إِنْغُدج) ، وهو لفظ كان يطلق على الحصان الخليط ، أو غير الأصيل ، أو الصغير غير الجيد (Cheval de race mélangés, qui n'est point de race, mazette, mauvais petit cheval) وقد يعنى اللفظ أحياناً الخيل الصغيرة الجياد (الأكاديش الجياد) ، وهذه ما كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمراء . انظر (Dozy : Supp. Dict.) هذا والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) — وهو المرجع المتقول عنه هنا — أكثر إيضاحاً وتفصيلاً ، قال : « وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للماضرين معه في صف الجهاد ، مدة ثلاثة سنين وشهر منذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم اقصاهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وجمرة وإكديش ... الخ » .

وقال :

لما كنا بالقدس سنة ثمان وثمانين [٤٢٤] ونحسبنا كتب إليه سيف الدين^(١) بن منقذ — نائبه بمصر — أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ ، فاستنص منها ألفي دينار ، وتَّسَحَّب ، وربما وصل إلى الباب ، فتحيَّل وتمحَّل وكذب ، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب ، فقال : ”قل له : ابن منقذ يطلبك ، فاجتهد ألا تقع في عينه“ ، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا : قدم الرجل إلى حتفه بقدمه .

وذكر أنه حوسب صاحب ديوانه^(٢) فكانت سياقة^(٣) الحساب عليه سبعين ألف دينار [باقية عليه]^(٤) ، فما طلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ما عرفها ، على أن صاحب الديوان ما أنكرها ، ثم لم يرض بالمعطلة له فولاه ديوان جيشه .

(١) كذا في الأصل ، وهو عند العاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) : «سيف الدولة» .

(٢) حدد العاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) — وهو المرجع المقول عنه هنا — السنة التي حدثت فيها هذه الحادثة ، قال : «وما أذكره له في أول سفرى معه إلى مصر سنة اثنين وسبعين أنه حوسب صاحب ديوانه ... الخ» .

(٣) يفهم من النصوص في مراجع العصرين الأيوبي والملوكي أن «السياقة» تعنى كتوف الحساب الختامى أو الميزانية العامة ، فقد ورد فى : (التويرى : نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) عند كلامه عن مباشرة الخزانة : «فالعبدة فيها على العدالة والأمانة ، لأن خزائن الملوك فى هذا العصر لسعتها وكثرة حواصلها وعظم ذخائرها لا تنضبط بسياقة ، فإنه لو طوب كاتب الخزانة بعمل سياقة لحواصلها عن سعة احتاج إلى أن ينتصب لكتابتها سعة كاملة لا يشتغل فيها بغيرها... الخ» ، ثم ذكر بعد ذلك الأمور التي يحتاج إليها مباشرة الخزانة عند عمل السياقة ، وجاء فى (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٢) : «علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج» ، وفى (ص ١١١) ، أنه فى عهد عبد الملك بن مروان «قل الديوان من الفارسية إلى العربية ، واخترعت سياقة المستعربين» .

(٤) أصيف ما بين الحاصرتين عن العاد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

وذكر من ورعه أنه قال :

”رأى لى يوماً دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال : هذا حرام ، فقلت له على سبيل المدافعة والممانعة والمناظرة : أو ليس يحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح؟ ودواتى أنجع ، ومداد دواتى أنفع ، ويراع يراعتى القصير أطول ، وسلاح قلمى أحد وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمى ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها بجوامع كلمى ، فقال : ليس هذا دليلاً صالحاً ، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد والد إمام الحرمين قد ذكر وجهها في جوازه “ .

ثم لم أعد بعدها أكتب بتلك الدواة عنده .

وقال :

وما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولا أخر صلاة عن وقتها ، وكان له إمام راتب ملازم ، فإن غاب صلى به من حضر من أهل العلم ، وكان إذا عزم على أمر من الأمور توكل على الله تعالى ، ولا يفضل يوماً على يوم ، ولا زماناً على زمان .

وحكى القاضى بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - قال :

”كان للسلطان - رحمه الله - ركعات يركعها قبل الصبح إن استيقظ بوقت من الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، قال : لقد رأيته يصلى في المرضى التي مات فيها قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه .

وذكر من عدله :

أنه استغاث إليه رجل من أهل دمشق يقال له ”ابن زهر“ على تقي الدين ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر في مجلس الحكم فما خلصه إلا أن أشهد عليه [٤٢٥] شاهدين أنه قد وكل للقاضى أمين الدين أبى القاسم - قاضى حماة - في المخاصمة

فأقاماً (١) الشهادة عندي في مجنسه ، فأمرت أمين الدين بمساواة الخصم فساواد ، وكان القاضي أمين الدين أبو القاسم الحموي - قاضي حماة - من أكابر جلساء السلطان ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت [اليمن] (٢) على الملك المظفر تقي الدين ، وكان من أعز الناس على السلطان وأعظمهم عنده .

قال القاضي بهاء الدين :

”وكنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على رجل تاجر معروف يسمى (٣) ”عمر الخلاطي“ ، ومعه كتاب حكيم ، وسأل فتعده ، وقال : خصمي السلطان ، وهذا بساط الشرع ، وقد سمعت أنك لا تمحابي“

فقلت :

”وفي أي قضية هو خصمك؟“

فقال :

إن سنقر الخلاطي هو مملوكي ، ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ، ومات عنها واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه“

فقلت :

”يا شيخ ، وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية ؟“

فقال :

”الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكيم ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات“

(١) الأصل : « فأما » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢) .

(٣) الأصل : « ومعه » والتصحيح عن المرجع السابق .

فأخذت الكتاب وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن : حلية سنقر الاخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش^(١) فى اليوم الفلانى فى الشهر الفلانى من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى يده إلى أن شدَّ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجَه عن يده بوجه ما ، وتم^(٢) الشرط إلى آخره .

فتعجبت من هذه القصة ، وأعلمت السلطان بذلك ، فأحضره واستدناه ، حتى جلس بين يدي ، وكنت إلى جانبه ، ثم انفرك عن طراحتة حتى ساواه - رحمه الله - ، ثم ادعى الرجل ، وفتح كتابه ، وقرأ تاريخه ، فقال السلطان

”[إن لى]^(٣) من يشهد أن هذا سنقر فى هذا التاريخ كان ملكى وفى يدي فى بمصر ، وأنى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدي وملكى إلى أن أعتقته“

ثم أحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، وحكوا القصة [٤٢٦] على ما ذكره ، وذكروا التاريخ كما ادعاه السلطان ، [فأبلس الرجل ، فقلت له : ”يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان“]^(٤) وقد حضر بين يدي المولى ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد ، فقال : ”هذا باب آخر“ ، وتقدم له بنخلعة ونفقة بالغة“ .

(١) الأصل : « بارجلس » والتصحيح عن المرجع السابق ، وفى (يا قوت . معج البلدان)

أرجيش من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .

(٢) الأصل : « ثم » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق ليستقيم المعنى .

(٤) هذه الفقرة ساقطة من الأصل ، وقد أضفناها عن المرجع المنقول عنه هنا ، وهو ابن شداد .

وحكى من بسالته وشجاعته :

أنه كان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، وعلى يده جيب ، وينحرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالوقوف في مواضع يراها .

ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قالت له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نقل أنه سُمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسا ، فأذن فيه ، فأحضر جزءا هناك مما له به سماع ، فقرأ عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى .

ولقد انهزم المسلمون يوم المصاف الأكبر بهرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس والعلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل ، فجمع الناس وردهم ونجاهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى كثر المسلمون على العدو ، وفي ذلك اليوم قتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين فارس وراجل ، ولم يزل مصابرا لهم إلى أن صالحهم حين رأى ظهور ضعف المسلمين ، ورأى المصلحة لهم في ذلك .

وحكى من قوة عزمه على الجهاد وشغفه به قال :

«لما أخذ السلطان كوكب في ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ، فسار ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس ، ففعل ، ووقع له أن يمضى معهم إلى عسقلان ويودعهم ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه ألا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت ، وودع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا على الساحل طالبين عكا ،

وكان الزمان عظيما ، والبحر هائجا هيجانا عظيما ، وموجه كالجبال [٤٢٧] كما قال الله تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيل لي أنه لو قال لي قائل لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستخفت برأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر ، هذا كله خطر بيالى لعظم الهول الذى شاهدته من عظم البحر وتموجه ، فبينما أنا فى ذلك إذ التفت إلى وقال :
”فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائه ، وأتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت“

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، وقلت له :
”ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية فى نصره دين الله - عز وجل -“

وحكى له ما خطر لي ، ثم قات له :
”هذه نية جميلة ، ولكن المولى يسير فى البحر العساكر ، ويبقى سور الإسلام ، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه“ .

قال :

”فأنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟“

قلت :

”الموت فى سبيل الله“

فقال :

”غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات“ .

قال :

ولقد مرض السلطان ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل المجمل بسبب مرضه ، فبلغ العدو ذلك ، فخرجوا طمعا أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه ، وهي نوبة النهر ، فخرجوا مرحلة إلى الآبار إلى تحت التل ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب - رحمه الله - على مضض ، ورتب العسكر للحرب ، وجعل أولاده في القاب ، ونزل هو وراء القلب في طلبه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار وهو يستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يركب - رحمه الله - ساعة ، وينزل يستريح ، ويظل بمنديل على رأسه من شدة وقع الحر ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو به ضعفا .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم ، إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر أن يعودوا إلى محل المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، [٤٢٨] وتأخر هو إلى وراء الجبل ، وضربت له خيمة لطيفة .

قال :

فبت تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب - رحمه الله - ، وركبت العساكر ، وأحدثت بالعدو ، ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي من النهر ، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة .

وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا : الأفضل ، والظاهر ، والظافر ، وجميع من حضره منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب ، وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيفطن الرائي لها

من البعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد [يُعدُّ] (١) بخلق عظيم ، وبقى في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار وإلى آخر الليل ، ثم أمرهم أن يبيتوا على [مثل] (١) ما باتوا عليه بارحتهم ، وبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح ، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو .

قال :

ولقد رأيتُه وقد جاءه خبر [وفاة] (١) ولد له بالغ أو مرهق يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ، ولم يعرف أحدا حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك ، سوى أنه لما قرأه دمعت عيناه - رحمه الله - .

قال :

ولقد رأيتُه وقد وصله خبر وفاة ، الملك المظفر تقي الدين - رحمه الله - ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام ، ويقف الناس على ظهر إلى الصباح ، والعدو يبارز (٢) وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير ، فأحضر الملك العادل ، وسليمان بن جنسدر ، وعز الدين ابن المقدم ، وسابق الدين بن الداية ، وأمر الناس فبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولنا أحد عن غلوة سهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه ، وبكى بكاء شديدا حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال - رحمه الله - والعبرة تمنقه : "توفى تقي الدين" ، فاشتد بكأؤه ، وبكى الجماعة ، ثم عدت إلى نفسي ، فقلت : "استغفروا الله من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم وفيم أنتم ، واعرضوا عما سواه" .

(١) ما بين الحاصرين عن (اروسني - ح ٢ ص ٢٢٢) .

(٢) الأصل : « يبارزوا » .

فقال — رحمه الله — :

[٤٢٩] ”نعم ، أستغفروا الله“ ، وأخذ يكررها .

ثم قال : ”لا يعلم هذا أحد“ .

ثم ذكر بهاء الدين — رحمه الله — من حسن خلقه ، قال :

كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا — يَسِّر الله فتحها — ، وكان من عادته أنه إذا نزل من الركوب يمد الطعام ، ويأكل مع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ، [ويصلي]^(١) ويجلس خلوة ، وأنا في خدمته ، يقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ، ولقد قرأ على كتابا مختصرا لسليم الرازي ، يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه .

ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقبل له : ”إن وقت الصلاة قد قرب“ ، فعاد إلى الجلوس ، وقال :

”نصلي ونام“ .

ثم جلس يتحدث حديث متضجر ، وقد أخلى المكان إلا عمن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له :

”أنا الآن ضجر آخرها ساعة“ .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٢) .

فلم يفعل ، وقدم القصة بيده إلى قريب من وجهه بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب على رأسها ، فعرفه ، وقال : ”رجل يستحق“ ، فقال :
”يوقع له المولى“ ، فقال :

”ليست الدواة حاضرة“ ، وكان جالسا على باب الحركة^(١) ، فالتفت فرأى الدواة فقال :

”والله لقد صدق“ .

ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى فأحضرها ، ووقع فيها .

فقلت له :

قال الله تعالى :

”وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ“ وما أرى المولى إلا وقد شاركه في هذا الخلق .

فقال : ”ماضرنا شيء ، قضينا حاجته وحصل الثواب“ .

قال :

ولقد كانت طراحته تُداس عند التراحم عليه لعرض القصص ، وهو لا يتأثر بذلك .

قال :

ولقد نفرت بغلتي من الجمال ، وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته ، وهو يبسم .

(١) راجع ما فات هنا ، ص ٤٥ ، هامش ٢

قال :

لقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس، وكان إذ ذاك كثير الوحل،
فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه، وهو يتسم،
وأردت التأخر عنه لذلك، فما تركني .

ولقد واجهه الجناح بما واجهه به لما امتنع العسكر [٤٣٠] عن الأنكلتير،
وقد تقدم ذكر ذلك في موضعه، وظن الناس أنه ربما يصاب أو يقتل، وفي ذلك
اليوم نزل بازور وقد وصله من دمشق فأكهة كثيرة، فطلب الأمراء أياكلوا،
فحضروا، فرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الأمن والطمأنينة والسرور.

قال :

واقدم قايت في خزائنه كيسان من الذهب المصري وكيسان^(١) من الفلوس،
فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم عن العدل .

قال :

لقد كان حافظا لأنساب العرب، [و] خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها
بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره .

قال :

وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته، ومطعمه ومشربه، وتقلبات
أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحدا إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يجب
أن يسمع عن أحد إلا الخير، وطاهر اللسان، فما رأيت له أولع بشتم قط، وطاهر
القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط .

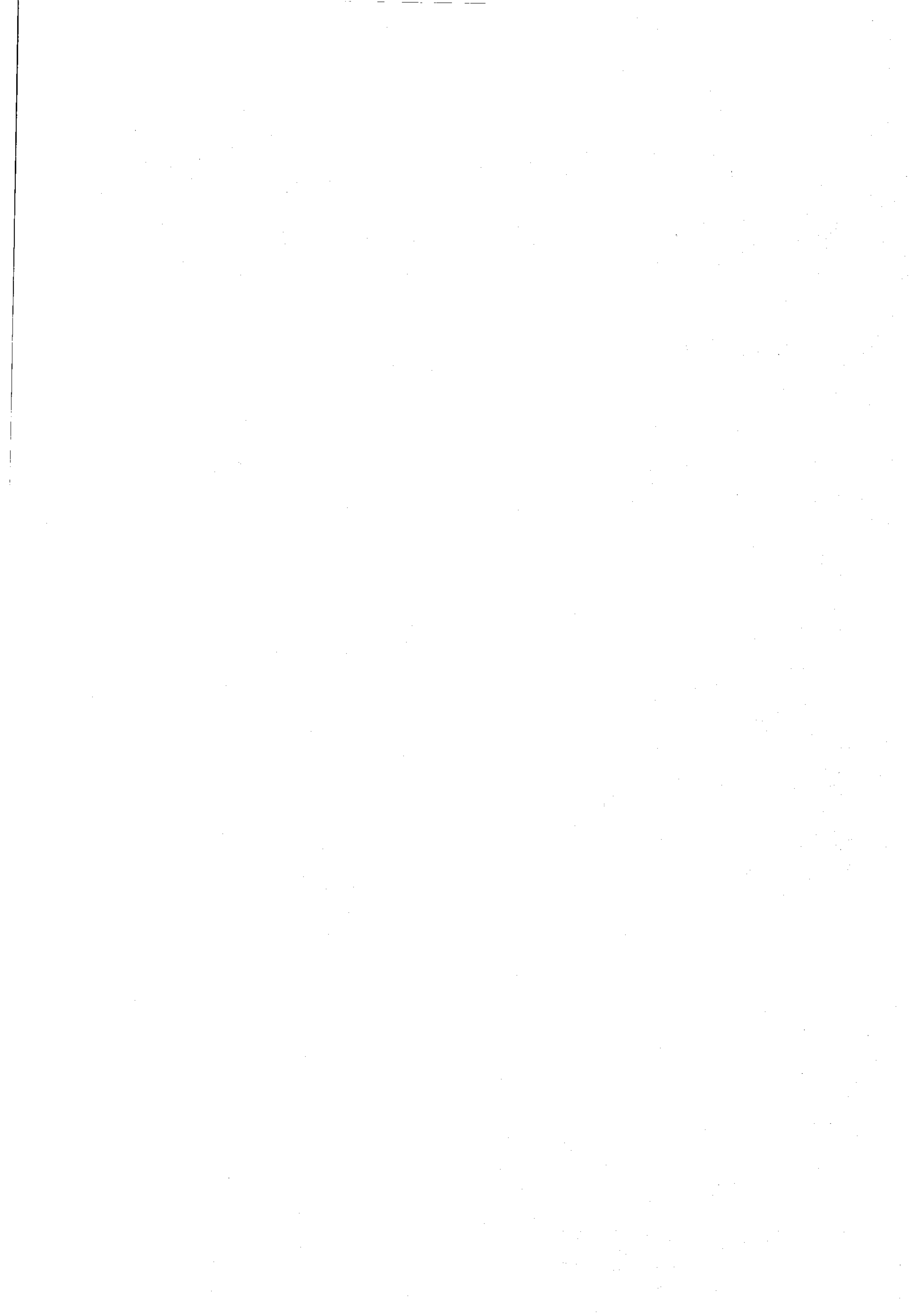
(١) الأصل : « وكيسر » .

وكان حسن العقد والوفاء ، وما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكف حاجته ، وسلمه إلى من يكفله ، ويعتني بتربيته .

قال عماد الدين الكاتب :

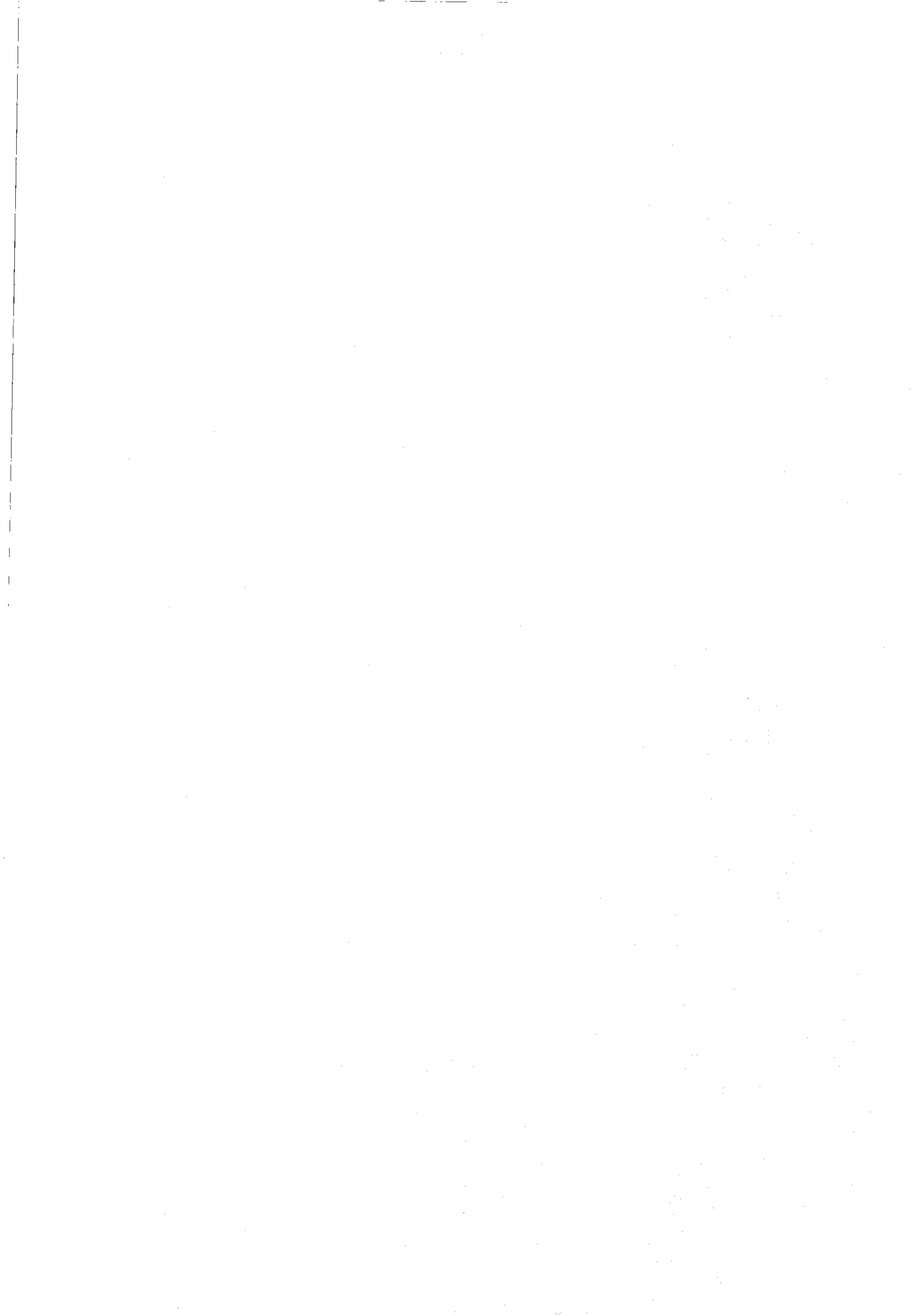
مات لموت السلطان الملك الناصر الرجال ، وفات بفواته الأفضال ، وفاضت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب الملاحون ، وطردت الضيوف ، وأنكر المعروف ، وبغى الزمان بواحد ولساطانه ، ورزى الإسلام بمشيد أركانه ، كان - رحمه الله - حسن الأخلاق ، طيب الأعراق ، ضحوكا بمهابة ، محوما بجلالة ، يرشد إلى الهدى ، ويهدي إلى الرشاد ، معصب الكبار ، ولا يسامح بالصغار ، العاملون في عدله ، والعالمون في فضله ، والبلاد في أمنه ، والعباد في منته ، والإسلام في حماية حميته ، والدين في إدالة دولته .

ثم ذكر من هذا كثيرا ، ولقد صدق في كل ما ذكر ووصفه به - رحمه الله [٤٣١] ومد روحه -



الملاحق

—



(١)

سجل بقلم القاضي الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية

أسد الدين شيركوه الوزارة بعد قتل شاور

عن (القلقشندی : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ - ٩٠)

و (الحنبلي : مخطوطة شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ص ١٨ - ١١٠)

وكتب القاضي الفاضل عن أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمي ،
والوزارة يومئذ قائمة مقام السلطنة ، وهذه نسخته :

” من عبد الله ووليه ، عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين :
إلى السيد ، الأجل ، الملك ، المنصور ، ساطان الجيوش ، ولي الأمة ، نخر
الدولة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبي الحرث
شيركوه العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام
قدرته وأعلى كلمته .

[٨١] سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ،
ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه
وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فالحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعناده ، القادر
الذي يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده ، القوي على تقريب
ما عزبت (١) الهمم باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده ، مؤتي
الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعه ممن يشاء بما اقتطفه من كجائر
فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته الغزائم ، واستقبله الأعداء بوجوه
الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة ما لا تصنع الهمم ، وخامت آثاره على

(١) كذا في الأصل ، ولها « ما اعترفت » .

الدنيا ما تخضعه الأنوار على الظلم ، وعلت نظراؤه بما وجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم ، وذاد عن موارد أمير المؤمنين من هو [منه] أولى بها وأبى الله سبحانه وتعالى إلا إمضاء ما حتم ، ورام إخفاء فضائله وهل يشترط طيب المسك إلا إذا اكتتم ، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينهم ، وقضى على يده من نصرته الدين دينهم :

”لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم“ (١)

والحمد لله الذي خص جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء ، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء ، وأقام به القسطاس ، وطهر به من الأدناس ، وأيده بالصابرين في البأساء والضراء وحين لباس ، [٨٢] وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النور سارياً منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس : ” ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس “ (٢)

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه ، وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامه ، وأوضح به منار الحق وأعلامه ، وجعله شهيداً عصره ، وحجة أمره ، وباب رزقه ، وسبيل حقه ، وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بوليائه ، والمضمونة لذويه العقبي ، والمسئول له الأجر في القربى ، والمفترض الطاعة على كل مكلف ، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلّف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم ، والهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، لا يقبل عمل إلا بخفارة ولائه ، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعه ، ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه ،

(١) سورة ٨ (الأقوال) ، الآية ٦٣ (م)

(٢) سورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٣٨ (ك)

ليتضح النهجُ القاصد ، ولتقوم الحجّة على الجاحد ، وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد ، وليأتى الله به بيان الأعداء من القواعد ، وليبين لهم الذى اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يمجده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذى ظهر فبهراً ، وانتشر فعم نفعه البشر ، والإظهار الذى اشترك فيه جنود السماء والأرض ، والإظهار الذى عقده الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقص ، والانتصار الذى أبان الله به معنى قوله :

” وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ “ (١)

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين ، المبعوث رسولاً فى الأميين ، الهادى إلى دار الخلود ، المستقل بيانه استقلال عوثر الجدود ، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود ، والصفية بشريته مشارع النعمة ، والواضحة به الحنيفة البيضاء [٨٣] لئلا يكون أمر الخلق عليهم غمّة ، وعلى أبينا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ناصر شريعته وقسيمه فى النسب والسبب ، ويد الحق التى حكم لها فى كل طاب بالغاب ، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ، ومصايح الظلم ، ومفاتيح النعم ، والمحققين دعوى من باهاهم وفاخر ، والباذلين جهدهم فى جهاد من اتخذ مع الله إلهاً آخر ، وسلم وردد ، ووالى وجدد .

وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى إليه من إيالة الخليفة ، ومنحه من كرم السجية وكرم الخليفة ، وبسطه من يده على أهل الخلاف ، وأنجزه من موعوده الذى ليس له إخلال ولا إخلاف ، وأوضحه من براهين إمامته للبصائر ، وحفظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقية المصاير ، وأورثه من المقام الذى لا ينبنى إلا له فى عصره ، واستخدم فيه السيوف والصروف من تادية فرائض

(١) السورة ، (البقرة) ، الآية ٢٥١ (م) .

نصره ، وأظهر له من المعجزات التي لا يخلو منها زمن ، وظاهر له من الكرامات ، التي زادت على أمنية كل متين ، وأتمنه عليه من أسرار النبوة التي رآه الله تعالى لها أشرف مودع وعليها أكرم مؤتمن ؛ وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب ، وتفليل أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده - صلى الله عليهم وسلم - أهل الأحزاب ، يواصل شكر هذه النعم التوام ، ويعرف بعوارفها الفرادي والتوام ، ويقدم بين يدي كل عمل رغبة إليه في إيضاح المرشد ، ونية لا تضل عنها الهداية ولا سيما وهو الناشد ، ويستخير عالما أنه يقدم إليه أسباب الخير ، ويناجيه فيطاعه الإلهام على ما يحلى السير ويحلى الغير ، ويأخذ بيد الله حقه إذا أغتصبت حقوقه ، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافه واستجيز عقوقه ، ويفزع إلى الله تعالى إذا قرع الضائر ، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكت الشبه البصائر ، فما اعترض ليل كربة إلا انصدع [٨٤] له عن بحر وضاح ، ولا انقض عقد غادر إلا عاجله الله سبحانه بأمر فضاح ، ولا انقطعت سبل نصرة إلا وصلها الله تعالى بمن يرسله ولا انصدعت عصا ألفة إلا تدارك الله تعالى بمن يجرده تجريد الصفاح .

وإذا عدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة ، والمنح الكريمة ، واللطائف العظيمة ، والعوارف العميمة ، والآيات المعلومة ، والكفايات المحتومة ، والعادات المنظومة ، كنت أيها السيد الأجل - أدام الله قدرتك ، وأعلى كلمتك - أعظم نعم الله تعالى أثرا ، وأعلاها خطرا ، وأقضاها للأمة وطرا ، وأحقها بأن تسمى نعمة ، وأجدرها بأن تعد رحمة ، وأسماها أن تكشف غمة ، وأنضاهها في سبيل الله سبحانه عزمه ، وأمضاهها على الأعداء حدا ، وأبداها في الجهاد جدا ، وأعداهها على الأعداء يدا ، وأحسنها فعلا لليوم وأرجاها غدا ، وأفرجها للأزمة وقد كادت الأمة تصير سدى ، وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيدا ، وأبقاهم فعلة لا ينصرم فعلمها الذي بدا أبدا .

فليهنئك أنك حزبُ الله الغالب، وشهابُ الدين الثاقب، وسيفُ الله القاضب،
وظلُّ أمير المؤمنين الممدود، وموردُ نعمته المورود، والمقدَّم في نفسه وما تؤخره
إلا لأجلِ معدود؛ نصرته حين تناصر أهل الضلال، وهاجرت إليه هاجرا برد
الزلال وبرد الظلال؛ وخضت بحار الأهوال، وفي يدك أمواج البِصال؛
وها في جيدك اليوم عقدُ جواهرٍ منه وتظم لآل، بل قد بانَت السماء وزينت
منك بنجوم نهارٍ لا نجوم ليالٍ؛ وكشفت الغياء وهي مطبقة، ورفعت نواظر
أهل الإيمان وهي مطرقة؛ وعقصت أعنة الطغيان وهي مُطلقه، وأعدت
بمخنتك على الدولة العلوية بهجة شبابها المونقه، وأنقذت الإسلام وهو على شفى
جرف هار، ونفذت حين لا تنفذ [٨٥] السهام عن الأوتار؛ وسمعت دعوته
على بعد الدار، وأبصرت حقَّ الله ببصيرتك وكم من أناس لا يرونه بأبصار؛
وأجلت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين دأهنه
من لا بصيرة له ولذبه، وأقدمت على الصايب رجمراته متوقدة، وقاتلت أولياء
الشیطان وعمراته متمرده.

وما يومك في نصرة الدولة بواحد، ولا أمسك مجحود وإن رَغِمَ أنفُ
الجاحد، بل أوجبت الحقَّ بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة
بعد غمرة، واقتربت صهوة هذا المحل الذي رقالك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك،
وأما الله العاجزين بما في صدورهم من حسراتٍ لحاقتك، وكنت البعيد القريب
نصحه، المحجوب النافذ بمجته المدعورة أعداء أمير المؤمنين [به] إن فوق سهمه
أو أشيرع رحمه، وما ضرك أن سيخطك أعداء أمير المؤمنين وأmir المؤمنين قد ارتضاك،
ولا أن منعك المعاند حتمك وقد قضى لك واقتضاك، وما كان في محاجرتك عن
حظك من خدمة أمير المؤمنين الذي أنت به منه أولى، ومدافعتك عن حرك
في قرب مقامه الذي لا يستطيع طولا، إلا مغالبة الله فيك والله غالب على أمره،
ومباعدتك وقد قربك الله من سر أمير المؤمنين وإن بعدت من جهيره.

استشرفتكَ الصدور ، وتطلعت إليك عيون الجمهور ، واستوجبت عقيلةُ النعم بما قدمت من المهور ، ونصرت الإيمان بأهله ، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله ، وناهضت الكفرة بالباع الأشد ، والرأي الأسد ، ونادتهم سيوفك - ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد - وأدال الله بك ممن قدم على ما قدم ، وندم فما أغنى عنه الندم ، حين لجَّ في جهالته ، وتمادى في ضلالته ، واستمر على استطالته ، وتوالت منه عثرات ما أتبعها باستقالته ، فكم اجتاح للدولة رجالا ، وضيق من أرزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالا ، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى ، واتسعت هفواته من التعديد [٨٦] وما العهد منها ببعيد .

وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تُنسخَ أحاديثها ، وأتى الأئمة منك بمن هو وليها ، والأئمة بمن هو مغيبها ، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه - على بعد الدار - ، وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار ، واختارك على ثقة من أن الله تعالى يُحمده فيك عواقب الاختيار ، ورأى لك إقدامك ورقابُ الشرك صاغرة ، وقدومك وأفواهُ المخاوف فاغرة ، وكرتكَ في طاعته وأبى الله تعالى أن تكون خاسره ، وسطا بك حين تمالي بك المشركون ، وتمثل لرساهم بقوله سبحانه : "اخسبوا فيها ولا تكلمون" (١) وأنفت عزته هجئة الهدنة ، وقال لأوليائه : "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" (٢) وازدري بنخازيرهم انتظارا لوصولك بأسود الإسلام ، وصبر على علم أنك تلي نداءه بالسنة الأعلام قبل السنة الأقلام ، فكنت حيث رجا وأفضل ، ووُجدت بحيث رعى وأعجل ، وقدمت فكتب الله لك العلو ، وكبت بك العدو ، وجمع على التوفيق لك طرفي الرواح والغدو ، ولم يلبس الكافر لسهامك جنة إلا الفرار وكان "كشجرة خبيثة أُجْتُت من فوق الأرض ما لها من قرار" (٣)

(١) السورة ٢٣ (المؤمنون) ، الآية ١٠٨ (ك) .
(٢) السورة ٨ الأنفال () ، الآية ٣٩ (ك) .
(٣) السورة ١٤ (ابراهيم) الآية ٢٦ (ك) .

فَللهِ دَرَكٌ حِينَ قَاتَلْتَ بِمُخْبِرِكَ قَبْلَ عَسْكَرِكَ ، وَنَصَرْتَ بِأَثِيرِكَ قَبْلَ عَشِيرِكَ ،
وَأَكْرَمَ بِكَ مِنْ قَادِمِ خَطَوَاتِهِ مَبْرُورَهُ ، وَسَطَوَاتِهِ لِلْأَعْدَاءِ مَبِيرَهُ ، وَكُلَّ يَوْمٍ مِنْ
أَيَّامِهِ يَعْدُ سِيرَهُ ، وَإِنَّكَ لِمَبْعُوثٌ إِلَى بِلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَ السَّحَابِ الْمُسْتَخْرَ ،
وَمُقَدِّمِ فِي النِّيَّةِ وَإِنْ كُنْتَ فِي الزَّمَانِ الْمُؤَخَّرِ ، وَطَالِعِ بِنَيْئَةِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَعِيدِ أَنْ
يُفِيَّ اللهُ عَلَيْهَا بِلَادَ الْكُفَّارِ ، وَرِجَالَ جِهَادِ عَدَدَانَهُمْ عِنْدَنَا مِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ ،
وَأَبْنَاءِ جِلْدِ يَشْتَرُونَ الْجَنَّةَ بِعِزَائِمِ كَالنَّارِ ، وَغُرَرِ نَصْرِ سَكُونِ الْعَدُوِّ بَعْدَهَا
غُرُورِ وَنَوْمِهِ غِرَارِ .

ولما جرى من جرى ذكره على عادته في إيحاشك والإيحاش منك بكواذب
الظنون ، ورام رجعتك عن الحضرة وقد قرئت بك الدار وقرت بك العيون ، وكان [٨٧]
كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : " لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ " (١) ، هنالك غضبت نفوس الإسلام ففتكت
به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه مباديها ، وأخذته
من أخذته أليم شديد ، وعدل فيه من قال " وما ربك بظلام للعبيد " (٢) ،
" وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " (٣) .

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه ، وعضدت الحق وأضعفت قواه ، وجنيت
عقبي مانويت وجني عقبي مانواه ، وأبيت إلا إمضاء العزم في الشرك وما أمضاء ،
" أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله " (٤) ، ودفعت الخطب الأشق ،
وظلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل تطلع الأنوار إلا من الشرق ؟ وقال لسان

(١) السورة ٩ (التوبة) الآية ٤٨ (م) .

(٢) السورة ٤١ (فعلت) ، الآية ٤٦ (ك) .

(٣) السورة ٥٠ (ق) ، الآية ٣٧ (ك) .

(٤) السورة ٤٥ (الجمانية) ، الآية ٢٣ (ك) .

الحق "فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ" (١) ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عِدَّةً قَدَّمَهَا ثم قضاها ، وولاه كما ولى جدّه — صلى الله عليه وسلم — قِبلةً يرضاها ، وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانه وعماره ، وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمس كنت عقدًا إضماره .

وقلّدك أمير المؤمنين أمرًا وزارته ، وتدير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتمت عليه دعوة إمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدير ما عدّقه الله بأمر المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيتها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيتها ، وما يفتحه الله تعالى على يدك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد ، وقرب عليك كل غرض بعيد ، وتناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع [٨٨] والبذل ، والرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ، والتنبيه والغض ، والإنعام والانتقام ، وما توجب السياسة امضاءه من الأحكام ، تقايدا لايزال به عقد نورك نظيا ، وفضل الله عليك وفيك عظيمًا ، "ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَاجِلاً" (٢) .

فتقلد ماقلدك أمير المؤمنين من هذه الرتبة التي تتأخر دونها الأقدام ، والغاية التي لا غاية بعدها إلا ما يملك الله به من الدوام ، فأقد تناولتها بيد في الطاعة غير قصيرة ، ومساع في خدمة أمير المؤمنين أيامها على الكافرين غير يسيره ، وبذلت لها مامهد سبابها ، ووصلتها بما وصل بك حبابها ، وجمعت من أدواتها ما جمع لك شمامها ، وقال لك لسان الحق "وَكَاُنُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَاهَا" (٣) .

(١) السورة ٦ الأنعام ، الآية ٨١ (ك) .

(٢) السورة ٤ (النساء) ، الآية ٧٠ (م) .

(٣) السورة ٤٨ (الفتح) ، الآية ٢٦ (ن) .

وتقوى الله سبحانه : فهي وإن كانت لك عادة، وسبيل لا حيب إلى السعادة، فإنها أولى الوصايا بأن تتيمن باستفتاحها ، وأحق القضايا بأن تبتدىء الأمور بصلاحها ، فاجعل تقوى الله أمامك ، وعامل بها ربك وإمامك ، واستنجح بها عواقبك ومبادئك ، وقاتل بها أصدادك وأعدائك ، قال الله سبحانه في كتابه المكنون : **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »** (١).

والعساكر المنصورة: فهم الذين غدوا بولاء أمير المؤمنين ونعيمه ، وربوا في حجور فضله وكرمه ، واجتأبهم من لم يحسن لهم النظر ، واستباحهم بأيدي من أضرر لما أضرر ، وظالم شهدوا المواقف ففرجوها ، واصطلوا المخاوف وتولجوها ، وقارعوا [٨٩] الكفار مسارعين للأعنة ، مقدمين مع الأئمة ، مجرين إلى غايتين : إما إلى النصر وإما إلى الخسرة ، ودبروا الولايات فسدوا ، وتقلدوا الأعمال فيما تقلدوا .

واعتمد أحمرهم وأسودهم ، وأقربهم وأبعدهم ، وفارسهم ورجالهم ، وراحمهم ونابيلهم بتوفير الإقطاع وإدراج الثقات ، وتصفية موارد العيش الموثقات .

وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة متفقة ، وعزائمهم في منازعة أعداء الدين مستدقة ، وأجرهم على العادات في تقايد الولايات ، واستكفهم لما هم أهله من مهمات التصرفات ، وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق ، واستنهضهم في الجهاد فهذا المضمار وأنت السابق ، وقم في الله تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانع والعوائق ، ليقذف الله بالحق الذي نصرته على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

والشرع الشريف : فانت كافل قضاته ، وهادي دعائه ، وهو منار الله تعالى الأرفع ، ويده التي تمنع الظلم وتدفع ، فقم في حفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، وتشديد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية ١٨ (م) .

أخذى عهودها وأبنائها ، قيام من يعول في الأمانة على أهل الديانة ، ويستمسك
بمحقوق الله تعالى الحقيقة بالرعاية والصيانة .

والأموال : فهي سلاحُ العظام ، ومواد العزائم . وعتاد المكارم ، وعماد
المحارب والمسلم ، وأمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرِكَ عهود النضارة ،
وأن يكون عدلك في البلاد وكيَل العِمارة .

والرعايا : فقد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات ، وإسراف الجنايات ،
وتوالي عليهم من ضروب النكيات ، فاعمر أوطانهم التي أنحربها الجورُ
والأذى ، وازب عن مواردكم الكدر والقذى ، وأحسن حفظَ وديعة
الله تعالى منهم ، وخفف [٩٠] الرِوَاطة ما استطعت عنهم ، وبدلهم
من بعد خوفهم أمنا ، وكف من يعترضهم في عرض هذا الأدنى .

والجهاد : فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد ، وسطوةُ الله تعالى
التي يَمْضِيها في شر العباد على يد خير العباد ، ولك من القناء فيه مضرا وشاما ،
وثبات الجأش كرا وإقداما ، والمصاف التي ضربت فكننت ضارب كُتبتا ،
والمواقف التي اشتدت فكننت فارح هبواتها ، والتدريب الذي أطلق جدك ،
والتجريب الذي أورى زندق ، ما يغني عن تجديد الوصايا البسيطة ، وتأكيد
القضايا المحيطة ، وما زلت تأخذ من الكفار باليمين ، وتعظم فتوحك في بلاد الشمال
فكيف تكون في بلاد اليمن ، فاطلب أعداء الله برا وبحرا واجلب عليهم سهلا
ووعراء وقسم بينهم الفتكات قتلا وأسرا ، وغارة وحصرا ، قال الله تعالى في كتابه
المكنون : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ
غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " (١)

(١) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ١٢٣ (م) .

وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير ، وخبرتك تدلك على مرشد الأمر ، «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» (١) ، فانت تبتدع من المحاسن مالا تحيط به الوصايا ، وتخترع من الميا من ما يتعرف بركانه الأولياء والرعايا .

والله سبحانه وتعالى يحقق لأمر المؤمنين فيك أفضل المخايل ، ويفتحُ على يدك مستغاق البلاد والمعاقل ، ويصيبُ بسهامك من الأعداء النجور والمقاتل ، يأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل ، ولا يضيع لك عملك في خدمة أمير المؤمنين إنه لا يضيع عملَ عامل ، ويجرى الأرزاق والآجال بين سبيك الفاضل وحكمك الفاضل .

فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ، إن شاء الله تعالى ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) (السورة ٣٥ فاطر) ، الآية ١٤ (ك) .

(٢)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي على طرّة التقليد السابق
بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة

عن : (الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧)

هذا عهد لا عهد لوزيرٍ بمثله ، وتقليد أمانةٍ رآك الله تعالى وأمير المؤمنين
أهلاً لحمله ، والجمعة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبيله ، نخذ
كتاب أمير المؤمنين [٤٠٧] بقوة ، واتحى ذيل الفخار بأن اعترت خدمتك
إلى نبوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً .

« وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » (١)

(١) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٣)

سجل بقلم القاضي الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١)

من عبد الله ووليه ، عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين .
إلى السيد الأجل (على نحو ما تقدم في تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد ، فالحمد لله مصرف الأقدار ، ومشرّف الأقدار ، ومحصى الأعمال والأعمار ، ومبتلى الأخيار والأبرار ، وعالم سر الليل وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلما تتعاقب فيه أحوال الأقدار : بين انقضاء سرار واستقبال أبدار ، وروضا إذا هوت فيه الدوحات أُنعت الفروع سابقة النور ، بأسقة الثمار ، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها .

والحمد لله الذي اختار لأmir المؤمنين ودلّه على مكان الاختيار ، وأغناه باقتضاب الإلهام عن روية الاختيار ، وعضد به الدين الذي ارتضاه وعضده بمن ارتضاه ، وأنجز له من وعد السعد ما قضاه قبل أن اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلمهم من مضاي إليه غير مضاه ؛ وجعل مملكته عرينا لا عتازها بالأسد وشباهه ، ونعمته ميراثا أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله ، وأظهر في هذه القضية ما أظهره في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله ؛ فأولياؤه كآيات التي تنسق درارى أفعها المنير ، وتنسق درر عقدها التنظيم النصير : " مَا نَسَخُ مِنْ آيَةٍ

أَوْ نَسَّأَهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) [٩٢]
 والحمد لله الذي أتم بأمر المؤمنين نعمة الإرشاد، وجعله أولى من الخلق ساد، وللحق
 شاد ؛ وآثره بالمقام الذي لا ينبغي إلا له في عصره ، وأظهر له من معجزات نصره
 ما لا يستقل العدد بحصره ؛ وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره ، وجعل
 الإمامة محفوظة في عقبه والمعقبات تحفظه بأمره ؛ وأودعه الحكم التي رآه لها
 أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذي جهل من ظن غير نوره
 مطالعه ، وآتاه ما لم يؤت أحدا ، وأمات به غيا وأحيا رَشَدا ، وأقامه للدين
 عاضدا فأصبح به معتضدا ؛ وحفظ به مقام جده وإن رَغِمَ المستكبرون ، وأنعم
 به على أمته أمانا لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون ، و" مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " (٢)

يحمده أمير المؤمنين على ما آتاه من توفيق يدل له الصعب الجاح ، ويدنى منه
 البعيد النازح ؛ ويخاف على الدين من صلاحه الخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد
 السعود ، ويريه آيات الإرشاد فإنه نازح (؟) قدح القادح .

ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهر بهديه
 من رجس الكفر وخبثه ؛ وأجار باتباعه من عنت الشيطان وعبيته ، وأوضح
 جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثله .

وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادلت يده بلسان ذي الفقار ،
 وقسم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنة والنار ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما
 الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد وأصفى بما سفكوه من دماهم موارد الرشاد ،
 وجرت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب وأرزاق العباد ؛ وسلم ومجد ، ووالى وجند .
 (٩٣) وإن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التي هي مهبط الهدى .

(١) السورة ٢ (البقرة) . الآية ١٠٦ (ك) .

(٢) السورة ٨ (الأتقال) . الآية ٣٣ (ك) .

ومحط الزدى ، وموريد الحياة للولى والردى للعدا ، من لطيف يتلافى الحادثة
ويشعبها ويرأبها ، ونعمة تبلغ بها النفوس أربابها ، وموهبة تشد موضع الكلم ،
وتسد موضع الثلم ، وتجلى غم الغم ، وتحلى مغام النعم ، وتستوفى شرائط
المناجح ، وتستدنى فرارط المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة في السيد الأجل
الملك المنصور — رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه — ،
التي كادت لها أواحي الملك تترزع ، ومباني التدبير تتضعع ، إلا ما نظر فيه
أمير المؤمنين بنور الله من اصطفاك أيها السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله
قدرتك — لأن تقوم بخدمته بعده ، وتسد في مقدمة جيوشه مسده ، وتقفو
في ولاته أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك ، حتى
تستوفى حظّه من أمير المؤمنين بأجر لا يضيع الله فيه عمله ، فاستوجب مقعد
صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله ، واستحق أن ينظر الله وجهه بما
أخاقه الله من جسمه في مواقف الجهاد وبذله ، ومضى في ذمام رضا أمير
المؤمنين ، وهو الذمام الذى لا يقطع الله منه ما أمره أن يصله ، واتبع من دعائه
تخف أول ما تلقاه بالروح والريحان ، وذخرت له من شفاعته ما عليه معول
أهل الإيمان في الأمان ، فرعى الله له قطع البيداء إلى أمير المؤمنين
وتجشمه الأسفار ، ووطأه المواطئ التي تغيظ الكفار ، وطلوعه على أبواب أمير
المؤمنين طلوع أنوار النهار ، وهجرته التي جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر
الأنصار ، وشكره ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك النار ، وبلغ [٩٤] الإسلام
الإيثار ، وما لقي ربه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح ، ومشتجر الرياح ،
ومفترق الأجسام من الأرواح ، وكانت مشاهدته لأمر المؤمنين أجرا فوق الشهادة ،
ومنة لله تعالى عليه له بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وحتى رآك أيها
السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله قدرتك — قد أقررت ناظره ، وأرغمت
مناظره ، وشددت ساطانه ، وسددت مكانه ، ورمى بك فأصاب ، وسقى بك
فصاب ، وجمعت ما فيه من أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب ، ولقنت

ما أفادته التجارب جملة ، وأعانك المحس التي هي بك حجة . وقب عليك
إسناد الفتكات فتقابت ، وأوضح لك منهاج البركات فتقابت ، وسددك سهما ،
وجردك شهما ، وانتضالك فارتضاك غربا ، وآثرك على آثر ولده إمامة في التدبير وحرب .
وكننت في السلم لسانه الآخذ يجمع القلوب ، وفي الحرب سنانه النافذ في مضايق
الخطوب ، وساقته إذا طاب ، وطابعته إذا طاب ، وقاب جيشه إذا ثبت ،
وجنحه إذا وثب ، ولا عذر لثبيل نشأ في حجر أسد ، ولا للال استمدلى النور من
شمس واستمدت .

هذا ، ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من
قديم الفخر وحديث ، لأشنتك غريزة عزيزة ، وسجية سجيية ، وشية وسية ،
وخلائق فيها ماتحب الخلائق ، ونحائز لم يحز منهاها حائز ، ومحاسن ماؤها غير آسن ،
وما أثر جد غير عشر ، وفخر غفل عنها الأول ، استأثر بها الآخر ، وبراعة
لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان ، تضطرم نارها ، وخلال جلال عليك
شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي مساعد لديك كحلم نورها تتفتح ، فكيف وقد
جمعت لك في المجد بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سالك من اعطفاء أمير
المؤمنين ماذا حصل ثم على الخلق عم . فيومك واسطة في المجد بين غدك وأمسك ،
وكل ناد من أندية الفخار [٩٥] لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يميك ،
فبشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولة منكم بوائد وولد ، وأن شمس منك بكم
كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد .

ولما رأى الله تقاب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولأه من اختيارك قبله ،
وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزرا للملة ، فناجته مرشد الإلهام ،
وأضاءت له مقاصد لا تعقها كل الأفهام ، وعزّم له على أن قلّدك تدبير مملكته
الذي أعرفت في إرته وأغرقت في كسبه ، ومهد لك أبعده غاية في الفخر
بما يسر لك من قربه .

ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر
فيك قول ربه : **«وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ»** (١) ، وقلدك لأنك سيفٌ
من سيوف الله تعالى يحقُّ به التقليد وله التقليد ، واصطفاك على علمٍ بأنك واحدٌ
مستظم في معنى العديد ، وأحيا في ساطان جيوشه سنة جده الإمام المستنصر بالله
في أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون
أفضل من الأفضل ، وخرج أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء
بكتب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التي أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ،
وحلاك نعمتها ، و لك نعمتها ، فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبها التي
تناهت في الإنافة ، إلا أن لارتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة ، وتبوأ
منها صدراً لا تتطاع إليه عيون الصدور ، واعتقل منها في درجة على مثاها
تدور الدور :

«وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (٢) :

وقل **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»** .

وباشر مستبشرا ، واستوطن متديرا ، وأبسط يدك فقد فوض إليك الأمر
أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وأرفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، وأثبت
على درجات [٩٦] السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودخضا ، واعقد حبي
العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا ، وأنفذ فيما أهلك له فقد أدى
بك نافلة من السياسة وفرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف .

وثقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف ، واسحب ذيول الفخار
حيث لاتصل التيجان ، واملا لحظا من نور الله تعالى حيث تتقي الأبصار لحين

(١) السورة ٧ (الأعراف) ، الآية ٥٨ (ك) .

(٢) السورة ٣١ (لقمان) ، الآية ١٧ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ٣٤ (ك) .

الأجفان ؛ إن هذا هو الفضل المبين ، وارتبطه بالتقوى التي هي عمروة النجاة ،
وذخيرة الحياة والممات ، وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات ؛ وحيث
ما قدمت النفوس لغدها في أمسها ، وجادلت [به] يوم تُجَادِلُ كُلُّ نَفْسٍ عَنْ
نَفْسِهَا ، قال الله سبحانه وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا : ” وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى
وَلَا تُظْلَمُونَ قِيلًا “ (١)

واستم بالعدل نعم الله تعالى عليك ، وأحسن كما أحسن الله إليك ؛ وأمر
بالمعروف فإناك من أهله ، وأنه عن المنكر كما كنت تزهدت عن فعله ، وأولياء
أمير المؤمنين ، وأنصاره الميامين ، ومن يحق بمقام ملكه من الأمراء المطوقين ،
والأعيان المعصيين ، والأمانل والأجناد أجمعين ، فهم أولياؤه حقا ، ومماليكه
رقا ، والذين تبوءوا الدار والإيمان سبقا ، وأنصاره غربا كما أن عسكري أنصاره
شرقا ؛ فهم وهم يد في الطاعة على من ناوهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وتحاكم فيهم
وأنت عند أمير المؤمنين أعلام .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور - رضى الله عنه - استمطار لهم
[من] إناهم أمير المؤمنين المسامحة بعاقبتهم ، وواس في هذه المنقبة التي استحق
بها حسن الذكر بين طوائفهم وذرقتهم ، فصنهم من جائحات الاعتراض ، وابدل لهم
صالحات الأغراض ؛ وارفع دونهم الجباب ، ويسر لهم الأسباب ، واستوف
منهم عند [٩٧] الحضور إليك غايات الخطاب ؛ وصرفهم في بلاد أمير المؤمنين
ولاية وحماة ، كما تصرفهم في أوقات الحرب لمساء وكفاة ؛ وعرفهم بركة ساطانك ،
واقترد قلوبهم بزمام إحسانك .

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك
ونهيك ؛ فاستعمل منهم من أحسن عملا ، فأما بالعنايات فلا .

(١) السورة ٤ (النساء) ، الآية ٧٧ (م) .

والجهاد: فأنت راضع درد ، وناشئة حجرة ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الجبل مساكنك ؛ وفي ظلمات مشاكلة تجلي محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى ميامنك ؛ فشمونه عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا ؛ واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبي ؛ وأسيل الرهاد بدماء العدا ، وارفع برءوسهم الربا ، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك ، ومشهودا به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك .

والأموال: فهي زبدة حاب اللطف لا العنف ، وجمعة يمتريها الرفق لا العسف ، وما برحت أجد ذخائر الدول للصفوف ، وأحد أسلحتها التي تمضي وقد تنبوا السيوف ؛ فقدم البلاد الاستعمار ، تقدم لك الاستثمار ، وقطرة من عدل تزخر بها من مال بحار .
والرعايا: فهم ودائع الله لأمر المؤمنين وودائعه لديك ، فاقبض عنهم الأيدي وابسط بالعدل فيهم يدك ، وكن بهم رءوفا ، وعليهم عطوفا ؛ واجعل الضعيف منهم في الحق قويا ، والقوى في الباطل ضعيفا ، ووكل برعايتهم ناظر اجتهادك ، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقلوبهم بالحجة من أجنادك ، ولو جاز أن يستغني عن [٩٨] الوصية قائم بأمر ، أو جالس في صدر . لا استغنيت عنها بفطنتك الزكية ، وفطرتك الذكية ؛ ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك وأنت من المؤمنين ، وعراية بركة فتلق رايها باليمين .

والله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل - أدام الله قدرتك - بالنصر العزيز ، ويقضي لدولة أمير المؤمنين على يدك بالفتح الوجيز ؛ ولأهلها في نظرك بالأمر الحرير ، ويمتع دست الملك بلى مجدك الإبريز ؛ ويقر عيون الأعيان بما يظهر لك في ميدان السعادة من السبق والتبريز ، ويمدك من نعمة أنعم أمير المؤمنين بما ملكك إياه ملك التحويز ، ويلحق بك في المجد أولك ، ويحمد فيك العواقب ولك .

فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى .

(٤)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي على طرّة التقايد السابق
بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة
عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧)

« هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك ، فأوف بعهدك
ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ؛ ولمن مضى بجدنا رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - أحسن أسوة ، ولمن بقى بقربنا سلوة » تلك الدار الآخرة
نجمها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين « (١) » .

(١) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ (ك) .

(٥)

وصف تفصيلي للفتح الأيوبي لليمن كما سجله بقلمه مؤرخ يمني
عن : (بدر الدين محمد بن حاتم : السَّمَطُ الغالي الثمن ،
في أخبار الملوك من الغزَّ باليمن ، مخطوطة بدار الكتب
المصرية ، رقم ٢٤١١ ، ص ٢ - ٦)

اعلم أن جُمْلَةَ مَنْ مَلَكَ اليمن من الغزَّ إلى وقتنا هذا عشرة :
الملك المعظم توران بن أيوب ،
والملك العزيز - أخوه - سيف الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب ،
والملك المعز - ولده - إسماعيل ،
وسيف الدين الأتابك سنقر ، بحكم الأتابكية لولد سيده الملك الناصر أيوب
ابن طُغْتِكِين ،
ثم الملك الناصر أيوب - بعده - ،
ثم الملك المعظم سليمان بن تقي الدين ،
ثم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل .
فهؤلاء سبعة : ستة منهم من بني أيوب ، والسابع مملوكهم .
ثم جاءت الدولة السعيدة الرسولية - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهَا [و] أيامها خلود
النِّرات -
[ص ٢] قَلَّكَ - بعد الملك المسعود - مولانا الملك المنصورُ
نور الدين أبو الفتح عمر بن علي بن رسول - قدَّس اللهُ روحه - ،
ثم ولده مولانا ومالكنا المقامُ الأعظم الساطانُ الملكُ المظفرُ شمسُ الدنيا والدين
أبو المنصور يوسف ،

ثم ولي الأمر ولده مولانا المقام الأعظم السلطان الملك الأشرف أبا الفتح
عمر ممدد الدنيا والدين ، إيثارا له بذلك إذ رآه له أهلا ، ولم يضمن به عليه
أصلا ، فهما ملكا هذا الأوان^(١) ، وبهما استقامة الزمان .

فلا يرحا في نعمة وسعادة
تبيد العدى طرا ، وتقهر من عدا

والآن حين نبتدى في شرح السير لهؤلاء الملوك جميعا :

اعلم أن أول من ملك اليمن من الغز بنو أيوب ، ملوك الديار المصرية بالشام
كلها ، [و] بديار بكر كافة والعواصم والسواحل ؛ وكان الجميع تحت حكمه غير
منازع فيها ولا مدافع عليها ، وكانوا جماعة ، وملكهم يومئذ القائم فيهم أولا
الملك الناصر صلاح الدين [ص ١٣] يوسف بن أيوب بن شاذي ، أصغر
أولاد أيوب سنا ، وأكبرهم معنى .

وكان له من الإخوة جماعة ؛ منهم : الملك العادل سيف الدين أبو بكر
— وهو الكبير فيهم جميعا — ، والملك المعظم شمس الدولة توران ، والملك العزيز
سيف الإسلام ، وتقى الدين^(٢) ، وغيرهم ممن لم يشتهر شهرة هؤلاء ، ففرق لكل
منهم بلدا ، خلا توران فإنه ندبه لليمن ، وجهزه بالعسكر الجم والمال الكثير ،
وذلك على حين فترة في اليمن من ملك مستقل فيها — وعرها وسهلها ، وعلوها
وسفلها — ومالك لدانها وقاصيها ، وقائد لطائعها وعاصيها ؛ بل كانت مقسومة
بين العرب .

(١) يفهم من هذا النص أن المؤلف كان يكتب كتابه هذا قبل سنة ٦٩٤ هـ ، وهي السنة التي
توفي فيها الملك المظفر يوسف ، واستقل بالحكم ابنه الملك الأشرف عمر . انظر : (زانباور : معجم
الأدب ، الترجمة العربية ، ص ١٨٤) .

(٢) لاحظ أن تقى الدين عمر ليس أخا لصلاح الدين ، وإنما هو ابن أخيه شاهنشاه .

فكل موضع فيها [به] (١) ملك مستقيم بذاته ، والأمر فيها كما قال الشاعر :
وتفرقوا فرقا ، فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومبّر

فلما بلغه ذلك بادر بتجهيز أخيه الملك المعظم — على ما ذكرنا — ، فوصل اليمن في سنة
تسع وستين وخمسمائة ، فأول من لقيه من أهل اليمن الأمير قاسم بن غانم بن يحيى
السليلاني ، من المخلاف [ص ٣ ب] السليلاني ، جاءه إلى حرص (٢) ، من موضعه
وكان يسمى محل أبي تراب ، وشكا عليه من عبد النبي بن مهدي ، وهو يومئذ
صاحب التهام والجبال ، من تعز إلى ذحر ، إلى سوى ذلك ، ما خلا عدن والدملة
وصنعاء ، فثنا كانت بأيدي أهلها الذين نورد ذكرهم — إن شاء الله تعالى .

وكان عبد النبي قد غار إلى حرص ونهبها ، ونهب بلادها ، ونهب دذا المحل
الذي للشريف ، وقتل أخاه ، وكان يقال له : « وهأس بن غانم » ، فسأل الأمير
قاسم من الملك المعظم أن يكون أول دخوله اليمن إنجادا له على بني مهدي ،
فأجابه إلى ذلك ، ونهضا بالعساكر من حرص في سلخ رمضان في هذه السنة
المذكورة ، فوصلوا زبيد يوم السبت السابع من شوال عند طلوع الشمس ،
فنهبوا جميع [ما] فيها — الأموال والخيل — ، وسبوا الحرير ، وقبضوا على عبد النبي
وإخوته ، وعاد الأمير قاسم بن غانم إلى بلاده يوم الجمعة الثالث من الشهر .

وأقام الملك المعظم بزبيد إلى أن دخل شهر ذي القعدة ، ونهض لتعز فأخذه
ولم ينازعه أحد ، وقاتل أهل [١٤] صير (٣) وذحر فلم ينل منهم ، ثم نهض للجند
فدخلها وملكها ، وكل هذه كانت من ممالك عبد النبي .

(١) أضيف ما بين الحاءرتين ليستقيم المعنى .

(٢) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلاد في أوائل اليمن من جهة
مكة .

(٣) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنه اسم الجبل الشاخ المقل على قلعة
تعز ، فيه عدة حصون وقرى بإيمن .

وسار إلى عدن فأخذها يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ، ونهب من بها ،
وفيها يومئذ من الأمراء أولادُ الداعي المكرم عمران بن مجد بن سبأ ، والشيخ
ياسر بن بلال - مولاهم - ، فقبض عليهم جميعاً ، وعاد منها إلى مخلاف جعفر ،
فبايع في الثعكُر^(١) ، وأخذ يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي الحجة آخر سنة
تسع وستين وخمسمائة .

ثم نهض إلى جَبَاة ، وقد صارت البلاد جميعها له ما خلا الدملوه والبلاد
العاليا ، فقطع نقيلاً صيد يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة ، وحطَّ
على ذروان^(٢) يوم الثلاثاء ، وفيه يومئذ السلطان عبد الله بن يحيى الجنبي ، فصالحهم
وبذل الطاعة ، ونهض إلى المصنعة ، وفيها يومئذ الشيخ مجد بن زيد البعدي
الجنبي ، فأخذها منه ، ثم نهض إلى ذمار فاعترضه جنب من موضع يسمى
رَنَمَة في شرقي ذمار يوم الخميس [٤ ب] التاسع من المحرم ، أول سنة سبعين
وخمسمائة ، فقتل من الغز خمسة وستون رجلاً ، فأخذ خيلهم وسلاحهم ، ثم
أقام في ذمار ، ونهض منها فاعترضه جنب وغيرهم ، وجرى بينهم وبينهم قتال
كانت الدائرة [فيه] على العرب ، فقتل منهم سبعمائة رجل ، ولحقهم الغز حتى
أولجوهم حصن هران ، وأخذوا منهم قلائع كثيرة من خيل

ويقال إن الملك المعظم دمر الغز في ذلك اليوم وبكتهم وحمهم على التورط
في الهلاك ، وقال لهم : " أين منكم ديار مصر ؟ "

وفي ذلك يقول الشركي شاعر ذمار :

وقال لقومه : موتوا إكراماً ،
فأين وأين مصر من ذمار ؟

(١) ضبطت عن المرجع السابق ، حيث قال إنها قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على

ذي جبلة .

(٢) ضبطت عن المرجع السابق ، وهو حصن باليمن قريب من صنعاء .

ثم سار من دمار بعد استيلائه عليها طالبا صنعاء ، وسلطانها يومئذ السلطان
علي بن حاتم^(١) جد الأمير بدر الدين محمد بن حاتم ، فوصل إليها يوم الجمعة متصفا
النهار ، وهو اليوم السابع من المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وضرب محطته [١٥]
بالجنوب في صنعاء ، وقد تحيز السلطان علي بن حاتم وأخوه يشر بن معها
إلى حصن براش ، وقد كانوا حين جاءت المحطة صادفوا ثمانية فرسان من همدان ،
فشدوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة وثمنا خمسة ، فطلعوا الحصن ، ثم إن المحطة أقامت
في الجنوب إلى يوم الاثنين ولم يصلهم أحد .

واختلفت الرواية من هنا ، فقيل : ” دخلوا صنعاء ولم يابثوا بها ثم ساروا “
وقيل : ” بل ساروا من المحطة ولم يدخلوا صنعاء “ ، والله أعلم أي ذلك كان .
إلا أن الإجماع على أن الملك المعظم لم يكن له إقامة في الجهات الصناعانية ،
ولم يصله أحد من أهلها ، فقتل طريقا بها ، وأخلاقه نقي السوء (كذا) ،
وهو بين بلاد بني شهاب وبلاد سندان ، مظل على حقل سندان وسهام ، فلحقهم
قوم من بني شهاب ، وقوم سندان رموهم ، وأخذوا من أخذ عسكرهم .

ولما علم السلطان علي بن حاتم بارتحال الغزّ نزل من براش وعاد إلى صنعاء ،
فأول ما بدأ به حين عاد أنه [ه ب] خرب الدرب الذي للدينة ، وقد كان
بدأ فيه قبل وصول الغزّ ، ثم حال بينه وبين تمامه وصولهم ، فلما ساروا
حاذر عودتهم فتمم الخراب .

وأما ما كان [من] الملك المعظم بعد ارتحاله عن صنعاء ، فإنه اعترض العسكر في النزول
أهل برّج ، فأخذوا من آخرهم جمالا كثيرة محملة أموالا جمّة من الذهب والفضة
والسلاح والآلة ، وكثيرا مما استصحبوه من البلاد المصرية وعدن وزبيد يوم
الاستيلاء عليها .

(١) لاحظ أن هذا جد مزلف الخّاب

ثم جاء زبيد، فأقام بها إلى شهر جمادى الأولى في هذه السنة، ثم نهض منها طالباً للهند، ووصل إليه وإلى حصن سير الذي كان دائماً لعبد النبي واستندم وسلم الحصن.

ثم أخذ حصن رادبة وشرباق، وحط على عزان ذخر^(١). وفيه يومئذ علي بن حجاج من أهل تهامة متوليه، وكان صهرا لعبد النبي، فخاطب الغز وطلب الصلح، فوعده أنهم يأخذون منه ما كان في الحصن من المال لعبد النبي ويتركون سبيله، فاستحلفوه على ما عنده من المال لعبد النبي، فأقر بعشرة [١٦] آلاف دينار ذهب، فقبضوها منه، وسلم لهم الحصن وتسلموه.

ثم تقدموا إلى المعافرغار بوا حصن يمين، وفيه الأمير منصور بن محمد بن سبأ، فأخذ الحصن قهراً، وذلك بتنازل الدانون والرتبة (كذا) هربوا من الحصن ثم تدهموا منيف، وكان لأبي الغيث بن سامر، ثم تسلموا حصن السمدان من النائب الذي كان به، ولم يعترضوا الحصن السواء، وصاحبه يومئذ ابن السبأ، بل أبقوه على حاله، ثم حطوا على الدملوة، وفيها ولد الداعي المكرم عمران بن محمد بن سبأ، وواليهما بها جوهر العمراني، وورموا بالمنجنيقات فلم تبلغ إلا الحر، فلم يكن لهم بها طمع، فصالحوا جوهرًا على قطعة هبنة من المعشار الذي تحت الدملوة، وعادوا وتقدموا إلى ذى جبلة، فأقاموا بها إلى رابع شعبان من هذه السنة.

وباغ الملك المعظم في خلال هذه الأمور وقوع خلاف في تهامة، فأمر بقتل عبد النبي وأخويه: أحمد ويحيى، فقتلوا في زبيد يوم الثلاثاء السابع من رجب من هذه السنة.

ثم إن الملك المعظم أقام في البلاد حتى دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وطلب العودة إلى الديار المصرية، فنهض من اليمن في شهر [٦ ب] رجب

(١) كذا بالأصل بدون قط أو ضبط.

من السنة بعد أن قتل ياسر بن بلال — مولى الدعاة بنى زريع — الذي قدمنا ذكره ، وقبضه في عدن مع مواليه .

واستتاب في البلاد نوابا ، فجعل في عدن وأعمالها عثمان السنجاري ، أو الزنجاري ، وفي تعز والهند وأعمالها ياقوت التعزي ، وفي حصن التعمروذي جبلة ومخلاف جعفر مظفر الدين قايمار ، وفي مدينة زبيد وأعمالها ، وجميع تهامة سيف الدولة المبارك بن منقذ ، وكان من حمدان ، وكان رجلا فصيحاً شاعراً ، فمن جملة شعره :-

وإذا أراد الله شراً بأمرى ، وأراد أن يحيه غير سعيد

أغراء بالترحال عن مصر بلا سبب ، وسكنه بأرض زبيد

(٦)

قطعة من خطاب بقلم القاضي الفاضل ، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد ، يعدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية ، وآخرها قطع الخطبة للخليفة العاضد ، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسي ، ويطلب إرسال التشريفات عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٥)

« كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودينُ الولاء مشروع ، وعلمُ الجهاد مرفوع ، وسيؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع ، وقد توالى الفتوح عربا ويمنا وشاما ، وصارت البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر ، حرما حراما ، فأضحى الدينُ واحدا بعد ما كان أديانا ، والخلافة إذا ذكر بها أهلُ الخلاف لم يخرؤا عايبا إلا صما وعميانا ، والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة في شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً ، وكذبوا بالنار فعبأت لهم نار الحتوف ، ونثرت أقلام الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذ منهم كل مثنق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيهم غابرههم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم ، وحققت عليهم الحكمة تشريدا وقتلا ، وتمت كرات ربك صدقا وعدلا ، وليس السيف عن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم .

ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافة وحلى عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يشكر مانصح ، ويقلد ما فتح ، ويباغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه

وبن نوح . وناتيه التشرية شريعة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجلييلة
للطيفة ، وتبي دعوته بما أقام من دعوة ، وتتواصل غزوته بما وصل من غزوة ، وترفع
دونه الحجب المعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده ،
وتبدو فوائده ، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها ، وجرّد سيفه لرفع منارها ،
والقيام بأمرها ، وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطاب النجعة من سخابها ، ووعد
آماله الوائقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ماطفاته ، وتبجيز تشريفاته ، خطيب
الخطباء بمصر ، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من برّ ،
واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم ، آملا أنه يعود
إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف في عقبه .

(٧)

نسخة بشارة بانتهاء الدولة الفاطمية في مصر ، والخطبة للخليفة العباسي ،
حملها عن نور الدين ، شهاب الدين أبو المعالي المطهر بن أبي عصرون
لُتقرأ في كل مدينة يمر بها في طريقه إلى بغداد

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨) .

” أصدرنا هذه المكاتبه إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا
رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية
بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصاير المصرية ، والإسكندرية ومصر والقاهرة ،
وسائر الأطراف الدانية والقاصية ، والبادية والحاضرة ، واتتحت إلى القريب
والبعيد ، وإلى قرص وأسوان بأقصى الصعيد ، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ،
نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله ، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة
وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار
في الأزل بقضاء آرائنا وبتنجز مواعيدنا قاضية ، حتى ظفرتنا بها بعد بأس الملوك
منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها ، وطالما مرت عايبها الحقب [١٩٨] الخوالي
وآبت دونها الأيام والليالي ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين ،
مملوءة بحزب الشياطين ، سابغة ظلها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحال ، مفتقرة
إلى نصرة من الله يملكها ، ونظرة ستدر كها ، رافعة يدها في أشكائها ، متظلمة إليه
ليكفل بأعدائها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، ولعاتها بالعلاج ، وسبب
قصد الفرج لها وتوجههم إليها ، طمعا في الاستيلاء عايبها ، واجتمع داءان : الكفر
والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكن لنا في الأرض ،
وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض ، وتقديمنا
إلى من استنباه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح باب مالنا من الإرادة ، ويقم
الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعيا ودعاة الإلحاد بها المهالك “ .

(٨)

نسخة سجل أصدره صلاح الدين بَعِيْدَ وفاة العاضد و انتهاء الدولة
الفاطمية بإسقاط المكوس في مصر

قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة ثالث صفر سنة ٥٥٦٧

عن : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٥)

«أما بعد ، فلإنا نحمد الله سبحانه على ما مَنَّ لنا في الأرض ، وحسَّنه عندنا
من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبتنا له من إزالة النَّصَب عن عباده ، واختارنا
له من الجهاد في الله حقَّ جهاده ، وزهدنا فيه من قناع الدنيا القليل ، وألهمنا
من محاسبة أنفسنا على النقيير والفتيل ، وأولانا من سباحة السباحة ، فيوماً نهبُ
ما اشتمت عليه الدواوين ، ويوماً نَقِطع ما سقاه النيل ، فالبدشائر في أيامنا تترى ،
شفعا ووترا ، والمسارُّ كنظام الجواهر تتبع الواحدة منها الأخرى ، والمساحاتُ
قد ملأت المسامع والمطامع ، وأسخطت الخيمة والصنایع ، وأرضت المنبر
والجامع .

ولما تقلدنا أمور الرعية ، رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى
ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة ، وأن
تجرد منها لنلبس أثواب الأجر الناضرة ، ونظهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها
مطالبنا ، ونكفي الرعية ضرهم الذي يتوجه إليهم ، ونضع عنهم إدمهم
والأغلال التي كانت عليهم ، ونعيدها اليوم كأس الذهب ، ونضعها فلا ترفعها
من بعد يد حاسب ، ولا قلم كاتب ، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى ، ورأينا
فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأَبصار ولا يفضي ، وخرج أمرنا بكتب هذا
المنشور بمسألة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل
المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب

عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برا وبحر ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ،
لا يحل ماشده ، ولا يحاول ماعنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يسأل عما أورده
وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ،
ولا يستباح له حرمة .

والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين : مائة ألف دينار مسامحة ،
لا يشوبها تأويل ، ولا يتخونها تحويل ، ولا يعتريها زوال ، ولا يعتورها انتقال ،
دائمة بدوام الكلمة ، قائمة ما قام دين القيمة ، من عارضها ردت أحكامه ،
ومن ناقضها نقض زمامه ، ومن أزالها زلت قدمه ، ومن أحالها حل دمه ،
ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه ، ومن احتاط لدنياه فيها احتاط به المحجيم
الذي هو من خطبه .

فمن قرأه أو قرى عليه من كافة ولاية الأمر ، من صاحب سيف وقلم ،
ومشارف أو ناظر ، فليمثل ما مثل من الأمر ، وليضه على ممر الدهر ، مرضيا
لربه ، ممضيا لما أمر به .

(٩)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل ، أرسلها صلاح الدين إلى
نور الدين ، يشرح له فيها القصد من خروجه لمهاجمة حصن الكرك
والشوبك في أوائل سنة ٥٦٨ هـ

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦)

« سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ، ومدد أبدا
إحسانه ، ومكّن بالنصر إمكانه ، وشيّد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان
أعدائه ، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم ،
ويقلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة
على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العربان ، وأن
ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان ، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعدّه
من أعظم أسباب الجهاد ، ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص في تبديل
دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ، ولا يستطيع
حيلة ، ولا يهتدى سبيلاً .

(١٠)

رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى نور الدين
يشرح له فيها المؤامرة التي كان يدبرها رجال الدولة الفاطمية
والصليبيون ، والتي اشترك فيها الشاعر عمارة اليمنى ،
لقلب نظام الحكم وإعادة الدولة الفاطمية

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠-٢٢٢)

” قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله ، وبشارة ، وؤذنة بظهور
وعد الله في إظهاره على الدين كله ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة ، إلا
أنها أسفرت عن النجح ، وأوائل كالليلة البهيمية ، إلا أنها انفجرت عن الصبح ،
فالإسلام ببركاته البادية ، وفكاته الماضية ، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ،
وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيبا ، إلا أن الله
سبحانه أطلع على أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله ، والمملوك
ياخذ في ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر :

لم يزل يتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال الله من بدعتهم ،
ونقض من عُرى دولتهم ، وخفّض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن
تعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لا يحتقر
منهم حقيرا ، ولا يستبعد منهم شرا كبيرا ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراته
في التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكر ، من مكر يجتمعون
عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يرمونها ، ومكيدة يتممونها ، وكان أكثر
ما يتعللون به ، ويستريحون إليه ، المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة ،
إلى الفرنج خذلهم الله ، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها

على العظام والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلمون فيها ربة الإسلام
خلع المرتد المخصوص، ويد الفرنج بحمد الله (٢٢١) قصيرة عن إجاباتهم، إلا أنهم
لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه
الاستتار في مراسلتهم، والتجسس في مفاوضاتهم، سير "جرج" - كتبه - رسولا
إلينا ظاهرا، وإليهم باطنا، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا،
وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين
في أثناء هذه المدد رسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد.

ثم قال :

والمزى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يسطوا عقابا مؤلما،
ولا يعذبوا عذابا محكما، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق
سراحهم، وخلي سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا
قساوة، وعند وصول "جرج" في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا
كتاب ممن لا ترتاب به من قومه، يذكر أن رسول مخالفة، لارسول مجاملة،
وحامل بليّة لا حامل هديّة، فأوهنناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه
وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلا، ومرة بالكوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا
إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة
من النصراني واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم،
فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد
يشهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسدة،
وطائفة من هذا الجنس متمردة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر
المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبيه، فمنهم من أقر طائعا عند إحضاره، ومنهم من أقر
بعد ضربه، فأنكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت
عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلا حاصله : أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك ، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاصد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاصد وإن كان صغيرا ، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له ، وأما بنو رزيك وأهل شاور فكلُّ منهم أراد الوزارة لبيتهم ، من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة .

ثم قال :

”وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم ، وقالوا لهم إنه بعيد ، والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى أيلة نارت حاشية القصر ، وكافة الجند ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية ، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة“ .

ثم قال :

”ولما وصل ”جرج“ كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم ، وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم ، وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أمض فلانا من عنده ، وبقى في البلد وحده ، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة“ .

ثم قال :

”وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا - صاحب الحشيشية - بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرته ، واستدعوا منه من يتم على المملوك غيلة ، أو يبئته مكيدة وحيلة ، والله من ورائهم محيط ، وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج .

ولما صحَّ الخبرُ ، وكان حكم الله أولى ما أخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن
خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل
الشورى بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع
المطهر جماعة من الغوات والغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأنقالمهم وأنقال
من أضلوه من النجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع
المواجهة لدورهم ، ووقع التابع لأتباعهم ، وشردت طائفة الإسماعيلية ونشوا ،
ونودي بأن يرحل كافة الأجناد ، وحاشية القصر ، وراجل السردان إلى أقصى
بلاد الصعيد .

فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحُرطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى
يمضى بينهم . ولا رأى فوق رأى المولى ، والله سبحانه المستخار ، وهو المستشار ،
وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديدده ،
ورأى الملوك إخراجهم من القصر فإنهم مها بقوا فيه بقيت مادة لا تتسم الأظطاع
عنها ، فإنه حباله للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوبة .

ومما يظرف المولى به أن ثغر الاسكندرية - على عموم مذهب السنة فيه -
أطلع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره ، محتقرا شخصه ، عظيما كفره ، يسمى
قديد القمصاص ، وأن المذكور مع نحوله في الديار المصرية ، قد فشت في الشام
دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فنتته ، وأن أرباب المعاش فيه يميلون إليه
جزئا من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهن ، ووجدت
في منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتابا مجردة ، فيها خلع
العدار ، وصریح الكفر الذي ماعنه اعتذار ، ورقاع يُخاطب بها ، فيها ما تقشعر
منه الجلود . وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحق به مكره ، (٢٢٢) وصرعه
كفره .

(١١)

قطعة من رسالة بقلم العهد الأصفهاني ، مرسله من الملك الصالح
إسماعيل إلى صلاح الدين، ينبئه بوفاة والده نور الدين ويعزیه فيه
عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

” ورد خبر من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذنا الله فيه من
سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجود؛ فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر،
وانقصم بمحادثه الظهر، وعز فيه التثبت وأعوز الصبر، فإن كان — فإلحوادث والعياذ
بالله — قد تم ، وخصه الحكم الذي عم، فإلحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع
الرجال ، وما ربَّ الملوك ممالكها إلا لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة
البذر إلا لتؤدي حتمها يوم حصادها، فإله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتباع
الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى
أن أعطت قيادها ، فكونوا يدا واحدة ، وأعضادا متساعدا، وقلوبا يجمعها ود،
وسيوفاً يصدنها غمد ، ولا تختلفوا فتتكلموا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا
على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأئمل، فالعداوة محدقة بكم من كل
مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه،
وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولده القائم بالأمر،
وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ،
والطاعة في الغيبة والحضور أدت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه،
وسيف على من عاداه ، وإن أسفر الخبر عنه عن معافاه ، فهو الغرض المطلوب
والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب “ .

(١٢)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى الملك

الصلاح إسماعيل للتعزية في وفاة والده نور الدين

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

ودأما العدو - خذله الله - فوراءه من الخادم من يطلبه طابَّ ليل لنهاره ،
وسيل لقراره إلى أن يزعجه من بجائمه ، ويستوقفه عن مواقف مغائمه ، وذلك
من أقل فروض البيت الكريم [٢٣١] وأيسر لوازمه .

أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذي أقيمت فيه
الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لا لغو
فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ، ووفى ما لزمه من حقوق
النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالماً أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد ملك المولى
الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل
للإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشيده ،
ومضاعفة ملكه ومزيده ، ويسر منال كل أمر صالح ، وتقريب بعيده
إن شاء الله .

(١٣)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرساها صلاح الدين إلى الملك
الصلاح إسماعيل للسؤال عن صحة والده نورالدين، بعد أن أشاع الفرنج
خبر موته، ولم يكن صلاح الدين قد تأكد عنده هذا الخبر بعد.

عن : (الروضتين، ج ١، ص ٢٣٠)

«إطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل،
ندب الشام بل الإسلام حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد،
مقتنى فضيلته، ومؤدى فريضة، ونحبي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه،
على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر، ويقسم الفكر، إلا
أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه، وسكونه إليه
إلا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات
النواب، وأعدده لحسم أدواء المعضلات اللواذب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه
لنفسه ولولده، ومكّنه قوة لعضده، فما - فقد رحمه الله - إلا صورة والمعنى باق،
والله تعالى حافظ لبيته وواق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد
الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمع، والأهم
شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على
البدار، ويمجى على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد، بتجديد ذكرنا، وراغبنا في اغتنام
ثاننا وشكرنا» .

(١٤)

رسالة مرسلة من صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام يذنبه بنجر
وصول الأسطول من صقاية لمهاجمة مدينة الاسكندرية في يوم
الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ ، وكيف انتهى
الأمر بفشله في أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥)

” إن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت
العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لاعلى حين خفاء من الخبر ،
فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية ،
وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد في الثغر من وفور عدته
وكثرة عدته ، وعظيم الهمة به ، وفراط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر واشتد به
الأمر ، فغى أهل الثغر عيهم البر ، ثم أشير عيهم أن يقربوا من السور ،
فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب ،
فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس
وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم
مائتا شيني ، في كل شيني مائة ونحسون راجلا ، وكانت عدة السفن التي تحمل
آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة
المراكب الجمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الراجل المتفرق
وغلمان الخيالة ، وصناع المراكب ، وأبراج الزحف ، ودباباته ، والمنجنيقية ، ما يتم
نحسين ألف رجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين
حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل (٢٣٥) الثغر في وقت الحملة ما يناهز

سبعة أنفس ، واستشهد محمود بن البصار وبسهم جرح ، وجذفت مراكب الفرنج
داخلة إلى الميناء ، وكان به مراكب مقاتلة . ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا
إليها فحسفوها وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها ، واتصل
القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر ، وكان عدتهم ثمانية خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا ، وحاصروا ، ونصبوا ثلاث دبابات بكاشها ،
وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ،
وتعجب أصحابنا من شدة أثرها ، وعظم حجرها ، وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج
في جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها ، واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت
السور ، وبلحوا في القتال عامة النهار المذكور .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو
على جناح الطائر ، فاستنمضنا العساكر إلى الثغرين : اسكندرية ودمياط ، احترازا
عليها واحتياطاً في أمرها ، وخوفاً من مخالفة العدو إليها ، واستمر القتال ، وقدمت
الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار
أماج البحر ، وأهاج الدور ، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ،
ويتركوها معلقة بالقشور ، ثم فتحو الأبواب ، وتكاثر صالح أهل الثغر من كل
الجهات ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عندها من القتال ، وأنزل الله
على المسلمين النصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر .

واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء ، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم ،
وقصرت عزائمهم وفتربهم ، وأحرقت آلات قتالهم ، واستحرقت الجراح
في رجالهم ، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ ما به
قيام الحياة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الهرب والمبادرة .

ثم كثر المسلمون عليهم بفتنة وقد كاد يختلط الظلام ، فهاجموهم في الخيام ،
فتسلموها بما فيها ، وفتكوا في الرجالة أعظم فتك وتسلموا الخيالة ، ولم يسلم
منهم إلا من تزع لبسه ، ورمى في البحر نفسه ، وتقمح أصحابنا في البحر على بعض
المراكب نخسفوها وأتلفوها ، فولت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله
الغالبة ، وبقى العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق ، واحتفى ثلثمائة فارس منهم
في رأس تل ، فأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا ، وأخذ من المتاع والآلات
والأسلحة ما لا يُملك مثله ، وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس .“

(١٥)

رسالة بقلم القاضي الفاضل أرساهما صلاح الدين وهو بالقرب من حماة
في طريقه إلى حاب لمحاربة قواد نور الدين، إلى الديوان العزيز ببغداد،
يعدد فيها فتوحه وانتصاراته في مصر واليمن والمغرب، ويسأل
الخليفة أن يرسل إليه الثقايد بتوليته على هذه البلاد، وعلى ما قد
يفتحه في المستقبل من بلاد أخرى.

عن : (الروضتين، ج ١، ص ٢٤١ - ٢٤٢)

” فإذا قضى التسليمُ حق اللقاء ، واستدعى الإخلاصُ جهد الدعاء ، فليعد
وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى ، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكبر
منه ما قد جرى ، وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا ، وليوضح الأحوال
المستسرة ، فإن الله لا يُعبد سرا :

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى ، والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا
يستمير ، ونأق السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصاغ الصفاح بصدورنا
وغيرنا يدعى التصدير ، ولا بد أن تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تُردُّ به
الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الأسن كما أخذنا بحظ القلوب ، وما كان
العائق إلا أنا كما تنتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا
بالخدمة ، وإنجاباً للحق يشاكل إنجابنا للسبق ، كان أول أمرنا أنا كما في الشام
لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لساكرنا ، نحن ووالدنا
وعمنا في أي مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف

للإسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنا تصطلي
الجمرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندير التعبية ، إلى أن
ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجزها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت
أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدير ، وبما دولتها عليه
من غلبة صغير على كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن
إقامة كل من قام وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطمهم بأموال
كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة ، فإنها مجموعة ،
وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة ، فإنها متعاماة ، وتلك البدع بها على ما يعلم ،
وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم ، وذلك المذهب
قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون
الله وتعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره قلب الذين
كفروا في البلاد ، فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقلها ،
ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها .

فسرنا إليها في عساكر ضخمة ، وجموع جمعة ، وبأموال اتتهكت الموجود ،
وباغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذمنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج
الواقعين في قبضتنا ، فعرضت عراض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد
الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب ، وكان في تقدير الله أنا نملكها
على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين
غدره في هدنة عظم خطبها وخطبها ، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها ، فكاتبنا
المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام في هذا الأوان ،
بأننا إن لم ندرك الأمر وإلا نخرج عن اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل
إلى الغد ، فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء والأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد
لنا بها أمران ، وتقرر لنا في القلوب ودان : الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب
الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم وإقالة عثارهم ،

ف فعل الله ما هو أهله ، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله ، وضاق به سبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورسايتها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم حصلا ، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلا .

ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكتبهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السر فيهم أنفذ من الغزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغنام أعجم ، إن هم إلا كالأنعام ، لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ، ولا قبلةً إلا [٢٤٢] ما يتوجهون إليه من ركنه وامثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحة وحمية ، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخلة ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع ما يكتنه الضمير ، فكيف بخطوات التدبير .

هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه .

فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، وتحيفهم تحيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير ، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير .

وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج دفعة إلى بليس ودفعة إلى دمياط ، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصا في نوبة دمياط ، فإنهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مائتي

ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها
ويصاحبونها القتال الذي يصعبه الصليب ، والقراع الذي ينادى به الموت من مكان
قريب ، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين المنافق والكافر ،
حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا
في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد فأخرجناهم من القاهرة تارة
بالأوامر المرهقة لهم ، وتارة بالأموال الفاضحة منهم ، وطورا بالسيوف المجردة ،
وبالنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ،
وتمزقت بدعه ، وخفت دعوته ، وخفيت ضلالتة .

فهناك تمَّ لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود الأعظم ،
وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها
أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك
دولته .

ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار فلم
تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، إلى أن أوسعناهم
قتلا وأسرا ، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام
فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها
أعدائهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ،
ومنها قلعة بشفر أيلة ، كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو السلوك منه إلى الحرمين
واليمن ، وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقا ، ونحرق الكفر في هذا الجانب تحرقا ،
فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام
الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول — صلى الله
عليه وسلم — أن يتطرقة من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة ،
وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد .

ثم قال :

”وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد، المبدع المتمرد، وله آثار في الإسلام وثار، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة، وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه والله الحمد، وأنجز الله فيه القصد، والكلمة هناك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يفتض الإسلام عذرتة متمادية .

ولنا في الغرب أثر أعرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمّر، وجيوشهم لا تنطق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكرا بعد عسكرا، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصة، قسطنطينية، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، سلام الله عليه، ولا عهد للإسلام بإقامتها وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راجعا، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت اليها مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألوية بما فيها من الأوامر والأقضية .

فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب [٢٤٣] المملكة التي أكلت على الدهر وشربت، وقائم

النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرة وسرية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خَفَضُ الجناح، والقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهادة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى أنه أئذ بصاحب صقلية وأساطيله التي تردد ذكرها، وعساكره التي لم يخف أمرها.

ومن هؤلاء الكفار: هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فعمّر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدته، وتنتخب عدته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخطب هائل، ما أنقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملا صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش: البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارا يحتكون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بأهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلات، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة، والعساكر قد تجهزت، والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّ وأيد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما الملكة النورية

عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يخوفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد الذين خلقوا للأطراف لا للصدر ، وجعلوا للقيام لا للعقود ، في المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً .

وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجرد العزم في قاعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالعودة دائمة ، وإننا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد ، وهو : تقليد جامع بمصر ، واليمن ، والمغرب ، والشام ، وكلما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتح الله للدولة العباسية بسيفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن تقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليداً للنعمة تخليداً ، وللدعوة تجديدًا ، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك .

وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به
ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال
محرم السيف حتى يملوا ، وإذا شد رأينا حُسنُ الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ،
وباغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيرا من المسجد
الذي أسرى الله إليه بعبده .“

(١٦)

قَطَعَ من رسائل بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد في تعداد ماله من الأيادي على الخلافة العباسية ، وخاصة إعادة الخطبة لها في مصر واليمن والمغرب .

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤)

”والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها ، وسنن الضلال التي نسخها ، وعقود الإلحاد التي فسحها ، ومنابر الباطل التي رخصها ، وحجج الزندقة التي دحضها ، فإنه عاين المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده ، وما فعله إلا لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحركت للفلك في قلعها نابضة ، وغيرت الأحوال على تلك البدعة ، وما ثارت لأفراسها رابضة ، فثكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده [٢٤٤] منها أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار وقد عاد الإسلام إلى وطنه ، وصوحت من الكفر خضراء دمنه“ .

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه :

”حتى أتى الدنيا ابنُ بجدتها ، ففضى من الأمر ما قضى ، وأسخط من لله في سخطه رضى ، وجعل وجهه لابسى السواد مبيضا ، فأدرك لهم بنار نامت عنه الهمم ، ودوخت عليه الأمم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور ، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور“ .

ومن كتاب آخر :

” قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها ، وأمضى في الأعداء شفارها ، وجمع عليها الدين وكان أديانا ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا “ .

ومن كتاب آخر :

” لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعدُّ كان انعقد بينه وبين نور الدين — رحمه الله — في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام ، المملوك بمسكرى بره وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره ، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات ، وضاعت نفور ، وتحكمت الآراء الفاسدة ، وفورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين ، والأصمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد ، يشكون ضيق حلقات الأسار ، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية ، ولاخفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل وصور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين ، وقالوا إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه ، وأن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك وما وراء البحر ، وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيثانية والجنوية وغيرهم ، قد تاهبوا بالهائر البحرية ، والأساطيل القوية ، وللإسلام بأمر المؤمنين أعز ناصر ، لاسميا وهم ينصرون باطلا ، وهو ينصر حقا ، وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا “ .

(١٧)

خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن
أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة
الموحدى بالمغرب ، فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، يستجيشه
على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا .

من : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٠)

فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ،
أبواب الميامن ، وأسباب المحاسن ، وأحله من كفايته فى الحرم الآمن ، وأنجزه
من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كل رأى عليه الهوى رائن ، ومكّن
له فى هذه البسيطة بسطة ، وزاده بالعلم غبطة ، حتى يكون للأنبياء بالعلم والأرض
بالعزم وارثا ، وحتى يشيد بحادث قديما من مجده الذى لا يزال بغض الحديث حادثا .

كان من أوائل عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة
سيدنا ، وأن نتيمن بمكاتبتهم ، وتترين بمخاطبتهم ، وتمض إليهم أمائل الأصحاب
ونستقى معرفتهم استسقاء السحاب ، ونتجمعها بالخواطر ونجعل الكتب رسالها ،
وأيدى الرسل سبلها ، ونمسك طرفا من جبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا
العالية طرفه ، ونمسح غرة سبق وارثها ووارث نورها سلفه ، وتتجاذب أعداء
الله من الجانيين ، لا سيما بعد أن نبنا عنه نيابتين فى نوبتين : فالأولى تطهير
الأرضين المصرية واليمنية من ضلالة أغضت عيون الأيام على قذاها ، وأنامت
عيون الأنام بائعة يقظتها بكراها ، ونيابة ثانية فى تطهير بيت المقدس ممن كان
يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه ، وما كان إلا جنة إسلام
نخرج منها المسلمون خروج أيهم آدم من الجنة ، وأعقبهم فيها إبليس الكفر

وما أجارته مما أعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنة .

ولما حُطَّت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ؛ وأخرس الناقوس الآذان ؛ ونسخ الإنجيل القراءان ؛ وفكَّت الصخرة من أسرها ، وخفَّ ما كان على قلب الحجر الأسود بنخفة ما كان على ظهرها ؛ وبذلك أن يدَّ الكفر غطتها وغمرتها .

فإله الحمد أن أحرمت الصخرةُ بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ماطر من دم الكفر وما كان يطهرها البحر المحيط ، فهناك غلب الشرك وانقلب صاغرا ، واستجاش كافرٌ من أهله كافرا ؛ واستغضب أنفاره النافرة ، واستصرخ نصرانته المتناصرة ، وتظاهروا علينا وإن الله مولانا ، وطاروا إلينا زرافات ووحدا ، فلم يبق طاغية من طواغيبهم ، ولا أنفية من أنافيتهم ؛ إلا أُلجم وأسرج ، وأجلب وأرجم ، وأُخرج وأخرج ، وجاد بنفسه أو بولده ، وبعده وبعده ؛ وبذات صدره وبذات يده ، وبكائبه برا ، وبمراكبه بحرا ؛ وبالأقوات للخيال والرجال ، والأسلحة والجنح لليمين والشمال ؛ وبالنقدين على اختلاف صنفيهما في الجمع ، وائتلاف وصفيهما في النفع ؛ وأنهبض أبطال الباطل ، من فارس وراجل ، ورايح ونابل ، وحاف وناعل ؛ ومواقف ومقاتل ؛ كلُّ خرج متطوعا ، وأهطع مسرعا ، وأتى متبرعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستدعى وسعى إلى حتفها قبل أن يستسعى ؛ حتى ظننا [أن] في البحر طريقا يسا ؛ وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ؛ وقلنا : كيف ترك ، وقد علم أنه يدرك ؟ وزادت هذه الحشود المتوافية ، وتجاقت عنها الهمم المتجافية ، وكثرت إلى أن خرجت من سجن حصرها ، ومستقر كفرها ، وبقية نعرها - وهو صور - ، فنازلت نعر عكا في أسطول ملك بحره ، وجمع سلك بره ، فنهضنا ، إليه ونزلنا عليهم وعليه ؛ فضرب معنا مصاف قتلت فيه فرسانه ، وجدات

شجعانه ، وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم ، وبرز
الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، فهناك لاذوا بالخنادق يحفرونها ،
وإلى الستائر ينصبونها ، وأخذوا إلى الأرض متناقلين ، وحملوا أنفسهم على
الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراحوا بين المجانق ، وكلما يجن
القتل من عددهم مائة أوصلها البحر من يصل وراءه بألف ، وكلما قُلُوا في أعيننا
في زحف ، قد كثروا فيما يليه من الزحف ؛ ولو أن دربة عسا كرنا في البحر
كدربتها في البر ، لعجل الله منهم الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا
بالألف ؛ وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم ، والعدد الدهم ،
كانهم إلى نصب يوفضون ، وعلى نار يعرضون ، ووصولهم على جهة القسطنطينية
- يسر الله فتحها - على عزم الأتتام إلى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل
الصيف ، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل ، وإلى حربهم تنتقل ، فلا يؤمن
على نفور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها ، ويفرغ لها ويتسلط عليها ،
والله من ورائهم محيط ، وإذا قسمت القوة على تلقى القادم وتوقى المقيم ، فر بما
أضر بالإسلام انقسامها ، وثلمه والعياذ بالله انتلامها .

ولما نحض النظر زبده ، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده ، لم نر لمكثرة البحر
إلا بحرا من أساطيله المنصورة فإن عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه
- أدام الله تمكينه - أن يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد
إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتب ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول
طاغية صقلية ليحصّ جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره أن يغير ،
ويعتقله في جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريته ؛ فيذهب سيدنا وعقبه بشرف
ذكر لا تُردُّ به المحامد على عقبها ، ويقوم على الكفر قيامة يُطلع بها شمس النصر
من مغربها ؛ فإذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفده ، أوردوا وأصدروا في مورده ،
وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار ، وهذا يستطلع لمن تكون
عقبى الدار ، وخاف وطاة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار

ولو بزقت عليهم بازقة غربية لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جارية بحرية
لنعقت قينهم بالشتات غربانها .

وما رأينا أهلا لهذه العزلة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه ،
إذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الإجابة ، ورغبة في الإنابة ، ولاية
لأمر المسلمين ، ورياسة للدنيا والدين ، وقيامًا لسلطان التوحيد القائم بالموحدين ،
وغضبا لله ولدينه ، وبذلا لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده .

والآن فقد خلا الإسلام بملائكته ، لما خلا الكفر بشياطينه ، وما أجلت
السوابق إلا لإطلاقها ، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها ، وقد استشرف
المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار ، وليالى
من المراكب تركب من البحر النهار ، وإذا خفقت قلوبها خفقت للقلاع قلوب ،
وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب ، فهي بين ثغر
كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر إسلام تفرج عنه وتنصره ، يكون بها مصائب
عند المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد ، ويمضى سيف الله
الذى لا يعدم في كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد .

أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ، فيما مد عليها من ظلها ،
وبما يسكنه من حرزها ، فيما يسط على الأعداء بها من بأسها ، ويتزل بهم
من رجزها ، وبما يجرده من سيوفها ، التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها .

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعي المسمع ، والمبلغ المقنع ،
والمجمع المستجمع ، علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصدر فكان وجهها ، وأودعناه
السرفكان صدرا .

(١٨)

خطاب بقلم القاضي الفاضل ، من صلاح الدين إلى سيف الدولة
ابن منقذ - رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن
عبد المؤمن - يستنجد به ، ويطلب منه المعاونة بإرسال قطع
من أسطوله ، أثناء حصار الفرنج لعكا ، وتاريخ الخطاب
٢٨ شعبان سنة ٥٨٦ هـ .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ١٧١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الأجل ، الاسفهلار ، الأصيل ، العالم ، المحترم ، شمس الدين ،
عُدّة الإسلام ، جمال الأنام ، تاج الدولة ، أمين الملة ، صفوة الملوك
والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص ، أدام الله توفيقه ، ويسر طريقه ،
وأنجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس منييه ومشهده ، وأسعد يومه وغده .
يستخير الله سبحانه ، ويتوجه - كيفما يسر الله - إلى الجهة الاسلامية
المغربية ، - حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها - ويستقرى
في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ،
وما يجبونه من القول : نزره أو جمه ، ومن اللقاء : منبسطه أو منقبضه ، ومن
التمرود بمجالسهم : مخفقه أو مطوله ، ومن التحيات المتهاداة بينهم : ما صيغته
وما موقعه ، وهل هي السنن الدينية أو العوائد الملوكية ، ولا يلقه إلا بما يحبه ،
ولا يخاطبه إلا بما يسره .

والكتاب قد نفذ إليه ولم يُحتم ليعلم ما خوطب به ، والمقصود : أن تقص
القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما أزلنا من البدع بها ، وعطلنا
من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا
التي توصلت إلى بلاد الكفار من مصر ، فكانت مقدمة لملك الشام الإسلامي

باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة ذلك الشام الفرنجى باقباد المسلمين لنا، واتفاق الملوك
المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التى
جسنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق فى علمه من أسباب
دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى، وفتح البيت المقدس، وتلك
على الإسلام منة الله العظمى، إلى غير ذلك من أخذ الثغور، وافتتاح البلاد وإثخان
القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب، وخروج نجداتهم
وكثرتها، وقوتها ومنعتها، وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضى
يوم إلا عن قوة تتجدد، وميرة تصل، وأموال واسعة تخرج، ومعونات كثيرة
تعمل، وأن ثغرها حصره العدو، وحصرنا نحن العدو، فاستمكن من قتال الثغر،
ولا تمكن من قتالنا، وخندق على نفسه عدة خنادق، فاستمكننا من قتاله، وقدم
إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرتين إلى عسكرنا فكسر العدو أقله، فإنه
اغتم أوقاتا لم تكن العساكر فيها بمجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهباب فيها
مأخوذة، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصره الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله
العدو القتل الذريع، وأوقع به الفتك الشنيع، وانجلى إحدى الحركتين عن
عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت
أجسامها فى مضاجعها، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور، ولو أبرز صفحته
لكان باذن الله هو المتيور المكسور.

وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات، وإحراقها لمراكبهم وهى
الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأظهر، وأن أمر العدو مع ذلك قد
تطاول، وخطبه قد تهادى ونجدته تتواصل، ومنها ما كالألمان فى جموع
جماهيرها مجهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة، وأن عساكرنا لو أدركته لما
استدرك، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك.

وتذكر أن الله قَصَمَ طاغيةَ الألمان وأخذَهُ أخذةَ فرعونيةَ بالإغراق ، في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة، وأن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع والحصر ، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر .

فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، والمسير غير كارهة ، فالبدار البدار ، وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار .

وإن كانت دون الأسطول موانع : إما من قلة عدة ، أو من شغل هناك بمهمة ، أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ، أو قد لاحت منه الفرصة ؛ فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال .

وما رأينا أهلا لخطا بنا ، ولا كفؤا لإنجادنا ، ولا محقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا ، إلا ذلك الجنب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطبق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقدر في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدو القصوى شجرتها ، فينال من في العدو الدنيا جناها ، فلا ترضى همته أن يعين الكُفْرَ الكُفْرَ ، ولا يعين الإسلامُ الإسلامَ ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جارُه ، والجارُ أقدرُ على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو أن يجيش البحار البحار .

وإن سئل عن المملوكين : يوزبا وقراقوش ، وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال ، الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه الممالك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء ، وإنما كسدت سوقهما ، وتبعتهما ألقاف أمثالهما ، والعادة جارية أن

العساكر إذا طالت ذيوها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف إليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذا المملوك من إذا غاب أحضر ، ولا ممن إذا فقد أفتقد ، ولا يُقدَّرُ في مثلها أنه ممن يستطيع نكايه ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جنايه ، وماذا الله أن تأمر مفسدا بأن يُفسد في الأرض ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

وإن سئل عن النوبة المصرية ، وما فعل بجندها ، فيعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار ، وأطمعهم في تسليم الديار ، فأشقى الإسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقبلوا بما يجب ، وكانوا دعاة كفر وضلال ، ومحاربيين لله بما سعوا في الأرض من فساد .

فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبعٌ للذكورين في الرضا ، فإنهم اقتصر لهم على ألا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاقٌ تبلغه ، وشملته أمانة تسكنه .

وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فتفصيلها يرد في كتاب الأمير الأجل ، الاسفهسلار ، العالم الكبير ، مجد الدين ، سيف الدولة — أدام الله علوه — مقرونا بالهدية المذكورة .

ومع قرب الشتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الأشتية .

والله سبحانه يوفق الأمير ويسهل سبيله ، ويهدي دليله ، ويكلاه بعينه ،
ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، ويسر له
أمره ، إن شاء الله تعالى .

وكتب [في] ثامن عشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

(١٩)

خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على الفرنج أثناء حصارهم لمكا ، وفي ختامه إشارة إلى الهدية المرسلة من صلاح الدين بهذه المناسبة .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ - ١٧٣)

بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ، ومستقر حزب الله الظاهر ، من المغرب ، أعلى الله به كلمة الإيمان ، ورفع به منار البر والإحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب :

أما بعد : فالحمد لله الماضى المشية ، المضى القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ، الذى استعمل عليها من استعمر به الأرض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والقرض ، وزان سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبني الإسلام بأتمه التى شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فنصروه ، وظاهروا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم ، وأن الله بهم لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم

” رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ “ .

وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة الواجبة الرد ، الموجبة لا مقصد ، العذبة الورد ، المتنفسة عن المنبر والورد ، وقادة على دار الملك ، ومدار النسك ، وجل

الجلالة ، وأصل الإصالة ، ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الإسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبت المتقين على اليقين ، ومعل الموحدين على الملحدين أدام الله له النصره ، وجهبه تيسير العسرة ، ورد له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به جبل الالفة ، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل ما يعترمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفاً حفيماً جليلاً ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأ وأقوم قبلاً .

تحية أستنير منها الكتاب ، وأستنب عن الجواب ، وقد حفز لها حافزان : أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكناً إلى أن تتيسر الأسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره إذا استفتحت به الأبواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبه هناؤه بفتح المقدس ، وسكون الإسلام منه إلى المقيبل والمعترس ، وما فتح الله للإسلام من الثغور ، وما شرح لأهله من الصدور ، وما أنزله عليهم من النور ، ولم يخجل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنوار ذلك البدر ، ومطالعات تلك الجهة ، التي هي وإن كانت غريبة فإن الغرب مستودع الأنوار ، وكتر دينار الشمس ومصب أنهار النهار ، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، ولم تتأخر المكاتبه إلا ليم الله مابداً من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله .

والمفتح يد الله من الشام : مدن وأمصار ، وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل ، وللإسلام معافر ، ولبنى الكفر مصانع ، ولبنى الإسلام مصارع ، والباقي يد الكفر منها : ثغرا طرابلس وصور ، ومدينة أنطاكية - يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها - وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجا إيجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدو

الكسرة التي لم يجبر بعدها ، وألجئ إلى حصونه التي للمصر أعدها ، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها فكان لم يغن بالأمس ، وكانت على إثر غزوات قبلها فما الظن بالمجهزة بعد النكس .

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيئا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرابرا وبحرا ، ومرجبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذنرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزيمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها ، وأتت العزيمة - بحمد الله - على أشخاصها عند لقائها .

ومنهم : ملك الألمان ، خرج في جموع برية ، من الله تعالى برية ، ملأت الفجاج ، وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبح البحر فركب الأجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر ديننا مشبه الزجاج ، يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجبر ، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة ، وإلى قاع كفر (كذا) .

وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملاؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة ، وشلة وجنه ، وحديد مضروب وزبرة ، وتقدي ذهب وفضة ، إلى أن شحوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتختلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا ونظروا ، فإنهم لا يستطيعون

أن يلقوا ويصحروا ، ويستطيعون أن يحصروا على أن ينحصروا ، ونزلوا على
عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده ، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته
وأزواده ، وبين يكثر به من مقاتلته وأجناده ، فانقطعت مادة عكا من البحر ،
وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر ، فشدوا على نفوسهم ، وحثوا
التراب على رؤوسهم ، وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل
أخلفتهم النجدة ، فكانهم قبل الممات يعودون ، فآتمنا بهارة بحرية لقينا عمارتهم
بها ، ففدت عمارتنا إلى الثغر وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر
ملا يحمه الظهر ، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الإسلام في صدور
الكفر ، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة فعدد سراكبهم كبير ولكن لقيناهم
بأصدق منها عزيمة ، والقايل مع العزم الصادق كبير ، واستمر مقام العدو محاصرا
للثغر ، محصورا منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لأننا من خلفه ،
ولا يستطيع الخروج إلينا خوفا من حثفه ، ولا نستطيع نحن الدخول إليه ، لأنه
قد سور وخنق ، وحاز من وراء الحجرات وأغلق .

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد ، وعاد جيشه الملعون
على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد - صلى الله عليه وسلم -
أحمد ، قويت به نفوسهم ، وجمجت به رؤوسهم ، وظنوا أنه يزجنا من خيمننا ،
ويخرجنا من خيمننا ، فبعثنا إليه من ياقاه بعساكرنا الشمالية فسلك ذات الشمال
متوعرا فيها ، محتجزا عن لقاءها ، مظهرا أنه صريع داء وما به غير دائها .

وكان أبوه الطاغية ملك الألمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن
سجين ، قد هلك في طريقه غرقا ، وخاض الماء ففاضه الماء شرقا ، وبقى له ولد
هو الآن المقدم المؤخر ، وقائد الجمع المكسر ، وربما وصل بهم إلى عكا في البحر ،
تهيبا أن يسلك البر ، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية
لأخذوه أخذا شريفا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه - لافي النهر -

صريعا، ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمضى إلى البلية، فإنه لولا احتجاز
مقيمتهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شأن، وكان ليومنا
في النصر الكبرى بحول الله ثان لا يثليه من العدو ثان.

ولما كانت حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السلام،
أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه،
وكانت مساعيه ومساعى سلفه في الجهاد الفرمجلة، المؤمرة الكاشفة لكل
معضلة، الكاسفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة،
والصحف عنه باسمة، والسير به معلمة وعالمة، وكلُّ بجهاده قد سكن
إلا السيوف في أغمادها، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها، لا يزال
في سبيل الله غاديا وراحا، ومواجهها ومكافحا، ومماسيا ومصابحا، يجوز لجة
البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة، وغزاة تصاغ وجوهها السيوف فلا يخذ نور
الأسرة، يذود الفرق الكافرة ولوترك سبيلها ملاماً قراره كل واد، وكلما أوقدوا نارا
لحرب أطفالها الله، ولولاه لأنحمد شرارة كل زناد.

كان المتوقع من تلك الدولة العالية، والعزيمة الغادية، مع القدرة الوافية،
والهمة المهدية الهادية، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب
الكفار الكافرين فيملاها عليهم جوارى كالأعلام، ومدنا في اللجج سواثر كأنها
الليالي مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا، وتطلع على الكفار آجالا،
وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة، تقدم
حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه، وإنما هي منه عزيمة كانت تعين أصحاب
الميمنة على أصحاب المشامة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة، ولما استبطنت
ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فصرخنا به في هذه التحية، فقد تحفل السحاب
ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح، وقد ترك النصر فلا تظهر إلى أن تضرع
إليها السنة الصفاح.

وسير لخصن مجلسه الأطهر ، ومحلله الأنور ، الأمير ، الأجل ، المجاهد ،
الإمين ، الأصيل ، شمس الدين ، نفير الإسلام والمسلمين . سفيرُ الملوك
والسلطين ، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ - كتب الله سلامته وأحسن
صحابته - ، وما اختير للوفادة إلا من هو أدائها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو
مخاها ، ولا بُعث لنهيج الصلة إلا من هو مفتاحها ، ولأداء الأمانة إلا من هو
قفاها ، ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان
ذو ذخيرة ، وفي العربية ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك
الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ،
ونظرا يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وإفراطه ، فكلُّ هو به واف ،
وكلُّ هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منافي استنهاض العزمة
منه بالغة مبالغا يسرُّ أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا
إلها من دونه .

والسلام الصادر عن القلب السليم ، والود الصميم ، والعهد الكريم ، على حضرة
الكرم العلية ، وسدة السيادة الجليلة ، سلامٌ مودة ما وفد الغرب قلبها منأها ،
ورسالة ما خطرت إلى أن أنفذت وراءها المحبة برسائها ، وايصل السلام
رحمة الله وبركاته ، ورضوانه وتحياته ، إن شاء الله تعالى .

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسةائة .

والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

الهدية :

ختمة كريمة في ربة مخبشة بمسك .

ثلاثمائة مقال عنبر .

عشر قلائد : عددها ستمائة جبة .

عود في سفظ : عشرة أمان .

دهان بلسان : مائة درهم وواحد .

قسي بأوتارها : مائة وقوسان .

سروج : عشرون .

نصول سيوف هندية : عشرون .

نشاب ناصح خاص مَرِيَّش ، كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلدة :
سبعائة - م .

(٢٠)

كتاب من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بشأن الرسالة إلى ملك
المغرب، والكتاب يشعر أن الرسالة لم تكن برأى الفاضل أو موافقته
عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٤ - ١٧٦)

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالي المولوى الملكى الناصرى ، جعل له الله
فى الدنيا والآخرة المقام العالى ، وأبقى دولته التى هى الأيام بالحقيقة والأيام
قبلها هى اللبلى .

وينهى أن الظاهر أن المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام ، وأن له
- والله الحمد - آثارا فى دولته تشهد بها الأيام ، وآثار السيوف طاحت وبقيت
آثار الأقلام ، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها ، ولا كارها لسفر
رسولها ، ولا مستبعدا مصلحة قريبة الأمر منها لكن على وجهها ، وقد بُجرت
الهدية المغربية على ما أمر به ، وكتب الكتاب على ما مثل ، ونظم الخطاب
والوصف فوق العادة ، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه ، وعند وصول
الأمير نجم الدين من الخيم المنصور فإرضه المملوك فى أنه لا يمكن إلا التعريض
لا التصريح بما وقع له أنه لا تتجح الحاجة إلا به من لفظه أمير المؤمنين ، وأن
الذين أفاضوا فى هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه تقلاؤلا أحاطوا به قياسا ،
ولا عرفوا مكاتبه المصرين قديما .

وآخر ما كتب فى أيام الصالح بن رزك نفوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن
وولى عهده بالأمير الأصيل النجار الجسيم الفخار ، وعادت الأجوبة إلى ابن رزك
- وهو وزير سلطان مصر الذى أتباع مولانا اليوم مائة منله - مترجمة : بمعظم
أمره ، وملتزم شكره ، وهذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه ،

وما هو إلا أن يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده ، ويصل
المشار إليه بالأمر من مراکش إلى القيروان في ستة أشهر ، فيلقاهم فيكسر
مرة ويتمسك أخرى .

وأعلم الأمير نجم الدين بذلك ، فأمسك مقدار عشرة أيام ، ثم أنفذ الأمير
المذكور إليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لا يستصحبها ، وإن
استصحبها تكون هدية برسم من حوالبه ، وأن الكتاب لا يأخذه إلا بتصریح
أمير المؤمنين ، وأن السلطان - عز نصره - رسم له ذلك ، والملك العادل - دامت
قدرته - بأن لا يشير إلا به ، وأنه إذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان
- أبقاه الله - من لسانه .

فأجابه المملوك : بأن لخطاب يكفي ، وطريق محمدنا له ممكن ، والكتابة
حجة تقيد اللسان عن الإنكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين
في مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعه ،
مرخصين الغالى ، منحطين عن العالى ، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين ،
مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته ، فيفسد عقود الإسلام ،
وينفتح باب يعجز وارده عن إصداره ؛ بل تمضى وتستشف الأمور ، وتكشف
الأحوال ، فإن رأيت للقوم شوكة ولنا زبدة فعدمهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل
ما فأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال : أنا اقضى أشغالى ، وأتوجه إلى
الإسكندرية ، وأنتظر جواب السلطان - عز نصره - وما يفوت وقت ،
وإلى أن أنجز أمر المركب ، وأرتاد الركاب .

فسير المملوك النسخة ، وإن وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها
على ما كتبه ، ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب ؛ على أن ابن الجليس حدثه عنه
أنه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها .

فأما الذي يترجم به المولى - عز نصره - فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا ، وهو : الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب ، أدام الله غنى مولانا بالفقر إلى ربه .

وإذا كتب الصالحُ بن رزِّيك إليهم : من السيد الأجل الملك الصالح ، فبج أن يكتب إليه مولانا أبقاه الله : الخادم ، وهذا مبلغ رأى المملوك ، والمؤمن لا يذل نفسه ، وقاسم الأرزاق يوصلها وإن رغم من جرت على يده .

وإن كان مولانا - أعز الله نصره - يقول : أنت غافل وغائب ، وما تعرف ما الإسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث ؛ فجواب ما نكتب بعد سنتين ، فما يتخلى الله عنا ، ولا تستمر هذه الشدة ، ولا نسيء الظن بالله ، وإذا كانت لنا - إن شاء الله - أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته ؛ وإذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح ، وللضرورة حكمها ، والأحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الأمر للمملوك أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحري الألفاظ ، وتنضيد الخبر عما أجراه الله تعالى على يد مولانا - عز نصره - والتأني المطلوب ، فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها ، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان - عز نصره - من تعريضهم لذكر الحياة ، وتوقع الخوف ، ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة .

ويكفى أن المولى أنعم بخطه في كتابه إلى المملوك ، وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الأجل عماد الدين الكاتب الأصفهاني - حرسه الله - لما وصى بأن لا يناظر في الخطاب ما صرح باللفظة ، فهي إما تقية فالمملوك أولى بها ، وإما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك ؛ فإن كان ولا بد فالنسخة بين يديه ، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج إلى تعليم ، والكتاب الذين

يستقلون بكتابة النسخة معدومون ، وقد ناب المملوك عنهم ، والكتاب الذين
يستقلون بالتبويض موجودون ، فينبون عن المملوك في التبويض ؛ وإلا فكيف
يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ، ولا بهدية
سار ، وبمخض من البغاددة والمغاربة ، يعلمون أن الكتاب كتب بمصر ، ويشهدون
بما لم يروه ، وما لم يقرءوه من الخطاب .

ولو وصل من المولى — أدام الله أيامه — كتاب مختوم ، وسير ولم نعلم
ما فيه ، لا تقطع فضول كثير ، ونحمدت أراجيف شنيعة ، ولا يعتقد المولى أن
المملوك يعظم القمص ، فما للألسنة والأعين شغل إلا السلاطين وأفعالهم
وأقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم .

ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى — أبقاه
الله — فإن عليه ، ولكنه مضره بغير منفعة ، وتعرض لما تدم عاقبته أو يبقى
على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته ، فقصود
المولى — أبقاه الله — تحصيل تبيضها بين يديه ، وربما حصل استنارة وأمنت
المكاره فيه ، وغمضت العيون عنه ، وشحت الأيام عليه طالع المملوك بذلك .

(٢١)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين
إلى شمس الدولة بن منقذ - وهو بالمغرب - ينهى إليه أخبار
القتال حول عكا

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩)

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان إلى شمس الدولة بن منقذ - وهو بالمغرب
في الرسالة - :

”لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفا ، قولا
لا يطرقه اتسمح ، بل يحرزه التصفح ، فانبروا في هذه السنة ملكا أفرنسيس
وإنكثيره وملوك آخرون في مراكب بحرية وجمالة حملوا فيها الخيول والخيالة ،
والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ، وأحدقت بالثغر ،
فمنعت الناقل بالسلح إليه ، والداخل بالميرة عليه“.

ثم قال :

”وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل
من النقب ، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا ، ولا رجعنا وراءنا
ولا انصرفنا ، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنتاجزهم ،
وينشروا فنطويهم ، وينبشوا فترويههم ، وأقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم ،
وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية ، والأساطيل
المغربية ، فإن عاريتنا به ترد ، وعاديتنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الإصاابة ، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربي يقابها ، وخطرات من اللطف الخفي يقربها ، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا .“



فهرس الموضوعات

للجزء الثاني

من

كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

لابن واصل



فهرس الموضوعات

للجزء الثاني

من مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

الصفحات

١	ذكر ملك الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود
٤	» جواب الرسالة الواردة إلى صلاح الدين من الملك الصالح
٥	» استيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي على البلاد الجزيرية
٧	» منازلة الفرنج بانياس وعودهم عنها
٨	» إنكار صلاح الدين على الأمراء بدمشق ، وهدتهم للفرنج
٨	» وصول سعد الدين كشتكين ، واستبداده بتدبير الملك الصالح
٩	» سير الملك الصالح إلى حلب
١٠	» القبض على أولاد الداية
١١	» منازلة الفرنج للإسكندرية وعودهم عنها
١٦	» خروج الكنز بالصعيد ومقتله
١٧	» سير الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام وتملك دمشق
٢٢	» استيلاء الملك الناصر على حماة ومدينة حمص
٢٣	» منازلة السلطان الناصر حلب ورجله عنها
٢٤	» استنجاد الحلبيين بالملاحدة وقتلهم فاصح الدين نهارتكين
٢٥	» مراملة السلطان للديوان العزيز
٢٩	» استيلاء السلطان الملك الناصر على قلعتي حمص وبعطبك
٣٠	» منازلة سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بن مودود بسنجار
٣١	» كسرة المواصلة بقرون حماة
٣٣	» وقوع الصلح
٣٤	» استيلاء الملك الناصر على بارين
٣٥	» استيلاء ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه على حمص

الصفحات	
٢٦	ذكر اجتماع الحلبيين والمواصلة لحرب السلطان الملك الناصر تانبا
٢٨	» الوقفة بتل السلطان
٤٢	» ما فتح السلطان من البلاد بعد الكسرة
٤٤	» استيلاء الملك الناصر على عزاز ، وقفز الملاحدة عليه
٤٦	» منازلة السلطان الملك الناصر لحلب ، ورتوع الصالح بيته وبين الحلبيين
٤٦	» المتجددات لسيف الدين غازي بالموصل
٤٧	» منازلة الملك الناصر مصيف وبلد الباطنية
٤٨	» اجتماع السلطان بأخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب
٥٢	» سير الملك الناصر صلاح الدين إلى الديار المصرية
٥٨	» عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي ، وعوده إلى الطاعة
٥٨	» وقعة الرملة
٦٣	» مقتل سعد الدين كشتكين وشهاب الدين أبي صالح بن العجمي
٦٤	» منازلة الفرنج حماة ورحيلهم عنها
٦٤	» منازلة الفرنج حارم
٦٤	» سير السلطان — رحمه الله — إلى الشام
٧١	» عصيان شمس الدين بن المقدم بطلبك ودا آل إليه أمره
٧٢	» بناء الفرنج بيت الأحران
٧٢	» وقعة الهنفرى
٧٣	» سير الملك المعظم شمس الدولة نغر الدين توران شاه بن أيوب إلى مصر
٧٤	» استيلاء الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على مدينة حماة
٧٥	» كسرة الفرنج بمرج عيون
	» الحرب بين عسكر السلطان الملك الناصر والسلطان عز الدين قلاج أرسلان السلجوقى
٧٩	» — صاحب قونية —
٨٠	» تخريب حصن بيت الأحران
٨٦	» استيلاء عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب على بعلبك
٨٦	» وفاة المستضى بنور الله بن المستجد ، وبعض سيرته
٨٩	» البيعة بالخلافة للإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد
٩٢	» وفاة سيف الدين غازي بن دودود بن زكي صاحب الموصل
٩٣	» وفاته وسيرته

الصفحات

- ٩٣ ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على الموصل
- ٩٦ » وفاة الملك المعظم شمس الدين توران شاه بن أيوب
- ٩٦ » مسير السلطان لحرب قلع أرسلان صاحب قونية
- ٩٨ » غزو السلطان الملك الناصر بلاد الأرمن
- ١٠١ » مسير السلطان إلى الديار المصرية
- ١٠١ » غزو عماد الدين فرخشاه الكرك
- ١٠٢ » المتجددات باليمن بعد مفارقة الملك المعظم لها
- ١٠٥ » استيلاء سيف الإسلام طفتكين بن أيوب على بلاد اليمن
- ١٠٦ » وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى
- ١٠٧ » سيرته — رحمه الله —
- ١٠٧ » استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على حلب
- ١٠٩ » استيلاء عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى على حلب
- ١١٠ » المتجددات للسلطان صلاح الدين بمصر إلى حين سفره إلى الشام
- ١١٢ » سفر السلطان إلى الإسكندرية وعوده
- ١١٣ » مسير السلطان إلى الشام
- ١١٥ » مسير السلطان إلى البلاد الشرقية
- ١١٧ » استيلاء السلطان على البلاد الجزيرية
- ١١٨ » منازلة السلطان الملك الناصر الموصل
- ١٢١ » رحيل السلطان من الموصل
- ١٢٣ » منازلة السلطان سنجار وملكه لها
- » وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب بلبك —
واستيلاء ولده الملك الأجد بهرام شاه عليها
- ١٢٤ » سيرته — رحمه الله —
- ١٢٥ » نصرة المسلمين على الفرنج بجز القارم
- ١٢٧ » اتفاق صاحب أخلاط وصاحب ماردين وصاحب الموصل على حرب السلطان — رحمه الله
- ١٢٤ » منازلة السلطان آمد وقتها
- ١٢٦ » تسليم آمد لنور الدين صاحب حصن كيفا

الصفحات	
١٣٩	ذكر فتح آل خالد وعين قاب
١٣٩	» وتوغ أسطول المسلمين على أسطول الفرنج
١٤٠	» رقعة بين المسلمين والفرنج بأطراف الشام
١٤٠	» تخريب قلعة عزاز وكفر لانا
١٤١	» استيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين على حلب
١٤٣	» وفاة تاج الملوك بوري بن أيوب أنحى السلطان — رحمه الله تعالى —
١٤٤	» سيرته
١٤٦	» فتح حارم
١٤٨	» مسير السلطان من حلب إلى دمشق
١٤٨	» غارة السلطان على الفرنج
١٥١	» منازلة السلطان الكرك
١٥٢	» استنابة السلطان الملك الناصر لابن أخيه الملك المنصور في مصر ، وتمليك أخيه الملك العادل حلب
١٥٣	» قبض عز الدين — صاحب الموصل — على نائبه مجاهد الدين قايماز
١٥٥	» ورود رسل الديوان العزيز إلى السلطان في الصلح بينه وبين صاحب الموصل
١٥٧	» منازلة السلطان الكرك
١٥٨	» إحراق نابلس وتخريبها
١٦٤	» مسير السلطان إلى البلاد الشرقية
١٦٧	» منازلة السلطان الموصل ، وهي المنازلة الثانية
١٦٨	» رحيل السلطان عن الموصل
١٦٩	» استيلاء السلطان على ميا فارقين
١٧٠	» منازلة السلطان الموصل ، وهي المنازلة الثالثة
١٧١	» مرض السلطان ورحيله عن الموصل
١٧٢	» انتظام الصلح بين الموصل والسلطان
١٧٤	» وفاة الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه — صاحب حمص —
١٧٤	» استيلاء الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شاذي على حمص
١٧٦	» وصول السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق

المنحآت

- ١٧٧٠ ... ذكر قدوم الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان على أبيه بدمشق ...
- ١٧٨ » استيلاء الملك الظاهر غياث الدين بن السلطان الملك الناصر على حلب، وهو الاستيلاء الثاني
- ١٨٠ » قدوم الملك المظفر تقي الدين عمر إلى خدمة عمه السلطان بدمشق ...
- ١٨٢ » سير الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى الديار المصرية ...
- ١٨٤ » اتمام القومص صاحب طرابلس إلى خدمة السلطان ...
- ١٨٥ » ما اعتمده الابرنس صاحب الكرك من الفدر بالمسلمين ...
- ١٨٦ » سير السلطان الملك الناصر من دمشق إلى الجهاد ...
- ١٨٨ » فتح طبرية ...
- ١٨٨ » وثمة حطين ...
- ١٩٤ » مقتل ابرنس أرناط صاحب الكرك ...
- ١٩٥ » فتح قلعة طبرية ...
- ١٩٦ » مقتل الداوية والاسبتارية ...
- ٢٠١ » فتح عكا ...
- ٢٠٢ » فتح مجد لياية ...
- ٢٠٢ » فتح عدة حصون حول عكا ...
- ٢٠٢ » فتح نابلس ...
- ٢٠٥ » فتح تبنين وصيدا وبيروت وجليل ...
- ٢٠٧ » خروج المركيس إلى صور ...
- ٢٠٩ » فتح عسقلان وبلادها ...
- ٢١٠ » فتح غزة وما معها من الحصون ...
- ٢١١ » فتح بيت المقدس ...
- ٢١٨ » أول خطبة خطب بها بيت المقدس بعد الفتح ...
- ٢٢٨ » قتل المنبر الذي أنشأ نور الدين — رحمه الله — إلى بيت المقدس ...
- ٢٢٩ » ما أزاله السلطان صلاح الدين من آثار الشرك بالبيت المقدس ...
- ٢٤٢ » منازلة السلطان — رحمه الله — صور ...
- ٢٤٥ » الوثقة على باب صور ...
- ٢٤٥ » رحيل السلطان من صور ...

الصفحات

- ٢٤٦ ... ذكر وصول السلطان إلى عكا ومقامه بها
- ٢٤٦ ... » الكعبة على حصن الكوكب
- ٢٤٧ ... » فتح دونين
- ٢٤٨ ... » تقدم رسل الملك والمنوك إلى السلطان بالتهنئة
- ٢٤٨ ... » ورود رسول الديوان العزيز إلى السلطان بالعتب
- ٢٥٠ ... » الفتنة بدمية بين أصحاب الخليفة والسلطان ومقتل شمس الدين بن المقدم
- ٢٥٢ ... » منازل السلطان حصن كوكب
- ٢٥٤ ... » مقدم السلطان إلى دمشق
- ٢٥٥ ... » رحيل السلطان من دمشق إلى الغزاة
- ٢٥٦ ... » فتح أنطربوس
- ٢٥٨ ... » فتح جبلة
- ٢٥٩ ... » » بكسرايل
- ٢٥٩ ... » » اللاذقية
- ٢٦١ ... » » صهيون
- ٢٦٤ ... » » عدة حصون
- ٢٦٤ ... » » الشغور بكاس
- ٢٦٤ ... » » سمرانية
- ٢٦٥ ... » » حصن برزية
- ٢٦٧ ... » » دربساك
- ٢٦٨ ... » » بنراس
- ٢٦٩ ... » الهدنة مع الابرنس صاحب أنطاكية
- ٢٧١ ... » تقدم السلطان — رحمه الله — إلى دمشق
- ٢٧١ ... » فتح الكرك والثوبك
- ٢٧٢ ... » فتح صفد
- ٢٧٢ ... » فتح كوكب
- ٢٧٦ ... » ظهور جماعة من الشيعة بمصر
- ٢٧٨ ... » توجه السلطان إلى القدس وتوجهه به ذلك إلى عكا ثم إلى دمشق

الصفحات

- ذكر منازلة السلطان شقيق أرنون ٢٨٢
- » وقعة اليزك مع الفرنج ٢٨٤
- » واقعة الغزاة المطوعة ٢٨٥
- » توجه السلطان إلى عكا وعوده إلى معسكره بمرج عيون ٢٨٦
- » وقعة الكمين ٢٨٧
- » سير الفرنج إلى عكا ومحاصرتهم لها ٢٨٨
- » القبض على صاحب الشقيف وفتح الشقيف ٢٨٩
- » رحيل السلطان إلى عكا ومنازلة الفرنج المنازلين لها ٢٩٠
- » الوقعة الأولى التي تيسر للسليين بها دخول البلد ٢٩٢
- » الوقعة الثانية ٢٩٣
- » وقعة العرب ٢٩٤
- » الوقعة العظمى بمرج عكا ٢٩٤
- » انتقال السلطان والعسكر إلى الخروبة ٣٠٣
- » وصول الأسطول ٣٠٥
- » مكتبة السلطان إلى الأطراف في الاستنفار للجهاد ٣٠٦
- » من وصل في هذه المدة من مدد العدر ٣٠٨
- » سير القاضي بهاء الدين بن شداد في الرسالة إلى الشرق وإلى الديوان العزيز ٣١٠
- » وقعة الرمل ٣١١
- » قدوم العساكر إلى خدمة السلطان ٣١٢
- » مقدم السلطان إلى تل كيسان ٣١٢
- » وصول رسول الخليفة الإمام الناصر لدين الله تعالى أمير المؤمنين إلى السلطان ٣١٤
- » نصب الأبراج على عكا وإحراقها ٣١٥
- » وصول الأسطول ٣١٧
- » خروج ملك الألمان لنصرة الفرنج المنازلين لهما وما آل إليه أمره ٣١٧
- » الوقعة العادلية على عكا ٣٢٥
- » قوة الفرنج بوصول الكنتدهرى إليهم ، وتحول السلطان إلى الخروبة ٣٢٨
- » مكتبة ملك الروم بقسطنطينية للسلطان بالمودة وإقامة الخطبة له ببلده ٣٢٨

الصفحات

- ٢٢٩ ذكر ما آل إليه حال ابن ملك الألمان وأصحابه
- ٢٣٠ » ذكر الوثقة الكائنة عند وصول ابن ملك الألمان
- ٢٣٠ » دخول الميرة إلى عكا
- ٢٣٢ » المكتبة إلى الديوان العزيز
- ٢٣٤ » ما اتخذته العدو من آلات الحصار
- ٢٣٥ » إحراق منجنيقات العدو
- ٢٣٥ » إحراق ما حوصر به برج الذبان وتحريق الكبش
- ٢٣٨ » رحيل السلطان إلى المنزلة المعروفة بشفرم
- ٢٣٩ » وفاة زين الدين — صاحب إربل —
- ٢٣٩ » استيلاء مظفر الدين على إربل وبلادها واستيلاء الملك المظفر على ما كان بيد مظفر الدين
- ٢٤٠ » استئذان ملوك الأطراف بالرجوع إلى بلادهم لأجل دخول الشتاء
- ٢٤٢ » خروج الفرنج للقاء المسلمين وعودهم خائبين
- ٢٤٤ » وثقة الكمين ودخول البدل إلى عكا
- ٢٤٦ » عود الملوك إلى بلادهم
- ٢٤٧ » بقية الحوادث سنة ست وثمانين
- ٢٤٩ » وصول العساكر إلى المعسكر السلطاني
- ٢٤٩ » استيلاء نحر الدين أسامة على سفن الانكثير
- ٢٥٠ » مضايقة الفرنج بمكا وجدم في حصارها
- ٢٥٠ » تحويل السلطان إلى قل العياضية ووصول ملك الانكثير
- ٢٥١ » هلاك بطشة المسلمين الواصلة من بيروت
- ٢٥١ » الدبابة التي صنعها العدو وإحراقها
- ٢٥٢ » هجوم المسلمين على خيم العدو
- ٢٥٢ » المكتبة إلى الديوان العزيز
- ٢٥٤ » من وصل من العساكر الإسلامية
- ٢٥٥ » مراسلة الفرنج للسلطان شغلا للوقت
- ٢٥٥ » استيلاء الفرنج على عكا
- ٢٦١ » مراسلة السلطان لملك المغرب

الصفحات

- ذكر ما جرى عليه الحال من أمر أسارى المسلمين وما تجدد من الحوادث ٣٦٣
- » رحيل المسلمين والفرنج نحو عسقلان والحرب التي جرت بينهم ٣٦٥
- » وقعة أرسوف... .. ٣٦٧
- » وصول السلطان إلى عسقلان وتخريبه لها ٣٦٩
- » رحيل السلطان عن عسقلان إلى جهة الفرنج وما جرى بينه وبينهم من الحرب والمراسلة ٣٧٠
- » رحيل السلطان — رحمه الله — إلى القدس ومقامه به ٣٧٤
- » وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ٣٧٥
- سيرة الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله — ٣٧٦
- ذكر استيلاء الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين على حماة وبلادها وتملك الملك العادل البلاد الشرقية ٣٧٧
- ذكر مقتل المركيس صاحب صور — لعنه الله — ٣٨١
- ذكر كبس الفرنج للعسكر المصرى ٣٨٢
- » قصد الفرنج حصار البيت المقدس ، وكفاية الله المسلمين شرم ٣٨٥
- » ما جرى بين المسلمين والفرنج من المراسلة في معنى الصلح ٣٩٠
- » رحيل السلطان من القدس ، وأخذه ربض يافا ٣٩٣
- » وصول ملك الانكثير إلى يافا ، واسترجاعه ربضها ٣٩٦
- » عزم السلطان على كبس الانكثير ، وانصرافه عنه ٤٠١
- » عقد الهدنة بين المسلمين والفرنج ٤٠٢
- » رحيل السلطان إلى القدس ونظره في مصالحه ٤٠٧
- » عزم السلطان على الحج ، ثم انتقاض عزمه ٤٠٨
- » سير السلطان إلى دمشق ووصوله إليها ٤٠٨
- » وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب — رحمه الله تعالى ٤١٦
- » جلوس الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن على بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين للغزاه ، وتجهيز السلطان ودفنه ٤٢٠
- » مبلغ عمره وأولاده وتركته ٤٢٣
- » حمل من سيره — رحمه الله — ٤٢٧

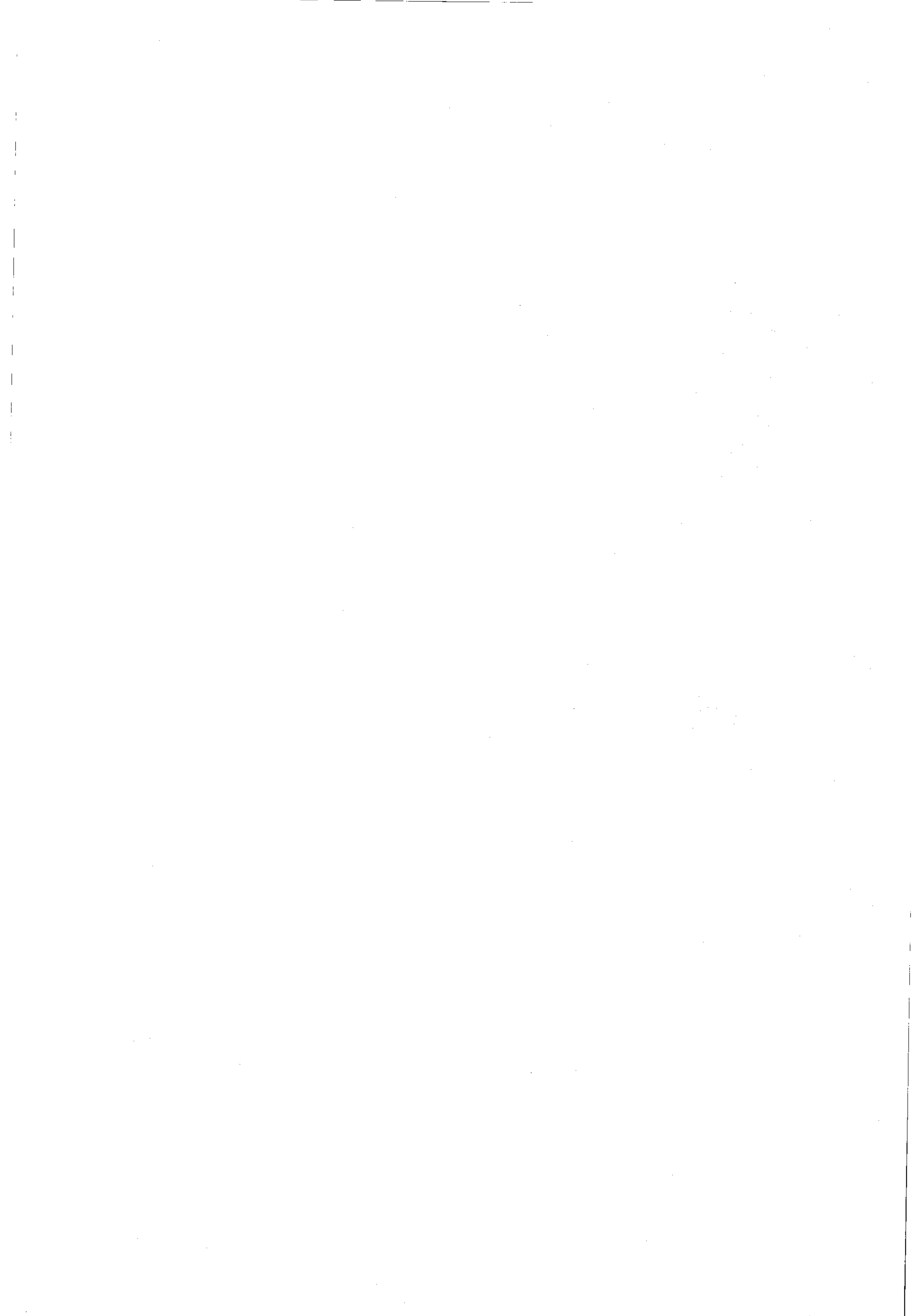
الملاحق

الصفحات

- ١ — سجل بقلم القاضي الفاضل ، صادر عن الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة
بعد قتل شاور ٣٤٣
- ٢ — توقيع بخط الخليفة العاضد على طرة التقليد السابق بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة
٤٥٤
- ٣ — سجل بقلم القاضي الفاضل ، صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف
ابن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه ٤٥٥
- ٤ — توقيع بخط الخليفة العاضد على طرة التقليد السابق بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب
الوزارة ٤٦٢
- ٥ — وصف تفصيلي للفتح الأيوبي لليمن ، كما سجله بقلمه مؤرخ يمني ٤٦٣
- ٦ — قطعة من خطاب بقلم القاضي الفاضل ، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب
إلى وزير بغداد ، يمدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية ، وآخرها
نسخ الخطبة للخليفة العاضد ، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسي ، ويطلب إرسال
التشريفات ٤٧٠
- ٧ — نسخة بشارة باتهاء الدولة الفاطمية في مصر ، والخطبة للخليفة العباسي حلها عن
نور الدين ، شهاب الدين أبو المعالي المطهر بن أبي عصرون ، لتقرأ في كل مدينة
يمر بها في طريقه إلى بغداد ٤٧٢
- ٨ — سجل أصدره صلاح الدين بعد وفاة العاضد واتهاء الدولة الفاطمية ، باسقاط المكوس
في مصر ٤٧٣
- ٩ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل ، أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، يشرح
له فيها القصد من خروجه لمهاجمة حصن الكرك والشوبك في أوائل سنة ٥٦٨ هـ ٤٧٥
- ١٠ — رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها
المؤامرة التي كان يديرها رجال الدولة الفاطمية والصليبيون ، والتي اشترك فيها
الشاعر عمارة البيني لقب نظام الحكم وإعادة الدولة الفاطمية ٤٧٦
- ١١ — قطعة من رسالة بقلم العماد الأصفهاني ، مرسله من الملك الصالح إسماعيل إلى
صلاح الدين ، ينبئ بوفاته والده نور الدين ، ويعزیه فيه ٤٨٠
- ١٢ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى الملك الصالح
إسماعيل للتعزية في وفاة والده نور الدين ٤٨١
- ١٣ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل
للسؤال عن صحة والده نور الدين ، بعد أن أشاع الفرنج خبر موته ... الخ ... ٤٨٢

الصفحات

- ١٤ — رسالة مرسل من صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام ينشئه بجزء وصول الأسطول من صقلية لمهاجمة مدينة الاسكندرية في يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ ، وكيف اتهم الأمر بقتله في أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ ٤٨٣
- ١٥ — رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين وهو بالمغرب من حاة في طريقه إلى حلب لمحاربة نواد نور الدين ، إلى الديوان الذي يقبضه ، يمدد فيها فتوحه وانتصاراته في مصر واليمن والمغرب ، ويسأل الخليفة أن يرسل إليه التقاليد بتولية على هذه البلاد ، وعلى ما قد يفتحه في المستقبل من بلاد أخرى ٤٨٦
- ١٦ — قطع من رسائل بقلم القاضي الفاضل مرسل من صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد في تعداد ماله من الأبدى على الخلافة العباسية ، وخاصة إعادة الخطبة لها في مصر واليمن والمغرب ٤٩٤
- ١٧ — خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة الموحد بالمغرب ، في سنة ٥٨٥ هـ ، يستجيبه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا ٤٩٦
- ١٨ — خطاب بقلم القاضي الفاضل ، من صلاح الدين إلى سيف الدولة بن مقذ — وسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن — يستجيبه به ، ويطلب منه المعاونة برسالة قطع من أسطوله أثناء حصار الفرنج لعكا ٥٠٠
- ١٩ — خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستجيبه به على الفرنج أثناء حصارهم لعكا ، وفي ختامه إشارة إلى الهدية المرسله من صلاح الدين بهذه المناسبة ٥٠٥
- ٢٠ — كتاب من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بشأن الرسالة إلى ملك المغرب ٥١٢
- ٢١ — قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسله من صلاح الدين إلى شمس الدولة بن مقذ — وهو بالمغرب — ينهى إليه أخبار القتال حول عكا ٥١٦



تصويبات الجزء الأول

لم يخل الجزء الأول - رغم ما بذلنا من عناية في تصحيحه - من وجود بعض الأخطاء المطبعية ، نثبتها فيما يلي مع تصويباتها ، ونرجو القارئ الكريم أن يتفضل مشكورا بتصحيحها :

الصواب	الخطأ	الصفحة
سنة ٥٦٩ هـ	سنة ٦٥٩ هـ	صفحة الغلاف ، سطر ٧
ومحتوياته	ومحتوياتها	ص ٥ (من المقدمة) سطر ٥ ...
التفصيل	التفصيل	ص ٦ (من المقدمة) سطر ٣ ...
إبراهيم بن نصر الله	إبراهيم ابن نصر الله	ص ٦ (من المقدمة) سطر ١٤
ينقصها	ينقصه	ص ١٣ (من المقدمة) سطر ١٦
ميا فارقين	ميا فارقين	ص ١٦ (من المقدمة) السطر الأخير
ثغر عدن	ثغر عون	ص ٢٤ (من المقدمة) سطر ٢ ...
قرا أرسلان	قر أرسلان	ص ١١٩ ، س ٧
فإنه لم	فإن لم	ص ١٣٨ ، س ٦
Runciman	Ranciman	ص ١٥٦ ، هامش ١
مستفرا	مستفزا	ص ١٥٨ ، س ٥
نوازله	نوازلة	ص ١٧٠ ، س ٩
إحدى	باحدى	ص ١٨١ ، س ١٩
سيف الدين غازى	سيف الدين بن غازى	ص ١٩١ ، س ١
مراكب إلى الشام	مراكب ، إلى الشام	ص ٢٢٠ ، س ١٢
بالإنشاء الفاضلى	بالإنشاء الفاضل	ص ٢٢٥ ، س ٢
بلاد النوبة	بلاد اليمن	ص ٢٢٩ ، س ٤
قلية	قلية	ص ٢٥١ ، س ١٢

نقد للجزء الأول

بقلم

الأستاذ الدكتور مصطفى جواد

”تفضل الأخ الكريم والعلامة المحقق الأستاذ الدكتور مصطفى جواد فأرسل إلى هذا النقد التفصيلي الذي يدل على سعة في الاطلاع ومعرفة أكيدة بالعصر الذي يؤرخ له ابن واصل ، وبالمكتبة العربية الإسلامية بوجه عام ، وقد رأيت أن أشرك القراء معي في الإفادة من هذه الملاحظات القيمة ، ولهذا بادرت بنشره هنا ملحقاً بالجزء الثاني ، وللأخ الكريم أجل الشكر وأطيب التحية“ .

بغداد في ١٣/١٢/١١٥٣

عزيزي الدكتور الفاضل الصديق الكامل جمال الدين الشيال المحترم

تحية عطرة بشذا الشوق ، وبعد فتد بلغني كتابكم الكريم داخل الكتاب العظيم ”مفرج الكرب“ ، وقد فرجا كربا من كربى ، وأظفرانى بمطوبى ، فشكرى لكم مستدام على هذا الفضل والبحث والتحقيق والتدقيق والتعليق ، فتد بحتم وما قصرتم ، وجمعتم فما أغفلتم ، وبحتم فما أهلمتم ، وظهر الفرق العظيم بينكم وبين من يكتبون في التاريخ أو من ينشرون بمصر مع استثناء أفراد من الفضلاء ، وأريد بالجماعة الأولى ناشر الدولة الجلالية بل السيرة المنكوبرتية ، وتخليطه العجيب في التأليف والنشر بما يضحك الشكلي .

ذكرتم - أعزكم الله - أنكم تريدون نقدي للكتاب منشورا في مجلة أو مبعوثا به إليكم ، وأنا أسترجح الرأي الثاني لضمان الفائدة وجزالة العائدة ، مع أن نشره في مجلة من المجلات قد يؤخر ظهوره ويقلل الاستفادة منه . وأماسؤالكم عن الجزء الثاني من مختصر ذيل تاريخ ابن الدبيشى ، فالجواب أننا لم نشرع في نشره

وطبعه لأن أعضاء المجمع العراقي لا يقدرّون مثل هذا الكتاب فتركه للأقدار ،
وفي النية أن أطبع "الجزء الرابع" من تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطى ،
المحفوظة نسخته الأصلية بالمكتبة الظاهرية ، وصورتها في مكتبة المتحف العراقي ،
وقد نسخته مرتين لأنه مختلط التجليد مختلفه ، كنسخة "مخرج الكروب الباريسية" ،
وقد جاء هو وتحقيقاته في "ألف وخمسة مائة صفحة" متوسطة ، وفيه فوائد جيدة
لرجال القرن السادس والسابع ومن أدرك الثامن ، كالفتح بن علي البندارى مترجم
الشاهنامه ، وفريد الدين العطار الصوفى ، وجماعة من المصريين الذين لم تحسن
ذكرهم التواريخ ، فضلا عن العراقيين والإيرانيين .

وهذى يا عزيزى ملاحظاتى على الجزء الأول من مخرج الكروب :

١ - جاء فى خلافه "ويتهى بموت نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٦٥٩" ،
وفيه غلط طبع لأن المراد «٥٦٩» .

٢ - حين تكلمتم على المؤرخين الذين أرخوا لحوادث بنى أيوب - ص ٥
من المقدمة - لم تذكروا تاريخ ابن أبى طى مع أنكم نقلتم منه غير مرة فى الحواشى
وإن كان النقل بواسطة أبى شامة ، ولم تذكروا تاريخ مختصر الدول لابن العبرى
ففيه فوائد فى تاريخ بنى أيوب .

٣ - ظهر لى أن الكتاب الذى طبعت به باسم الحوادث الجامعة ليس لابن الفوطى
فيحسن عند الاستشهاد به القول "المظنون أنه لابن الفوطى" .

٤ - جاء فى « ج ١ » من الكتاب ، السطر ٩ "وشيدوا بها أركان الملة
الحنيفية" وهو تصحيف على فرض وروده فى جميع النسخ ، لأن الصحيح
"الحنيفية" ، وهو وصف مشهور ، قال ابن الأثير المبارك فى النهاية : "والحنيف
عند العرب من كان على دين إبراهيم - ٤ - وأصل الحنف الميل ومنه الحديث :
"بعثت بالحنيفية السمحة السهلة" . وقد تكرر ذكرها فى الحديث .

٥ - وفى الصفحة الأولى أيضا « س ١٨ » قولكم فى "العصر المملوكى" ،
وإخواننا المصريون يخطئون فى النسبة إلى المماليك ، لأن قاعدة الجمع إلى
المفرد فى النسبة لم يطبقها العرب إلا فى اسم الجنس ، أما الأعلام وما جرى مجراها

وما خيف فيه اللبس فيبقى على حاله ، وبقاء الاسم المنسوب إليه على حاله هو الحال الطبيعية للنسبة الضامنة للفائدة منها ، فذلك قالوا : "رجل شعوبي وعالم أصولي وأداة ملوكية وخادم رسائي ورجل أنصاري" ، هذا زيادة على أن الكوفيين أجازوا النسبة إلى الجمع بلا شرط ولا قيد ما حصلت الفائدة ، والبصريين أجازوا النسبة إلى كل جمع له شبيه من المفردات ، فالملوك كالدخول والخروج من حيث اللفظ ، فالصواب "العصر الممايكي" و"عصر الممايك" بالنسبة والإضافة ، وهذا الغلط الذي ارتكب في "الملوكي" ارتكب في "الدولي" مع أن الصواب الذي لا بد منه "الدولي" .

٦ - وجاء في « ص ١٣ س ١٥ » "وحمل للسلطان خيلا رائدة" . قلم في الحاشية "في الأصل - رابعة - والتصحيح عن ابن الأثير" . ومعلوم أن ابن الأثير لم ينص على أحرف الكلمة ، والموجود في الأصل يدل على أن التصحيح "رائدة" بالعين ، من راعه الشيء أي أعجبه ، ففي الكامل نفسه « ج ١ ص ٥٥ س ١٣ » ما هذا نصه "وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرسا من الخيل الرائدة" . ووصف الفرس بالرائع مشهور .

٧ - وورد في - ص ١٩ - س ٦ اسم "بجاهد الدولة بزبان" من أمراء ملكشاه الكبار ، أي من رجال القرن الخامس للهجرة ، فعلمت في الحاشية أنه "أبو الفوارس مجاهد الدير بوزان بن مامين الكردي ، توفي سنة ٥٥٥" . ولا صلة لهذا بذلك ، فهذا كردي من أهل القرن السادس وذاك تركي من أهل القرن الخامس ، وبزبان التركي قتل سنة « ٤٨٧ » ، قتله الأمير تاج الدولة تنش السلاجوقي صبغا كما في الكتاب نفسه « ص ٢٧ س ٢ » ومن المدلوم أن مثل بزبان لا يبقى أصلا إلى سنة « ٥٥٥ » لأن ذلك يوجب أن يكون له عمران ، والأكراد الجلالية الذين ذكروا في حاشية « ص ١٣٠ » ليسوا منسويين إلى جلال الدولة ملكشاه ، حتى يظن أن لبزبان المذكور صلة بهم .

٨ - وجاء في « ص ٢٢ » اسم مدينة "هيت" بفتح الهاء ، والصواب كسرهما ، كما هو مشهور قديما وحديثا إلى اليوم . وضبط "بعث" في ص ٢٧ س ٣ "وَبُعْثَ" والظاهر أن تاج الدولة بعثه ، فالباعث تابع لسياق ما قبله : "قتل ... أنفذ ... تسلم ... بعث" ، وانقطع السياق لأن الحابس غير الباعث .

٩ - وورد في « ص ٢٩ س ١ » « ثم ولى الموصل الأمير مودود من نسل السلطان غياث الدين محمد ملكشاه » وأرى أن الأصل « من قبل » ، فلم يكن مودود من نسل السلطان المذكور ولا من نسل السلاجقة قط بل كان مملوكاً من مماليكه .

١٠ - وجاء في « ص ٣٥ » وفي ثبت المراجع : « قاسم الدجيلي » ، والصواب : « كاظم الدجيلي » ، ولا يزال هذا الرجل الفاضل الأديب المحقق حياً ببغداد على أحسن صحة .

١١ - وفي ص ٣ : س ٢٣ « ديس الثماني أبو العز بن سيف الدولة » وكنية ديس : « أبو الأغر » فهي كنية مبالغة للديسي اللون ، وقد يلتبس الأغر بالأعز ، ولكن لا يمكن أن يكون الأغر « العز » .

١٢ - وفي ص ١٥ س ١١ « فسمع سيد الملك » ، والصحيح : سيد الدولة ، كما في كل آثار نوح التي ذكرته ، وكما هو في الحاشية وفي المتن قبل سطرين

١٣ - وفي « ص ٤٧ » قوله : « وسار من همدان إلى رمكان » ، فتم في الحاشية : « ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ولم يعرفها بأكثر » ، وتلتم أن ابن الأثير قال : « إلى زنجان » فالاسم المصحف هو في الحقيقة « زنكان » بالكاف ، قال ياقوت في « زنجان » من معجم البلدان : « والعجم تقول : زنكان بالكاف » وابن واصل ذكره على الأصل .

١٤ - وجاء في ص ٤٩ س ١٤ « بقرب الدينور » بسكون الواو والصواب فتحها كالتى قبلها .

١٥ - وجاء في ص ٥٠ س ٨ ذكر « عرقوف » ، فدلتم بها ما ذكره ياقوت في معجم البلدان من كونها من قرى دجيل . وقد غلطه ابن عبد الحق في مرآة الاطلاع وذكر أنها من قرى « نهر عيسى » ، وهو الصواب الذى أيدته كتب التاريخ ، والآثار المكتوبة الباقية ببغداد على الأجر « الطوب » في وقفية المدرسة المرجانية ، وقد سمي حمزة الأصفهاني في تاريخ العالم فرع نهر عيسى المار بأرض عرقوف « نهر الوردادة » فليست عرقوف من دجيل .

١٦ - وورد في ص ٥٦ س ١٠ « وكواشي » بكسر الشين ، وفي ياقوت بضبط القلم « كواشي » بالألف المقصورة ، ويؤيد فتح الشين أن الصفدي سماها « كواشة » بالشين والهاء ، كما في نكت الهميان « ص ١١٦ » .

١٧ - وورد في « ص ٥٩ س ١ » « وكمال الدين صاحب المخزن » وفي الحاشية ما يفيد أن ابن القلانسي سماه « جمال الدين بن طلحة » ، وأن وظيفة صدر المخزن لم تعرف لها على تعيين ، أما ابن طلحة فقد عين لقبه ابن الفوطي في تلخيص مجمع الألقاب بأنه « كمال الدين » لا جمال الدين كما جاء في تاريخ القلانسي . قال ابن الفوطي « ج ٥ اترجمة ٣٤٠ من الكاف » من كتابه المذكور : « كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي بن طلحة يعرف بالبقشلام ، حاجب الباب أستاذ الدار ، ذكره محب الدين محمد بن النجار في تاريخه وقال : كان عالماً بالفقه والأدب والجدل ، ولي حجابة الباب [باب النوبي] للمسترشد بالله سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ووكاه وكلاه [عامة] ، فلما استخلف المتقي ولأه صدرية المخزن ، وأكثر الحج وجاور بمكة ، ولما عاد استعفى من الخدمة فأعفى ، وجلس في بيته مكباً على العبادة ، وبني مدرسة لأصحاب الشافعي بباب العامة ، وتوفي في صفر سنة ست وخمسين وخمسمائة » . على أن التاريخ يذكر أنه صاحب المخزن قبل ذلك ، ومدرسته المنسوبة إلى لقبه « الكجالية » مذكورة في كتابنا الكبير « خطط بغداد » ، ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة « ٥٣٥ » من الكامل ، « ج ١١ ص ٣٠ » ، قال : « وفيها بنيت المدرسة الكجالية ببغداد ، بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ... » وذكر حجه سنة ٥٣٦ هـ « ج ١١ ص ٣٤ » ، ووفاته في سنة ٥٣٦ هـ « ج ٧ ص ١٠٥ » ، وذكره ياقوت الحموي في ترجمة ابنه « علي بن حمزة » في معجم الأدياء « ج ٥ ص ٢٠٥ » من طبعة مرغليوث وقال : « وكان أبوه حمزة بن علي هو الملقب كمال الدين ويكنى أبا الفتوح » ، « وابن الجوزي في المنتظم « ج ١٠ ص ٢٠٢ » ، وقد ولي صدرية المخزن بعد الحادثة التي ذكرت له في مفرج الكروب .

أما صدرية المخزن فلم نجد من عرفها في الحقيقة ، إلا أن الحوادث التاريخية تثل على أن المخزن كان كوزارة التموين في نظام الدول بعد الحرب الأخيرة ، ومثل مديرية التجهيزات العامة ، فالمخزن ينفق على مصالح الدولة ، ويعد لها العدد

ويختزن لها الذخائر لوقت الحاجة إليها، ومن مصالحي الدولة الحفلات الرسمية التي تقيمها. ولسيط ابن التماويدي آيات يهجو بها «قصاب المخزن»، مما يدل على أن المخزن كان يوزع الطعام واللحون بين الموظفين .

١٨ - وجاء في ص ٦٠ س ٤ : «وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان»، وفي ص ٦١ : «وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سرجهان»، فمن نقيب العلويين هذا ؟ نعم إنه كان معروفا عند سيد الدولة ابن الأباري حاكي القصة ولكنه مجهول عندنا، وبعد البحث والتحقيق علمنا أنه أبو الحسن علي بن المعمر بن محمد العلوي، ذكر ابن الديلمي في نسخة كبير من تاريخه، وابن النجار كما في نسخة باريس من تاريخه أنه ولد سنة ٤٧٠ هـ، وولى النقابة سنة «٥٢٠ هـ»، وعزل سنة «٥١٧ هـ»، ثم خرج مع الخليفة المسترشد بالله في حرب السلطان مسعود، فأسر وحبس بقلعة سرجهان، فأطلق منها في محرم سنة «٥٣٠ هـ»، وكان مريضاً فتوفي في عصر يوم إطلاله خارج القلعة .

١٩ - وجاء في ص ٦٠ س ٨ : « وقتلوا معه أبا عبد الله بن سكيبة » ولم يعلم القارئ أهو ابن السكيبة « من الآلات القاطمة » ، أم ابن سكيبة تصغير سكيبة ؟ فقد كان في بغداد بيتان من بيوتاتها يعرفان بابن سكيبة ، أحدهما بتشديد الكاف وكسر السين من الآلة القاطمة ، والآخر معروف الضبط . فأبو عبد الله هذا من البيت الأول .

قال الذهبي في المشتهر ص ٢٦٨ : « وبالتشديد [سكيبة] علي بن الحسين ابن سكيبة الأنماطي القطيبي . . . ، والمبارك بن أحمد بن حسين بن سكيبة سمع أبا عبد الله النعماني . . . » وهذا المبارك هو أبو عبد الله بن سكيبة الذي قتل مع المسترشد بالله . قال ابن الديلمي في ترجمة ابنه « عبد الله بن المبارك » : « عبد الله بن المبارك بن أحمد بن سكيبة أبو محمد وابن أبي عبد الله ، من ساكني دار الخلافة ، ومن أهل القرآن المجيد ، ومن بيت معروف بالقراءة ، كان والده يؤم بالمسترشد بالله في الصلوات ، وقتل معه لما قتله الملاحدة بمراغة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . (١) »

(١) ذيل تاريخ بغداد لابن الديلمي « نسخة المكتبة الوطنية بباريس ٥٩٢١ ورقة ١٠٧ » .

٢٠ - وجاء في ص ٦٣ س ٢ « لا تولى إلا من يضمنه الوزير » ، وسياق الخبر يقتضى أن يكون « لا يولى إلا ... » ، ولو كان نهيا لوجب حذف الياء ، فبقاؤها فى النص مؤذن بكونها أصلية .

٢١ - وفيها س ٥ : « وهو الزاهد الدّين » والصواب « الدّين » أى ذو الديانة كالصين والميت والقيم .

٢٢ - وجاء فى عنوان ص ٦٥ « ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود ابن مجد إلى بغداد » ، وجملة محمود بن « زائدة يجب حذفها ، لأن القادم هو مسعود ابن مجد ، وإيس فى بنى سلجوق من اسمه « محمود بن مسعود » أصلا .

٢٣ - وفيها س ٣ : « ثم عبر الأمير عماد الدين زنكى إلى خراسان » ، وهذا محال ، كيف يعبر من بغداد الغربية إلى خراسان ؟ والصحيح : « إلى طريق خراسان » ، وهو القسم الشرقى من العراق بين بغداد وخاتقين ، ويعرف اليوم بلواء ديالى .

٢٤ - وفى ص ٦٩ س ٩ : « ولكن لا بد لنا فى هذه الدعوة من نصيب » ، والصواب : « الدعوى » ، لأنها تسوجب القضية ، وإيست هى دعوة إلى طعام ، ولا دعوة إلى رأى ومذهب .

٢٥ - وجاء فى ص ٧٠ س ١ « ودرب هرون وحزمى مالكا » ، والصواب : « ودرب هارون وحربى مالكا » كما فى الفخرى ص ٥٠ من الطبعة المصرية الأولى ، وفى ذلك نقد عنيف على القاضى الشهرزورى بطل القصة . وحربى من قرى دجيل العظيمة ، وقد خربت بنحراب نهر دجيل ، ولا تزال آثارها معروفة ، وعندها قنطرة من الآجر هائلة تسمى إلى اليوم « قنطرة حربى » .

٢٦ - وورد فى ص ٨١ س ١٣ « فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافته » فدلته : « فى اللسان أصفهت راعلى الأمر » ، فاستشهدتم بالإفعال على المفاعلة ، وهو بعيد ، ثم إن الأصل ليس بالمصافاة ، بل « المصافة » بتشديد الفاء ، وهو الدخول فى القتال ، كما جرى كثيرا فى الاستعمال ، يقال : « صافه يصافه مصافة » .

٢٧ - ووردت في ص ٨٢ س ٥ أبيات الشاعر المسلم بن خضر الحموي ،
وفي الحاشية ما يشير إلى ندور أخباره على ما وصل إليه تحقيقكم ، وقد ذكره
أبو شامة في الروضتين "ج ١ ص ٢٤ ، ص ٣٢" ، وفي الصفحة الثانية أعنى ص ٣٢
ذكر الأبيات التي أوردها ابن واصل وزاد عليها وقال ، « له قصيدة قد ذكرتها
في ترجمته في التاريخ » ، وفي هذه الأبيات التي أوردها فرائد كانت جديرة
أن يستفاد منها في التصحيح والمقابلة .

٢٨ - وجاء في ص ٨٩ س ٣ : « فثار لها معين الدين ومعه الفرنج » ، وفي
الحاشية أن في نسخة : « فنادى معين الدين » ، وليس في سياق الخبر ما يدل
على التآر ولا على النداء ، والصواب : فثارها معين الدين ، ومنه التزال .

٢٩ - وفي ص ٩٠ س ٢ نقلا من ابن الأثير آل مهارش ، والصواب :
« آل مهارش » وهو مفاعل من هارش يهارش ، وبه سمى الأمير العقيلي المذكور
المشهور ، وهو الذي التجأ إليه القائم بأمر الله لما أخرج من بغداد سنة استيلاء
الفاطميين على المدينة المذكورة ، قال ابن الفوطى في تلخيص معجم الألقاب
ج ٤ ص ٢٧٧ من نسختنا الأولى الخطية :

نفر الملك أبو الحارث مهارش به على بن المجلى العقيلي أمير العرب ، كان أميراً
جليلاً ، وهو الذي كان عنده الإمام القائم بأمر الله حال انزعاجه أمام أبي الحارث
أرسلان البساسيري في ذي الحجة سنة خمسين وأربعمائة . « وكرر ابن الأثير ذكر
« مهارش » في حوادث سنة « ٤٥٠ » من تاريخه ، فالمنقول منه مصحف .

٣٠ - وفي ص ١٢٠ س ١١ : « واعتذر باحتياج قطب إليه واستغنى
نور الدين عنه . . » ، والصواب : « واستغناء » ، فهو معطوف على احتياج .

٣١ - وفي ص ١٢١ س ٩ خُطبت « وس ١٥ » « تُحْتَطَب » ، والسياق
يقتضى بناءهما للملوم لا للجھول .

٣٢ - وفي ص ١٢٢ س ٨ « إصْلَاتِه وَصِلَاتِه وَصَلَاتِه » ، والصواب :
« إصْلَاتِه » ، أي إصلاته السيف .

٣٣ - وفي ص ١٢٨ من ١٦ « عماد الدين بن زنكي » ، ولفظة « ابن » زائدة كما هو معلوم .

٣٤ - وفي ص ١٣٣ من ٣ : « منجم به نويرة » ، والصواب : متم ابن نويرة وهو أخو مالك بن نويرة قتيل حرب الردة .

٣٥ - وفي ص ١٣٤ من ١ : « أبو المظفر » ، والصواب : « أبي المظفر » .

٣٦ - وفي ص ١٤٠ من ١١ « إذ أتاهم بكثرة الفرنج على حارم » ، والصواب : « بكسرية » من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي أتاهم بخبر انكسارهم إن صح التعبير ، لأن الانكسار لا يصح استعماله في هذا المقام .

٣٧ - وفي ص ١٤٧ من ١٠ : « ذكر القاضي شهاب الدين في تاريخه » وتقدم في الحاشية « القاضي شهاب الدين هو أبو محمد عبد الرحمن . أبو شامة » ، والتصحيح أنه أراد « شهاب الدين إبراهيم ابن أبي الدم الحموي » فهو المعروف بالقاضي ، وهو المؤرخ القاضي ، وهو الذي كان أقرب إلى ابن واصل من غيره ، وفي حاشية ص ١٩٤ ما يؤكد ذلك .

٣٨ - وورد في ص ١٤٨ من ١٣ « خوفا من معرفة الافرنج » ، وقد وضعت عليه « كذا » ، ومعناه واضح ، فهو يخشى أن يعرفه الافرنج ، كأنهم يلطخونه بشر ويؤذونه ، والمعرفة الأذى ، فنور الدين سارمه محافظا عليه ، وحارسا له منهم .

٣٩ - وفي ص ١٤٩ من ٦ « يملكها » ، وبهذا الضبط يكسر البيت ، فالصواب « تملكها » وهو يدعو الله ، فالتاء للمخاطب .

٤٠ - وجاء في ص ١٥٠ من ٨ « شرف الدين برغش » ، والصواب « بزغش » بالزاي ، قال الذهبي في المشتهر ص ٥٥٣ « وبمعجمات : بزغش في الموالي ، ومنهم بزغش عتيق أحمد بن شافع عن أبي الوقت ، وبزغش الرومي » وكذلك في ص ١٦٠

٤١ - وفي ص ١٥٥ : « شهاب الدين مالك العقيلي » ، والصواب : « مالكا » لأنه بدل من منصوب قبله .

- ٤٢ - وفي ص ١٦٤ س ٦ "عَضَدَ اللهُ بِهِ الدِّينَ" ، والصواب :
"عَضَدَ" بالتخفيف ، ولم يرد التضعيف .
- ٤٣ - وفي ص ١٧١ س ١٧ "وَبَجِيدِرِ وَالْعِلْمِ مِنْكَ بِأَحْنَفٍ"
والصواب : "وَالْحِلْمِ" ، لأن الأحنف عرف بالحلم لا بالعلم .
- ٤٤ - وفي ص ١٧٧ س ١٣ "حَكَّتْ الْبَيْضَ فِي الْمَقَاتِلِ" ، والصواب :
"حَكَّتْ" مبديا للجهول .
- ٤٥ - وفي هذه الصفحة س ١٤ : "عَلَيْهِمْ كَفَهُ بِحَائِلٍ" ، وقلتم
في الأصل "كفة لحابل" . فلماذا تركتم الأصل وهو الصحيح الملبح ؟
فالحابل له كفة وهي شبكة الصيد ؟ ؟
- ٤٦ - وفي ص ١٨٣ س ٢ "نَحْسٌ وَنَحْسِيْنٌ وَنَحْسِيَانَةٌ" ، والصواب :
"نَحْسٌ وَسِتِيْنٌ وَنَحْسِيَانَةٌ" .
- ٤٧ - وفي ص ١٩٤ س ٩ "وَكَانَ ابْتِاعَ دَارًا مِنْ صَدَقَةِ بِيَابِ الْعَامَةِ" ،
وذكرتم أن في نسخة س "دار بن صدقة" ، وهو أقرب إلى الصواب الذي هو
"دار ابن صدقة" ، وهي دار سيف الدولة صدقة ، مذكورة في خطط بغداد ،
وكانت عند جامع القصر بباب العامة ، وحدث نزاع عليها بين الخليفة المسترشد
بالله وابن صدقه ديبس كما ذكر ابن الأثير وغيره ، ومن بقايا جامع القصر اليوم
ببغداد "جامع سوق الغزل" ، وباب العامة محلة دخلت في محلة سوق الغزل
ونسى اسمها .
- ٤٨ - وفي ص ١٩٥ س ٧ "وَمَنَاوَةٌ إِلَيْهَا سُوءٌ ضَمْنٌ" ، والصواب هنا
"وَمَنَاوَةٌ" بتخفيف الهمزة ، ولثلا يكسر البيت .
- ٤٩ - وفي ص ١٩٦ س ٣ "وَأَقْطَعُ تَتَامِشَ وَأَخَاهُ أَرْدَنَ نَسِيبِي قَائِمًا" ،
والصواب "تتامش" بتاءين ، و"أردن" أو "يزدن" بالزاي ، وهما مذكوران
في مرآة الزمان ، وكامل ابن الأثير ، وتلخيص معجم الألقاب وغيرها .

٥٠ - وفيها س ٣ "واسطا وقوشان"، والصواب: "قوسان" بالسین، كما في معجم البلدان وغيره .

٥١ - وجاء في ص ٢٠٠ س ١١ : ذكر أول من خطب للعباسيين بمصر بعد العاضد وهو "الأمير العالم"، وهذا لقب من ألقابه .
واسمه في الحقيقة "محمد بن المونق الخبوشاني"، ذكره ابن خلكان غير مرة وترجمه، وذكر الذهبي ترجمته في تاريخ الإسلام . وترجمه السبكي في طبقات الشافعية، ونقل ترجمته صاحب الشذرات، وذكره استطرادا ابن جبیر في رحلته، وكانت وفاته سنة "٥٨٧". وقولكم في الحاشية: "وذكر ابن الأثير أنه رآه بنفسه بعد ذلك في الموصل" فيه زيادة "بعد ذلك"، لأن رؤية ابن الأثير له يجب أن تكون بعد تدومه بمصر، فهو لما أقام بمصر استمر على الإقامة فيها حتى موته .

٥٢ - رأيكم المذكور في حاشية "ص ٢٢٣ و ص ٢٣٧" في غمزا بن الأثير لصالح الدين كلما وجد فرصة هو عين الحق بل الحق نفسه، والرجل يجب أن يحاسب حسابا عسيرا على ما أرخ من عصره دون غيره، وتلبيكم ذلك بميله إلى البيت الأتابكي صحيح، زد على ذلك أن القفطي المؤرخ الوزير الثقة الدين الصين اتهمه بسرقة كتب ياقوت الحموي بعد وقفها، كما في ترجمة "ياقوت" من إنباه الرواة على أخبار النحاة، وهو إلى ذلك مؤلف كبير ومؤرخ شهير وله فضل لا ينكر أبدا .

٥٣ - وفي ص ٢٢٨ س ٢ "وكان بين النفع لمع حديدها"، والصواب: "لمع" بالنصب لأن اسم كان مؤنرا .

٥٤ - وفيها س ٥ "لتنوب عنه أنجم الخرصان"، والصواب: «الخرصان» أو «الخرصان» جمع الخرص وهو جريدة النخل وأراد به الرمح .

٥٥ - وجاء في ص ٢٥١ س ١٢ "هاشم بن تليته" وصححتموه بـ "فليته" في الحاشية تالا عن كتاب "Rulers of Mecca" لجيرالدي كوري، وهذا الرجل ليس بمحقق حتى يعتمد عليه، ولا أظنه يعرف العربية إلا ترجمة، وفي كتابه

هذا ما يضحك الشكلى من الأوهام ، وقد أخذ علما من علم الناس الأحياء فادعاه لنفسه ، وفليته مذكور في عمدة الطالب وغيره من كتب العلويين ، قال ابن عنبه في عمدة الطالب "ص ١١٧" من طبعة الهند : "ومنهم الأمير الشجاع الفارس فليته والأمير عيسى ابنا قاسم ، فولد الأمير فليته عدة رجال منهم تاج الدين وعمدة الدين هاشم ، أخذ مكة سيفاً من إخوته وعمومته" ، وجاء في حاشيته : "وكانت وفاة تاج الدين هاشم بن فليته سنة إحدى وخمسين وخمسمائة" .

٥٦ - وجاء في ص ٢٥٤ س ١٠ : "الشيخ الجليل أبا المعالي بن الحباب" وفي الحاشية : "هو القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب" ، والذي حفظناه "الحباب" بالجيم وتشديد الباء ، قال الذهبي : "وبموحدة [الحباب] أبو البركات عبد القوي بن الحباب المصري وأقاربه ، كان جدهم عبد الله يعرف بالحباب جلوسه في سوق الحباب" (المشبه ص ١٣٨) .

هذا وقد أهملنا غلطات لغوية ونحوية أخرى لعلها من خطأ الطبع .

وننتم هذه الملاحظات الضئيلة بالنسبة إلى هذا الكتاب الكبير الصعب ، بتجديد الشكر والإعجاب بالتحقيق والتدقيق ، والاستقصاء والاستيعاب ، واجتياز العقاب الهائلة في نشره ، ونحن أعلم بما يستلزمه كتاب تاريخي غير مطبوع من الجهد والتعب ، وما يستحقه من الاطلاع والمعرفة التاريخية ، وما يستوجبه من عناية بحث ومقابلة ، وتقبلوا فائق الاحترام ما

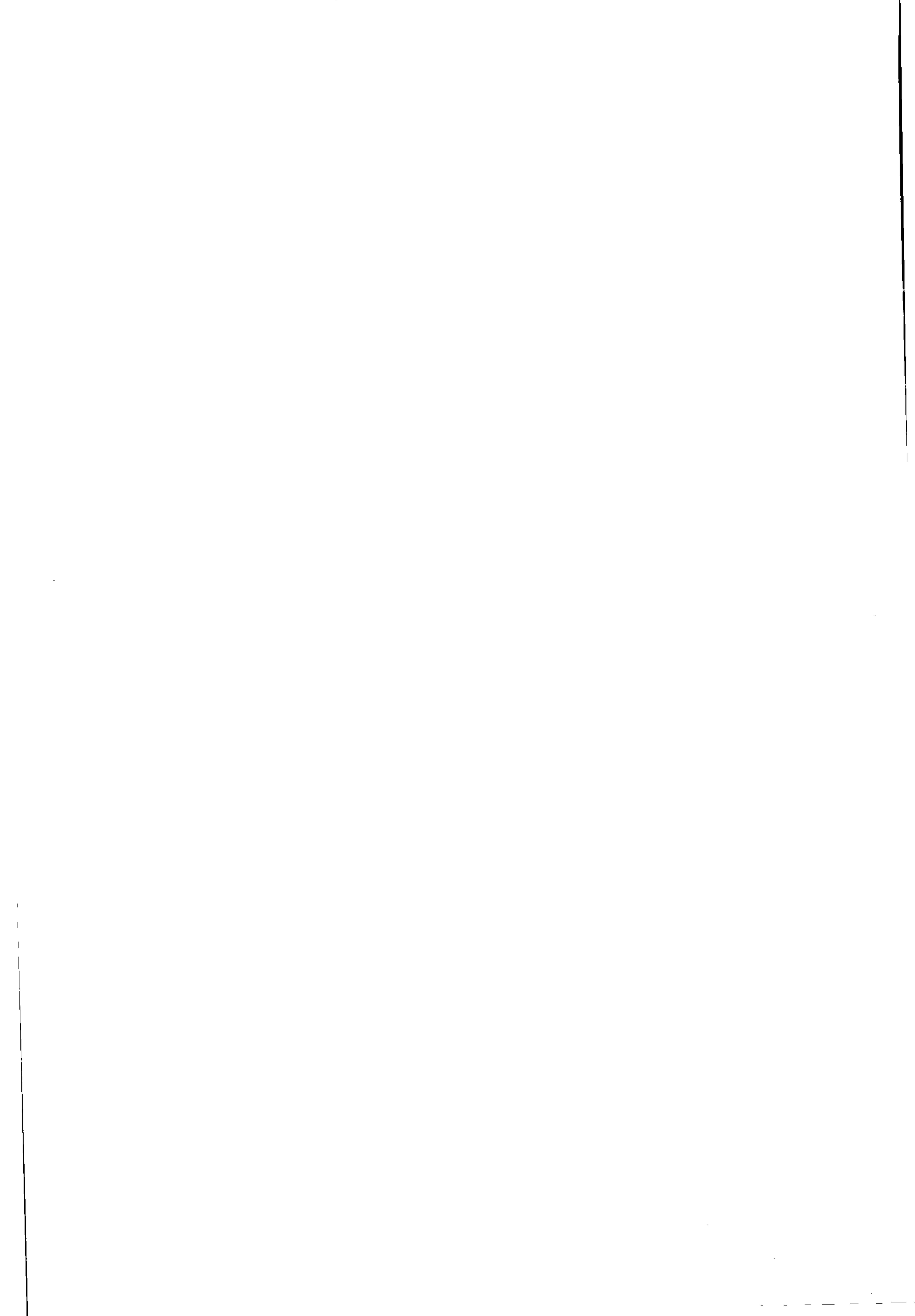
المخلص

مصطفى جواد

تم طبع هذا الكتاب في يوم الأربعاء ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧
(الموافق ٤ من ديسمبر سنة ١٩٥٧)

تدير المطبعة الأميرية

عبد المنعم ابراهيم



MUFARRIJ AL-KURUB

FI 'AKHBAR BANI 'AYYUB

(THE HISTORY OF THE AYYUBIDS)

BY

GAMAL EL DIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WASIL

(Ob. 697 A.H. = 1298 A.D.)

Volume II.

THE AGE OF SALADIN

(569—589 A.H. = 1174—1193 A.D.)

Edited for the First Time

*From The Manuscripts of Cambridge; Paris, Istanbul
and Annotated*

BY

GAMAL EL DIN EL-SHAYYAL

M. A., D. Litt.

Professor of Islamic History, Alexandria University